كتاب

السودان

بين يدي غردون وكتشنر

Kitab al-Sudan

تأليف

ابراهيم فوزي باشا

الجزء الاول

v.1

طبع على نفقة مؤلفه وادارة جريدة المؤيد

حقوق الطبع والترجمة محفوظة لهما معا

(تم طبعه فى شهر صفر سنة ١٣١٩ هجرية)

c1901

فهرست الجزء الاول من كتاب « السودان بين غردون وكتشنر »

صحيفه

صحيفه

« تمت »



﴿ مولانا الخديو المعظم عباس حلمي الثاني حفظه الله ﴾

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

« أما بعد » . فلما كنت أول من رافق غردون باشا فى خدمة السودان وآخر من ودعه عند الرمق الاخير من حياته فى عاصمته. وأول أسير مصرى مسجون افتكه كتشنر باشا. وآخر من عاد من أسرى المهدوية الى وطنه . وكانت حوادث السودان في غضون هذه المدة التى انقضت بين أول عمل قام به غردون باشا الذى فيه قبر. وآخر عمل من كتشنر باشا الذى طار به ذكره ونشر . من أجل حوادث الزمان اعتبارا . وأعظمها ادكارا. منها يعرف الانسان كيف يخطىء الحاكم في حكمه . وكيف يقضي على سلطانه بظلمه . وكيف يطوي سجل النظام . وتقوم مقامه فوضى الاحكام في الانام. وكيف تعمي الجهالة صحبها. وتغري الضلالة ربها. بل كيف يقدم الرجل العظيم نفسه فداء لمقاصد قومه. وكيف تدخر الاقدام الراسخة في سياسة الامم هذا الفداء العظيم ليومه.



غردون فادي مصلحة قومه بنفسه

كل شيء من علو السياسة وسقوطها. وآيات رفعة الامم وهبوطها. مجتمع بين دفتي تاريخ السودان. كما يجتمع النور والظلام في الليل الحالك. توقد فيه النار منارا للسالك ودليلا للحيران. لذلك رأيت من واجب قومي وأمتي بل ومن حق على نفسي أن

[illegible]
السودانية في خلال المدة التي اشرت اليها. وذقت طعوم السراء والضراء بين يديها. ولم أكتف في سرد الوقائع بما بقي في خاطري من رسومها بل استعنت بجماعة من كبار موظفي الحكومة السودانية الذين كانوا قبل دولة الدراويش الدائلة متفرقين في أقسامها ليكون لنا على كل واقعة أو حادثة ومن كل جهة شاهد رؤية في الاكثر . وكذلك قد اطلعت على أكثر ما كتب سلاطين باشا ومسيو نيوفيلد وغيرهما ممن شاركوني في مشاهدات حوادث السودان ومصائبه واستأنست فيما غاب لفظه عني بشيء من المنشورات التي ثبتت بالتواتر رواياتها كما ثبت في نفسي من قبل مغزاها

وبالجملة فاني لم آل جهداً في تحقيق كل واقعة تكلمت عنها وحادثة رويتها ومقصد بينته. ولغز حللته. حتى صرت بعد ذلك أعتقد اني وفيت التاريخ حقه كما يستطيع عاجز مثلي قليل البضاعة من الكتابة

وبعد أن وضعت مسودات الكتاب بالتفصيل والاسهاب. استمرت قلم بعض الكتاب الفضلاء في تهذيب ألفاظه وتنقيح عباراته وحذف المكرر منه وترتيب وقائعه على ما يناسب الموضوع زمانا ومكانا فجاء بحمد الله كما يراه القارئ وله الحكم فيه تخطئة أو تصويبا. على أنه لا يبعد أن يطلع عليه من يكون روى واقعة على غير ما رويت أو شاهد حادثة يعتقد أنها على خلاف ما شاهدت لكنني أعذره من أول الامر كما ينبغي له أن يعذرني فحوادث السودان ككل حوادث الثورات وعواصف الاضطرابات لها عند كل واقف فيها مهب ريح وفيها لكل ناظر وجه يجلاها فيه. لكن هذا الاختلاف لا يغير من حقيقة الحادثة عند من نظر اليها من الجهة التي اطلع عليها كذلك كتابي هذا قد تضمن حقائق الحوادث من الوجه الذي شاهدتها عليه

ومن يزعم أنه رافق الطيب الذكر غردون باشا كما رافقت . وعرف مقاصده كما عرفت . وشاهد من دولة المهدي ماشاهدت . وكابد من اضطهادات التعايشي ما كابدت . فليكتب للقراء كما كتبت . وليقل انك أخطأت وما أصبت . والا فأنا قد أصبت وما اخطأت فيما خططت وبه عليه توكلت « ابراهيم فوزي »



﴿ ابراهيم فوزي باشا ﴾

كتاب خصوصي من شقيقة غردون باشا

من غريب الصدف انا يوم شرعنا في طبع هذه المقدمة ورد لنا الكتاب الآتي

سوتها ملتون في ١١ مايو سنة ١٩٠١

عزيزي فوزي باشا

انا شقيقة المرحوم الجنرال غردون باشا وكنت متشوقة منذ زيارة (هيد نيوفيلد) أن اكتب لك

وقد استلمت أخيرا نسخة من جريدة اجبسيان غازيت وفيها خلاصة محادثة معك وهي وان كانت محزنة الا أنها مفيدة ولذيذة

اني أشكرك من صميم قلبي على علو شرفك الذي أبديته وتبديه لذكرى المرحوم غردون مع الصدق والاخلاص اللذين خدمته بهما حال حياته وبعد مماته

وعندي كتاب نيوفلد وأعرف منه تاريخك ويمكنك أن تعرف مقدار اهتمامي بكل شيء يتعلق بتلك الحادثة المؤلمة وبنهايتها المحزنة ولذلك أحب أن اسمع منك كل ماتقدر أن تقوله لي عن رئيسك وصديقك

هل عندك صورة غردون والا فانا أرسلها لك ان كنت تريدها وأؤمل أن هذا الكتاب يترجم لك كما أنني أحب أن أعرف كل شيء عن أصدقاء أخي الذين خدموه بالاخلاص في مدة حياته . هل البستاني حي حتى الآن

آمل أن يصلني منك خبر ولا زلت (المخلصة المحبة)

هيلين موفيت

وقد وضعنا صورة هذا الكتاب في مقدمة كتابنا ليكون شبه سؤال جوابه في خاتمة هذا الجزء التي وان تكن خاتمة محزنة الا أنها مفيدة ولذيذة

(ابراهيم فوزي)

تعيين الكولونيل غردون

حاكماً على خط الاستواء

لما مهدت انكلترا أمر التداخل فى شؤون السودان واقنعت المرحوم اسماعيل باشا الخديو الاسبق بتعيين غردون في وظيفة سامية به فاقتنع أصدر أمره في أواخر سنة ١٢٩٠ هـ (ينايرسنة ١٨٧٤) بانتدابه لمأمورية سامية فى أعالى النيل وكان السير صموبل بيكر مأموراً لخط الاستواء خاضعاً لحكمدارية عموم السودان فتم الاتفاق على أن يخلفه غردون فى وظيفته ولكن ليكون الخلف مستقلا فى أعماله وقد كان ومنح مائة الف جنيه من الخزينة المصرية نفقة لحملته الابتدائية وكان غردون قد حضر قبل تعيينه بنحو شهرين الى مصر فلما تم تعيينه وتلقى الاوامر من المرحوم الخديو الاسبق شرحا لبعض الاوامر التى تلقاها من خارجية انكلترا كما يعلم هذا بالبداهة توجه الى السودان فوصل مدينة الخرطوم حيث كان المرحوم اسماعيل باشا أيوب حكمداراً لعموم السودان فاستقبله بابهة عظيمة واستعرض له فرقة من العساكر لاداء تحية القدوم واطلقت له المدافع فأكبر الناس شأن هذا القادم وعلموا أنه ليس كبقية حكام الاقاليم. وبديهى ان اسماعيل أيوب باشا لم يستقبله هذا الاستقبال الفائق محاباة وتبرعا من قبيل المجاملات الشخصية بل لا بد ان تكون أوامر الخديو قد سبقت غردون الى الخرطوم فكان من الحكمدار انفاذها

وهو ما دخل بسببه شيء في نفس الحكمدار العام من هذا المأمور الجديد الذى سينازعه في سلطته من جهة ويكون كرقيب عليه من جهة أخرى

وقد اقام غردون في سراي الحكومة الكائنة في ضاحية المدينة من الجانب الشرقي المشهورة بقصر راسخ بك

مرافقة مؤلف هذا الكتاب

﴿ للكولونيل غردون في الخدمة ﴾

وبعد ثلاثة ايام من وصول غردون باشا طلب من حكمدار عموم السودان فرز أربعة بلوكات من عساكر الجهادية أبناء العرب مسلحين باسلحة رامنتون وان يكون ضباطهم من المعروفين بالخبرة العسكرية والنشاط والاقدام فاجابه الحكمدار الى طلبه ولكنه لم يحسن انتخاب العساكر والضباط ولا أعطي الاسلحة من الطرز الجديد المطلوب . وفضلا عن ذلك فان اكثر الضباط امتنعوا عن قبول هذه المأمورية لبعد الشقة ولعلمهم بما يقاسون من عذاب السفر ومكافحة الاقوام المتوحشة التي يقصد غردون اخضاعها لسيطرته . ويقال ان الخديو الاسبق لم يكن مع ذلك مرتاحاً لتعيين غردون في مأمورية بالسودان خيفة ان يكون من ورائه تنفيذ مقاصد انكلترا التي كانت لاتخفى عليه فعينه وهو كاره وأراد أن يحدث في طريقه العراقيل فاوعز الى اسماعيل أيوب باشا سرا بما أوعز حتى اذا حصلت حركة ضده في السودان اعتذر اسماعيل باشا بها وتخلص من ورطة ما يتوقعه . ولكن لست آخذ على مسئوليتي تحقيق هذه الرواية التي كان يصعب على مثلي وقتئذ تحقيقها

وكنت انا اذ ذاك ضابطا صغيراً أو شبه ضابط برتبة الاسبران (وكانت هذه من رتب الجيش فوق الصف ضابط وتحت الملازم الثاني) فاظهرت رغبة شديدة في مصاحبة غردون فاحتقر اسماعيل أيوب باشا مني هذه الرغبة

. وكان أحد المستخدمين من أصحاب غردون حاضراً خلال الفرز وشاهد ما كان مني ملاحظا ما كان من الحكمدار العام فلما عاد الى مقر غردون أخبره بسوء انتخاب العساكر والضباط وذكر له قصة انتهار الحكمدار العام لى عند ما أبديت رغبتى فى السفر الي خط الاستواء فلم يكن منه الان بعث شكوى تلغرافية الى الخديو الاسبق قائلا ان اسماعيل باشا أيوب يعرقل مساعىّ ويضع فى سبيل نجاح مأموريتي العقبات. وهو لذلك انتخب أسوأ العساكر وأردأ الاسلحة عدة لى في مأموريتي. فورد فى الحال الرد الي اسماعيل أيوب باشا بتوبيخ شديد يأمره فيه أن يجيب طلب غردون فى كل ما يطلب حتى لو أمرك أن تصحبه وجب أن تمتثل أمره فوقع هذا فى نفس الحكمدار العام أسوأ وقع ووصلت صورة هذا التلغراف الى غردون باشا من قبل المعية السنية ليحيط علما بما كان من صدور الامر الجديد لحكمدار السودان حسب رغبته. ولا يبعد أن كتابة نص التلغراف على هذه الصورة كان بطلب من الوكالة الانكليزية فى مصر كما جرت العادة في مثل ذلك

والذى كان من اسماعيل أيوب باشا بعد ذلك أن دعانى اليه وطيب خاطري بكلام لطيف قائلا انما كان انتهارى لك شفقة عليك. ثم علمت ان الكولونيل غردون طلبنى منه بالاسم فاشار علىّ أن أتوجه له فى سراى الشرق وان أذكر له عرضا ان الذي أبلغه خبر معاكسة الحكمدار العام له مبالغ أو مخطىء فى النقل

وعلى ذلك ذهبت الى سراى الشرق وتقابلت مع الطبيب الذكر غردون فرأيت منه رجلا حليما شفوقا كريم الاخلاق متواضعا فى حديثه وحركاته وسكناته مع مخايل شرف النفس وعلو الهمة وبعد أن سلمت عليه فأحسن لقياى خاطبنى قائلا « اذا كنت أنت الاسبران ابراهيم فوزى الذى رغب

مصاحبتنا وتقي من الحكمدار الاساءة من اجلنا فقد فوضت اليك أمر فرز الاربعة بلوكات وضباطهم وأسلحتهم » فاجبته يامولاي أنا الذي رغب خدمة بلده بمرافقتك . وعندئذ أعطاني أمرا للمرحوم اسماعيل أيوب باشا بمضمون ماقال فاستلمت الامر وتوجهت الى الحكمدار وسلمته المكتوب فأحسن مقابلتي وأمرني بالتوجه الي القشلاق لمباشرة فرز العساكر وضباطهم وأسلحتهم من نوع الرامنتون حسب رغبة الكولونيل غردون فقمت وأخذتهم الي سراي الشرق حيث استعرضهم فاعجبه مرآهم وتناسب أعضائهم وحركاتهم وجودة أسلحتهم وخاطبني أمام الجميع بعبارات الشكر والامتنان كما أنه خاطب الضباط والعساكر بما طيب خواطرهم وأطلق وجوههم بالبشر

ثم أمرني أن أجهزهم جميعا للسفر الى جهات خط الاستواء ماعدا نحو ٥٠ نفرا يبقون بمعيته بصفة حرس خصوصي له

وعلى ذلك أعددنا أربعة وابورات لسفر العساكر المذكورة وهي (بردين) و (تلحوين) و (الصافية) و (المنصورة) وأنزلناهم في الوابورات التي سافرت إلي مقصدها في شهر شعبان سنة ١٢٩١ (١)

أما أنا فقد تأخرت حسب أمره لأكون قومندانا على حرسه . وبعد بضعة أيام صدر أمره باعداد الوابور الرفاس المسمى (خديو) ليركبه ونحن في معيته وقد كان وسرنا على بركة الله في النيل الابيض فوصلنا (فشوده) بعد

---

(١) جاء في العدد ٦٩٦ من جريدة الجوائب الصادرة في يوم الاربعاء ٢٧ ربيع أول عام ١٢٩١ هجرية تحت عنوان مصر ماياتي

ذكر في ايجيبت المطبوع في الاسكندرية ان الكولونيل غردون الذي عينه الخديو المعظم والياً على خط الاستواء خلفاً عن السر صاموبل باكر أرسل رقيما من الخرطوم بتاريخ ١٤ مارس الى حضرة سعادتلو خيري باشا مهردار الجناب الخديو قال فيه

قطع مسافة سبعة ايام. وهناك قابلنا مديرها المرحوم يوسف بك حسن كرده بالحفاوة اللائقة كما كان لغردون مثل ذلك عند وصوله الى الخرطوم وأزيد. وشاهدنا ماوصلت اليه وقتئذ من درجة العمران والتقدم فى الحضارة بعناية الحكومة وعلمنا أن أهاليها من العبيد الشلك والنوير والدنكا آمنون مطمئنون

وبعد أن أقمنا بفشوده يومين تابعنا المسير الى محطة (سبت) وهى المحطة الكائنة على مقرن نهر سبت الآتى من بلاد الحبشة وتبعد هذه المحطة عن فشوده نحو ١٨ ساعة بسير وابور البخار وهى أول جهات خط الاستواء من الشمال ولما القينا عصا التسيار هناك حيث العساكر كانت سبقتنا اليها عزم غردون على وضع أول حجر من أساس أعماله في وظيفته فلما مضى الليل وجاء

وصلت الي الخرطوم فى ١٢ مارس ولقيت من حضرة اسماعيل أيوب باشا حاكم السودان من الاكرام والالطاف مايستحق الذكر وقد فعل لمساعدتى كل ما فى وسعه أن يفعله اما اعتناءه بالعساكر فجدير بالثناء فقد راقنى أحوالهم وأحوال مأواهم ومستشفاهم وهيئتهم وانتظامهم وكذلك اعتناءه بالمكتب وما يتعلق به وقد شاهدت هذا المحل فوجدت فيه نحو مائتي تلميذ ورأيت أن معلميهم يعتنون بتعليمهم وتهذيبهم على أحسن منوال فراقني أن أرسل لى الجناب الخديو انموذجا من خطهم ولا بد من أن الحاكم المومأ اليه قد أرسل الي جناب الخديو الخبر السار عن فتح الخليج في قوندوكورو (كوندكرو) مما سرني غاية السرور لعلمي بأن جنابه الرفيع يحسبه من الامور المهمة وهو فى الواقع مفتاح الموقع فأرجو اني عن قريب أتوجه الى قوندوكورو فان كل مالزمني من لوازم السفر قد حصل بهمة الحاكم المشار اليه فشكراً له علي ذلك ولست أقدر الآن على الحكم علي الباخرة الكبيرة الراسية اذ لابد لى قبل الحكم عليها من رؤية البحيرة وفى عزمي أن أستصحب معي رجالا لانشاء سفن شراعية عند الوصول الي طوبو ويترجح عندى انه مع بذل الهمة والعناية يتيسر لنا مجاوزة الشلالات فالمرجو من جنابكم أن تصدروا لنا اذنا من الحضرة الخديوية الى الحاكم المشار اليه عند انهاء السفن في تسييرها الى البحيرة ولا بد لى من التلبث فى قوندوكورو وطالما يودون التوغل فى السير وحيث ان جناب الحاكم قد بذل أقصي مجهوده فى فتح الجنوب فأعظم المسرات عندى أن أكون أول قادم اليه

الصباح أمر بلوكات العساكر وجماعات الاهالي بحفر خندق لمحطة سبت وقرر للعمل أجرة فوق مرتبات العساكر لهم وللاهالي مثل ذلك فلم يمض أسبوعان حتى تم ماأراد وشيدت عليه الطوابي كما رسمها ثم أنشأ مركزا للحكومة فيها ناط به أحد الضباط الذين معنا وهو اليوزباشي محمد أحمد أفندي بجمله محافظا على محطة (سبت) تاركا له البلك الذي تحت قيادته وأمره بحسن المعاملة والرفق بالاهالي وشدد عليه في منع الاتجار بالرقيق وعدم مروره عليه ثم تركنا هذه المحطة قاصدين جبل الرجاف وكند وكرو حيث يقيم المرحوم رؤف بك (باشا) حاكما على تلك الجهة خلفا للسير صمويل بيكر باشا. فلما وصلنا في سيرنا الى مدخل (بحر الزراف) الذي يستقي من

وأرجو أن انشاء السفن يتم بعد خمسة أشهر أو ستة وأول فرض واجب على حسب ماتلقيته هو ادخار المؤنة وهو من صعاب الامور التي تقتضي حضوري في تلك الجهة ثم انى بحسب أمر الخديو أعلنت هذه الاوامر الآتية.

بمقتضى ما فوض الى الخديو المعظم من ادارة حكومة البحيرات الكائنة بخط الاستواء أعلن أولا. ان التجارة في العاج خاصة بالحكومة. ثانيا أنه لا يسوغ لاحد أن يأتي الي هذه النواحي من دون تذكرة من حاكم السودان العمومي وهذه التذكرة انما يعمل بها بعد النظر فيها من حكومة قوندوكورو وغيرها. ثالثاً أنه لا يسوغ لاحد أن يجمع رجالا متسلحين داخل هذه الجهات. رابعاً ان جلب السلاح والبارود ممنوع. خامساً ان كل من يخالف هذا المرسوم يجرى عليه الجزاء بحسب القوانين العسكرية انتهى ثم ورد خبر بالتلغراف بتاريخ ٣ صفر من حضرة حاكم السودان الى حضرة خيري باشا مضمونه انه في صباح هذا اليوم سافر الكولونيل غردون الى قوندكورو في سفينة مخصوصة بعد ان أحضر له كل مايلزمه وهو ممنون لفضل الخديو وشاكر له ثم ورد خبر آخر بتاريخ ٢٠ صفر مضمونه ان الباخرة المخصوصة التي سافرت بعد فتح الشلالات قد رجعت الي هنا وبشرت ببلوغ الارب وفي غد أرسل المحررات التي أرسلها المجردون لهذا العمل والتي حررها أيضا الكولونيل المذكور عند ملاقاته الباخرة المذكورة

ميعة (أي بركة) كبرى تسمي (بحيرة السنيورا) ألقينا مراسينا عنده وركب غردون ونحن معه وابوره الخصوصي سائراً فى ذلك النهر نحو عشر ساعات لاختبار الطريق هل هي سهلة أو فيها من العقبات ما يمنع وصولنا الى أعالي خط الاستواء فلما قطعنا هذه المسافة وجدنا النهر مسدوداً بالاعشاب الكثيفة فعدنا الى مرسي الوابورات أي الى مدخل بحر الزراف وحولنا مسيرنا الى جهة خط الاستواء من جهة طريق البحر الابيض وما زلنا سائرين حتى وصلنا الى تلك البحيرة وفيها من الجانب الغربي مدخل لبحر الغزال ومدخل آخر لخط الاستواء موصل الى جبل الرجاف فوقفنا عند ذلك المدخل حيث أمر غردون بقطع أخشاب لوقود الوابورات بدلا عن الفحم ثم سرنا نحن على وابوره الخصوصي للاستكشاف داخل بحر الغزال فقطعنا مسافة ثلاثة أيام وصلنا فى نهايتها الى مشرع يقال له (مشرع الرق) وهو متصل بشارع بقية البحار الموجودة بحر الغزال لغاية مديرية (شكا) ولكن كان من المتعذر تجاوز هذا المشرع لانسداد النهر بالاعشاب الكثيفة الملتفة والحشائش المشتبكة من الشاطئ الى الشاطئ

على اننا لم نحاول اجتياز هذه العقبة الجديدة بل بقينا فى مرسي المشرع السالف الذكر وأمر الكولونيل غردون أصحاب المشرع أن يحضروا بين يديه رؤساء الاهالي في تلك الجهة فأحضروهم وقابلهم مقابلة حسنة ووزع عليهم الهدايا استمالة لقلوبهم ففرحوا وامتنوا وأظهروا تمام الاخلاص للحكومة الخديوية كما أنهم أحضروا لنا الاخشاب اللازمة وعدنا بعد ذلك الى البحيرة حيث اجتمعنا بوابوراتنا والعساكر وقمنا جميعا قاصدين مدخل البحر الموصل لى جبل (الرجاف) ولكن لم نلبث فى سيرنا يومين حتى وقفت الغابات

الكثيفة والحشائش الملتفة سداً منيعا في طريقنا وقد حاولنا كثيراً أن نفتح الطريق فلم نفلح ولذلك أمر الكولونل غردون أحد الوابورات بالرجوع الى الخرطوم ليأتينا بالآلات التي تستعمل عادة لقطع حشائش النهر وقد كان وجاءتنا الآلات وباشرنا فتح الطريق مدة أربعين يوما حتى تمكنا من اجتياز الوابورات ونال العساكر ما نالهم في هذه الدفعة من العناء والتعب الذي لا مزيد عليه حيث الامطار كانت تنساب عليهم ليل نهار كأفواه القرب ولذلك كافأهم الكولونيل غردون بصرف مرتب ثلاثة أشهر فوق مرتباتهم وأجرتهم

وبعد ان تم فتح الطريق سرنا في النهر مسيرة يومين وصلنا بعدها بحيرة كبيرة جداً تسمى (ميعةشانبيه) وعليها مشرع كبير يسمى (غابةشانبيه) كان كبار التجار مثل أبو عمورى وكوجك على وغطاس وغيرهم ينزلون فيه للاتجار بسن الفيل فلما وصلنا الى هذا المشرع استقبلنا شيخه وهو رجل أسود دنكاوى مسن اسمه الشيخ الحداد استقبالا حسناً ونزلنا جميعا في أرضه حيث أقمنا الخيام وأرسينا الوابورات تجاهنا وبعد استراحة يومين رسم الكولونيل غردون محل خندق وأمر العساكر بحفره فتم لهم ذلك في مدة عشرين يوما وأنشأ هناك مركزاً ترك به اليوزباشي مصطفى افندي فتحى ببلوكه وسماه مأمور جهات (شانبيه) وشدد عليه الاوامر في معاملة الاهالي بالرفق ومنع تجارة الرقيق منعاً باتاً كما انه أبلغ رؤساء هاته الجهات انهم صاروا تابعين لسلطة الحكومة الخديوية وان ذلك المأمور الذى يتركه عليهم يمثل شخص الحكومة فواجب عليهم أن يطيعوه

وبعد ان وطد نفوذ الحكومة فى هذه الجهة اقلعنا بوابوراتنا قاصدين

(الرجاف) فمررنا فى طريقنا على محطة كبيرة تسمى محطة (بور) والفينا بها نحو أربعمائة من العساكر باسلحتهم مأجورين للتجار فاستقبلونا بالفرح ولبثنا عندهم خمسة أيام ثم أبلغ الكولونيل غردون رئيسهم بانهم صاروا تابعين للحكومة وأن يقدموا له كشوفا بالاسلحة والجبه خانة والموجودات التى لديهم مما قررت الحكومة احتكاره لنفسها فاحضروها وتم بعد ذلك تشكيل مديرية سميت (مديرية بور) كما كان وعين على المديرية وكيلا لها رجلا اسمه (آدم افندى عامر) وهو ضابط سودانى كان من رجال حملة بيكر باشا ومقيما فى هذه الجهة ثم قمنا قاصدين جبل الرجاف وكندكرو حيث يقيم رؤف بك باشا كما أسلفنا وقد وصلنا هاته الجهة بعد عشرة أيام سفراً فى البحر من (بور) وقابلنا رؤف بك بالعساكر المقابلة المعتادة في مثل هذا المقام وبعد الاستراحة هنيهة من الزمان أخذ الكولونيل غردون يسأله عن أعمال حكومته وأحوال الرعية فاخذ المرحوم رؤف بك يقص عليه أحاديث محارباته مع أهالى البلاد حتي قال انا منذ ثلاث سنوات لم يستقر لنا بالسلم قرار فاجابه غردون بقوله وأنا يظهرلي أن كل هذه الاضطرابات والحروب ناشئة من سوء ادارتكم وعدم معاملتكم اياهم بالرفق والعدل وسترى أن كل هاته العساكر والضباط الموجودة لديك سترسل الى مأموريات أخري ولا يبقى بدلها غير مئة من العساكر يستتب بهم الامن العام تمام الاستتباب قال رؤف بك ان هذا لا يمكن أن يتم لان مئة نفر اذا تركوا وحدهم هنا لا يلبث العبيد ان ينزلوا عليهم فيقتلوهم عن آخرهم فقال الكولونيل غردون الآن حققت قول السير صموبل بيكر فيك وما كنت أعهد ضابطا حائزا لرتبة الميرالاي يكون مثلك

بهذا الخور وهذا الضعف وسترى أنه يكفى لهذه المديرية خمسون رجلا بدل مئة وفى الحال أمر أن يحضر لديه مشايخ القرى ورؤساء القبائل وكانوا حاضرين فى مركز الحكومة بجاؤه وأخذ يخاطبهم بالفاظ لينة وكلام لطيف وأحسن عليهم بالكساوى الحمر والسيوف حتى انطلقت وجوههم بشرا وفاضت صدورهم سرورا ثم قال لهم بعد ذلك انى تارك بين ظهرانيكم خمسين نفرا فقط من عساكر الحكومة لحراسة راتبها وتشخيص سلطتها وانتم المسؤولون بعد ذلك عن كل شيء يحدث في البلاد فاجابوه اننا عبيد الحكومة وما دمنا لا يهضم لنا حق ولا يقع علينا ظلم فلا يجمل بنا أن نقوم في وجه الحكومة ولا نحدث أقل تشويش وستسمع عنا كل خير ومحمدة

أما الباعث الحقيق للكولونيل غردون على تقليل العساكر الى هذا الحد فوجهان

أولهما بعد الشقة وتعذر نقل اللوازم والمهمات للجيش. والثاني الانتفاع بهانه العساكر فى نقطة (اللادوه) المحتاجة كثيراً الى العناية والحذر

عزل رؤف بك وتعيين الطيب بك عبد الله بدله

وبعد أن انفضت حفلة مشايخ القبائل والقرى التفت الكولونيل غردون الى رؤف بك وقال له انك لا تصلح لوظيفتك هنا فعليك بالسفر الى القطر المصري وعين فى الحال بدله القائمقام الطيب بك عبد الله وكان هذا بكباشى أول الالاي وهو رجل سوداني من قبائل العبيد مثل الذى عين لمديرية (بور) ثم أمر الوابورات بنقل العساكر الي جهة (اللادوه) ثم ترا أى له ان ينقل الطيب بك عبد الله مديرا الى اللادوه وعبد الله أغا

الدنسوي مديراً للرجاف وهذا الثالث من ضباط الجهادية السود أيضاً

وبعد أن قرر مبادىء النظام فى هذه الجهة بارحناها قاصدين الجنوب ومعنا نحو ستمائة عسكرى من أولاد العرب والسودان ومررنا فى طريقنا على شلال أمامه جزيرة عالية جدا فيها أشجار كبيرة فاستحسنها الكولونيل غردون لبناء مستشفى للمرضى لانها قريبة للرجاف بينها وبينه نحو ثلاث ساعات وقد رتب لها سفنا صغيرة (فلايك) ربطها باسلاك من الشاطئين ليسهل اجتياز النهر الى الجزيرة من الشاطئين لكل انسان وأمر ببناء منازل للعساكر فشرع الاهالى فى بنائها بالفعل ولبثنا نحن فى هذه الجهة ثلاثة أيام لم نشعر بعدها الا بالعبيد قد هجموا علينا محاربين فانتشب القتال بيننا وبينهم نحو خمس ساعات انهزموا عقبها شر هزيمة فلما علموا أن لا قبل لهم بمحاربتنا طلبوا الامان فامناهم ثم سلموا طائعين فعفا عنهم (غردون) بعد ما أخذ عليهم العهود والمواثيق وذلك بان حلفوا بالكجور وهو كامام يعتقدون فيه أنه وسيط بينهم وبين الاله يدعون به فيستجاب لهم ان لا يعودوا مرة أخرى لمثل ما فعلوا وبعد أن تم الامر على ذلك واستقر السلام في هذه الجهة قمنا بعد اقامة نحو ثلاثة اسابيع فيها قاصدين البحيرة الكبرى التي أمامنا فسرنا مسافة عشرين ساعة مضت علينا في أمطار تنزل من فوق كالسيول المنهمرة حتى وصلنا شلالا يسمي (شلال متي) وهو اكبر من الشلال السابق كثيراً والماء ينحدر عنه بدوى شديد يصم الآذان ولم يكن أحد منا يسمع كلام الآخر عند ما اقتربنا منه ولذلك ابتعدنا عنه قليلا ونصبنا خيامنا حيث رأى (الكولونيل غردون) لزوم انشاء محطة هناك وقد بعث في طلب مشائخ البلاد والقري فلم يجبه أحد ولذلك أمر العساكر ان يشتغلوا

بالبناء والحفر كما أراده ثم أنشأنا زريبة أمامها خندق لأننا توقعنا الشر من أهالي هذه الجهة وقد كان الذي توقعناه فاننا بينما كنا نعمل عملنا لم نشعر إلا وقد دقت الطبول وصاحت الابواق وتبعت ذلك حركة مزعجة من جموع كثيرة تحاول الهجوم علينا فسارعت العساكر للتأهب والاستعداد داخل الزريبة وانتظرنا حتى كان بيننا وبين أولئك المهاجمين مرمي الرصاص ولكننا أمسكنا عن اطلاق النيران حتى يبدؤا بالعدوان فلما رمونا بالنبال والنشاب السامة رميناهم بنيران حامية لم يحتملوها فرجعوا الى الوراء ثم عادوا فصدنا وتقهقروا ثم عادوا الثالثة فحملنا عليهم حملة منكرة ارتدوا بها مكسورين ولكن أسهمهم قد أضرت بالعساكر كثيراً حتى لو أن سهما منها أصاب رجلا بين ظفره ولحمه لما نجا بعد ذلك

وفى اليوم التالي لهذه المحاربة حضروا بأولادهم ونسائهم يحملون النيران فى أيديهم ليلقوها على الزريبة كي تحترق وقد زحفوا علينا بسرعة غريبة وظللنا نحن نطلق النيران عليهم لنمنعهم من الوصول الى الزريبة فلم يرجعوا وتمكن بعضهم من الوصول اليها والقوا النيران عليها ولكن أخشاب الزريبة كانت رطبة فلم تحترق وتضاعفت خسائرهم فلجأوا الى الفرار وهجروا ديارهم نازحين الى جبل (مقي) القريب من الشلال للاستعانة بشيخه فما كان من الكولونيل غردون الا ان أمر المرحوم عبد العزيز بك لبنان (نجل المرحوم لبنان باشا) أن يقتفي أثرهم بستة بلوكات من العساكر مسلحة بالرامنتون وأعطاه الذخيرة اللازمة وساروخا حربيا فقام عبد العزيز بك بالقوة التي معه واجتاز النهر الي البر الشرقي وسار مع العساكر صاعداً الجبل ولكنه أخطأ اذ ترك بعض الجبه خانة وأخذ بعضها قائلا إن ما اخذ العساكر فى جعابهم كاف لحين

العود ثم لم يلبث أن التحم القتال بينه وبين سكان الجبل واللاجئين اليه فانتصر عليهم بعد نصف ساعة قتالا ثم امتلك الجبل بكل مافيه وللقضاء المحتم صاح أحد العساكر عليه قائلا يابك قد فرغت الجبه خانه فأخبر بعض التراجمة السود اخوانهم من سكان الجهة بهذا السر فثارت الاهالى مرة ثانية على العساكر وحاصروهم حصاراً شديدا قطعت النيران في أثنائه ثم هجموا عليهم هجمة واحدة أفنوهم بها عن آخرهم وقد مثلوا بعبد العزيز بك تمثيلا فظيما سيأتي بيانه

وقد تمكن شخص بروجي أسود من الهرب وعاد الينا فاخبرنا بهذا الحادث المشؤم ولما رأى الكولونيل غردون ما أصاب العساكر طلب مددا من الجهات الشمالية فجاءنا فى نحو عشرة أيام ستمائة نفر جرد منهم الكولونيل غردون ومن العساكر الذين كانوا لدينا حملة تحت قيادته اجتازبها النهر وعند ماوصلنا أسفل الجبل قسم العساكر الى أربع فرق جعل على كل واحدة منها قائدا وكان هو القومندان العام وبذلك امتلكنا الجبل من الجهات الاربع وصعدنا بالتدريج فلما شعروا بنا صاروا يرموننا بالنبال والنشاب فأحدثوا بنا اضرارا كثيرة لاشرافهم علينا من فوق وكان القائد العام ينتقل بيننا من مكان الى مكان مشجعا مستنهضا حتى صعدنا لاعلى قمة الجبل وتمكنا من قهرهم فقتل من قتل وأسر من أسر والذين بقوا على قيد الحياة طلبوا الامان فأمنهم غردون وأبطل اطلاق النيران عن الاهالى بالكلية وهناك رأينا جثث القتلي من عساكرنا محروقة بالنار ماعدا جثة عبد العزيز بك فقد رأيناها مصلوبة على جذع شجرة قد انغرست في جسمه نحو خمسمائة نشابة لاتزال مغروسة فيه فسألنا الاسري عن سبب ذلك فقالوا انا أمسكناه حيا واوثقناه بجذع

هذه الشجرة وأمرنا أولادنا الصغار الذين يتعلمون رمي النشاب أن يرموه به فصاروا يرمونه حتى مات كما ترونه . قالوا ولكن روحه لم تفض الا بعد ثمانية أيام من صلبه مع استمرار رميه بالنشاب كل يوم فأثر ذلك فينا تأثيرا شديدا وحاولنا أن نخرج من جسمه السهام فتعذر علينا ذلك الا بتمزيق الجسم ولذلك اختار الكولونيل غردون تكسير أيدى النشاب الخشبية بالمنشار مع بقاء أسلحته فيه ودفنه على هذه الحالة وقد كان ذلك

وبعد ان وطدنا نفوذ الحكومة بين أهل الجبل وأقمنا بين ظهرانيهم عدة أسابيع قمنا قاصدين البحيرة الكبرى وبعد مسيرة يوم وصلنا جهة يقال لها اللابودية بها شلال عظيم جداً وأرضها منحطة ولذلك بعد ان عزمنا على انشاء المحطة بها اخترنا ان تنشأها على ربوة عالية بينها وبين الشلال مسيرة ساعة من الزمان وقد حضر لنا أهالى هذه الجهة طائعين مسلمين قيادهم لنا باسم الحكومة الخديوية وساعدونا على حفر الخندق وبناء الاستحكام الذي انشأناه وبعد انجازه عين الكولونيل غردون لهذه المحطة مأموراً تاركا معه شرذمة من العساكر ثم قمنا سائرين فى وجهتنا وبعد مسيرة يومين من مغادرة شلال اللابودية صعدنا جبالا مملوءة بالعبيد السود وأراضيها خصبة كثيرة المواشى من بقر وغنم وغيرهما فلما رآنا السكان كانوا يسارعون الي قمم الجبال فيصعدون عليها ويقذفوننا بالحصى ويشتمون ويسبون ومحصل سبابهم (رجعوا يا ترك الى حيث جئتم ارجعوا أيها الجائعون الذين أتيتم لتأكلوا أبقارنا وأغنامنا ارجعوا الى بلادكم فلا تزاحمونا فى أرزاقنا) وقد خاطبناهم نحن باننا ماجئنا الآن للتفرج على بلادهم والسياحة الى البحيرة الكبرى فسألنا بعضهم ولماذا انشأتم المحطات وأقمتم الحصون وحفرتم الخنادق وتركتم النقط العسكرية

فى طريقكم ثم قالوا (اذا كنتم تريدون ان تقيموا بيننا مراكز ومتاريس فلا بد ان نهاجمكم ونقتلكم عن آخركم وأما اذا كنتم تريدون البحيرة الكبري فهاهي الطريق أمامكم مفتوحة)

أما نحن فقد ظللنا سائرين وعن كلامهم معرضين ومازلنا كذلك حتى وصلنا الي البحيرة وتسمي هناك البركة او الميمة العظمى ونعنى بها (نيانزا) ولما أقبلنا عليها شاهدنا صحراء متسعة جدا مكتظة بالاشجار وانواع الخضرة وفيها نوع من النبق كبيض الدجاج فى حلاوة العسل مع طيب الفاكهة فحططنا رحالنا ونصبنا خيامنا للمبيت على شاطئ البحيرة وبتنا ليلتنا محترسين محاذرين من هجوم العبيد علينا ولكن لم ينتصف الليل حتي هاجمنا سيل نزل علينامن الجبال بقوة تيار جارفٍ شديد فاخذ ماكان معنا من المؤنة والامتعة وألقاها فى البحيرة وصرنا في حيرة شديدة حتى الصباح فوجدنا كل ماكان معنا قد ذهب طعمة للبحر الا الجبه خانة فاننا كنا احتطنا لها من أول الامر فوضعناها على أشجار عالية فلم يمسسها ضرر

وما طلع النهار حتي أغار علينا العبيد بقوة هائلة ظانين ان السيل قد أخذ منا الجبه خانة ولذلك لم نزل نطلق عليهم النار حتى لجؤا الى الفرار واكتسبنا منهم فى هذه الواقعة نحو مائة رأس من البقر وخمسمائة من الغنم وصار طعامنا بعد ذلك اللحم والنبق بلا كسرة خبز ثم استولينا على عشر مراكب من سفن العبيد استعملناها فى خدمتنا وفى استكشاف شواطئ البحيرة

وفى ذات ليلة ركبنا هذه السفن وسرنا بالمجاذيف للاستكشاف فقامت علينا زوبعة ذهبت بنا كل مذهب في البحيرة وقد خشينا الغرق الا أن الله عز وجل قد نجانا منه وجمعنا بعد انقضاء الليل في هذا التيه على بر السلامة

في نقطة يقال لها (ماقنقوه) ومن فضل الله جاءنا أهلها متوددين واستضافونا فاسترحنا عندهم واكلنا وشربنا مسرورين من حسن معاملتهم وفي خلال ذلك سأل الكولونيل غردون مشايخ الجهة عن أحوالهم فقالوا نحن في فوضى يأكل القوي منا الضعيف ويحكم العزيز الذليل فقال لهم غردون هل ترضون ان يأتيكم حاكم مثلي بقوة كبيرة وسلطة قادرة على توطيد الامن بينكم ودفع القوى عن الضعيف فقالوا اننا من الفريق المهضوم الجانب المظلوم الضعيف ولا ريب اننا نرضي بكل سلطة تأتى الينا لتساوي بيننا وبين ظالمينا ثم سألهم الكولونيل غردون أي فريق بينكم الاقوياء المتسلطون عليكم فقالوا له قبيلتا (أريونجا وبكريك)ولو طلبت مشايخ هاتين القبيلتين ما أجابوك ولا خضعوا لك

فقال لهم نحن الآن نطلبهم للحضور من قبيل التجربة وارسل لهم فابوا وقابلوا الرسل بالسباب والشتائم

أما نحن فقد اخترنا ان نرجع الي جهة (الدفليه) التى هى في البر الغربى للبحيرة وهى الجهة التى اخترناها نقطة للحكومة ولذلك عدنا بعد يومين فرأينا عساكرنا فى أشد القلق علينا لانهم ظنوا ان العاصفة التى هبت قد أغرقتنا فى البحيرة

وبعد اقامة نحو عشرة أيام في تلك الجهة قمنا قاصدين مديرية العموم التى مقرها (اللادوه) وقد تركنا في الدفليه نقطة عسكرية تحت قومندان ومأمور الجهة وقد مررنا فى عودتنا على كل المحطات التى انشأناها فوجدناها في أمن وسلام ولما وصلنا اللادوه اخذ الكولونيل غردون يخابر المعية السنية فى القاهرة والحكمدارية فى الخرطوم بطلب ما يلزمه من الوابورات والمهمات وسأل ترق كثير من الضباط الذين معه فكان نصيبي من ذلك رتبة اليوزباشي

وبعد اقامة نحو الشهرين في اللادوه قام الكولونيل غوردون وانا في صحبته قاصدا الخرطوم وشاهدنا ثمرات أعمالنا فى عودتنا من فرح أهالى كل جهة مررنا عليها وسرورهم بما صاروا فيه من الامن والرغد وحسن النظام الى ان وصلنا الخرطوم وقوبلنا فيها بما يقابل به الفاتح الظافر

وعقب وصولنا الي مدينة الخرطوم وكان ذلك فى أوائل سنة ١٢٩٢ هجرية اتفق الكولونيل غردون واسماعيل باشا أيوب الحكمدار على قسم الوابورات والصنادل ودار الصناعة وعمالها قسمين. أحدهما يكون لحكمدارية عموم السودان. والثانى لحكومة خط الاستواء وعرضا عن ذلك للمعية السنية فصدر أمر الخديو لحكمدار السودان بتنفيذه وقد كان ذلك فأخذنا نصف عمال الترسانة ونصف عددها وآلاتها وأرسلناها معهم الي بحيرة (نيانزا) حيث أمر الكولونيل غردون بانشاء دار صناعة في محطة الدفليه على شاطئ البحيرة الغربى ثم كان نصيبنا من الوابورات (بوردين وتلحوين والصافيه والمنصوره وانابه ونمرة ٩ ووابور الرفاس ووابور الاسماعيلية) الذي كانت أدواته فى المخزن لاصلاحه وأخذنا أيضاً نحو أربعين سفينة بين كبيرة وصغيرة وخمس شلبات كبار وضعنا فيها كل ما يلزمنا من التعيينات والمهام وجميع ما يحتاج لخط الاستواء

ذكر انشاء ديوان خط الاستواء في الخرطوم

وبعد ترحيل الوابورات المذكورة والامتعة والادوات رأي الكولونيل غردون ان ينشيء ديوانا خاصاً باعمال خط الاستواء منفصلا عن حكمدارية السودان ورتب له الكتاب والموظفين وأوجد له الدفاتر اللازمة وسماه

(ديوان خط الاستواء فى الخرطوم) وعين عليه رئيساً على افندى سراج المشهور (بتهته) بعنوان (ملاحظ أشغال خط الاستواء)

ومن ذلك التاريخ صارت حكومة خط الاستواء قائمة بنفسها وسمى الكولونيل غردون حكمدارا لعموم خط الاستواء وصارت واردات خط الاستواء من سن فيل وريش ومسك ترسل من فوق لرئيس ديوان خط الاستواء في الخرطوم وهو الذى يؤدي حسابها ويوسلها حسب الاوامر التى تصدر له من الحكمدار

وبعد ان أتم الكولونيل غردون ترتيب ديوانه الجديد فى الخرطوم عدنا الى جهة خط الاستواء. وسرورا بنجاحه التمس لنا الاحسان علينا برتبة صاغول أغاصى فلم يكن بينها وبين رتبة اليوزباشي غير شهرين أو ما حوالي ذلك

ثم سافرنا على بركة الله بوابور (تلحوين)فلما وصلنا الى جبل اللادوه وكان عمال الترسانة قد وصلوا اليها وانتظرونا بها أمرهم بفك وابور الخديو ونقله قطعاً الى ترسانة البركة (دار صناعة) بالدفليه وتم ذلك فى نحو أربعة أشهر وفى خلال هذه المدة كان بناء الترسانة جاريا على قدم وساق ولما تم اصلاح وتركيب الوابور ركبناه وسرنا به فى لجج البركة نستكشف جهاتها حيث كان الاهالى يقفون على شواطئها كلما اقتربنا من واحد منها صفوفا معجبين مندهشين من رؤية الوابورات اذ لم يكونوا رأوا السفن البخارية من قبل وكان يزيد عجبهم كلما شاهدوا ضخامته ويحيرون فى كيفية نقله مع جسامته الى البركة

وفي أثناء سيرنا وصلنا الى جهة (ماقنقوا) التي كانت فيها واقعة المرحوم عبد العزيز لبناني فاستقبلونا استقبالا حسنا وهناك ألقينا مراسينا

ونزلنا الى البر وأمر الكولونيل غردون أن نباشر انشاء محطة بها فأقمنا نعمل ذلك وكنا قد أحضرنا معنا مدافع وجملة آلات ومهمات حربية فاخرجناها الى البر واطلقنا واحداً وعشرين مدفعاً اعلانا بفتح هذه الجهة

وما سمع الاهالى أصوات المدافع حتى أطبقوا علينا جموعا كثيرة وكلهم شاكو السلاح من الحراب والنشاب كانهم قادمون على حرب

وقد توجس الكولونيل غردون خيفة من حالهم هذه فامر العساكر ان تكون على التأهب والاستعداد للطوارئ ثم فكر فى حيلة نافعة هي أن دعا مشايخهم وأعيانهم اليه فادخلهم معنا داخل الزريبة التي كنا انشأناها حتى لا يتهجم علينا الاهالى. ولكي لا يتوهموا انهم رهائن عندنا أخذ يوزع عليهم الاعطية من ملابس وسيوف وزجاجات خمر ففرحوا واطمئنوا كثيراً وسألهم عن تجارة السن عندهم والقيم التى يتبادلونها فيها فقالوا انها النحاس الاصفر وانواع الخرز والودع الابيض وكان منها كثير فى مخازن السرصمو بل بيكر باشا وكنا أحضرنا جانباً منها معنا فلما رأوها أعجبتهم كثيرا

ولما وثق الكولونيل غردون بهم أذن لهم فى الانصراف الي منازلهم فانصرفوا شاكرين وبعد قليل أرسلوا لنا عددا وافرا من البقر والغنم هدية لنا فاعطاهم الكولونيل غردون جانبا من الودع والخرز مقابل هديتهم ففرحوا به فرحا شديدا ثم أخذوا يتواردون علينا بالكميات الوافرة من السن وهو يعطيهم قيمتها من تلك البضائع الرائجة عندهم حتى اجتمع في مخزن الحكومة فى مدة عشره أيام نحو الخمس مائة قنطار وقد كثر التردد من الاهالى على مركزنا ومن عساكرنا بينهم وكانوا بعد ذلك من أصدق رعايا الحكومة وبواسطتهم جرت فتوحات كثيرة فى تلك الجهات وتمت المواصلات بين هذه

المحطة وبين محطة (الدفليه) بواسطة الوابور الذي معنا و بواسطة جملة سفن شراعية انشئت خلال ذلك

وبعد أن اطمأن الكولونيل غردون على مركز الحكومة الذى شيدناه فى جهة (مافنقوا) عدنا الى محطة الدفلية ثم توجهنا الي محطة اللادوه مركز العموم وكان قدتم صعود النيل فركبنا الوابورات الصغيرة التى معنا وعدنا ثانيا بطريق البحر تارة والبر اخري الى جهة الدفليه كى نرتب الوابورات الصغيرة والسفن بين كل شلال وآخر حتي تكون الملاحة متصلة بين اللادوه والدفليه تماما

أما الوابورات الصغيرة المذكورة فقد كانت الحكومة أرسلتها لنا قطعا داخل صناديق فركب بعضها بالخرطوم وبعضها حمل الي بركة (نيانزا) وصار تركيبه هناك في الترسانه كما أنشئت الشلبات الجديدة والسفن الشراعية الكبيرة وبالجملة فقد صارت الملاحة بين البحر الابيض وبين بحيرة اليانزا سهلة من كل وجه وأمكن التجار الارباويين والسياح التردد بينهما كما سهل نقل الجنود والمهمات واللوازم الحربية كلما أريد ذلك

وبعد أن عدنا الي الدفليه أخذنا أهبتنا من الذخائر الحربية والمؤنة الى مافنقوا الشرقية (البركة) حيث استأجرنا نحو ألفي عبد منها لحمل هذه الذخائر والامتعة ورحلنا حملة الى جهة يقال لها (فاتوكه) وهي من بلاد (كبريكا وأريونجا) والاول بمنزلة وال والثانى بمنزلة السلطان على بلاد فاتوكه المذكورة وعند وصولنا اليها قابلنا مشايخها وأهلوها بالعداء على بركة مياه فحاربناهم نحو أربع ساعات فقتل منهم عدد كبير جداً ومن لم يمت منهم فرهاربا وبذلك استولينا على البركة وأخذنا في انشاء محطة على شاطئها ورفعنا علم الحكومة وأطلقنا المدافع اعلانا بفتحها ومكثنا في الاستحكام الذي اقمناه نحو شهر من

الزمن محصورين نخابر الاهلين بالتسليم والطاعه فيأبون

فلما مللنا الاقامة عزم الكولونيل غردون على مهاجمتهم . ففي صبيحة يوم أخذ معه خمسة بلوكات مسلحة بالرامنتون وترك بلوكا واحداً لخفارة الاستحكام وتوجه اليهم فى غلس الظلام فلم تكد العين تقع على العين حتي أصلتهم جنودنا ناراً حامية فلم يصبروا عليها وولوا الادبار وامتلكنا ذراريهم وقراهم بجميع مافيها من ماشية ودواب وأثاث فأخذنا هذه الاسلاب كلها وعدنا الى المركز على البركة ومن جملة ما أخذنا عدد كثير من نساء وأولاد المشايخ والاهالي وكان وجود هؤلاء معنا داعية الى عودة المشايخ والاعيان الى طلب العفو عنهم على أن يكونوا عبيداً للحكومة عوناً لها على أعدائها

فلما جاءت رسلهم الى الكولونيل غردون عصر يوم الواقعة المذكورة قبل منهم توبتهم وأخذ عليهم العهود والمواثيق (وهم يعتقدون فى الله فقط) على ماقالوه وسلمهم الاسرى والابقار والاغنام على أن يرسلوا مشايخهم وأعيانهم فجاؤا طائعين وعلامة الخضوع أنهم كانوا يضعون التراب في أفواههم كعادتهم ثم اتفق معهم على أن يسيروا به الى جهة (مرولي) من أراضى الملك أمتيسه وأن يأتوا له بالرجال ليحملوا الامتعة والذخائر الحربية بالاجرة فأجابوه سمعاً وطاعة ولكنهم قالوا ان أمتيسه ملك جبار عظيم السطوة شديد البأس كبير القوة وعنده الاسلحة النارية والمدافع ونخشي أن يعرف منا أننا نحن أدلاءكم اليه فيرسل لنا بعد ئذ قوة من رجاله يسفكون دماءنا وينهبون اموالنا ويهتكون أعراضنا فقال لهم الكولونيل غردون لا بأس عليكم فأنتم الآن رعية الحكومة المصرية ومن واجباتها أن تحفظكم من أعدائكم وتؤمنكم فى دياركم وانا ذاهبون اليه ندعوه وقومه الى طاعة الحكومة الخديوية فان

امتثل والا أخضعناه بالقوة

الملك امتيسه وامره في بلاده

وعلى ذلك جردنا حملة قوية كثيرة العدد والمدد ولم نترك في مركز فاتوكه سوي بلوك واحد بضباطه وسرنا على بركة الله الى جهة (مرولى) وهي تبعد عن المركز الذي كنا فيه مسيرة ثلاثة أيام فى البحر وكلما أتينا بلدا في طريقنا وجدنا أهلها قد هجروها ولم نعثر الا على شيخ طاعن فى السن ضعفت رجلاه عن الانتقال به وكأنهم غفلوا عنه فلم يحملوه معهم فسألناه عن فرار الاهالى من وجهنا فأجاب انهم فروا حتي لا يقابلوكم بلا اذن من الملك امتيسه وأنتم فى مروركم لابد أن تحتاجوا الى شىء من الطعام أو الى شربة ماء على الاقل فاذا بقوا في ديارهم لا يبعد أن يجيبوكم الى ما تسألون ولو بالدراهم وهذا مما يغضب الملك ويوجب نقمته عليهم كما حصل فى أمر السياح الذين كانوا آتين من بلاد الزنجبار فقال له الكولونيل غردون اذن الاهالي غير ملومين على مهاجرتهم من بلادهم ثم التفت الى الرجل وقال انا صرنا نخشى عليك السوء من ملكك لانك قابلتنا وجاوبتنا على سؤالنا فماذا تفعل اذاً. فقال الرجل أما أنا فستري مني ماذا أصنع ثم قبض بيده على حربة صغيرة وقال هاأنا ألوذ بكم فاعتبروني واحداً منكم وقد صرت أخشى أن ينم على الحجر والمدر والشجر الى الملك الذي له من كل شيء واش ورقيب . فضحك غردون وقال قد بالغت أيها الرجل فكيف تصل سطوة أمتيسه الي هذا الحد وكيف يكون له من كل شيء رقيب عليكم . فقال الرجل لان جميع الاشجار التي ترونها لابد وأن تكون مخبئة العدد العديد من أعوان الملك

أمتيسه وأرى أن أخباركم واصلة اليه أوّلا فأوّلا عن كل حركة وسكون فاذا شئتم نجاتي فاحملوني معكم واحسبوني منكم أنى سرتم فقبله الكولونيل غردون وأكرمه وأمر بحمله على عنقريب من الخشب فوق أكتاف الرجال وظل معنا الى أن فتحنا مديرية مرولي

كيفية فتح مرولي

لما وصلنا الي أول بلاد هذه المديرية من حوزة الملك وشرعنا في بناء مركز نتخذه محطة أولي لنا أخذ العبيد يناوشوننا القتال حتى يشغلونا عن تشييد المحطة وظللنا على ذلك زمناً طويلا فلا هم مجتمعون لقتالنا بانتظام ولا هم تاركونا لنهيء لنا مركزا نقيم فيه مطمئنين

ثم بدا للكولونيل غردون أن يخابر أمتيسه فعاتبه على فرار الاهالى من وجوهنا وتركهم بلادهم حتي لا نستعين بهم على قضاء حوائجنا ثم أخطره باننا آتون باسم الحكومة المصرية وهى قوية السلطان شديدة البأس لا تريد من هذه البلاد الا أن تعمم فيها المدنية والعدالة وتفتحها لخير التجارة التي بها يتبادل الناس منافعهم فان كان الملك أمتيسه يريد لبلاده خيراً صافى الحكومة المصرية واستظل تحت ظل علمها الوارف والا أتته بجنود لاقبل له بها وأرته من قوتها واقتدارها مايدك الجبال الرواسي ويرغم أنوف الجبابرة . وها أنا مقيم بمرولي انتظر منكم الرد بما تستصوبون

فلم تمض اربعة أيام حتى حضر رسول من عند الملك أمتيسه يلوم غردون على تهديده الملك من حيث لا يعلم كنه قوته وهو في بلاده وقادر على أن ينزل به وبمن معه البلاء العظيم فلا تنفعه قوة الحكومة المصرية اذا استنجد بها

مهما كانت عظيمة . ثم سأل الكولونيل غردون عن سبب مجيئه الى بلاد الملك أمتيسه لينازعه فيها قائلا عن لسان ملكه انا راضون عن حالتنا وما بنا لكم الشكوي أو العوز لحاجة ونحن في غنى عن مدنيتكم التى تسلبنا نعيمنا واستقلالنا الذى نحن فيه

وبعد مخابرات دارت على هذا النمط اذن الملك أمتيسه للكولونيل غردون أن يشيد المحطة التى يريد تشييدها فى مرولي وأذن للاهالى أن يعودوا الى بلادهم وأن يتبادلوا مع العساكر البيع والشراء . وكان ذلك سببا في زيارة مشائخ وأعيان البلاد للكولونيل غردون فأهداهم الهدايا الفاخرة وخلع عليهم الخلع النفيسة حتي استمالهم كثيرا لجانبه واستعان بهم على حفر الخندق واقامة الاستحكام اللذين اراد انشاءهما وبعد أن أتم بناء المحطة بكل لوازمها رفع عليها العلم المصري وأطلق ٢١ مدفعاً اعلانا بفتح هذه المديرية وكان الملك أمتيسه يتظاهر له تجاه كل ذلك بالمحبة والوداد ويقول اننا نكون يداً واحدة وأستمد قوتي من الحكومة المصرية فى بسط سلطتي على الرعية وتأمينها واسعادها

وكان الكولونيل غردون أرسل الى مصر ليستحضر للملك أمتيسه عربة يركبها — وهي التى كان يركبها التعايشي في أيام دولته كما سيجيء —

أما أراضي مديرية مرولى فهى من أخصب الاراضى الافريقية وكانت بلادها عامرة وأهاليها متقدمين في الزراعة وماشيتها من البقر والغنم كثيرة وملابس أهلها منسوجة نسجا دقيقاً من لحاء أشجار هناك يقشرونها ويدقونها دقا يصيرها أشبه شيء بالتيل في خيوطه الدقيقة . وألبستهم الازر يلفونها لفافي أوساطهم ليستروا بها انصافهم السفلي

أما الملك أمتيسه نفسه فكان يلبس القباطي الحريرية من صنع الزنجبار وعلى

رأسه عمامة كعمائم أهل مكة وفى رجليه الجوارب والنعال الحمر ويسكن بناء منظما وكان عنده شاب أصله من ابناء جنسه ولكنه تربي في زنجبار فعرف اللغتين الانكليزية والعربية فوق لغته الاصلية واسمه (مفتاح) فاتخذه ترجمانا له ولكثرة ما كان يأتيه السياح من جهة الزنجبار عرف الاخذ والعطاء ومبادلة الهدايا والسؤال عن الاحوال العمومية

لذلك كان الملك أمتيسه أقوي حكام مجاهل أفريقيه وكان أهله على درجة من التقدم نوعا عن أهالى الجهات الاخرى وقد أحسنوا زراعة الكروم خلاف مايخرج عندهم من أشجار الفواكه اللذيذة العديدية فى غابات شاسعة يمشى المسافر فى ظلها أياما طويلة لايكاد ينتهى لآخرها

ولما استقرت قدمنا في بلاد الملك أمتيسه وتبادل الكولونيل غردون معه مخابرات المودة خطر على باله أن يدعوه للاسلام لانه دين الحكومة المصرية الرسمي لان الملك أمتيسه وقومه مجوس يعبدون الاصنام والتماثيل فأجابه بالقبول وطلب منه أن يرسل اليه علماء لتعليمه وقومه أحوال الدين الاسلامي فى الحال أرسل الكولونيل غردون له أثنين من أئمة الاورط وأثنين من الحلاقين ليجريالهم طريقة الختان فاستقبلهم الملك (أمتيسه) بالحفاوة والاكرام ثم ضرب موعدا لمقابلة الامامين فتوجها اليه وقابلاه ولكن قد وجدا عنده أربعة من القسوس وأصلهم من المبعوثين البروتستنت جاؤا اليه من ناحية الزنجبار فجعل هؤلاء عن يمينه والآخرين عن شماله وأخذ يسأل كل فريق عن أصول دينه وكأنه لما تحقق بالسؤال من الامامين أن غردون مسيحى دينه دين هؤلاء القسوس اختار الدين المسيحى وكتب الى غردون يستشيره فى دخوله فى النصرانية بعد ماترك ذينك الفقيهين ورفيقيهما الحلاقين أياما عديدة مهملين

لاسائل عنهم حتي كانوا يمكثون الوقت الطويل بلا قوت يكاد يقتلهم الجوع فاضطروا أن يرجعوا من حيث أتوا

ويظهر من ذلك أن (الملك أمتيسه) كان منافقا ينظر الى مصلحة نفسه ويستعمل كل غش وتدليس في طريق الحصول عليها فانه كان يرغب فى الدين الاسلامي قبل ان يتحقق من مسيحية غردون فلما عرف انه نصرانى عول عن رغبته الاولي واعتنق النصرانيـة دينا . ولذلك كانت عنـده الرايتان المصرية والانجليزية فاذا حضر سياح من الانجليز ادعي انه خاضع لسلطة الانكليز ورفع الراية الانجليزية واذا حضر أحد من قبل المصريين رفع العلم المصرى بحجة انه تابع للحكومة المصرية ولكن انتهى أمره لرفع العلم الانجليزي دائما

ولذلك تركه الكولونيل غردون على حاله واعتبر (مديرية مرولى) آخر حدود السلطة المصرية وكانت هذه المدينة مركزا للمديرية المسماة باسمها وأول من عين لها القائممقام محمد ابراهيم بك وأصله من مواليـد السودان وشهرته ابن جميه

وبعد تأسيس المديرية على هذا الاعتبار رجعنا الى مركز (اللادوه) وكانت طريقنا آمنة مطمئنة وفرح أهالى اللادوه بعودتنا فرحاً عظيما وخصوصاً لفتوحنا البلاد الكثيرة حتى صارت مدينتهم عاصمة لقطر شاسع كثير الخيرات والبركات يأملون ان يكون لها مستقبل عمران عظيم كعواصم الممالك الكبري وتخلص هؤلاء الاهالي من سلطة التجار أصحاب الكبانين (الشركات) المستبدين. وعقب أن وصلنا الى اللادوه ببضعة أيام جاءت الاخبار من (اللاتوكه) وهى جهة بينها وبين (كندكرو) مسافة اثني عشر يوما بان زرائب السيد أحمد العقاد وجماعة من التجار الآخرين مضايقـة من العبيد مضايقـة شديدة وقد

اشتد الحصار عليهم وقلّ زادهم وعندهم تجارة واسعة وأموال كثيرة ويطلبون النجدة في أقرب وقت والا وقعوا فى الاسر والقتل ونهب ما لديهم فاضطر الكولونيل غردون ان يجهز حملة بعث بها الى تلك الجهة تحت قيادة الصاغ محمد اغا عبد الكافى وأصله من ضباط الجهادية السود فسار الي (اللاتوكه) فى طريق كلها جبال وعرة يسكنها همج العبيد الذين كانوا يتعرضون له فيقاتلهم ويظفر بهم باسلحته النارية ومازال كذلك حتي وصل الى الجهة التي يقصدها ورأي هناك وكيل السيد احمد العقاد واسمه طه بن محمد ومعه مصريون فخلصهم من الورطة التى كانوا فيها وجاء بهم وبأمتعتهم وبضعة آلاف حمار من حمر اللاتوكه هى ذات ألوان خضراء تمشى الهوينا كما يمشى البقر وتدر البانها كما تدر البقر وهم يستعملونها لذلك لا للركوب والحمل وعادوا بجميع ذلك الى (اللادوه) وقد أخذ العجب منا كل مأخذ لرؤية هذه الحمر الغريبة فى شكلها ومعيشتها ورأى الكولونيل غردون ان يوزعها على الضباط والعساكر فأشار ان تدرب شيأ فشيأ بالركوب والحمل وقد دربت حتى أمكن استعمالها لذلك بكل صعوبة ثم رأى ان يترك نقطة (اللاتوكه) فلا تكون تابعة للحكومة المصرية لبعدها وقلة خيراتها

ولما رأي الكولونيل غردون أن جهات خط الاستواء الشاسعة صارت فى قبضة الحكومة المصرية مع ترامى اطرافها وقلة الجنود الذين عنده اختار ان يضم الى قوته بعض العبيد الذين كانوا عساكر مأجورين لزرائب التجار وقد قبلوا ذلك فاخذ منهم ألفى عبد انخرطوا في سلك عساكرنا وصاروا بعد ذلك أحسن الجنود دربة ونظاماً ولكن كان يراعى في اقامتهم بعدهم من مراكزهم الاصلية فالذي أصله من جهة الغرب يبعث به الي نقطة فى الشرق

والعكس بالعكس مراعيا فى ذلك تخالف الاميال ونفرة القبائل التي كانت مستحكمة عملاً بقاعدة احكم كل جهة باعدائها وهكذا كلما احتاج الى عساكر يرسلها الى جهة ينتخبهم من أعدائها لتتأيد سلطته بذلك على الجميع

تعيين المؤلف مديراً البور والغربية

وبعد مضى بضعة أسابيع على عودتنا من جهة (مرولي) أصدر غردون أمراً بتعييني مديرا عمومياً على مديريتي بور والغربية وهما من اكبر مديريات خط الاستواء وقد أعلن هذا التعيين فى خطبة القاها على مجمع من الضباط وكان تاريخ تعييني هذا تاريخ ترقيتي الى رتبة البكباشي فى أوائل سنة ٩٤هجرية وبعد ان استلمت الاوامر وكل ما يلزمني من قوت وذخيرة قمت على وابور (المنصورة) الى مقر وظيفتي

وقد بقيت في هذه الجهة نحو ثلاثة أشهر أعمل طبق الاوامر التي كان يصدرها لى مدير عموم خط الاستواء الكولونيل غردون الذي ظل هذه المدة يغدو ويروح بين شمال القطر وجنوبه وشرقيه وغربيه

وفى خلال هذه السنة بعث لى أمراً بالنزول الى القطر المصرى فى صحبته وعين بدلى القائمقام الطيب بك الذى سيأتي الكلام عنه. وقد كان ذلك وعدنا على بركة الله الى القاهرة وقابل الكولونيل غردون يوم وصولنا المرحوم الخديو الاسبق وكنت معه فى هذه المقابلة فأنعم علي برتبة القائمقام وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ١٢٩٤ لان الكولونيل غردون أحسن الشهادة فى حقي كثيراً

وبعد هذه المقابلة عدنا الى قصر النزهة حيث كان غردون نازلا وظل

عشرة ايام في القاهرة ثم غادرها الي انكلترا . وكنت اخذت اجازة منه ان اقيم في مصر مدة الثلاثة الأشهر التي عزم على قضائها في أوروبا الا أنه بعد مضي شهرين ورد لي منه وهو في انكلترا تلغراف أن أبارح القاهرة قاصدا عموم خط الاستواء بصفة وكيل حكمداره العام فصدعت بالامر

تعيين غردون حكمدار العموم خط الاسواء

ولم أكد أصل الى بربر في طريقي حتى علمت من وكيل مديريتها بصدور أمر عال من الخديو يعين به الكولونيل غردون حكمداراً عاما لجميع البلاد السودانية المصرية ولسواحل البحر الاحمر وبذلك فصل اسماعيل باشا أيوب من وظيفة حكمدارية السودان . ثم علمت أيضاً بورود تلغراف للمديرية يفيد عودة غردون باشا الي مصر وقصده مباشرة مصوع . ثم حصلت المخابرة بيني وبينه بالتلغراف فأشار عليّ أن أبقى بالخرطوم الي حين وصوله . وقد كان ذلك فاني بارحت بربر قاصداً الخرطوم وهناك انتظرت الكولونيل غردون حتي وصل اليها واستقبل الاستقبال اللائق بل الفائق من كل وجه وأكثر من الاعطية والانعامات على مشايخ القبائل والاعيان مما لم يروه قبل من حكمدار . وكان فرمان تعيينه يمنحه السلطة المطلقة التي يتصرف بها على مايراه موافقا لعمارة السودان وتنظيم أحواله الخ

وعلى أثر ذلك صدر أمره بتعييني باشمعاونا لحكمدارية عموم السودان وكانت هي الوظيفة التالية لوظيفة وكيل حكمدار عموم السودان

وفي ذلك الحين صدر أمر خديوي بضم جهات بحر الغزال الى أملاك الحكومة المصرية وكانت لاتزال في سلطة أصحاب الكبابين (الشركات)

﴿ تعيين المؤلف مديرا لبحر الغزال - وبداية حوادث ادريس أبتر ﴾

حضر الي الخرطوم على أثر تعيين غردون حكمداراً لعموم السودان وخط الاستواء وسواحل البحر الاحمر من جهة بحر الغزال رجل اسمه « ادريس أبتر » وهو دنقلاوى الاصل اشتغل بالتجارة مجتهدا فأثري وصار من رؤساء الكبابين . وطلب مقابلة غردون فأجيب طلبه وأخذ يقص على مسامعه من أعمال سليمان بن الزبير باشا - وكان رئيس قومبانية أيضا - ماهيج أعصابه من أعمال الظلم والقسوة والسلب والفتك والهتك الخ وحسن له ضم جهات بحر الغزال الى سلطة الحكومة الخديوية وذكر له من خيراتها ماحرك أمياله نحوها ولذلك سأل السدة الخديوية اصدار الامر الذى أشرنا اليه قبل فصدر ثم عقد مجلسا من كبار ضباط الجهادية هناك لانتخاب مدير لعموم بحر الغزال فاستقر رأيهم على تعييني مديرا لها وقد أسر الىّ غردون وقتئذ ان سليمان بن الزبير باشا طامح الي الاستقلال بحر الغزال وانه يجند حوله جنوداً ويستطيل على الشركات التجارية هناك حتى أوجس التجار منه خيفة ولهذا رغب أن أستصحب معي قوة كبيرة وبعض المدافع والذخائر الحربية والاسلحة الكافية فاستصحبت ستة بلوكات بضباطهم وعددهم وأخذت جملة فصائل من الباشبزوق بأسلحتهم ومدفعين جبليين وساروخين حربيين وبلوكين من الفرسان وسرنا هكذا على ثلاث وابورات وخمس عشرة سفينة شراعية قاصدين بحر الغزال بطريق البحر الابيض ولما وصلنا الي فشوده أخذنا من جندها ثلاثة بلوكات من الجهادية أيضا وتابعنا سيرنا حتي وصلنا الي مشرع

يقال له (مشرع الرق) على الشاطىء الغربي من بحر الغزال وهناك تعطل سير السفن بسبب الغابات الكثيفة التي تسد البحر في نقط كثيرة منه فطلعنا الى محطة المشرع وهي صحراء واسعة فأقمنا بها زريبة من الشوك مربعة الاضلاع ونصبنا بها الخيام ورفعنا عليها علم الحكومة اعلانا بفتح هذه الجهة ثم أرسلنا رسلا الي مشايخ القبائل فحضروا وأعلمناهم بدخولهم في ولاية الحكومة فأظهروا الخضوع والسرور وتبادلوا البيع والشراء مع العساكر

ثم كتبنا منشوراً الي جميع الجهات اعلانا لوكلاء الكبابين (الشركات) والاهالي بصيرورتهم من رعايا الحكومة المصرية وأن يحضر أولئك الوكلاء والاعيان الي مركز (مشرع الرق) ولم تمض أيام قلائل حتي حضر قناوى بك أبو عموري ونظاره (وكلاؤه) ومشايخه على القبائل طائعين وحضر أيضا وكلاء الخواجا غطاس وهو من مشاهير التجار وأصحاب القومبانيات الكبيرة وهكذا أخذ رؤساء التجار يفدون واحداً بعد آخر اظهاراً لطاعتهم وسرورهم بامتداد سلطة الحكومة المصرية عليهم وكنا نأخذ من رجالهم الاسلحة وحصة الحكومة من أنواع التجارات المحتكرة لها كالريش والصمغ وسن الفيل ومقدار هذه الحصة كان مقدرا بثلاثة أخماسها الا أنهم كانوا يظهرون التضرر من قلة ماتتركه الحكومة والتمسوا في نظير ذلك ان تعفيهم الحكومة من أجرة نقل بضائعهم على مراكبها بين بحر الغزال والخرطوم

وقد استلزم الحال أن نتوجه الى أماكن هذه الشركات التجارية واحداً بعد آخر لقسم حصصها وضبط نصاب الحكومة منها واستصدرنا أمراً من حكمدار عموم السودان باجابة ما التمس أولئك التجار فصدر الامر بذلك وفي خلال ذلك تبينت من أمر (ادريس أبتر) انه رجل غير مستقيم

مثير للفتن ذو سوابق سيئة بينه وبين جميع التجار فرأيت أن أزجه فى السجن لأتدارك ما كنت أتوقع من شروره

بلاد نمنم

ومما يتصل بحر الغزال بلاد النمانم وبلاد (القورقرة) التى تكثر فيها البيغاء ذات الذنب الاحمر

ولذلك أخذت أتنقل من مشارع التجار حتى وصلت الى تلك الجهات وأهل النمنم حمر الالوان نحاسيون عراة الاجساد غير أن نساءهم يسترن عوراتهن بالحشائش الخضر التى يغيرنها كلما جفت وكل مايملكون من انواع الحيوانات وطيور الدجاج التي تفوق العد على قدر مايناسب حال كل منهم وكذلك الكلاب ولحمها عندهم أفخر مايأكلون وهو طعام امرائهم ولذا كانت قليلة عندهم

واراضيهم واسعة خصبة تنبت قصب السكر والذرة والموز ينبت وحده فى غابات شاسعة لكثرة نزول الامطار هناك

وفى طرف من هذه البلاد جبل يسمى (جبل الدنبو) لاهليه رجالا ونساء شغف كبير بالغناء يضربون الالحان على السفافير وهى ضرب من الناى باتقان عجيب ومن عادتهم أن ينزلوا في رأس كل عام وقت الحصاد ويمروا على البلدان وأجران المحاصيل للتسول بغنائهم فيجمعون قوت عامهم ويعودون الى بلادهم وهم يصطادون الوحوش والطيور والفيلة لاكل لحومها وهم أنعم أهالى تلك الجهات مراسا وأضعفهم جانبا لايعتدون على أحد كما لايعتدى أحد عليهم

وقد سألت عن الذين يأكلون لحوم البشر منهم فعلمت أنهم أهل قبيلتين فقط من بلاد النمنم وليس ذلك من عادة القبائل كلها وأن أكل الانسان عند تينك القبيلتين ليس دائما وفى كل حال بل اذا مرض أحدهم وغلب اليأس من شفائه أسلمته قبيلته الي الاخري لتأكله كما تفعل الثانية بمريضها مع الاولى ومن ذلك يتبين ان اكل لحوم البشر فى بلاد نمنم ليس غذاء عاديا لهم كما يتوهم البعض بل هي طريقة اتخذوها لبيان معزة أحدهم عند الموت ويرونها اسمي شأنا من دفن الانسان فى القبر أو احراقه بالنار مثلا . ويرون فى ذلك راحة لهم من عناء انشاء المقابر واحتياطاتها الصحية

أما سكان قورقورو وهي من ذلك الاقليم أيضاً فهم بيض الوجوه صفر الشعور زرق العيون كأنهم أوروبيون يعيشون فى القارة الاوروبية ولكنهم يخالفونهم فى زيادة الشقرة فى اللون حتي ان الرائي ليستغرب وجود مثل هؤلاء الناس في وسط القارة الافريقية وعلى القرب من خط الزوال

وفى هذه البلاد حيوان يسمى (البمام) أشبه شيء بالانسان في صورته وقامته يستأنس كالقردة وله شعر مسترسل خلف ظهره وعلى جانبيه فائق فى طوله جميل في منظره يتغزل به السودانيون كما تتغزل العرب فى عيون الجآذر والغزلان

وتجاور أهل قورقورو قبيلة تسمى (تيكتيكه) أهلها أقصر ما رأيت قامات وهم على غاية من الوحشية فى معيشتهم ونفورهم من غير ابناء قومهم

وبعد ما تجولت فى هذه المديرية زمنا أصابني مرض شديد اضطررت معه الى الاستئذان فى العودة الى الخرطوم فعدت وأخذت معي ما جمعت من سن الفيل وريش النعام ولكن عند وصولي اليها كان الكولونيل غردون قد ذهب

الى سواكن فاستأذنته تلغرافياً فى اعطاء الشركات ما يخصها من تلك السلع فاذن لى وبلغت قيمة ما خص الحكومة مما جلبت اليها مئة الف جنيه أودعت بخزينة المالية بالخرطوم

شأن ادريس ابتر بعد ذلك

تقدم لى الكلام على ادريس ابتر وزجي اياه في السجن لما تبينته من حاله فلما عدت الى الخرطوم جلبته معي اليها مخافة أن يكون في بقائه هناك ما يجلب الشرور والمفاسد

وكانت عنده في بحر الغزال كمية وافرة من سن الفيل أخذناها منه كما أخذنا مثلها من الشركات الاخرى ونقدناه ثمنها بعد عودتنا الى الخرطوم. والمال كما يقال أقوي شفيع للانسان فى كل حال اذ تمكن ادريس ابتر لوجود المال معه من استمالة قنصل المانيا بالخرطوم اليه وبالفعل خابر القنصل الكولونيل غردون تلغرافيا بان ادريس ابتر قد سجن ظلما وانه برئ من كل ما نسب اليه والقنصل المذكور كان من أخص اصدقاء الكولونيل غردون ويثق به ثقة عمياء ولدى عودة الكولونيل غردون من سواكن ذهبت للقائه خارج المدينة على احدى البواخر ومعي الفريق عثمان رفقى باشا القائد العام للجنود السودانية وقتئذ فأول كلام فاتحني به رغبته في عودة ادريس أبتر الي بحر الغزال فاخذت اشرح له بأدلة ما عساه يقع من عودة هذا الرجل وبينت له باسباب أعماله السيئة الماضية فلم يكترث بشيء من ذلك وأصر على ارجاعه وكان خطابه لى بالفاظ الاستعطاف لا الامر حتى انقطع حديثنا بالوصول الي المدينة والاشتغال بما أعد له من الاستقبال الرسمي وعلى أثر وصوله الي سراى الحكمدارية طير رساله تلغرافية الى

الجناب الخديوي بالقاهرة التمس فيها الاحسان على برتبة الامير الاي والوسام المجيدى الثالث اه وما مضى يومان حتى جاءت الاجابة من لدن الحضرة الفخيمة الخديوية وكان ذلك فى شهر محرم سنة ١٢٩٥ هجرية

استقالة المؤلف

(من مديرية بحر الغزال)

« وتعيينه حاكما على مديريات خط الاستواء وتعيين ادريس أبتر بدله »

ذكرت ماألم بصحتي من الانحراف بسبب سوء تأثير هواء بحر الغزال عليها فلما رأيت اصرار غردون على الصفح عن ادريس أبتر واعادته الى بحر الغزال رأيت الفرصة مناسبة لان أستقيل محتجاً باعتلال صحتى والظاهر ان غردون رأى في هذه الاستقالة أيضا فرصة مناسبة لارضائي وارضاء ادريس ابتر معاً فقبل استقالتى وعينني في الحال حاكماً عاما على أقاليم خط الاستواء بدلا من براوت بك الاميركاني الاصل الذى كان حاكماً عليها قبل ذلك . ثم أصدر أمره بتعيين ادريس أبتر مديراً على بحر الغزال والتمس له من الجناب الخديوي الرتبة الثالثة

ثم أمرت بمبارحة الخرطوم فأخذت فى أهبة السفر وعندئذ استدعانى الكولونيل غردون للتوفيق بيني وبين ادريس ابتر فأصلح مابيننا. ويقيني أن مغبة تعيينه ستكون وبالا على بحر الغزال ومع ذلك قد محضته النصح فى أمور كثيرة أخصها أن يكف عن مناوأة سليمان بن الزبير وأوضحت له صعوبة عمله اذا لم يكن معه على صفاء

وبعد ذلك بارحت الخرطوم قاصداً مقر وظيفتى على وابور (الاسماعيلية)

وسافر هو كذلك الي مقر وظيفته على وابور (الصافية) وظللنا سائرين معاً حتى وصلنا الى بحيرة تدعى (ميمة السنيوره) وهى التى بها مدخل بحر الغزال من الجهة الغربية وطريق خط الاستواء بالجهة الجنوبية وهناك افترقنا بعد ما كررت له النصيحة السابقة وما زلت سائراً في بحر خط الاستواء حتى وصلت الي (اللادوه مركز عموم الاقاليم الاستوائية) وهناك أصدرت منشوراً عمومياً أبلغهم به الاوامر الجديدة بتعيينى مديراً على تلك الاقاليم وقومنداناً على عساكرها وبالاعمال اللازمة لاستتباب الامن العام وسعادة البلاد

ثم رأيت أن لا اطيل الاقامة في مركز وظيفتي قبل أن أمر على مراكز المديريات لتفقد حالة العمال والاهالى وهكذا سرت أنتقل من جهة الى جهة مدة أربعين يوما ثم عدت الى اللادوه ثانية وأقمت بها نحو خمسة عشر يوما قمت بعدها متابعاً المرور شمالا قاصداً مديريتي (بور وسبت) وبينما كنت سائرا بوابور الاسماعيلية في مروري هذا شمال مديرية (بور) قبل أن أدرك محطة (شانبيه) بنصف ساعة اذ سمعت لغطاً كثيراً من العساكر الذين معي فسألتهم عن سببه فأخبروني ان أناسا سائرين على الشاطىء حاملين راية حمراء يستغيثون بنا وهم يطلقون بنادقهم فى الهواء استلفاتا لنا فقمت وأخذت منظارى بيدى وتحققت من أمرهم فأمرت برسو الوابور وانتظارهم وبعد هنيهة وصلوا الينا واذا بادريس بك أبتر مدير بحر الغزال مقبلا علينا فاندهشت لرؤيته في هذا المكان وسألته عن سبب قدومه فأخبرني ان سليمان بن الزبير قد هجم على مركز المديرية وأخذ كل مافيه من الاسلحة والذخائر فاستفهمت منه عن السبب الذي حمله على فعله هذا مع انه أقام فى هذه المديرية سنة كاملة لم يقدم في خلالها على مثل هذا الامر فأنكر إدريس بك السبب الحقيقي قائلا

انه أقدم على هذا الامر من تلقاء نفسه ولا أعلم له من سبب ورجاني اعطاءه عساكر لمقاومة عصيانه ورده عن طغيانه فقلت له لابد أن تكون أنت السبب في عصيان هذا الرجل ثم استفهمت عن حقيقة ماجرى من القاضي والضابط اللذين اصطحبهما معه ادريس بك فخاولا أولاً مداراة مديرهم ثم رأيا أن لاسبيل الى المداراة ولا مصلحة فيها فأقرا بما كان. وهو أن ادريس أبتر لما وصل الى زريبة شركة المعلم غطاس أدب لمستخدمو الشركة وجلهم من الدناقلة بني جلدته مأدبة حوت كثيراً من أنواع المسكرات فلما لعبت بعقله بنت الحان أخذ يقول انه تعين مديراً رغماً عن ابراهيم بك فوزي وانه أنفق في هذا السبيل ألف جنيه للقنصل فريدريك الذي تقدم لنا ذكر شأنه معه ولا بد من استعاضته بتوزيعه على موظفي المديرية ثم لابد من تجريد حملة عسكرية لقهر سليمان بن الزبير وتخريب زريبته وقتله وصار يتفوه بألفاظ السباب والشتائم في حق ابن الزبير فلما بلغ ذلك سليمان بن الزبير قام هاجما على مركز المديرية وكان منه ما كان مما أخبر به ادريس أبتر وكان ذلك قبل وصول ادريس أبتر الي مركز المديرية فلما نمى اليه الخبر اعتصم بالفرار لينجو بحياته وكان من أمر اجتماعه بنا في الطريق ماذكرناه

وعلى أثر ذلك أرسلت ادريس أبتر الى غردون مخفوراً بعشرة من العساكر وواحد من الضباط وكذلك أرسلت له الاوراق التي باشرت فيها التحقيق وفيها «ان ادريس ابتر كان قد أخذ العهد على أولئك الذين قصدوا مداراته في أول الامر بكتم ماحصل منه ثم عادوا الي الاعتراف بالحقيقة» وما بلغ ادريس ابتر الخرطوم حتي زجه غردون باشا في السجن

تعيين جسي باشا مديراً على بحر الغزال

وبعد أن زج ادريس أبتر فى السجن أصدر غردون باشا أمرا بتعيين جسى باشا وهو ايطالى الاصل مديرا على بحر الغزال وعهد اليه اخضاع سليمان ابن الزبير ومقاومة عصيانه ولدى وصوله الى بحر الغزال بدأ بمطاردته وحشد عشرة آلاف جندى لمقاومته وجرت بينهما وقائع عديدة كان النصر فى جميعها حليف جنود الحكومة وفر سليمان بن الزبير الى برية بين بحر الغزال ودارفور تدعى (حفرة النحاس) فتأثره جسى باشا حتى أدركه وليس معه أكثر من أربعمائة مقاتل من العبيد البازنجر خارت قواهم ولم يعودوا قادرين على مداومة القتال وكان رابح الذى قيل انه مملوك الزبير باشا من ضمن أولئك البازنجر فاستمال اليه نحو نصفهم وزين لهم الفرار والالتجاء الي الفلوات الواقعة بين دار فور وبحر الغزال ريثما يتناسي الناس أمرهم فيعودوا الى أوطانهم بعد انطفاء جذوة غضب رجال الحكومة على تجار الرقيق فاطاعوه وفروا الى جهة الجنوب الغربى من حفرة النحاس وقبل أن يبتعدوا عن معسكر ابن الزبير بعشرة أميال انقض عليه جسى باشا وقبض على من فيه وقتل ابن الزبير واثنين وعشرين رجلا من أشهر النخاسين الذين معه[1] ولم

---

(١) جاء في العدد ٩٨٤ من جريدة الجوائب بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٢٩٧ نقلا عن الجرائد المصرية . وقد قال أحد مكاتبي التيمس ان الاخبار الواردة من غردون باشا عند ما كان فى دارفور تفيد ان القائمقام جسي انتصر أخيراً على تجار الرقيق فى اقليم بحر الغزال كما انتصرت الانكليز على الزولوس وذكر المسترجسي خبر نصرته بالايجاز . وفحواه انه لما هجم سليمان أحد زعماء العصاة هزمه المسترجسي واقتفى أثره مدة أميال فانقلب سليمان الى حصنه ولم يمكن المسترجسي أن يستمر مقتفياً أثره بسبب عدم وجود المؤنة معه فمكث لغاية ٢٨ ابريل الي أن أتته الذخيرة الكافية فشرع في

تعثر الحكومة على شيء يذكر من أسلابه وغاية ماغنمته لايتجاوز سبع قناطير من سن الفيل ونحو خمسة آلاف من الريالات المجيدى واستولت على سندات بقيمة عشرين الف ريال بمواعيد مختلفة يؤديها بعض تجار الرقيق لابن الزبير وعثر على أوراق دلت على ان أسباب العصيان كانت مدبرة بينه وبين والده ويقصد هذا من ذلك أن تكلفه الحكومة باخضاع ابنه حيث يبلغ أربه من العودة الي بحر الغزال

ثم عاد جسي باشا الى مقر وظيفته وقتل خلقاً كثيرين من النخاسين والذين لهم علاقة بابن الزبير ومكث مديراً على بحر الغزال سنة كاملة ثم استقال لاعتلال صحته فاقيل وسار من بحر الغزال الي الخرطوم فسواكن حتي ادركته المنية بالسويس قبل ان يبلغ القاهرة وخلفه فى وظيفته (موسي باشا شوقي) من الضباط المصريين فاستقر قدمه فيها لخلوها من النخاسين الذين هم مصدر كل الشرور والفتن . أما رابح فانه من أولاد العساكر السود

الاقدام والهجوم وكان معه نحو ١٠٠٠٠ نفر فانتهز سليمان الفرصة وجمع ٣٠٠٠ نفر من الرقيق غير ان جسي أعتق بعض أنفاره مكافأة لهم علي خدمهم ثم حصلت مناوشات انتصر فيها جسى وفى ٥ مايو حصلت ملحمة عظمى انهزم فيها العدو شر هزيمة فعزم جسي على أخذ القاعة بالهجوم ففاز بذلك وهرب سليمان نفسه ومعه نفران وترك جميع الذخائر والمكاتبات التي يستفاد منها خيانة أبيه زبير باشا وكذلك ترك ألف جنيه من ريالات فضة و٦٣٠ رطل عاج وكيس ذهب وحوالات كانت مع التجار المصريين لشراء الرقيق والعاج وريش النعام يبلغ مقدارها نحو ٢٠٠٠٠ ريال أي ٤٠٠٠ جنيه وغير ذلك من المواد والمهمات وأصدر جسي أمراً بقتل كل من يتعدي علي أحد من الاهالى وشنق تسعة من كبار المذنبين عبرة ليعتبر بهـا باقي تجار الرقيق وقتل ثمانية من الزعماء فى الوقعة الاخيرة وفي عزم جسي تجريد الاهالي من الاسلحة بدون فرق وطرد جميع تجار الرقيق

الذين يسمونهم فى اصطلاح العساكر (غلمان الجهادية) ولم يكن مملوكا للزبير باشا ولا لغيره قاده الطمع وحب الكسب الى الانتظام في سلك تجار الرقيق فانتظم فى حملة أبي عموري التاجر وكان حليفا للزبير باشا ثم لابنه من بعده. ومدة الحرب بين جسي وابن الزبير لم تبلغ أسبوعين كان يدعوه جسي باشا فى خلالهما الى الطاعة والابتعاد عن سبل العصيان

فصل المؤلف

« من مديرية خط الاستواء وتعيين أمين باشا بدله »

وبعد عودتى من الرحلة التى لقيت فيها ادريس ابتر جاءني سائح اسمه الدكتور (نكر) يطلب منى ان اجمع له مائة شخص من الاهالى يحملون أثقاله مدة تجوله في انحاء خط الاستواء وكانت العادة المتبعة عندنا اذ ذاك ان نسمح بمثل ذلك لكل سائح على شرط ان يؤدي أجرة كل شخص ثلاثة غروش من العملة الصاغ عن كل يوم وان يدفع لكل شخص أجرة ثلاثة شهور سلفاً وان يكون مكلفاً بلوازمهم اليومية من الطعام فعرضت عليه هذه الشروط فاكبرها وادعى ان لديه أوامر من غردون باحتساب كل نفقات سياحته على جانب الحكومة فطلبت منه الرقيم الصادر من غردون فلم أجد عنده شيئاً من ذلك وأخيراً دفع أجرة شهر واحد لكل حمال من الذين جمعناهم له وتعهد بدفع الباقى عند عودته وبعد ثلاثة شهور عاد من سياحته وامتنع عن دفع ما بقى في ذمته من أجرة الحمالين وبعد محاورات كثيرة دفع لهم أجرة الشهرين الباقيين ثم أخذ فى أهبة السفر ومعه شيء كثير من العاج فاخبرته باحتكار الحكومة هذا الصنف ومنعها الاتجار به وحمله الي الجهات

الشمالية وأفهمته ما تقضى به الاوامر من ضبط ما معه وأخذه لجانب الحكومة فامتنع أولا ثم رضخ ثانياً وكان كثير الالفة والتودد الى طبيب الحكومة الدكتور شنيتزر الذى سمي نفسه بعد باسم (محمد أمين) ثم صار حاكما على أقاليم خط الاستواء باسم أمين باشا

وفى غضون اقامة هذا السائح بخط الاستواء نقل الىّ كثير من تجار الاوروبيين هناك أنه مصمصم على الوشاية بي عند غردون وانه لابد من ان وشايته ستفضى الى فصلى وانه يرشح أمين افندي طبيب الحكومة لولاية الحكم على أقاليم خط الاستواء بعد فصلى

على أنني لم اكترث بهذا القول وعددته من قبيل الهوس وخصوصا ماذكر من أمر أمين افندى الطبيب لاني وسائر من معى من الموظفين نعتقد فيه فقدان الروية وعدم الحذق حتي فى صناعته التى انقطع لها ودرسها فكيف يكون شأنه اذا عين بوظيفة حاكم لاقاليم بخط الاستواء ادارتها عسكرية ومدار عملها على الحركات العسكرية والمهارة الحربية ثم غادر الدكتور (شنكر) خط الاستواء على احدى البواخر فكتبت الى الكولونيل غردون أعلمه بكل ماوقع بيني وبين الدكتور (المذكور) وشرحت له ماعلمته من أولئك التجار من نواياه ونوايا أمين افندي الطبيب ولما وصلت الباخرة الى مكان يدعي (شبشه) يبعد عن الخرطوم بنحو مائة ميل أصابها خلل أوقف متابعة سيرها فخرج السائح منها واستأجر نوقا وصل على ظهورها الى الخرطوم وقابل الكولونيل غردون وألقي عليه ماشاء من الاكاذيب والوشايات فاحتدم غيظا جريا على عادته حيث كان من طباعه أن يصغي لكل واش سبق غيره بالشكوي اليه من غيرأن يتحرى صدقه ويقف على كنه قصده

وبعد بضعة أيام أصلح خلل الباخرة فاستأنفت سيرها الى الخرطوم وبعد وصولها ذهب صاحب البريد ليسلمه للكولونيل غردون فامتنع من استلامه وأصدر أمراً بفصلى من مديرية خط الاستواء وتعيين أمين افندي الطبيب وكيلاعنى حتى تصدر أوامر أخري . ثم غادرت خط الاستواء قاصداً الخرطوم حيث أصدر الكولونيل غردون أمراً بتعيينه حاكماً عاما على أقاليم خط الاستواء فوقع ذلك موقع الدهشة والاستغراب لدى الموظفين الذين لا يعرفون لهذا الرجل أهلية ادارية أو عسكرية تبوئه هذا المنصب الخطير وأيقن الكل بأن الدكتور (ينكر) هو الذي مهد له هذا السبيل وبوأه هذا المنصب

ولا غرابة في ذلك فان الدكتور شنيتزر قدر على اخفاء دينه وتسمى بمحمد أمين فليس ببعيد علي منافق كهذا استمالة مثل الدكتور ينكر ماداما عالمين من الكولونيل غردون الاصغاء لكل مبادر بالوشاية ولو كان ذا قصد سيء

قصة الافيال في خط الاستواء

ومن الاعمال التى تدل على جهالة أمين افندى وبعده عن أصالة الرأي بعد السماء من الارض ان الكولونيل غردون كان اشترى من أفيال الهند الداجنة عدة وجلبها الى خط الاستواء ولما عينت حاكما على خط الاستواء سلمها اليّ وأمرنى أن أقيم لها زريبة من الشوك علي بعد ألف ومائتى متر من مدينة (اللادوه) وكنا فى غداة كل يوم نخرجها من الزريبة ونسرحها في الفلاة تقتات بالحشائش وتختلط بالافيال الوحشية وفي أصيل النهار تعاد الي الزريبة فيتبعها منها بضعة أفيال أو أزيد بعد ادخالها فى الزريبة فيقتل

العساكر الافيال الوحشية رميا بالنبل فتأخذ الحكومة أسنانها وتأكل العساكر لحومها اذ هي لذيذة جداً ومحبوبة عندهم وبذلك تقتصد الحكومة ثمن اللحوم التي تجريها على العساكر. وفضلاعن ذلك فان الاقاليم الاستوائية لا توجد بها دواب للحمل ونقل الأثقال من مكان لآخر فكانت هذه الافيال تؤدي وظيفة الحمل فى زمن الحروب ونقل الذخائر من أهم حوائج الجند اذ يحمل الواحد منها اكثر من حمل خمس من الابل

وغير هذا وذاك انى لما غزوت بعض البلاد لادخالها فى طاعة الحكومة وحملت الأثقال على تلك الافيال كان الاهلون فى كل جهة مررنا بها يقابلوننا بالاعجاب ويتساءلون كيف أخضع هؤلاء الناس الفيل الذى هو أكبر حيوان وكيف ذللوه لارادتهم وقادوه كما تقاد الشاة ولما وصلت الي بلاد العصاة لم يقابلونى بغير تقديم الطاعة والتسليم هم وملوكهم وصرحوا لى بأنهم لا يستطيعون قتالي وقتال جنودى الذين ذللوا الافيال وكان ذلك شأني مع كل بلاد غزوتها بالافيال وأطلق الجنود اسم بلاد الافيال وقبائل الافيال على كل بلاد وقبائل دانت بطاعة الحكومة رهبة للافيال وأطلق الاهلون عليّ اسم (الحاكم صاحب الافيال) وبعد مبارحتى خط الاستواء خيل لامين افندي باشا أن يذبح الافيال الداجنة ليتحقق الفرق بين لحومها ولحوم الافيال الوحشية ولاجراء تحليلات كيماوية وقد فعل فانظر الي هذه السخافة

وكان فى خط الاستواء ثيران من البقر تبلغ الالفين ذللت بأزمة حتى صارت قابلة لحمل الأثقال والركوب كالجمال فذبحها كلها ولو كانت الافيال والثيران باقية لما هلك اكثر الذين رافقوه مع المستر ستانلى الرحالة عند مغادرته خط الاستواء كما سنذكر ذلك في موضعه ان شاء الله

ذكر ماحصل للمؤلف من الكولونيل غردون وسفره لمصر

ولما وصلت الخرطوم قصدت سراي الحكومة والتمست مقابلة الكولونيل غردون فلم يأذن لي بمقابلته فعدت الى منزلي وأنا مصر على مغادرة السودان وعدم قبول أي خدمة فيه بعد الاهانة التي لحقتني من السائح الذي سعي بالوشاية فيَّ عند من لم يتحر الحقيقة ولم يعتقد في الاوروبيين انهم بشر يجوز في حقهم الكذب والخيانة والغرض فعرضت اليه ألتمس التصريح لي بالشخوص الى مصر فاستدعاني وخاطبني بأنفة قائلا أنت تريد السفر الى مصر قلت نعم قال ولماذا قلت انى مكثت سبع سنوات هنا وأود العودة الى وطني لتبديل الهواء والفرار من وجه السياح الكذابين مثل (ينكر) فقال أهو كذاب قلت نعم ولو أطلعتني على سعايته بي عندك لاظهرت لك كذبه وانى ماعاملته الا بما لامندوحة لي منه وهي واجبات وظيفتي وختمت حديثي باعادة الالتماس بالتصريح بالسفر الي مصر على نفقة الحكومة فقال قد أذنت لك وأمر بكتابة الاوامر بسفري على نفقة الحكومة ثم طلبت منه كتابا الى الحربية المصرية مؤذنا باحالتي عليها فأعرض عن الاجابة فألححت في الطلب وصمم على الرفض فانصرفت عنه وهو مفعم من الغضب وأنا مفعم من الغيظ والكدر وما مضت أيام حتى غادرت الخرطوم وما زلت سائراً حتى وصلت القاهرة

ذكر ماوقع للمؤلف مع شاهين باشا ناظر الحربية

وفي ثاني يوم وصولي لمصر ذهبت لديوان الحربية لابسا الملابس الرسمية حيث قابلت شاهين باشا ناظر الحربية والبحرية المصرية فتمثل لي واقفا بشاشة وطلاقة وجه وبعد تناول القهوة سألني وأمارات الدهشة والاستغراب بادية على

وجهه أأنت حائز رتبة أمير ألاي فقلت نعم فقال ومن أين قدمت فأجبت من السودان فقال ما اسمك قلت ابراهيم فوزى فقال هل عندك كتب من حاكم السودان قلت كلا فقال وبماذا نعرفك فقصصت عليه ما كان من امتناع حاكم السودان من اعطائى كتابا فقال ولاي شيء كان ذلك قلت لا أعلم ثم سألني عن براءة الرتبة التي أنا حائز لها فأجبته بأن لدي البراآت من رتبة الملازم ثانى حتى رتبة الاميرالاي فقال أود الاطلاع عليها وعند ذلك لم أتمالك كظم غيظى حيث قلت له أتظن بأنني مختلس هذه الرتبة فان كان كذلك فان لديك الفريق عثمان رفقي باشا الذي كان قائداً عاماً لعساكر السودان فسله عني ينبئك اليقين واذا شئت فان معية الجناب الخديوي تخبرك بما يجملك فى غنى عن توجيه هذه الاسئلة اليّ ثم انصرفت عنه وهو يلاطفني ويرجونى أن أقابله فى الغد

مقابلة المغفور له خديو مصر اسماعيل باشا

وبعد انصرافى عن ناظر الحربية ذهب هو الي سراي عابدين العامرة وتشرف بمقابلة الجناب الخديوى وقص على مسامعه الكريمة حديثي فأمر ناظر الحربية باستدعائى بين يديه فى الغد لمقابلة سموه وفى الغد ذهبت الى ديوان الحربية كما أمرت ولما دخلت على الناظر كان أول خطاب وجهه الى «أنت جئت» كأنه يرتاب فى مجيئى ثم قال. بعد ساعتين نتشرف بمقابلة الجناب الخديوى المعظم فاظهرت السرور وبعد انقضاء الساعتين ركبت معه عربته ولما مثلت بين يدى الخديو قابلني بالبشاشة والاكرام وكان ناظر الحربية قد سبقني الى ذلك وبعد الجلوس سألني عن اسمي فقلت ابراهيم فوزي الذي قابل

سموكم مع الكولونيل غردون وأنا يومئذ حائز لرتبة الصاغقول اغاسي وقد أحسن سموكم عليّ برتبة البكباشي في غضون تلك المقابلة وقد تنازل سموكم بابلاغي ممنونية الكولونيل غردون مني وثناءه عليّ بالنسبة لما كان مني من الخدم التي أديتها في فتوحات خط الاستواء وتنازل سموكم أيضا وخاطبني بالفاظ التشجيع والوعد بالترقي اذا ظللت على النهج الذي أوجب ثناء الكولونيل غردون عليّ

فالتفت سموه الى ناظر الحربية وقال له لو رأيت الكتب التي وردت عليّ من الكولونيل غردون باللغتين العربية والفرنسوية بالثناء على هذا الرجل لعلمت انه مستحق لرتبة الفريق مثلك فاعتذر ناظر الحربية وأمره الجناب الخديوي بمعاملتي اسوة امثالي فانصرفت بعد اسداء الشكر للحضرة الفخيمة الخديوية وانصرف معي ناظر الحربية وفي نفسه شيء مني فدعاني لركوب عربته للعودة الى نظارة الحربية وبينما نحن سائرون لمحت منه امتعاضاً على الكولونيل غردون لانه يكيل الرتب جزافا فانكرت عليه ذلك وقلت له بلغني انك لما كنت حائزا لرتبة أميرالاي كنت أصغر سنا مني فقال كلاّ فانني لما رقيت الى رتبة اميرالاي كان سني أثنين وثلاثين عاماً فقلت له وما تحسب سني قال عشرين سنة أو اكثر بقليل فقلت ان عمري ثلاثون سنة وقد نلت الرتب باستحقاق حيث كابدت مشقات وقاسيت صعوبات في فتح بلاد جديدة وانتهى الحديث بيننا بالوصول الى الديوان حيث أمرني بالتردد عليه ريثما يجد لي وظيفة تليق بي فكنت مترددا نحو شهرين لم يعرض عليّ ناظر الحربية وظيفة تليق أولا تليق بي

قدوم الكولونيل غردون مصر واستقالته

وفى أواخر سنة ١٢٩٦ هجرية قدم الكولونيل غردون الى مصر لمقابلة الخديو فتوجهت لزيارته بقصر النزهة بشبرا حيث كان نازلا فيه ضيفاً على الحكومة المصرية فقابلنى بفتور وكان معه ضابطان أوربيان كانا موظفين بخط الاستواء حينما كنت مديرا. ولما رأيت منه هذا الفتور استأذنته بالانصراف فخرجت وأنا مصمم على عدم العود الى زيارته وبعد خروجى انكر عليه الضابطان ما قابلني به من الجفاء وكانا قد بارحا خط الاستواء لتبديل الهواء في الباخرة التى سافر عليها الدكتور ينكر وغادرا الخرطوم الى القاهرة فاوروبا قبل ان يقفا على شيء من أمري ثم انهما كانا عائدين من اوروبا ولما رأيانى مع الكولونيل غردون كانا يظنان انني قدمت معه كالمرة الاولى والضابطان المذكوران يدعى احدهما الكولونيل (مارنو بك) والثاني الكولونيل (منسون بك) فسألا الكولونيل غردون عن سبب هذا الجفاء فقص عليهما كل شيء من أمر ينكر فاكدا له تزييف كل ماوشى به ينكر وقصا عليه الحقيقة من أولها الى آخرها فلم يقتنع حتى أطلعاه على مخاطبات من السائح ينكر والدكتور أمين تدل على انهما كان يلحان عليهما ليوافقاهما على دسائسهما ووشاياتهما عليّ فابيا ترفعاً وأنفة من مثل هذه الدناآت وعقيب ذلك ارسل الى الكولونيل غردون وبالغ فى الاعتذار ورجانى ان اعتقد بان منزلتى لديه صارت أجل وأرفع مما كانت عليه وانه يتأسف كثيرا على ما لحقنى من الاهانة فيما مضى فقبلت عذره وأكدت حفظ الوداد فكتب في الحال الي نظارة الحربية والي المعية السنية رسالتين يثنى عليّ فيهما ويسألها توظيفى بوظيفة لائقة

ولما وصل كتاب الكولونيل غردون الي المية السنية أمر الجناب الخديوي ناظر الحربية بتوظيفي فاعتذر بعدم وجود وظيفة لائقة فامر باحالتي على الاستيداع بنصف الراتب الذي هو خمسة وعشرون جنيها

ولم تمض ثلاثة أيام علي احالتي على الاستيداع حتي استدعاني الكولونيل غردون وعينني بوظيفة قائد عام لجنود السودان الشرقي فاخذت في الاهبة للسفر لمقر وظيفتي

وبينما أنا كذلك اذ بلغني ان الكولونيل غردون قد استقال من وظيفته وأقالته الحكومة الخديوية فاسرعت وسألته ان يتوسط لي في قبول الاقالة من هذه الوظيفة ففعل وقبلت وساطته وصدر الامر بعودتي الي الاستيداع

أما الاسباب التي بنيت عليها استقالة الكولونيل غردون فلم أقف على شي منها وغاية ماعلمته من أخبار الصحف وقتئذ أن الخلاف الذي كان قائما بين مصر والحبشة في مسألة تحديد التخوم لم يعمل فيه الكولونيل غردون بما كانت تجنح اليه الحكومة الخديوية من حسم الخلاف بالطرق الودية وملافاة الشحناء بالمخابرات السلمية بل كان يود غير ذلك وكانت حالة الحكومة الخديوية اذ ذاك في ارتباكات داخلية لايجهلها القارئ وهي التي بدت طلائعها قبل استقالة المغفور له الخديو اسماعيل باشا ويقرب من العقل تصديق هذه الرواية

وقررت الحكومة منحه عشرين الف جنيه مكافأة له على خدمته التي اداها بالسودان فاعتذر عن قبولها وأظهر شمما اذ قال انني ماخدمت الحكومة الخديوية لانال منها مكافأة بل كان قصدي خدمة المدنية ونفع النوع البشري وغاية مايمكنني قبوله هو مرتب شهرين باق لي لم أقبضه حتي الآن فدفعت

له الحكومة مرتب الشهرين فوزعه على الخدام والطهاة الذين كانوا يتولون خدمته فى قصر النزهة ولم يدخر منه غير نفقة وصوله الي بلاده ثم بارح القاهرة الي الاسكندرية فلوندره

تعيين محمد رؤف باشا حاكما علي السودان

وبعد استقالة غردون باشا عينت الحكومة خلفا له المرحوم محمد رؤف باشا الذي جعل ادارته قاصرة على الغاء أكثر الحاميات اقتصادا للنفقات وأنزل مرتبات الموظفين الي النصف ورافقه ضباط مصريون روى لنا واحد منهم هو القائمقام اسكندر بك محمد أنه سمعه يقول لم يحسن الجناب الخديو بتوليتي على عموم السودان لانني أعرف من نفسي عدم القدرة على ادارة شؤن هذه الاقاليم وكان الاحسن أن يعينني مديرا على اقليمى « بربر ودنقله » فقط وفي أيامه ظهر المهدي وكان من أمره ماناتي على شرحه

ذكر وظائف المؤلف بعد ذلك

وفى أوائل سنة ٢٩٧ ، تعين المرحوم عثمان رفقي باشا ناظرا للحربية المصرية فعينني فى وظيفة مامور عمليات اقليم الغربية بمرتب خمسين جنيها مصريا في الشهر غير نفقات السفر وبعد انتهاء العمليات عينت مامورا لتعداد النفوس باقليم الجيزة ثم عدت الي الغربيـة لفرز انفار القرعة ثم انتدبت لتحقيق مسألة دعوي جماعة من الضباط على دولة البرنس ابراهيم باشا أحمد بانه غصب منهم تفتيش الزنكلون من أعمال الشرقية وبعد مباشرة التحقيق ظهر كذبهم وفساد دعواهم ثم فصل عثمان رفقي باشا من نظارة الحربية وعين خلفا له محمود سامي

(باشا) البارودي وبدت حوادث العرابيين

وفي ابان ذلك أرسلت حكمدارية السودان الى المعية السنية تلغرافا تخبرها باول حادثة جرت لها مع المهدي فامرت الحكومة بحشد أربعة طوابير نصفها من السودانيين والنصف الآخر من المصريين وتاليف الاى منهم لارساله الي السودان وتعيين المؤلف أمير ألاى عليه وبعد حشد الجنود أخذنا فى تمرينهم على اطلاق النار بضواحى العباسية ثم بعد ثلاثة شهور أرسلت الحكمدارية تلغرافا الى المعية السنية تقول فيه إن ميزانيتها لا تحمل نفقات هذا الألاى وانها انتدبت لقتال المهدي يوسف باشا الشلالى وجعلت تحت إمرته جنوداً نظامية وباشبوزق وأكدت لها قدرته على مقاومة العصاة وإخضاعهم وأنه لابد أن يقضي القضاء الاخير على دعوة المهدى قبل أن تشب من طوقها. ولما كنت عارفا بيوسف باشا المذكور التزمت أن أعرف المعية عنه بانه كان نوتيا ثم صار نخاسا من الذين كانوا بحر الغزال ولم يكن عسكريا ولا اداريا قط فلم تلتفت لاقوالى وصدرت الاوامر بحل الألاي وكان من أمر يوسف باشا مايجيء ذكره في حوادث المهدوية وأضيف طابورا السودانيين الي لواء عبد العال حلمي (باشا) وقتئذ والآخران الي ألوية المصريين ثم عينت بوظيفة باشمعاون نظارة الحربية ومكثت بهذه الوظيفة حتى اطلاق الدونمة الانكليزية القنابل على الاسكندرية ثم عينت أمير ألاي على أحد الالايات التى جندت وقتئذ وهو الألاى الاول من الفرقة الثالثة وكانت اقامة هذا الالاى بثغر رشيد ثم أمرنا بالتوجه الى أبوقير وعسكرنا بها الى مابعد واقعة التل الكبير

ذكر ماوقع للمؤلف مع العرابيين

لا أنوحي في هذا المقام شرح حادثة العرابيين بل أبين للقاري ماحلقني من السجن والمحاكمة لدخولي في زمرتهم فاقول

لما انهزم عرابي في واقعة التل الكبير وتأثره الانكليز أرسل الينا تلغرافا بابو قير ينبئنا بهزيمته وانكساره النهائي ولم نلبث أن جاءنا بعد ذلك تلغراف من المغفور له توفيق باشا الخديوى السابق يخطرنا فيه بالقبض على عرابي وزجه في السجن ويامرنا بالتوجه الى كفر الدوار وبتسليم الاسلحة والذخائر لقائد الجنود الانكليزية هناك فامتثلنا وذهبنا الى تلك الجهة فوجدنا بها الجنرال (وود) الذي صار بعد ذلك سردارا للجيش المصرى وعند ما أبصرنا أمر جنوده باخذ الاهبة والحذر فتقلدوا الاسلحة ولذلك تركت عساكرى وذهبت بنفسي الى مكانهم عند قنطرة المحمودية ومعى فارسان فقابلنا الجنرال (وود) وسألني عن نفسى فقلت له الميرالاي ابراهيم فوزى قائد الألاى الاول من الفرقة الثالثة فقال وماذا تقصد الآن فاخبرته بتلغراف الخديو فقال أأنت خاضع له قلت نعم فقال ترجل عن جوادك وسلم سيفك ففعلت فرد الي السيف وأمرني بالعودة الى عسكري لامر بهم في وسط صفوف عساكره ونجري تسليم الاسلحة والذخائر عند محطة كفر الدوار وانصرف العساكر الى بلادهم فرجعت الى عساكري وألقيت عليهم التعليمات المذكورة واكدت عليهم بلزوم الادب وقلت لهم في عرض كلامى اذا لم تكونوا شجعانا بواسل في بداية الحرب فكونوا مؤدبين في نهايتها فاطاع العساكر أوامرى واجتازوا صفوف الجنود الانكليزية بكل هدو وسكينة وكانت الجنود الانكليزية تؤدي وقت

مرورنا التحية العسكرية حتى جاءنا أحد ياوران الجنرال وأمرنا بوضع الاسلحة والذخيرة في عربات السكة الحديدية ثم انصرف المساكر الى بلادهم وتلطف الياور فى سؤالنا تسليم سيوفنا وأسلحتنا الخصوصية ورايات الالوية ففعلنا

وعقيب ذلك ساقونا وجميع الضباط وكانوا نحو مائتى ضابط الى سراي الرمل بصفة مسجونين وخفراءنا من الجنود الانكليزية وكانت معاملتهم لنا حسنة سيما تقديم الاغذية النظيفة والشاى والقهوة وبعد انقضاء أسبوع جاءنا الفريق اسماعيل كامل باشا ومعه ضباط من المعية فاطلقوا اصغار الضباط وأبقوا كل حائز لرتبة القائمقام فما فوقها وبعضا من الحائزين لرتبة البكباشى وأبلغوهم جميعا خبر تجريدهم من رتبهم وألقابهم ونياشينهم وأنهم كسائر افراد الاهلين. ثم ساقونا الى الاسكندرية فسراي رأس التين وبها وجدنا المغفور له الخديو توفيق باشا واقفا على شرفة مطلة علينا وعلامات الاسف ظاهرة عليه حيث كانت الجنود الانكليزية محيطة بنا احاطة السوار بالمعصم

ذكر السجن المظلم

وبعد وقوفنا تحت الشرفة بسراى رأس التين جاءنا عثمان باشا عرفى محافظ الاسكندرية وقادنا الى سجن باب شرقى بالاسكندرية وأدخلنا من سرداب لايسع اكثر من شخص واحد الى سجن مظلم لانرى فيه نور النهار ولا يبصر بعضنا بعضا من شدة الظلام وفي هذا السجن حشرات من نوع البراغيث والبق تتسابق على انتزاف دمنا ولشدة تراكم بعضها على بعض نحس بحمل ثقيل فوق جسمنا فضلا عن الآلام التي نتكبدها من امتصاصها حيث يستحيل معها أن تزور الكرى اجفاننا . وبتنا تلك الليلة ولا فراش لنا غير الارض التي

تثور منها الحشرات وغطاؤنا السقف الذي يعطرنا الكثير منها وزد على ذلك الظمأ فاننا قضينا تلك الليلة نستغيث ونطلب جرعة ماء فلا نجدها حتى مطلع الشمس فدخل علينا الخفراء وكانوا ايطاليين لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة العربية كما أننا لا نعرف مثلها من لغتهم والمكالمة بيننا بالاشارة والايماء وبعد مضي ليلتين في هذا العذاب جاءنا خبر قدوم خدامنا حاملين فرشنا واغطيتنا وبعض ملابس فتناولها الخفراء وألقوها بين ايدينا بغير تمييز فأخذ كل واحد منا يميز فرشه وملابسه

وأما الغذاء فان الخفراء حينما يأتيهم الخادم بطعام ويخبرهم باسم سيده يدفعونه لآخر ولسنا نعلم لذلك سببا سوى الاهمال وعدم الاعتناء ولم ندفع ضرر هذه المسألة الا بالاتفاق بيننا على تأدية ثمن الاغذية من جيبنا حيث صار المتعهد يؤدي لكل واحد غذاءه دون أن يلحقه حيف وبعد خمسة وعشرين يوما غادرنا السجن الى مصر وقد حملنا على عربات العفش ولما وصلنا المحطة وجدنا شرذمة من العساكر المصرية تنتظر قدومنا بها فاحاطت بنا حتى أوصلتنا سجن الضبطية حيث وجدنا به عرابي (باشا) ورفقاءه وكل الذين وقعت عليهم تهمة معاضدته وما تقابلت الوجوه ببعضها حتى أقبل بعضنا على بعض نتلاوم متخاذلين كما هو شأن المخذولين وبعد ثلاثة أيام نقلنا الى الدائرة السنية وسجنا فرادى حيث كان خفراؤنا من الجراكسة فانتقموا منا شر انتقام وكانوا يهينوننا بالدفع واللطم والشتائم القبيحة وغير ذلك من انواع سوء المعاملة حتى أنه لم يكن يؤذن للواحد منا بالذهاب الى المرحاض الابعد التتيا والتي ويقفون بالباب ويدعونه للخروج قبل قضاء الحاجة وان لم يبادر بالاجابة يلجون عليه ويخرجونه مسحوبا على وجهه. وقد اتصل نبأ هذه المعاملة السيئة برجال الاحتلال فقاموا وقعدوا وشددوا النكير على الخفراء وحالوا بينهم وبين متابعة هذه

الفظائع واتسدبوا واحدا من ضباطهم صار يمر على السجن كل يوم ويسأل المسجونين فردا فردا عن راحتهم ويتولى بنفسه قطع أسباب الشكوى واذا أبلغه مسجون شكوى من أحد الخفراء عاقبه عقاباً صارما

وفى غضون ذلك قبض على عدد ليس بقليل من العلماء الازهريين بتهمة موالاة العرابيين وسجن كل واحد منا مع واحد منهم وكان حبسي مع واحد منهم يسمي الشيخ احمد عبد الغني وكان فاضلا وكنت حسبت انى أجد منه أنيسا يسري عني بحديثه الهموم فنقضي معا وقتنا بشيء من التسلية لكنه لم يكن ذلك لانه كان يقضى اكثر أوقات الليل والنهار نائما لا يكاد ينتبه الا لاداء فريضة الصلاة أو تناول الطعام فعتبت عليه يوما وطلبت منه أن يقلل من نومه فاعتذر بانه مادام متكدرا فلا يفارقه النوم فتعجبت من هذه العادة التي فطره الله عليها وتمنيت أن أكون مثله فى هذه الحالة

وكنا في كل يوم نساق للاستنطاق وكان صاحبي الشيخ احمد عبد الغني يدافع عن نفسه دفاعا كانت نتيجته سرعة الافراج عنه فبقيت بعده منفردا أتمني رفيقا بدله ولو كان نواما مثله آنس برؤيته وأسمع ترديد أنفاسه. وبعد ذلك ببضعة أسابيع أفرج عني بالضمانة بعد استيفاء المجلس أسئلتى

مسألة احراق الاسكندرية

وبعد خروجي من السجن أخذت الي الاسكندرية للاستنطاق عن حادثة الحريق التى حدثت بها فذهبت اليها وتوجهت الي المجلس الذي شكل بها لتحقيق هذه المسألة تحت رئاسة محمد رؤف باشا حيث ادعى القائمقام سليمان داود بك أن (عرابى) أرسل اليه بأمره باحراق الاسكندرية فاظهرت كذبه فى ذلك

وبينت للمجلس الحقيقة وهي أن سليمان داود بك أحرق الاسكندرية من تلقاء نفسه وان عرابي لما بلغه هذا الخبر أرسلني اليه ومعي القائمقام نسيم بك الطوبجي قبل غروب الشمس بساعة وقال لنا قولا له ان هذه المدينة مصرية وفيها نزلاء أجانب وليست انكليزية حتى يجوز لنا احراقها انتقاما من فعل مدرعاتهم باستحكاماتنا وقال ادعواه ليحضر بلوائه الى باب شرق فلما ذهبنا اليه وجدناه واقفا في ساحة المنشية يملأ الطلمبات بزيت البترول ويقذفه على المدينة ويأمر عساكره بنهب ما في المنازل ولما أبلغناه الاوامر كان جوابه لنا « اني أرفض سماع هذه الاوامر ولا أفعل غير ما في ارادتي » وختم كلامه بقوله « يرى الحاضر ما لا يرى الغائب » فتركناه وعدنا لعرابي فاخبرناه فاستشاط غيظا وأرسل اليه جماعة من الضباط وأمرهم بنصحه فان لم يرضخ للامر طوعا رضخ كرها فخاف العاقبة وترك الاسكندرية ولحق بعرابي في باب شرق فعنفه واكثر من لومه وبعد ان أخذ المجلس أقوالي واجهني به قاعدته في وجهه فانكر فجيء بالقائمقام نسيم بك فأيد ما قلته ثم استشهد بضباط آخرين من ضباط لوائه قال انهم سمعوا مني ومن نسيم بك ابلاغه أوامر عرابي بحرق الاسكندرية فجيء بهم فشهدوا عليه مؤيدين كل أقوالنا ولم يكتف بهؤلاء حتى استشهد بغيرهم فشهدوا عليه لا له وأخيراً حكم عليه بالاعدام شنقاً

تجريد المؤلف من رتبه وألقابه

وعلى أثر ذلك أشخصت من الاسكندرية للقاهرة كما أمرني المجلس وبعد عشرين يوما أقمتها فيها صدر أمر عال بالتصديق على بعض الاحكام الصادرة

على الضباط والتعديل فى بعضها فكان نصيبي من هذا الامر التجريد من كل رتبي والقابي ونياشيني التى احرزتها بالمتاعب والمشقات واقتحام لاهوال في فتوحات خط الاستواء وبيد الله كل شيء، واليه مصير كل شي، ولا حول ولا قوة الا به

تاريخ السودان القديم

أورد فى هذا الباب طرفا من تاريخ السودان القديم نقلا عن مصادر يتعذر ايرادها فى مثل هذا الكتاب اذ لا يوجد تاريخ لهذه البلاد لما كانت عليه من البداوة فسكانها الاقدمون زنوج يطلق عليهم اسم (النوبة) وفى القرون الوسطى دخلها أعراب من صعيد مصر واختلطت أنسابهم بالنوبة وقامت منهم دولة عربية اخضعت لسلطانها كل السودان المصرى عدا كوردفان ودارفور وتدعي هذه الدولة بدولة (الفون) نسبة الى مؤسسها وكان مقرها بمدينة سنار التي تبعد عن الخرطوم مسيرة عشر مراحل جهة النهر الازرق

وروى لنا شيخ من السودان ان العرب الذين استوطنوا السودان انتشر الجهل بينهم بعد انقراض جيلهم الاول وأصبحوا لا يعرفون من الاسلام غير الشهادتين فكانت المرأة اذا طلقت في الصباح تزوجت بآخر قبل المساء وحكى لنا ان شاعراً ينظم القصائد باللغة العامية دخل على أحد ملوك الفون فانشده قصيدة مدحه فيها وجاء فى آخرها ذكر (طه) صلى الله عليه وسلم فانكر الملك هذا الاسم وسأله مستفهما أمن الصحابة طه هذا فسكت الشاعر فاعاد عليه السؤال قائلا كيف لا تعرف طه فقال أظنه من صغار الصحابة لانني أعرف الاكابر كعلى وعمر وأبى بكر وقس على ذلك من أمثال هذه الجهالة

وأما مظالم هذه الدولة فحدث عنها ولا حرج فان الملك وسائر قواده وذوى قرابته لهم ان يأخذوا كل بنت حسناء ويتمتعوا بها كموطوءة بملك اليمين ولا يمكن ان يقل عدد الحظيات فى بيت الملك عن الألف ومن دونه عن المائتين

وكانت البلاد الواقعة وراء سنار غنية بكثرة معادنها الذهبية ويجبى الى اولئك الملوك من خراجها القناطير المقنطرة فيصنعون منها الحلي التي من بينها شكل على هيئة راس (سفنكس) الذى هو من قدماء المصريين ويسمون هذا الشكل « دجاجه » وكان أهل الطبقة العالية من النساء لا يلبسن نعلاً الا من الذهب ولا ينمن الا على أسرة من التبر

وكانت البلاد منقسمة الي مقاطعات ولكل مقاطعة منها وال يجبي الخراج بغير حد معلوم. وقد حدث فى بعض السنين ان الملك صادر كل محصولات البلاد فوقعت فى مجاعة بلغ فيها ثمن اوقية الذرة مثلها من الذهب وما حال الحول حتي هلك من الناس مايربو على ثلاثة ارباع السكان

ومن عوائد هؤلاء الملوك ان لا يدخل عليهم أحد وعلى راسه قلنسوة أو عمامة بل يدخل مكشوف الراس حافي الاقدام حاسرا ملابسه الى مافوق سرته ويجثو على ركبته ويقول « ما نجل » اى ملك الملوك ويرددها حتى يأمره الملك بالجلوس فيجلس على الارض جاثياً على ركبتيه وهذه التحية واجبة على كل أحد للملك وسائر افراد اسرته من ذكر أو انثى

وكان من عوائد بنات الملوك أن يخرجن مكشوفات الوجوه كالافرنج وخلفهن المئات من الجواري يحلى كحلى سيداتهن تحمل كل واحدة على راسها طبقا من الخوص فيه من ضروب الزينة كالذي عليها وعلى مولاتها ومن

أشهر ملوك هذه الدولة الملك (العجيب بن الما نجلك) وتسمي هذه الدولة باسم الزرقا، لان ملوكها كانوا يلبسون قلنسوة سوداء لها قرنان طويلان

ثم دالت هذه الدولة بعد أن مضي عليها قرنان وقامت دولة الهمج وهم مماليك (الفون) ثاروا على مواليهم ونزعوا الملك من أيديهم وكانت دولتهم شبيهة بسابقتها الا أنهم أبطلوا الولاة ومنحوا كل شيخ قرية أو رئيس قبيلة سلطة مطلقة يحكم في قريته أو قبيلته بما يشاء بشرط أن يؤدي للملك كل مايفرضه عليه من الخراج فى كل عام فاغترف أولئك المشائخ من المظالم والمغارم مالا يحصى. ومن انواع هذه المظالم أن شيخا من مشائخ قرى الجمليين قبض على عشرين رجلا من رعاياه بتهمة انهم سعوا به عند الملك فلما أوقفوا بين يديه قال لهم من لم يتمخض منكم كما تتمخض المرأة ويلد بيضة كبيضة الدجاجة ضربت عنقه وبعد هنيهة ضرب اعناقهم بعد أن تمخضوا ولم يلدوا بيضا

وأمثال هذه الافعال الوحشية كثيرة يضيق المقام دون ايرادها وآخر ملوك هذه الدولة (عدلان بن ادريس) الذي سيأتي ذكره وانه اسلم سيفه الي الامير اسماعيل باشا بن محمد على باشا. وقبل الختام نورد نكتة للملك عدلان ابن ادريس وهى أنه كان يدمن الخمر فى نهار رمضان وكانت له وصيفة اسمها (تام زينه) فاذا جلس فى مجلسه والناس حوله دعاها وسألها أغربت الشمس فتجيبه غربت شمسك وشمس رعيتك لم تغرب فيتناول الكأس منها ويشربه وقد صدق هذا الفأل عليه وغربت شمس ملكه والدوام لله

ضم السودان الي مصر

فقضى ساكن الجنان محمد على باشا محيي الديار المصريه لبانتين من فتح

السودان بل تخلص من ورطتين كبيرتين فقد علمت من شيخ ذى منصب معاصر لمحمد على باشا أن دولة أو روبية كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل فاهتم لهذا الخبر اكبر اهتمام واستشار كثيرا من المهندسين الاوروبيين الذين جاء بهم من بلادهم الى هذا القطر فاقروا بالاجماع على أن وقوع منابع النيل تحت يد هذه الدولة مما لاتحمد مغبته حيث تصير حياة مصر فى يدها فصمم على انفاذ حملة الي السودان وكانت جنوده من النز غير النظاميين وكان يقاسى أهوالا من عدم انقيادهم له فيما كان يتوخاه من انشاء جنود نظامية على الطراز الاوروبي فعول على انفاذهم الى مجاهل السودان ليستريح من مشاكستهم وهناك احدي الخطتين اما الموت أو الظفر. فان كان الاول لا يعدم من جنوده الذين ينظمهم على الشكل الاوروبي عوضاً عن هؤلاء وان كان الثاني فيكون قد أمن الخطر التي يتهدد حياة بلاده. وظل أولئك الفاتحون يجنون خيرات البلاد المفتوحة بايديهم وانطلقت يد العزيز يجند كيف يشاء ويدرب الكتائب وينظمها بلا معارض ولا عذول

هذان هما السببان اللذان وجها عزيمة المغفور له محمد على باشا الي فتح السودان فهيأت المقادير له قضاء اللبانتين و التخلص من الورطتين فوفد عليه زعيم قرية من قري الجمليين باقليم وبر اسمه (بشير بن عقيد) وقريته اسمها (العقيدة) فى الضفة الغربية من النيل شمالى قرية (شندي) بنحو عشرين ميلا فاستقبله بالاكرام وعرض هذا الزعيم على محمد على باشا انفاذ حملة لفتح السودان وقص عليه سبب قدومه وهو ان زعيما يدعى (الملك نمر) وشي به عند الملك فارسل اليه يستقدمه فاعتذر فارسل خلفه شرذمة من رجاله وأمرهم بضرب عنقه

عند وقوع بصرهم عليه فقر منهم ولجأ الى مصر فاخذ محمد على باشا في الاهبة وسير الحملة وجعل قيادتها لابنه الامير اسماعيل فغادرت القاهرة فى أواخر عام خمس وثلاثين بعد الالف ومائتين من الهجرة فاجتازت اقليم دنقله من الشمال بدون مقاومة وفي جنوب هذا الاقليم تألبت قبيلة الشايقية وحاربت الجيش المصرى فرجعت مقهورة وسار الجيش الى الجنوب فقابله سكان اقليم (بربر) بالخضوع واجتاز النهر الى جزيرة الخرطوم فاعجب الامير منظر الخرطوم وموقعها بين النيلين وكتب الى والده بما أحرزه من النصر ثم زحف قاصداً (سنار) ولما دنا منها كتب الى الملك عدلان بن ادريس يدعوه الى التسليم ويحذره سوء العاقبة فكتب اليه الملك كتابا يقول له فيه «ان مدينة سنار محروسة بالخيول الرومية. وفيها شبان يحبون القتال بكرة وعشية. فلا تغتر بانتصارك على الشايقية. بل تيقن اننا نحن الملوك وهم الرعية.» وما وصل الكتاب الي الامير اسماعيل حتي زحف بخيله ورجله عليه فالتقي الجيشان فى وسط غابة «ابى سقرة» ولا سلاح لدى السودانيين غير الحراب والسيوف فاصلتهم العساكر المصرية ناراً حامية فانهزموا وتأثر الامير اسماعيل بمن معه المنهزمين حتى دخلوا مدينة سنار فقصد الامير دار الملك فالفاه جالساً فى إيوانه فدخل عليه فوقف خاضعا بين يديه وصافحه وأسلمه سيفه علامة على الطاعة والخضوع وأجلسه على فراشه وجلس على الارض كواحد من الناس وكان يلتفت الى من حوله من اتباعه ويقول لهم «هكذا أراد الله فلاراد لقضائه» وبعد هنيهة قام اليه الامير اسماعيل وادناه منه واجلسه بقربه وحفظ له حرمته ولم يسلبه شيأ غير الامر والنهى وحذا حذو الامير فى اكرام هذا البيت كل الذين تولوا الحكم على السودان

فتح كردفان

وبعد استيلاء المصريين على سنار أنفذ الامير اسماعيل صهره الدفتردار بجيش لفتح كردفان ودار فور وكان فيها قائد من قبل سلطان دارفور يدعي (المقدوم مسلَّم) بجمع لقتال المصريين سبعين ألف مقاتل من أهل دارفور فتلقاهم الدفتردار ومن معه بنيران حامية فانهزموا وهم وجلون من فرقعة المدافع واكثرهم يظنون أن الله أرسل الرعد والصواعق تحاربهم مع المصريين وأخذوا يكررون الآية (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) واستولى الدفتردار على كوردفان وأخذ في الاهبة للزحف على دارفور ففاجأه نبأ مقتل الامير اسماعيل فى (شندي) فعدل عن متابعة الزحف وقصد شندي محل الواقعة وكان ذلك فى أواسط سنة ١٢٣٧ هجرية

مقتل الامير اسماعيل باشا

بعد اتمام فتح مدينة سنار واعلان ضمها لاملاك الخديوية المصرية عاد الامير الى شندي ليجمع المال لنفقة اتمام فتح السودان الغربى فنزل ضيفاً عند زعيم شندي (الملك نمر)

وهنا أبسط للقاريء حقيقة أرى من الواجب عليّ تقريرها فان الاقوال تباينت في ايضاح السبب الذي من أجله قتل الملك نمر الامير اسماعيل باشا. فروي بعضهم ان الامير رأي امرأة هى أخت هذا الزعيم فسأله عنها فقال انها احدي جواريّ فقال له ممازحاً أطلب منك مائة مثلها فلم يحمل الزعيم هذا القول على المزاح بل ظن ان الامير انما يود التطاول لهتك عرضه فأضمر له الشر وفعل مكيدته التى تراها فى هذا المقام

على ان هذه الرواية لا تخلو من انتقاد لان المطلع على اخلاق وعوائد اعيان السودان يرى انهم من الرفيع الي الوضيع لا يأنفون من تقديم الجواري لاي ضيف ولو وضيعاً فضلاً عن حاكم ذي مقام سام كالامير اسماعيل باشا وبذلك يمكنني ان اؤكد فساد هذه الرواية وبعدها عن الحقيقة بعداً شاسعاً. وهناك رواية أخرى اوردها هنا لانني اعتقد قربها من الحقيقة ان لم تكن هي الحقيقة عينها علي ان السبب الذي أدى الى هذا الاختلاف هو أن الامير وسائر الذين كانوا يرافقونه ذهبوا ضحية تلك المكيدة ولم يفلت منهم أحد ولا ريب ان كل رواية عن هذا السبب يرجع اسنادها الى قاتليه ولا ريب أيضا انهم لا يقولون الا ما يبرر فعلتهم ويختلقون اسباباً تمحو عنهم عاراً ارتكبوه بقتل الامير فى ضيافتهم وليس معه غير نحو عشرين مملوكا من الجراكسة خدامه الخصوصيين

أما الرواية التى أشرت الي أنها القريبة من الحقيقة فهى ان (الملك نمر) عرض على الامير اسماعيل باشا اموالاً طائلة وسأله أن يبعد عنه (الملك بشير بن عقيد) الذي تقدم لنا ذكر وفوده الى مصر ومرافقته الامير فيها وقد ذكرنا ان الاسباب التى أدت الى فراره هي احنة بينه وبين الملك نمر وانه سعى به الى الملك الذى ارسل فى طلبه ففر من وجه طالبيه. وفى رواية وان يمكنه من قتله فغضب الامير عليه وانتهره فصمم علي اغتيال الامير والغدر به قبل ان تأتي رجاله لانه كان يخشي ان يلحقه مكروه من الامير بعد ذلك فجمع قدراً كبيراً من البوص حول الغرفة التى ينزل فيها الامير وفى منتصف الليل أضرم النار فمات الامير من الاختناق بالدخان وفى غداة النهار أخرجت جثته وليس بها أثر من النار وجردت من ملابسها وأخذ النسوة يهينونها بالضرب والبصق والسحب على الارض وفي آخر النهار

أخذها رجل من التجار وكان الفساد قد دب فيها فطلاها بالصبر وخبأها فى بيته وبعد اسبوعين جاءت الاخبار بقرب وصول الدفتردار وأخذ الملك نمر فى الاهبة للفرار من وجه الدفتردار الذي قتل من عشيرة الملك نمر ما يربو على عشرين ألف رجل وسبا من الصبيان والنساء مايزيد على هذا العدد وأرسلهم الى القاهرة ولا تزال ذراريهم موجودة بجهة (حوش الجاموس) وفى كثير من البيوتات القديمة . وتأثر الدفتردار الملك نمر وقتل من رجاله خلقاً كثيرا وانتهي الامر بالتجاء الملك نمر الى بلاد الحبشة وبقى فيها حتي مات حقيراً ذليلا

وهبت ثورة من حزب ضد الملك يعرف باسم (الشفآتيه) فقتل عمر ابن الملك نمر واستأمن بقية أولاده الحكومة فأمنتهم وأذنت لهم بالاقامة فى جهة الصوفي عند نهر (أتبره) ويقال ان تصدى حزب الشفآتيه لقتل ابن الملك نمر واضطرار أولاده لمفارقة الحبشة والسكنى فى بلاد الحكومة كان بدسيسة من حكام السودان ليرتاحوا من مفاسدهم لانهم كانوا يوالون الغارة على بلاد الحكومة وينهبون ويسلبون ويعثون في الارض الفساد وبموتهم انقطعت هذه المفاسد واستتب الامن وعادت السكينة وانقطعت القلاقل

شخوص محمد علي باشا الي السودان

وعلى أثر المذابح التى أتاها جنود الدفتردار في شندى تمكن الرعب والفزع من قلوب السودانيين وعول كثير منهم على الهجرة ومغادرة البلاد التى وقعت تحت سلطة المصريين فشخص المغفور له محمد على باشا الى السودان ليتدارك الحالة قبل اتساع الخرق وتعذر رتقه فسافر على طريق النيل فوصل

الى الخرطوم وتعداها الى ماوراء سنار وعاد بقناطير مقنطرة من التبر وتمكن بحكمته من اعادة الامن الى ربوع السودان وبدل ماخالج أفئدة السكان من الرعب بالامن والاخلادالى السكينة اه

ولاة السودان

في اوائل سنة ١٢٣٨ هجرية اسندت حكمدارية السودان الي المرحوم عثمان بك فعمل لتسكين خواطر الاهلين واجتهد فى تأمينهم واعانهم على حراثة أراضيهم ليتسنى لهم الخلاص من مخالب القحط الذى كان فاشيا في السودان عامئذ وشرع في تعمير مدينة الخرطوم وجعلها عاصمة السودان المصرى وكان مركز الحكومة منذ الفتح فى مدينة (ولد مدني) التي تبعد عن الخرطوم مسيرة أربعة أيام على ضفة النيل الازرق وهي ذات هواء جيد بالرغم عن كثرة نزول الامطار بها ولا تزال تلك المدينة موطناً لكثير من المصريين

وفى سنة ١٢٣٩ خلف (موحو بك)عثمان بك فى الحكمدارية ولا بد ان يلاحظ القارئ ان مدة عثمان لم تطل اكثر من سنة مع العلم بأن مدة الذهاب والاياب بين مصر والخرطوم تستغرق نصف سنة على الاقل فتكون مدة الاقامة ومباشرة الاعمال هو النصف الباقى فنقول له ان أولئك الولاة كانوا على الدوام طامعين للاستقلال بالسودان وساكن الجنان محمد على باشا كان كثير الحذر منهم ولذلك كان يبادر بعزل كل من ارتاب في نواياه وقليل منهم من لم تكن نواياه مريبة وقدوجه موحو بك همته الى اتمام عمارة الخرطوم فشاد فيها القشلاقات لاقامة الجنود وأسس بناء دور الحكومة وغرس الاشجار الظليلة فى السبل

تستدل بها السابلة وحفر الآبار في الطرقات المعطشة ليستقي منها ابناء السبيل ولا تزال هذه الآثار باقية ومنسوبة الى (موحو بك) رحمه الله وجزاه الجزاء الحسن

وخلفه خورشيد باشا سنة ١٢٤١ هجرية وكان ذادين وورع واستقامة شيد المساجد وأحسن الى العلماء وكان يخرج فى كل ليلة متنكرا يتفقد حال الجنود والرعية وفى ذات يوم خرج على عادته آخر الليل فمر على أمة تصنع رقاقاً من خمير الذرة يسميه السودانيون (القرف) فدخل عليها وسألها عن هذا النوع فاخبرته فطلب منها شيأ منه فجهزته له مع الابن فأكله واستلذه فما زالت تعرض عليه وهو يأكل حتى رأي انه كاد يستنفد ماعندها فامتنع وهم بالانصراف بعد أن سألها عن مولاها وكان ذلك فى شهر رمضان فاستدعاه من الغد ليستسمحه من طعامه فاظهر له مزيد السرور والفرح من هذه الضيافة التى لم يكن يتوقعها وبقى خورشيد باشا حاكما على السودان مدة أثنى عشرة سنة أي الي سنة ١٢٥٣ حيث خلفه المرحوم أحمد باشا ابو ودان فافتتح السودان الشرقى وطارد عصائب اللصوصية من قبائل (البارية) وأسس مدينة (كسلا) وحصنها وكان مشهورا بالشدة على المفسدين وأهل السودان يطلقون عليه اسم (المنصور) وفى أيامه انقطع دابر الفتن والقلاقل وأنشئت سبع مديريات في السودان

وفى أواخر سنة ١٢٥٧ هجرية عزل أحمد باشا ابو ودان وخلفه احمد باشا المنيكلي فسار علي سيرة سلفه الا انه اعتنى بتأسيس أطيان تكون ملكا للحكومة يزرع فيها قصب السكر فنجحت ولكنها اهملت ممن خلفوه وحاول انفاذ كثيرمن المشروعات الزراعية ومنها زراعة النيلة لكن من الاسف أن أعماله قوبلت بعدم الاكتراث ممن خلفه

وفي أوائل سنة ١٢٦١ عزل منيكلى باشا وخلفه خالد باشا فبقي الى سنة ١٢٦٥ حيث فصل وتولى خلفا له عبد اللطيف باشا وفي هذه المدة بعث بعد ساكن الجنان عباس باشا الاول عزيز مصر المرحوم رفاعة بك فاسس مدرسة بالخرطوم على نمط المدارس المصريه وقتئذ وكان التعليم فيها حسنا ولكن مالبثت أن عادت القهقرى بعد عودة رفاعه بك الي مصر

وفي مستهل سنة ١٢٦٦ فصل خالد باشا وخلفة رستم بك فأسس المجالس في البلاد السودانية للحكم بين الناس على طريقة المجالس المصرية اذ ذاك ولم تطل مدة ولايته فقد أدركته المنية فى ربيع الاول من السنة التالية لولايته أى سنة ١٢٦٧ بالخرطوم ودفن فيها وتعين خلفاً له سليم باشا الذى اكره على قبول هذا المنصب من قبل المغفور له عباس باشا الاول

وفى أواسط سنة ١٢٦٩ عين على باشا سرى حكمداراً للسودان بدل سليم باشا الذي كان يكثر من الضراعة والاسترحام ليعافى من هذه الوظيفة

وفي ولاية هذا الحكمدار فى سنة ١٢٧٣ شخص ساكن الجنان محمد سعيد باشا والي مصر الى الخرطوم فوصلها في شهر جمادى الاولى من هذه السنة وتعداها الى ماوراء سنار وقفل راجعا الى القاهرة بعد ان خفف كثيراً من الضرائب وألغي البعض وكان رحمه الله ذا ميل شديد لمد سكة حديد الى البلاد السودانية

وفي سنة ١٢٧٤ تعين حسن بك سلامه حاكما علي السودان وسمي باسم (مدير عموم قبلى وبحرى السودان) وألغيت الحكمداريه بأمر المرحوم محمد سعيد باشا ولم تعد الا بعد تولية المغفورله اسماعيل باشا وفى سنة ١٢٧٧ عزل حسن بك وخلفه محمد بك فلم يلبث اكثر من سنة حتى عزل وخلفه موسى باشا حمدي فجند عسكراً كثيفا ونازل كثيراً من قبائل الجبال

بقصد اخضاعها فلم يفلح فى أكثر غزواته وأخيراً رمى بأنه طامح للاستقلال
وبقي الى سنة ١٢٨٠ حيث توفي بالخرطوم ودفن بها ويقال ان بعض الموظفين
دسوا له السم لما آنسوا منه الرغبة فى الاستقلال وهو أول من وضع الضرائب
علي الاهلين وقسم الخراج الى قسمين. قسم على العقارات. وقسم على الاشخاص
اما ضرائب العقارات فكانت مخصوصة بالبلاد الواقعة شمال الخرطوم. واما
ضرائب الاشخاص فهي مخصوصة بسائر البلاد السودانية لانهم صالحوه على
ذلك وفرض ضريبة سنوية على القبائل الرحالة وتعين بدله عثمان بك نغرى

وفى سنة ١٢٨١ عزل وخلفه جعفر باشا صادق وفي ايامه ثار اللواء
الرابع من الجنود السودانية بمدينة (كسلا) وقتلوا ضباطهم ونهبوا المدينة وقتلوا
كل ابيض واحتلوا مواقع المدينة من الحصون المحيطة بها واستفحل امرهم
فانفذ المغفور له الخديو اسماعيل باشا المرحوم جعفر مظهر باشا ومعه آدم
باشا السودانى فتمكنا من قهر العصاة والقبض عليهم واستئصال شأفتهم
واصدر الخديو دستورا بمنع تأليف قوة من الاسلحة الراكبة من السودانيين
وان لا يعلمو فن اطلاق المدافع (الطوبجيـة) وان لا يحتلوا مواقع منيعة
وأن لا يرقى منهم ضباط عظام. وبعد معاقبة الثوار عاد جعفر مظهر باشا الى
الخرطوم واسند اليه منصب الحكمدارية فرفع كثيرا من المظالم وسعي فى
نشر العلوم بين الشعب ورفع منزلة العلماء واجرى عليهم المرتبات ولاغرو
فالفضل يعرفه من الناس ذووه اذ كان عالماً تقياً ورعاً فارق الخرطوم وعليه
دين يربو على الالف جنيه لان راتبه لم يقم بحاجاته لكثرة انفاقه على
الفقراء والمعوزين ومن كرمه الحاتمي أنه كان يدعو لتناول الطعام على مائدته
الفاخرة اكثر من مائة شخص جلهم من العلماء فى كل غداء وعشاء ولا يزال

السودانيون يذكرون له هذه المبرات ويتبركون بسيرته في اكثر الاوقات وهم يجمعون على ان ايام ولايته كانت غرة في جبهة السودان رحمة الله عليه . وخلفه ممتاز باشا في سنة ١٢٨٨ فارتكب من المظالم شيئاً لم يسبقه اليه احد حيث أحل الظلم لنفسه وحرمه على من دونه وأوعز الى الاهلين أن يطالبوا الحكام والمأمورين بالرشاوى التي تناولوها منهم منذ ضم السودان لمصر ومن امتنع من أولئك الحكام أوقع به البلاء وضربه أكثر من خمسمائة جلدة ولم يمض سوى أيام قليلة حتي اجتمع عنده من المال شيء كثير ثم سافر الي سنار فعاد منها بما يقرب من خمسمائة ألف ريال وفي آخر الامر ظهر سوء عمله فسجن حتي توفى ولم يحسن في شيء مدة توليته غير تعليم الاهلين زراعة القطن

وفى مستهل سنة ١٢٩٠ خلفه في وظيفته اسماعيل أيوب باشا فتضاعفت المظالم وتوالت المصائب على السودان وبالرغم عن حنكته فى الادارة كان ذا شغف شديد بجمع المال فزادت الضرائب فى عهده حتى أصبح من المتعذر احتمالها ومن هاته المظالم تمكن في نفوس الاهلين الجنوح الى الثورة والعصيان

وخلف غردون باشا اسماعيل أيوب باشا وقد تقدم لنا ذكره فسعي في إزالة المظالم فلم يفلح لانه كان بسبب جهله باللغة العربية منقاداً الي كاتب أسراره التهامي بك وكان ظالماً يفوق اسماعيل أيوب باشا بمراحل فكان يقلب الحقائق لغردون باشا ويحسن القبائح وزاد الطين بلة ماجاء به غردون من تحرير الارقاء ومنع الاتجار بهم فان الاهلين عجزوا عن تحمل هذه المصيبة وباتوا آيسين من اصلاح معيشتهم لاسباب كثيرة . منها ان الاتجار بالارقاء معين ثروة كبيرة لهم. ومنها ان أهالي السودان لم يتعودوا فلاحة أراضيهم بأيديهم كما ان نساءهم لايخدمن خدماً بيتية بأيديهن فكانت مفاجأتهم بأمر تحرير

الارقاء سيئة المغبة وكان مما لاريب فيه استياؤهم من هذا الامر وخصوصاً ان القائمين بتحرير الارقاء كانوا أوروبيين ولشدة كراهتهم لهذا الامر حملوه على سوء القصد وظنوه اضطهادا من المسيحيين للمسلمين وقد سمعت واحداً من المشايخ كان يفهم من حوله أن مسألة تحرير الارقاء لم يكن لها أصل من القوانين بل هي اضطهاد ديني كالذى حل بمسلمي الاندلس فقصدت مراجعته في هذا القول فصمت وتظاهر بعدم المعرفة ولما انصرفت عنه قال لمن حوله وهذا كافر أيضاً

وفى مدة حكم اسماعيل أيوب باشا اختلت النظامات التى كانت تسير عليها المجالس التي تأسست في سنة ١٢٦٦ وتلاعب بها حيث جعل كل أعضائها من رجال السودان الجهلاء الذين لايعرفون غير تجارة الصمغ والمنسوجات وعهدت الرئاسة الى رجال لايفقهون كلمة من الكلمات التي تتركب منها جمل القانون وفى اكثر الاوقات يكونون أميين والقضايا لا يفصل فيها مع طول المدة فيظل الخصمان يتناظران بالرشوة حيث يحرص المجلس ويشدد على الخصم في الاستنطاق فيحذو حذو خصمه ويقدم المال فينقلب التشديد علي الآخر وهكذا حتى يملآ الانفاق فيتصالحان

وأما الحكام الاداريون فان أغلبهم من أهل البلاد وهم علة كل خراب وأصل جميع المظالم فقد كانوا يشترون الوظائف بالاموال ولذلك لايرون بدا من اعتياض ماأنفقوه أضعافا مضاعفة ولا ريب ان من فوقهم من الحكام لايصغون لشكوي من أولئك الظالمين ماداموا قد تناولوا رشوة باهظة منهم

وساءت تصرفات المأمورين الى حد أن المطالب باداء الضريبة يجوز

ضربه خمسمائة جلدة أو يؤدي ولو بضعة قروش ويتفننون في طرق التعذيب حتى ابتدعوا مسألة (القط) حيث يوثق الرجل كتافا ويدخل قط في سراويله فضلا عن تطاول أولئك الظلمة على أعراض الناس فيقبضون على كل امرأة حسناء عجز وليها عن اداء الضريبة ولهذه الاسباب امتلأت قلوب السودانيين بالضغينة وباتوا ولا هم لهم غير تدبير ثورة يتهيأ لهم بها الخلاص من هذا النير فاغتنم محمد أحمد المتمهدي هذه الفرصة وادعى المهدوية فقوبل بالتصديق والرضى من كل انسان حتى ان بعض المشائخ قال له أعاهدك سواء صدقت في دعواك أو كذبت مادمت على عداء الحكومة وحربها

ترجمة المتمهدي

ولد محمد احمد المتمهدى فى جزيرة (الخناق) الواقعة جنوب مدينة (العرضى) قاعدة اقليم دنقلة من أبوين دنقلاويين (بربريين) من قبيلة تدعي الخناقية تسكن هذه الجزيرة وكان أبوه يدعى عبد الله بن نخل وصناعته النجارة ينشىء السفن الشراعية ويصنع آلات السواقى وكان مولده فى سنة ١٢٥٠ هجرية وله أخوان يدعيان محمدا وحامدا كانا نجارين كأبيهما وأخت انثى تدعي آمنة واسم أمه (جاره) وفي هذه السنة أجدبت بلادهم بسبب انخفاض النيل فهاجر أبوه واخوته وهو رضيع لم يبلغ عمره ثلاثة شهور واستوطنوا قرية تدعي (كررى) شمال أم درمان نحو خمسة عشر ميلا ولم يحل عليه الحول حتى مات أبواه وتركاه يتيما تحت كفالة اخويه اللذين ذكرناهما. ولما بلغ السابعة من عمره كانا يصطحبانه معهما ليعلماه صناعة المراكب ففى يوم رأي غلمانا ذاهبين الى الكتاتيب وبايديهم الالواح فرغب فى ان يكون منهم فعنفه اخواه وحسنا له صناعة

المراكب ففرمنهما ولحق بكتاب فى شرقي النيل بقرية محاذية لقرية كرري وصاحب هذا الكتاب يدعى (الفكى الهاشمى) كان مشهوراً في تلك الجهة بتعليم القرآن بغير أجر فادركه اخواه واخرجاه من الكتاب وحذراه من المودة اليه فلم يكترث بتحذيرهما وعاد الى ما كان فيه فقيداه فتغيرت حاله ولازم الحزن والبكاء فرقا له وأعاداه الي الكتاب بعد ان اشترطا عليه العود لتعليم صناعتها بعد حفظه القرآن الشريف وبعد بضع سنوات عاد اليهما وتعلم صناعة المراكب وأخذ فى الاشتغال بها. ويقول الذين كتبوا سيرته انه لم يشتغل بهذه الصناعة زمناً بل صنع مركبا صغيرة فقط وتصدق بها على أرملة ثكلت ابنها ولكن الحقيقة انه اشتغل بهذه الصناعة زمناً كبيراً خلافا لزعمهم ثم فارق اخوته الى جهة مجهولة فلم يهتدوا لمكانه وماتت اخته آمنة غما لفراقه ولحق بمدرسة لرجل من أهل شنقيط يدعي الشيخ محمود كان يعلم الناس الفقه وبعض العلوم الشرعية ثم فارق تلك المدرسة ولحق بمدرسة أخرى لرجل من أهالي ضواحي بربر يدعى « محمد الضكير » وهو الذي سيجيء انه صار داعية له ببربر واسقط المديرية بيده وكان ذا كراهة شديدة لعلم الفقه فانقطع لدروس التفسير والحديث

وفى سنة ١٢٧٩ هجرية عاد الى وطنه وذهب الى الشيخ محمد شريف نور الدائم حفيد الشيخ احمد الطيب أحد خلفا الشيخ محمد السمان المدنى وكان معه بالمدينة المنورة فاخذ على يده عهد الطريقة السمانية ومكث ملازما لخدمته الى درجة أنه كان يطحن غذاءه بيده ويطبخ طعامه لا من قلة من يقوم بها بل ليتزلف بهذا الى استاذه وكان ملازما للصوم والعبادة حتي تحصل من استاذه على اجازة الخلافة ثم جاءه اخواه وألحا عليه بالعودة

لمزاولة صناعة المراكب كي يتحصل منها على مال يتزوج به ابنة عم له تدعى فاطمة بنت حاج فامتنع أولا ثم رضخ بعد الالحاح وذهب الى مدينة الخرطوم واقترن بها وفي ليلة دخوله اجتمع النسوة والرجال ليرقصوا مختلطين كعادة السوادانيين فقام بينهم ومنعهم من الرقص وابان حرمته فانصرفوا غضابا منه وكان في كل معاملاته يظهر الورع والتقوى والزهد والتقشف وعلى أثر اقترانه بابنة عمه انقطع عن العمل فكان أخواه يحرضانه عليه ويستعينان عليه بزوجته التي كانت تهجره ليقبل نصحها ويسير طوع ارادتها فلم يكترث بشيء من أقوالها ولم يتأثر من هجرها واخيرا جاءته في يوم من الايام وهو يقرأ في المصحف الشريف فأمسكته منه وألقته في الارض فاستشاط غيظا وطلقها في الحال وخرج من منزلها وافتتح مكتبا لتعليم الغلمان القرآن الشريف ثم أبطل المكتب ولحق بجزيرة (آبا) في البحر الابيض على مسيرة عشر مراحل من الخرطوم جهة الجنوب وكان بها رجل من قبيلته يدعى أحمد شرفي فتزوج ابنته وكان يقوم بكل ضرورياته من حرفته التي هي صناعة المراكب الشراعية أيضا وكان أستاذه الشيخ محمد شريف نازلا بمكان يدعى (المرابيع) لا يبعد عن هذه الجزيرة الا بضعة أميال

وفي أوائل سنة ١٢٩٥ وقع نفور عظيم بينه وبين أستاذه بسبب انه كان يري منه الميل الى دعوي المهدوية وكثيراً ما كان هو يحرضه على دعواها فأصدر الاستاذ منشوراً الى اتباعه يبلغهم فيه انه عزل محمد احمد المتمهدى من الخلافة وأبعده عن طريقته وذكر فيه عيوبه وطموحه الي الدعاوي الكاذبة توصلا الى الملك والرئاسة فكبر الامر على محمد احمد وكاد مريدوه ينفضون من حوله لولا أنه ذهب الى رجل مسن يدعى الشيخ القرشي من تلاميذ الشيخ احمد

الطيب جد الشيخ محمد شريف فأدخله فى سلك الطريقة وجدد له اجازة الخلافة وكان الشيخ القرشى هذا بالغاً من العمر نحو تسعين عاما فاقدا للقوي المميزة ويؤكدون انه ذو يد مع المهدى في تدبير الدعوى وانه مهد له انتحالها بما أخذ يتكلم به عنه من الشهادات الحسنة وانه يعلم ذلك بطريق الكشف والاطلاع على الغيب وأشار عليه بالسياحة فى انحاء السودان لاستطلاع أفكار الناس وأخذ العهود عليهم بنصرته وموازرته اذا صدع بدعوته ففعل ووجد من قلوب سكان كوردفان المملوءة بكراهة الحكومة ماقوى أمله بالنجاح

حادثة الغلام بكوردفان

ثم عاد المتمهدى من الحلاوين محل اقامة أستاذه الجديد الشيخ القرشى الى محلته بجزيرة آبا والحلاوين اسم لقرى عديدة على ضفة النيل الازرق على بعدست مراحل من الخرطوم جهة الجنوب وسكان هاته القري يطلق عليهم اسم (الحلاوين) وهم عرب تناسلو من قبيلة عربية تسكن فى جنوب سنار تدعى (جهينة) وسنأتي على ذكر شيء من أخلاق وعادات هذه القبيلة بعد اذهي من أكبر أنصار المتمهدى ومنها داعيته محمد بن البصير ولنعد الى ذكر المتمهدى بعد عودته الى جزيرة آبافانه شخص الى اقليم كوردفان فصادف نجاحاً عظيما من الاهالى الذين عاهدوه على موازرته ونصرته ثم عرج على الابيض عاصمة كوردفان فنزل ضيفا على أحد المشائخ الدنافلة

وفى ذات يوم سمع ضوضاء الطبول والموسيقات بمنزل بجوار منزله ورأى من الناس الدهشة والاستغراب فسأل عن الاسباب فقيل له ان فلانا النخاس يريد ان يتزوج بغلام اسمه (قرفه) فلم يصدق واخيراً دعى اثنين من

أتباعه وذهبو الى محل البدعة فوجدوا المدعوين والموائد ممدودة والموسيقى تصدح والدفوف السودانية (الدلوكه) تعزف وجيء بشخص يلبس عمامة وطيلسانا كالعلماء فاجري صيغة العقد ودخل النخاس بالغلام فامسك المتمهدى سيفه وهم بضرب عنق النخاس وكل من قابله من أولئك الفسقة الضالين فامسكه صاحباه وحملاه الى منزله فاجتمع معه جماعة من المشايخ وذهبوا الى محل الحكومة يشكون اليها أمر هذه المنكرات فقوبلوا بالاهانة والازدراء وقال لهم مامور الضبطية (الدنيا حرية) فجاءت هذه الحادثة من الاشياء التي يتمسك بها المهدى على فساد وكفر رجال الحكومة فعاهده كثير من أعيان ووجوه المدينة بالطاعة لاول اشارة تبدو منه وقفل راجعاً الي جزيرة (آبا) وبالبحث واجراء التحقيق من رجال الحكومة تحقق ان المسألة المعروبة لم يكن لها أثر من الحقيقة

وفاة الشيخ القرشي وتشييد قبة علي ضريحه

تقدم لنا القول بان الشيخ القرشي من الذين ساعدوا المهدي على دعواه بما نطق به من الشهادات المسندة الي الكشف والاطلاع على المغيبات في حقه وانه هو الذي اشار عليه بالسياحة في البلاد ولدى عودته الى جزيرة آبا وافاه نعي هذا الشيخ وانه ترك وصية قال فيها ان زمن ظهور المهدى المنتظر قد حان وان الذى يشيد على ضريحي قبة ويختن أولادى هو الامام المهدى المنتظر » فلما سمع المتمهدى ذلك طار فرحا وجمع نحو ثلثمائة رجل من أتباعه وذهب معهم الى الحلاوين وشيد القبة من اللبن الاخضر وختن أنجال الشيخ القرشى بعد أن أخذ العهود على كثير من الناس بتصديق دعواه قبل أن يصدع بها

ذكر اجتماع عبد الله التعايشي بالمتمهدي

لا نورد في هذه السطور شيئاً من ترجمته وذلك لنأتي بها عند افضاء الخلافة اليه وانما نذكر هنا طرفا من اجتماعه به نقلا عن الاستاذ الشيخ محمد شريف نور الدايم قال «في سنة ١٢٩٥ جاءني رجل من البقارة يروم سلوك الطريقة السمانية على يدي فلقنته أورادها ومكث ملازما لخدمتي واخبرني انه جاء مع والده من بلاد (الكلكة) جنوب مقاطعات دار فور قاصدين الاقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج وانهما فقيران لا يملكان غير عجل من البقر ذللاه بزمام وامتطياه على مألوف عادة أهالي تلك البلاد ولما وصلا الى بلاد الجمع من تخوم كوردفان الشرقية مات أبوه ولحق به العجل فأقام بمنزلى نحو عامين فكان اكثر كلامه معى قوله انك المهدى المنتظر من ارتاب في ذلك فقد كفر فكنت انهاه عن هذا القول ولا ينتهي وفى ذات يوم قلت له انا لست مهديا وأبغض شيء الى سماع هذه الكلمة التي لا يسير بها غير تلميذى الذي طردته محمد أحمد وقلت له على سبيل السخرية والازدراء اذا كنت ممن يتوقعون ظهور المهدية فعليك به وفى اليوم التالي سألت عنه فلم أجده وأخيراً علمت أنه لحق بمحمد أحمد المتمهدي وهو في الحلاوين يشيد قبة الشيخ القرشي وانه حينما وقعت عينه عليه خر على الارض مدعيا انه أغمى عليه وبعد حين رفع رأسه فسأله الحاضرون عن سبب اغمائه فقال نظرت أنوار المهدية على وجهه فصعقت من شدة تأثيرها على حواسي ومن ثم صاحبه وعاد معه الى جزيرة آبا وكان الدنقليون أقارب المتمهدى يضطهدونه ويزدرونه وهو يقابلهم بالحلم والصبر حتى أفضت اليه الخلافة فانتقم منهم شر

انتقام» هذه قصة اجتماع عبد الله التعايشي بمحمد احمد المتمهدي ومنها يعلم أنه ذودهاء وحيل ومكر وخداع وسنأتي على ترجمته وبقية أعماله في غير هذا المكان

دعوة المتمهدي سرا

وبعد عودة المتمهدي من الحلاوين أخذ يدعو الناس للمهدية سراً وبايعه على الطاعة خلق كثير من قبائل الاعراب النازلين حول جزيرة آبا منهم قبيلتا دقيم وكنانة وكان سبب اقبال هاتين القبيلتين على دعوته هو الخليفة (على بن حلو) الذي لقبه بخليفة الفاروق وكان دقيمياً صاحب محمد احمد المتمهدي وكان يستخلفه على محلته بجزيرة آبا كلما سافر الى مكان وكان في أول عهده يعلم الصبية القرآن الشريف

وقبيلتا دقيم وكنانة يقال لهم (البقارة) وهذا الاسم يطلق على كل قبيلة ماشيتها من البقر ورجالهم معروفون بالشجاعة وقوة الباس وعاداتهم تقرب من عادات قبائل كوردفان حيث لا تتزوج البكر قبل ان يكون لها أولاد من الزنا يعينون أخاها وكل ولد من هذا القبيل يدعى (عينة خاله) ونساؤهم مشهورات بالتربص في السبل وقطع الطرق على المارة لا لاخذ المال بل للفسق ومن امتنع من الرجال أمسكوه من مذاكيره حتى تفيض روحه أو يقع مغشياً عليه وقد أبطلت المهدية هذه العادة منهن فذهبت كأن لم تكن

وعاهده كثير من موظفي الحكومة السودانيين على موافاته بالاخبار واجتمع حوله زهاء ثلاثة آلاف رجل من الاعراب وعمال الحكومة لاهون

عنه وانبرى لتكذيبه أناس من نفس اتباعه ومريديه فأخذوا يبلغون مأمور المركز حقيقته فيردهم عنه لانه سوداني من قبائل الاعراب التي دخلت في دعوته وأخيراً رفع أولئك المبلغون العرائض الى الحكمدار محمد رؤف باشا الذى أحال النظر فيها على (الطيب بك) مدير فشوده فسافر من مقر وظيفته على باخرة حتى بلغ جزيرة (آبا) فامسك المتمهدي وزجه في السجن فقام اتباعه وقدموا للمدير رشوة مائة أردب من القمح وسفينة شراعية تحمل هذه الرشوة فاطلقه وهدد الذين أبلغوا الحكمدار وتوعدهم بكل مكروه اذا عادوا لمعارضته. وقال المهدي للمدير في غضون التحقيق ان الخضر عليه السلام هو الذي بشرني بالمهدية فقال المدير للمبلغين اتركوا صاحب الخضر وقفل راجعاً الى فشوده والمدير هذا هو الذي ذكرنا انه عين مديراً في أحد أقاليم خط الاستواء بدل المرحوم محمد رؤف بك (باشا)

ظهور دعوة المهدي

قلنا انه كان يدعو الناس سراً الي أوائل سنة ١٢٩٨ ثم كان من أمره مع مدير فشوده ماقوي عزيمته فأرسل الي جميع الذين عاهدوه بالطاعة منشوراً ختمه بخاتم نقش فيه محمد احمد عبد الله قال في طالعته بعد البسملة والحمدلة

«جاءني النبي صلي الله عليه وسلم في اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والاقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدي صلى الله عليه وسلم وأجلسني على كرسيه وقال لي أنت المهدي المنتظر ومن شك في مهديتك فقد كفر وان الترك كفار وهم أشد الناس كفرا لانهم ساعون في اطفاء نور الله ويأبي الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وأخبرني صلي الله عليه وسلم

بأن النصر يسير بين يديّ أربعين ميلا وانه صلي الله عليه وسلم يحضر بذاته الكريمة امام جيشي ومعه الخلفاء الراشدون وأن الله تعالى أيدني بالاولياء والشهداء والصالحين من لدن آدم عليه السلام الى زماننا هذا ومؤمني الجن يجاهدون معي ولا يهزم لي جيش وان الله ناصري ومؤيدي على كل من حاربني من الثقلين وان أصحابي كأصحابه صلى الله عليه وسلم وعامتهم اكبر مقاما في دار الخلد من الشيخ (عبد القادر الجيلي) وختم منشوره بالحض على الهجرة اليه ومغادرة الخرطوم للحاق به والجهاد معه وأرسل نسخا عديدة من هذا المنشور الي أناس فى الخرطوم منهم الشيخ الامين الضرير رئيس العلماء بالسودان فاطلع عليها الحكمدار محمد رؤف باشا الذي انتدب (أبا السعود بك العقاد) أحد معاونيه وأصحبه جماعة من الدنقليين سكان الخرطوم وأنفذهم رسلا اليه يدعونه الي الطاعة ويحذرونه الفتنة ويبلغونه أوامر الحكمدار بدعوته الى الحضور عنده فذهبوا على الباخرة (القاشر) فلما وصلوا الي جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان المهدى يتعبد فى سرداب في الارض فامتنع من مقابلتهم أولا ثم اذن لهم بلقائه فدخلوا عليه والسيوف مسلولة على رأسه فسألوه عن دعواه فاجابهم بما أوردناه من منشوره فقال له أبو السعود بك ان الحكمدار يدعوك الى الحضور عنده فقال لا أذهب فقال له يا سيدي أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فقبض على سيف كان على فخذه الايسر وكشر أنيابه وقال أنا ولي الامر الآن علي سائر الانس والجان فاستأذن الرسل وهمّ الناس بضربهم لولا ان شدد عليهم في الكف عنهم وقفلوا راجعين الى الخرطوم

واقعة جزيرة آبا

ولما عاد الرسل الى الخرطوم وقصوا على الحكمدار نتيجة مأموريتهم صمم علي ارسال قوة عسكرية تقبض عليه فانتدب بلوكين من المشاة المنظمين معهم مدفع من الطراز الجبلي وعين ضابطين من رتبة الصاغقول اغاسى (ابراهيم افندى علي وعلى افندي عزمي) وسير معهما أبا السعود بك العقاد وقال لكل واحد منهم انت قائد الحملة فسافروا على باخرتين في أوائل شهر رمضان سنة ١٢٩٧ فوصلوا الى جزيرة آبا قبيل غروب الشمس

هذا ما فعلته الحكومة أما المهدى فان اكثر الناس تفرقوا عنه ولم يبق معه غير نحو أربعمائة رجل جلهم من الدنقليين أقاربه علي أثر عودة الرسل عنه لانهم أيقنوا بان الحكومة لا بد ان تخضعه بالقوة

ولما القت الباخرتان مراسيهما بالجزيرة هبط الجنود الى الشاطئ وأخذوا فى الاهبة والاستعداد للزحف على محلة المهدى وكان السير متعذراً عليهم بسبب الاوحال المجتمعة من الامطار اذ كان الفصل صيفاً فبدأ الضابطان في العمل هذا يأمر الجنود والآخر ينكر عليه هذا الامر ويقول له أنا الرئيس وأنت المرؤس فيحتدم غيظاً ويجاوب زميله بالشتم ويقول لا بل انا الرئيس فتحاكما الى أبي السعود بك معاون الحكمدار فكان حكمه أنه الرئيس على كليهما فازداد الاشكال عقدةً ومكثوا على هذه الحال الي ما بعد نصف الليل فداهمهم المهدى بمن معه من المقاتلة ففتك بهم ولم يفلت منهم غير بضعة اشخاص منهم أبو السعود بك وقتل الضابطان وغنم المهدى اسلحتهم وذخيرتهم وترامت الاخبار في انحاء السودان بغلو كثير فيها واعتقد البسطاء انها من الاعاجيب السماوية

بل من الكرامات التى خص بها . وعاد أبو السعود بك بالباخرتين ووقع الرعب فى قلوب السكان وأيقن الكل ان أولئك الجنود الابرياء ذهبت أرواحهم ضحية سوء تصرف الحكمدار وقلة رويته وهجر الخرطوم عدد كبير من السودانيين ولحقوا بالضواحي

حملة علي بك لطفي

ولما وصل أبو السعود بك الي الخرطوم كان نبأ الفتك بالبلوكين قدسبقه اليها بالتلغراف فأرسل الحكمدار الى العلماء والاعيان وقص عليهم ماذكرناه من أمر المهدى فأشار عليه الشيخ شاكر الرئيس مفتي الاستئناف بان يتوجه بنفسه علي البواخر الى جزيرة آبا ولا يكل أمر هذه الفتنة لغيره فزجره الحكمدار وأغلظ عليه القول. ويروي عن بعض الحاضرين انه قال له أتريد أن تترمل امرأتي ويفقدنى أولادى ثم ان الحكمدار عين القائمقام على بك لطفى الشهير (بابى كوكه) ومعه بلوكان من المشاة ومدافع وسوارىخ ليخفر جزيرة آبا ويمنع وصول الامداد اليها من ضفتي النيل. وقد يندهش الانسان من هذه الاعمال الخرقاء وتدركه الحيرة من عمل الحكمدار هذا . اذ كيف يعقل أن باخرتين تقومان بحراسة جزيرة يزيد طولها عن خمسة عشر ميلا وما هى الفائدة من هذا الحصر . وأغرب من هذا وذاك أن المتمهدى قام بين أتباعه وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يصنع من (الطرور) أو (العمبج) وهو نوع يشبه الفلين لخفته وطفيانه على الماء شبه مراكب يجتاز بها النيل الى الضفة الغربية وان الله سيأخذ على ناصية الترك الكفار فلا يستطيعون ايصال الاذي الينا حتى نبلغ مأمننا من الشاطئ الغربي ومن هناك

وحكمدار عموم السودان

وبعد عشرين ليلة مضت غادر محمد رؤف باشا الخرطوم قاصداً مصر وناب عنه في ادارة شؤن الحكمدارية وكيلها ججلر باشا الالماني

حملة يوسف باشا حسن الشلالي

تقدم لي القول انى كنت بمصر لما أرسلت الحكومة حملة الي المهدي تحت قيادة يوسف باشا حسن الشلالي حيث عرفتها حقيقته وأنه رجل نوتي جاهل بالفنون العسكرية لجهله بالكتابة والقراءة فلم تلتفت لنصحي بناء على الشهادات الحسنة التي شهدها له وكيل الحكمدارية ججلر باشا وانه تعهد للحكومة بالقبض على المهدي فجردت الحكومة ستة آلاف جندي تحت قيادته منهم نحو الثلث من الجنود النظامية وضابط برتبة قائمقام واثنان برتبة بكباشي واثنان من مشاهير السناجق قواد للجنود غير النظامية (الباشبوزق) فشخص من الخرطوم في منتصف جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هجرية على عدة بواخر قاصداً فشوده ومنها الى جبل قدير فلحقه فى الطريق عبد الله ابن دفع الله ومعه نحو الف مقاتل من متطوعي كوردفان وانضم اليه وتابعوا سيرهم حتى فشوده ومن هناك ارسل القائد العام بكتاب الى المهدي يدعوه فيه الى الطاعة ويحذره مغبة العصيان وعرض فى خطابه بشيء كثير من الشتائم التى لا تليق فرد عليه المهدي بكتاب مشهور ننقله هنا ليطلع القارئ عليه اتماما للفائدة وهو بنصه

«بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المنتقم القهار . والصلاة على سيدنا محمد وآله الاخيار مع السلام.وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن السيد

اهداء الكتاب

﴿ الى سدة مولاى وولى نعمتى الخديو المعظم ﴾

عباس باشا حلمى الثاني

الافخم

« هذه يامولاي معلومات ومشاهدات شخص من رعيتك قضى »
« في السودان أكثر عمره بين ضابط صغير . وقائد كبير . وسجين »
« أسير . رأى كل ضروب الرخاء والشقاء . خلال المدة التي قضاها »
« في تلك الارجاء. وهى حوالى الثلاثين سنة ماتسنت لمصري غيري . »
« ولذلك رأيت أن أجعلها بين دفتي كتابي هذا الذى سميته « السودان »
« بين يدى غردون وكتشنر » لان جميعها عبارة عن مقدمة ونتيجة »
« انطوتا في معنى هذا الاسم فتقبل يامولاي هذه الخدمة التى قام بها »
« جهدالمستطاع عبد من أخلص مخلصي رعيتك لسدتك.لم ينس في كل »
« أطواره واجب ولاء عبوديتك. (ابراهيم فوزي) »

LIBRARY
JUL - 2 1964
UNIVERSITY OF TORONTO
91#523

تتوجه الي دار هجرتنا بجبال (ماسة وقدير)وهي دار هجرة الانبياء كلهم الي نبينا محمد صلوات الله عليه وعليهم فطير القائمقام على بك لطفى رسالة برقية الى الحكمدار يخبره بما عزم عليه وسأله ان يأذن له بتدمير سفنهم بالقنابل وسط لجة النهر فكان جواب الحكمدار له (اياك أن تعترضهم وقد خابرت محمد سعيد باشا مدير كردفان وأمرته بالحملة عليهم براً.وبين كوردفان والمكان الذى يهبط اليه المهدي من الضفة الغربية مسيرة أكثر من عشر مراحل فاجتاز المهدي النهر والجنود تنظره ولا تستطيع ايصال السوء اليه فجاءت هذه المسألة كرامة ثانية له ولكنها نتيجة عمل الحكمدار ويعتقد كثير من الناس بسبب هذه الحادثة ان الحكمدار مصدق بمهدية محمد أحمد. أما نحن فلا نصدق ذلك بل نجزم بصحة ماقاله عن نفسه من عدم القدرة على ادارة بلاد واسعة كالسودان كما أثبتناه فى مبحث توليته على السودان

ولما هبط المهدى الى الشاطىء التف حوله كثير من رجالة دقيم وكنانة وقدموا له الاقوات وبايعوه على الطاعة والجهاد في سبيل الله وهذا نص البيعة « بايعنا الله ورسوله وبايعناك علي طاعة الله وأن لانسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان نفتريه ولا نعصيك فى امر بمعروف ونهى عن منكر بايعناك على زهد الدنيا وتركها وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عندالله »وبلغ عدد الذين رافقوه نحو عشرة آلاف مقاتل سلاحهم السيوف والرماح وجلهم فرسان.أما محمد سعيد باشا مدير كوردفان فانه سار بقوة كبيرة ولم يقابل المهدى ولم يقف له على أثر وذلك لان الجهة التي كان بها المهدى واقعة فى الجنوب الشرقي من الابيض قاعدة كوردفان وتبعد عنها بعشر مراحل ووجهة سير المهدى كانت الى الجنوب الغربى فادراكه اذاً من المستحيلات وغاية الامر ان مدير كوردفان انضم الى

على بك لطفي واتحدا ودخلا جزيرة آبا وقبضا على أناس أبرياء لم يكن لهم علاقة مع المهدي ونكلابهم شر تنكيل وقفلا راجعين هذا الي الخرطوم وذاك الى كوردفان وسار الرجل الى قدير وتوغل فى وسط الجبال

ذكر جبل ماسة وقدير

يوجد في الشمال الغربي من فشوده جبل لا يزيد ارتفاعه عن علو جبل المقطم وشكله كزاوية مستديرة مع فرجة من جهة الشرق وفى داخل الدائرة بركة يجتمع فيها ماء المطر يسمي هذا الجبل بجبل (القدير) ثم حذفت اداة التعريف فصار جبل قدير . ولم يكن اسم (ماسة) معروفا لهذا الجبل قبل ظهور دعوة المهدية وانما اتفق ان المرحوم الشيخ حسن العدوى من أشهر علماء المالكية بالازهر الشريف ذكر فى كتابه مشارق الانوار « ان المهدي المنتظر ستكون هجرته الى جبال ماسة » فادعي المهدى ان ماسة اسم لجبل قدير مع ان كل السكان ينكرون هذا اذلم يعرف به قبل هذا الوقت وبالنسبة لما للشيخ حسن العدوى من الشهرة فى بلاد السودان راجت حيلة المهدى عند كثير من من البسطاء وعدوها من الآيات الدالة على صدق دعواه

ويحيط بجبل قدير جبال كثيرة سكانها من السود يطلق عليهم اسم (النوبة) وبلادهم خصبة وفيها الماشية من البقر والغنم بكثرة والخنازير وهي أحب مايؤكل اليهم والخنزير الواحد يعدل ثلاثة من البقر وفى هذه البلاد النحل بكثرة والعسل يكاد يضارع الماء كثرة ويسكن في سفوح هاتيك الجبال قبائل من الاعراب حلفاء للنوبة وبينهم صلات المصاهرة واعراق القرابة وبعض الاعراب استوطنوا الجبال وتشبهوا بالنوبة فى كل اخلاقهم واطوارهم

وقوبل المهدي في مسيره الى جبل قدير بمقاومات كثيرة أكثرها من النوبة. والاعراب تذبذبوا بين النوبة والمهدى وانتهى الامر بفوزه على جميع الذين ناهضوه ولما وصل الي جبل قدير أظهر السكان تخوفهم من بقائه بين ظهرانيهم وحاربوه فظفر عليهم ونزل بجيشه داخل دائرة الجبل واقام حرسا من أتباعه على الفرجة الشرقية وأخذ يدعو السكان للاسلام لانهم لادين لهم والاعراب يزعمون انهم مسلمون وأكثرهم لايعرف الشهادتين فضلا عن غيرهما

ذكر جبال تقلي

فى الشمال الغربى من جبل قدير جبال تبلغ المائة متدانية من بعضها يطلق عليها اسم جبال تقلي وسكانها عنصر يعرف بهذا الاسم متناسلون من قبائل العرب والنوبة ولغة اكثرهم العربية وكلهم يخضعون لملك يدعونه (الملك) وبلادهم خصبة وفيها معادن التبر وقد حاولت الحكومة اخضاعهم فلم تفلح وفى الايام الاخيرة استمالت ملكهم (ناصر) فسافر الى مصر ليقدم خضوعه للمغفور له اسماعيل باشا خديو مصر فاجتمع قومه وملكوا عليهم ابن اخيه وحالوا بينه وبين العودة الي بلاده فاقطعته الحكومة أرضا بجهة (معتوق) من أعمال الخرطوم فبقى بها حتى أدركه الموت وبقيت هذه المملكة مرتجة الابواب فى وجه الحكومة فحاول المهدى ايقاعها فى قبضته بحيلة دعوته فلم يفلح حيث تصدى لتكذيبه واظهار افترائه على الله ورسوله علماؤها سيما القاضى وحصل اجتماع بين المهدي والملك فسأله الدخول في دعوته فاعتذر من ذلك عملا بنصائح العلماء. وسيأتي أن المهدى قتل هذا القاضى وظفر التعايشي بهذه

المملكة وخربها ثم لمت شعثها وعادت كما كانت

حملة راشد ايمن بك علي المهدي

كانت الحكومة عزلت الطيب مدير فشوده الذي ذكرنا قصة اطلاقه المهدى وخلفه فى وظيفته المرحوم راشد أيمن بك وكان ذلك قبل واقعة (آبا) ببضعة شهور

فلما وصل المهدى الى جبل قدير الذي يبعد عن فشوده بنحو ثمان مراحل جهة الغرب والطريق اليه كثيرة الوعر والغابات قام راشد من تلقاء نفسه وسار بحملة الى جبال قدير ومعه (كيكوم بك) زعيم قبائل (الشلك) فنهض اليه المهدى وقتك بجنوده وكانوا يزيدون عن ثلاث فصائل (بلوكات) وغنم اسلحتهم وذخيرتهم وجاءت هذه المسألة ضغثا على إبالة حيث زادت فى قوة المهدي فاصبح لديه من الاسلحة النارية ما يزيد عن الف بندقية من طراز رامنجتون وقتل راشد بك المدير وكيكوم بك زعيم قبائل الشلك

ذكر من لحق بالمهدي من مشايخ كوردفان

قلنا ان المهدي لقي من سكان إقليم كوردفان لما زارهم ما قوي عزيمته على ادعاء المهدوية وقد أخذ عليهم العهود والمواثيق بنصرته والقيام بدعوته وقت الحاجة. ولما شخص الي (قدير) وترامت أخبار انتصاراته على جنود الحكومة فى جزيرة آبا وعلى الذين اعترضوا سيره من سكان الجبال قبل أن يصل جبال قدير ثم كان من أمره الانتصار على حملة راشد بك مدير فشوده رفع أهالي اقليم كوردفان رؤسهم للفتنة وهرع ألوف منهم الى قدير ليبايعوا المهدى

ووفد اليه كل من الشيخ (نواى) زعيم قبيلة الحوازمة التي تسكن بين دارفور وكردفان وماشية هذه القبيلة من البقر ولذا يطلق عليها اسم (البقارة) وهي كسائر قبائل السودان الغربي في القوة والشجاعة والميل الى الهياج والحروب ووفد عليه (اسماعيل بن الامين دلندوك) زعيم قبيلة (القديات) التي هى كالحوازمة فى الاخلاق والعادات ومع كل واحد منهما مائتا فارس من قومه وبايعاه على الطاعة وقال له الشيخ نواى أبايعك على المهدية وان لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها

واقعة جبل الجرادة

جبل الجرادة واقع في الشمال الشرقى من جبل قدير ويبعد عنه بنحو ١٥ ميلا وسكانه خليط من اعراب ونوبيين كانوا قد امتنعوا من مقابلة المهدي والدخول فى دعوته لما احتل جبل قدير وقد أظهروا عداءهم له وتحفزوا للوثبة عليه فعاجلهم بعد انهزام راشد بك وزحف عليهم وأصلاهم حربا دارت دائرتها عليهم وأباح أموالهم غنيمة لانصاره ثم صفح عنهم ورد اليهم اموالهم بعد ما أذعنوا له بالطاعة وانتظموا فى سلك اتباعه. ثم تابع غزواته في سكان الجبال وكثرت عنده الاقوات

تعيين عبد القادر باشا حلمي حاكماً للسودان

وفي ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ فصل محمد رؤف باشا من الحكمدارية وخلفه عبد القادر باشا حلمي حيث جعلت له وظيفة لم تكن معروفة قبل وهي اعتبار حاكم السودان كاحد نظار الحكومة الخديوية ويدعى ناظر

عبد الله الي يوسف حسن الشلالى ومن معه من الجموع وصل الينا كتابك وصار معلوما لدينا وقوفكم على الانذار . ومجاهرتكم بالانكار . وكان قصدنا أن نضرب عن افادتكم صفحا . ونطوي دون اجابتكم كشحا . ولكن أردنا أن نبين لكم غلطكم فيما ادعيتموه بالبراهين السواطع . أما قولك إن إرسال الطلائع ينافى دعوي المهدية لان علم الغيب ضرورى لها فنقول لك هذا جهل منك بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام فانه كان يرسل الطلائع كحذيفة اليماني وبلال والزبير بن العوام فلم يكن ذلك منافيا لرسالته صلى الله عليه وسلم فكيف يكون منافيا لمهديتنا . وقلتم انا قتلنا جملة من المتوطنين بهذا المكان ظلما وعدوانا فهذا كذب صريح لانا لم تقتل الا أهل جبل الجرادة بعد أن كذبونا وحاربونا وقد أخبرنى النبي صلى الله عليه وسلم بان كل من شك فى مهديتي كافر ودمه مهدور وماله واولاده غنيمة للمسلمين ولما انقاد من بقى منهم لحكمنا رددنا عليهم أموالهم من أيدى اصحابنا مع انها حلال لهم . وقلتم انا قتلنا العساكر غدرا في الوقعتين (آبا وراشد بك) وهو قول باطل لاننا مابدأناهم بالقتال بل هم الذين بدؤنا بالقتال ولما اجتمعت أرواحهم في الدار الآخرة شكونى الى الله عز وجل وقالوا يا ربنا إن المهدي قتلنا بغير انذار فقلت يا ربي أنذرتهم فلم يسمعوا لي واتبعوا ساداتهم وعلماءهم وشهد علي صحة قولى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال ان المهدى أنذركم فلم تسمعوا له واتبعتم سادتكم وعلماءكم فاضلوكم السبيل وأمر بهم فسيقوا الى جهنم . وقلتم ان هؤلاء العساكر ما أرسلتهم الحكومة لحربنا بل ليقفوا على ماعندنا من الادلة وهو باطل ايضاً لان الحكومة لوكانت تقصد ذلك لما أرسلت العساكر الاغبياء وأعطتهم السلاح النارى بل كانت أرسلت العلماء وأهل الدراية بهذا الشان

وقولكم قوموا وتوجهوا الى مكة المكرمة محل المهدية فنقول لكم اعلموا ان توجهنا اليها يكون بامر النبي صلي الله عليه وسلم فى الوقت الذي يختاره الله فانى عبد مأمور وقد أجلسني صلي الله عليه وسلم على كرسيه وقال لى أنت المهدي المنتظر ومن شك فيك فقد كفر وقال لى ان الترك كفار وهم أشد الناس كفراً لانهم ساعون في اطفاء نور الله ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون

وقلتم اطلبوا من الله اظهار كرامة تدل على مهديتكم فاعلموا انا لا نطلب ذلك لقوله تعالى «ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر» ومع ذلك قد اظهر الله كرامة لمهديتنا حيث وجد اسمنا منقوشا على ورق الاشجار وبيض الدجاج ونحن لا نطلب من الله اظهار كرامة لمهديتنا بل نقف معه عند حد عبوديتنا فان أظهر لنا كرامات كانت بمشيئته ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالي ونجهلها

وقلتم ما اتبعنا غير الجهلاء وأراذل البقارة فاعلم ان أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانو كذلك وقد قال تعالى حاكياً عن قوم نوح « وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا » الآية ولا بد ان يجعلك الله ومن معك غنيمة للبقارة

وقلت لا تغتر باسماعيل الامين ونواى فاعلم انني منصور على كل من ناوانى من أهل الثقلين وقد أخبرني النبي صلى الله عليه وسلم بانه يحضر بذاته الكريمة أمام جيشي وان عزائيل ملك الموت عليه السلام يحمل راية سوداء أمام جيشي

وقلتم إنكم امسكتم أربعة رجال من طليعتنا وأرهقتموهم تعذيباً فاعلم أنهم مأجورون على ذلك ولا بد ان يوقعكم الله بايدينا وتذوقوا العذاب بما صددتم عن سبيل الله

وقلتم ان افندينا ولى النعم أمركم بعدم محاربتنا حتي نتعدي الحدود وهذا قول لا يفوه به غير ضعفاء العقول لاننا تعدينا حدودكم وخالفنا مقصودكم من يوم قتلنا عساكركم بآبا وبعد هذا ليس بيننا وبينكم خطاب غير الحرب والطعان والسيف والسنان والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردي ولعنة الله على من كذب وتولي اه

هذا ما كتبه المهدى الى يوسف باشا وقد وقفنا عليه فى المجلد الاول من مجموعة منشورات المهدى التى طبعت بالخرطوم بعد سقوطها فى قبضة المهدي ولم نقف على صورة الكتاب الذى بعثه له يوسف باشا

وزحف يوسف باشا بحملته من فشوده فى العشر الاخيرة من شهر جمادي الآخرة وانضم اليه جنود من حامية فشوده واحصي المهدي من معه من المقاتلة فكانوا اثني عشر الف مقاتل وزحف بهم للقاء يوسف باشا فى الطريق وبات المهدي عند سفح جبل الجرادة والحملة تبعد عنه بمسافة عشرة أميال فلما أصبح كتب منشوراً وزعه بين اتباعه يقول فيه

ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبرني بان جميع أصحابي الذين باتوا بسفح جبل الجرادة باتت أرواحهم في الجنة ومن دخل الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى (وماهم منها بمخرجين)

وفى اليوم التالى زحف على الحملة وكانت قد أحست بزحفه عليها فتحصنت داخل زريبة من الشوك وبدأ الهجوم عليها من جهة الجنود النظامية فتقهقر بخسارة عظيمة وقتل أخوه حامد وجماعة من مشاهير رجاله الذين ساعدوه على دعواه ومنهم الشيخ آدم بن الاعيسر وأصله من بلاد (فلاتة) بالسودان الغربي وكان صهر المهدي على ابنته زينب وانهزم الدراويش راجعين

الى الجرادة ووقع بقلوبهم رعب شديد فاخذ أحمد بن سليمان أمين بيت المال بلجام دابة المهدي وحوّله راجعاً الى الجرادة فوجم المهدى لشدة ما أصابه من الذهول حتي أدركه الخليفة محمد شريف الذي لقبه بخليفة الكرار وسأل احمد ابن سليمان الى أين تذهب بالمهدى فقال الى الجرادة لنحشد جيشا آخر نعود به الى الحرب فصفعه وأمسك بلجام الدابة وقال للمهدى نذهب ياسيدى لنموت وأخذ يكررها ويقول نذهب لنموت والذين كانوا حوله يقولون انه كان فى ذهول صيره لايعي شيأ

ولما اتى محمد شريف ما أتاه انتبه المهدى كانه أفاق من سبات وأدرك انه اذا رجع الى الجرادة مهزوماً وثب عليه سكان الجبال سيما أهل الجرادة نفسها واغتنموا فرصة ضعفه وقضوا عليه وعلي دعوته القضاء الاخير فوطن نفسه على اقتحام المربع ليموت أو ينتصر فتراجع عليه المنهزمون وزحف امامهم تحت نار حامية حتى دنوا من الزريبة فنزل عن راحلته واستقبل القبلة وصلى ركعتين وما كاد يفرغ من الصلاة حتى رأي انصاره اقتحموا المربع وولجوا في الزريبة وقتل صاحب رايته أبو هداية وكان دنقليا من أقاربه وقتل القائد يوسف باشا موليا وكان أراد الفرار بشخصه من جهة الشرق راجعاً الي فشوده فلم يتم له وبعد ذلك دخل المهدي الزريبة وأمر برؤس يوسف باشا ومشاهير القواد فنصبت حول الزريبة وأقام ثلاثة أيام مشتغلا بجمع الغنائم ثم عاد الى محلته بجبل قدير ونجا نحو مائة جندى ولحقوا بفشوده فاخبروا بما شاهدوه وقد استنتجنا من أقوالهم ان جهل القائد بالفنون العسكرية كان السبب القوي فى هلاك الحملة

علي أن يوسف باشا المذكور كان قبل هذه الحملة مديراً لسنار فاحدث فيها من المظالم شيئاً لم يسبقه اليه احد وذلك انه قبض على سكان قريتين وباعهم واولادهم ارقاء فعزله رؤف باشا وابقاه في الخرطوم ريثما تتم التحقيقات ويساق الي المحاكمة وبعد عزل رؤف باشا عهد اليه جيجلر باشا وكيل الحكمدارية قيادة هذه الحملة التعيسة

ذكر ترتيب جيش المهدي بعد ذلك

ولما ظفر المهدي بحملة يوسف باشا رتب جيشه على ثلاث فرق فالفرقة الاولى مؤلفة من قبائل السودان الغربي ورايتها سوداء وقائدها الخليفة عبد الله التعايشي . والفرقة الثانية رايتها خضراء وقائدها الخليفة على بن محمد حلو وهى مؤلفة من القبائل التي تسكن ضفتي النيل الابيض والقبائل التي تسكن الجبال التي حول جبل قدير والفرقة الثالثة من قبائل السودان الاوسط أي أقاليم الخرطوم وبربر ودنقله وسنار وجعل قيادتها الى ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد الذي لقبه بخليفة الكرار ولقب التعايشي بخليفة الصديق والخليفة على بخليفة الفاروق وجعل القيادة العامة لاخيه محمد عبد الله ولقبه بامير جيش المهدية وأسند القضاء بين الناس الى الشيخ احمد بن جباره أغا واصله ضابط في الجيش المصرى القديم سوري الاصل له من الاولاد اكثر من سبعة ذكور لحق بالمهدي اكثرهم وصاروا من أمرائه وخواص دولته وسنأتي على شيء من سيرتهم بعد ولقبه بقاضي الاسلام وعقد له راية على ذوي قرابته ومواطنيه وجعلها تابعة لفرقة الخليفة محمد شريف وانتدب أحمد ابن سليمان أميناً لبيت المال وهو من قبيلة تدعى (المحس) عدبرية دنقله وبالغ

في مدحه حتى انه كتب اليه يقول ان انتدابه لهذه الامانة كان من الله ورسوله وان اسمه مكتوب تحت ساق العرش احمد بن سليمان أمين الله ورسوله ومهديه وكان مقربا لديه لوقوفه على دخائل اسراره وكان المهدى يمنع أهل بيته من الطبخ والخبز مبالغة فى الزهد ويمنع ان توقد في بيته نار لهذا الغرض وكان احمد بن سليمان يصنع له في منزله الاطعمة الفاخرة ويبعثها له فيأكل منها وكان بعض جهلة الاعراب يظنون ان المهدى يعيش بلا أكل وفى آخر الامر ظهر أمره مع أحمد بن سليمان ظهور الشمس فى رابعة النهار وكان يختار له النساء ويبعث بهن اليه وبالجملة فقد كان صاحب سره ومشيره في كل شيء وسيأتى ذكر قتله في أيام التعايشى وذكر ما افشاه من الاسرار المهمة

ذكر تحريم الدخان

أصدر المهدى وهو فى (قدير) منشوراً قال فيه بحرمة الدخان وتغالى فى تحريمه حتى قال اذا وقع رجل على أمه فى جوف الكعبة كان سخط الله عليه أخف من سخطه على مستعمل الدخان ووضع حداً لمن يستعمله ثمانين جلدة وحبس سبع ليال ولم نعلم لذلك من سبب دعاه الى هذه البدعة ووضع حد على شيء لم يعرف تحريمه قطعا من جهة الشريعة الغراء وقضى مرة على مدخن بمصادرة أمواله وأخري باسترقاقه وبيعه كما تباع الارقاء. وعقابه على شرب الخمر لا يختلف في شيء عن عقاب مستعملي الدخان. أما القاعدة التي سار عليها التعايشى بعده فهي مصادرة أموال وسبي ذراري السكيرين والمدخنين على السواء مع عقوبة الجلد

وأعلن المهدى ابطال تقليد الأئمة الاربعة وقال انه مجتهد وأخذ كتب

المنشورات متضمنة كثيراً من أحكام العبادات والمعاملات وكان يسمى الزمن الذي قبله زمن الجاهلية أو الفترة

(ونقل) لنا بعض مشايخه انه كان مكبا على مطالعة كتاب إحياء علوم الدين تأليف حجة الاسلام الغزالي وقد أيد ذلك مطابقة بعض مشتملات منشوراته لما في هذا الكتاب. وكتب منشورا يحث فيه الامراء والقضاة على قطع يد السارق قال فيه مانصه (تقطع يد السارق وان لم يبلغ ماسرقه نصابا بل أقول لكم اقطعوا يده ولو كان ماسرقه أقل من بيضة دجاجة لابارك الله في والٍ تركه ولا في أمير استعان به)

ذكر من لحق بالمهدي من اعيان السودان الاوسط

ما كاد المهدى يصل الى جبل قدير حتى لحق به كثير من أعيان السودان الاوسط وبعدان بايعوه على الطاعة وحرب الحكومة كتب لبعضهم بالولاية علي جهات من بلادهم وأمرهم باشهار الحرب وكان من هؤلاء المهدى ابن أبي رؤف زعيم قبيلة (جهينة) التى تسكن جنوب سنار وهى قبيلة كبيرة رحالة ماشيتها من الابل ورجالها معروفون بالجبن والكسل وغالب أفرادها ذوو قامات قصيرة كالاقزام ومن الامثال السائرة في السودان (ان كل عشرة من جهينة لايصرعون رجلا واحداً) فكتب له المهدى عهدا بالامارة على قومه ومحاربة رجال الحكومة وطردهم من بلاده .

ومنهم أحمد بن المكاشفي أذن له بمبايعة الناس له ودعوتهم له وسيأتى الكلام على ترجمة احمد بن المكاشفى . ومنهم الشيخ مضوي المحسي وأصله من قرية (العيلفون) القريبة من الخرطوم وكان طالب علم بالازهر الشريف ثم عاد الى

السودان وهجر مسقط رأسه واستوطن فى قرية بجنوب سنار ثم لحق بالمهدي منها فكتب اليه عهداً أن يبايع له ويجمع سكان القرى حوالي الخرطوم على طاعة المهدي وحرب الحكومة. وغير هؤلاء كثير لم نذكرهم فراراً من التطويل وقد أصدرت الحكومة الاوامر بمصادرة أملاك كل الذين لحقوا بالمهدى من الاهلين ولكن الحكام أساؤا التصرف وجعلوا أوامر الحكومة وسيلة لملء جيوبهم بالاموال كما سنبينه فى حادثة سنار

واقعة عامر بن المكاشفي مع سنار

بالقرب من مدينة سنار قرية المكاشفى والد عامر هذا وأحمد الذى ذكرنا نبأ لحاقه بالمهدى ووالدهما المكاشفى كان شيخا معتقداً وأصله من قبيلة (الكواهلة) التى تسكن حوالى سنار وتعيش بالبان الماشية والزرع ورجالها مشهورون بالكرم والشجاعة وعددهم قليل كماشيتهم وفى أواخر شهر جمادى الاولي علمت المديرية بشخوص أحمد بن المكاشفى الى المهدي فارسلت مندوبا لمصادرة أمواله فلم يعثر له على مال فامسك أخاه عامراً واوسعه ضرباً واهانة ولم يطلق سراحه حتى افتدى منه بالف ريال هى كل ما يملكه من عقار وماشية فبلغ الخبر ناظر القسم محمود سعد الله فاحتدم غيظاً وقال كيف يدفع هذا القدر لمندوب المديرية وانا ناظر القسم فذهب الى القرية وقبض على عامر وبالغ فى ضربه وتعذيبه حتى اجتمع جماعة من مريديه ودفعوا له مائة وخمسين ريالا ووعدوه بمثلها بعد أسبوع ثم ان عامراً لما رأي ذهاب كل ما يملكه وانه أصبح فقيراً عزم على مهاجرة دياره واللحاق بالبادية لان له أصدقاء ومريدين فيها من اعراب جهينة فتصدق عليه أناس من أهل القرية

ببعض دواب يحمل عليها نساءه وأولاده نخرج من القرية وانتهى الخبر
الى محمود سعد الله ناظر القسم فاقتفى أثره بنحو عشرين راكباً من عبيده فادركوه
عند حي اعراب وأمسكوا نساءه وبناته والحقوا بهن العار على مرأى منه ومن
سكان الحي وسلبوا ما معهن من الحلي وقطعوا آذانهن وهو موثق كتافا امامهن
وسلبوه والنساء الملابس وتركوهم عراة كيوم ولدتهم امهاتهم وانصرفوا بالدواب
وما عليها وكان عامر لا يفتر عن تلاوة الآية (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا
وان الله على نصرهم لقدير) وما بارح مكانه حتى تألب حوله نحو ألف مقاتل
فادعى انه وزير المهدي ونسل اليه الناس من كل حدب وبايعوه على
طاعة المهدي ومحاربة الحكومة وزحف في اليوم التالي على مدينة سنار في
ستة آلاف مقاتل والتقى في طريقه بمندوب المديرية الذي أخذ منه الالف
ريال ومعه أحد الصناجق المدعو محمد أغا النمر تلب فقصد الايقاع بهما فقرا
وأعلما المدير بأمره ولم يكن عالما بشيء من ذلك فارسل يعلم الحكمدارية على
جناح البرق فورد عليه الخبر بارسال اثنين من أعيان سنار بكتاب له فانتدب
محمد عبد القادر الفاذنى متعهد طلبات أقوات الحامية ومعه آخر من أعيان
سنار كان صديقاً حميا لعامر بن المكاشفي وسلمهما المدير كتاباً مملوءاً بالتهديد
والوعيد واليك ما قالاه بعد عودتهما وأرسل الى الحكمدارية بالتلغراف

لم نبتعد عن منازل المدينة أكثر من ميل واحد حتى قبضت علينا طليعة
العدو واوسعتنا ضربا وانزلتنا عن دوابنا ومزقت ملابسنا وساقتنا الى (الديم)
أي المعسكر والسيوف مسلولة حولنا وأوقفنا بين يدي عامر بن المكاشفي
فرأيناه في حالة جنون ولا يتكلم الا بالآية الشريفة « أذن للذين يقاتلون
بانهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » وسيفه موضوع على فخذه الايسر

فقبض عليه وقال لنا ماالذي جاء بكما فقلنا سمعنا بخبرك وجئنا نبايعك فقال احسنتما ودنونا منه وبايعناه ولشدة مااصابه من الذهول قال لصاحبي مااسمك مع أن المعرفة قديمة بينهما وكان منذ بضعة ايام ضيفا بمنزله وبعد هنيهة قلنا له ان المدير اعطانا كتابا لك فصاح باعلى صوته مزقوا كتاب الكافر فتناوله اتباعه من أيدينا ومزقوه وقال لنا في الغد ادخل المديرية فرجوناه أن يكتب لنا أمانا ففعل وأمرنا بالانصراف الى منازلنا فانصرفنا اه وكانت المدينة خلوا من التحصين وليس بها سوى ثكنة يقيم بها نحو مائة جندي ومدفع من الطراز الجبلي وفي الغد خرج المدير للقائه خارج المدينة بمائة جندي فانقض عليهم بمن معه وقتلهم ووقف محمد اغا التمر تلب عند المدفع حتى قتل ونجا المدير ووكيله ولحقا بسفينة في البحر ودخل المدينة عامر بن المكاشفي وقصد دار محمود سعد الله فقتله وانتهب مافيها ودخل دار المديرية ووقف علي باب الخزانة وكان بها نحو مائتي ألف جنيه وقال اكسروا الاقفال فتقدم اليه رجل من أعيان مديرية المنيا كان منفياً هناك اسمه الشيخ مصطفى أبو اسماعيل وقال له انها صارت لك فلا تتلف الاقفال بل اجعل عليها حراساً فاستحسن قوله ووضع عليها حارساً مسلحاً بحربة طويلة وذهب الى سلاملك المديرية وبينما هو صاعد عليه فاجأته رصاصة لم يعرف المكان الذي جاءت منه فأصابت احشاءه ووقع مغشياً عليه فاحتمله أصحابه وعادوا به الي معسكرهم وتراجع المنهزمون وعاد المدير ورتب الاهالي بكيفية دافعوا بها عن أنفسهم اذحولوا رؤس المنازل الى متاريس والذي ساعدهم على الدفاع ان عامر بن المكاشفي كان يقول لقومه لاتحاربوا بالبنادق لانها سلاح الكفار ومكث العدو يهاجم المدينة ويضيق عليها الحصار ثمانية أيام حتى وصل اليها السر سواري صالح

الملك بمائة وخمسين جندياً فدخلها بعد حرب خسر فيها العدو نحو ألف نسمة
وغادر ججلر باشا الخرطوم على باخرتين ومعه السر سوارى عثمان بك الدالي
والملك يوسف لانقاذ سنار

واقعة الشريف احمد طه

بينما كان ججلر باشا سائراً مجداً لامداد سنار اذ سمع الصياح من الضفة الشرقية فألقت البواخر مراسيها ثم وجد عمال الحكومة فأخبروه برجل يدعى (الشريف احمد بن طه) جمع نحو خمسة آلاف مقاتل وعسكر بهم عند أبو حراز وهى منتصف الطريق بين الخرطوم وسنار فأرسل اليه السر سواري الملك يوسف بكتاب يدعوه فيه الى الطاعة فقتله وجنوده واتصل بججلر باشا ان الاهالي متحفزون لخلع طاعة الحكومة فكمث بأبو حراز وأرسل تلغرافا الى القضارف يطلب طابوراً من الجنود النظامية لان الجنود التى بالخرطوم قليلون جدا وبقاؤهم بها لحراسة المدينة ضرورى وأنفذ السر سواري عثمان بك الدالي الى نقطة (فداسى) لتمنع الناس من اللحاق بالعصاة وجاء الشيخ عوض الكريم أبو سن زعيم قبيلة الشكرية بنحو ألفين من قبيلته ومعه الشيخ محمد الفيل شيخ طريقة العركيين وحاصروا العصاة . ولما وصل الطابور الي أبو حراز كان عبد القادر باشا حلمي قد وصل الي بربر فابلغ الحادثة بالتلغراف فتوجه الى المحطة وأخذ فى الاستفهام عن مركز العدو فأخبر به فرسم كيفية الهجوم عليه ورتب القوة كأنه يقودها بشخصه وتقدمت نحو العدو الذي قابلها ببسالة شديدة فأوقعت به وقتل الشريف أحمد بن طه

بعد عنها مسيرة مرحلتين فشرع فى تحصينها وخندق عليها وأرسل حملة على العدو فشتت شمله وعاد الى الخرطوم بعد ان ترك بها حامية تقوم بحراستها

ولما اتصل بالمهدى خبر قتل الشريف احمد بن طه استاء وكتب الى الشيخ عوض الكريم إبي سن والشيخ حمد النيل كتابا قال فيه (قتلتموه خذلة للدين ونصرة للكافرين فاعلموا أن ثأره بعد حين) وقبيلة الشكرية هذه قبيلة كبيرة رحالة تسكن شرق الخرطوم بين النيل الازرق ونهر اتبره وما شيتها من الابل وهى كقبيلة جهينة الا أن رجالها معروفون بالشجاعة وقد بقيت هذه القبيلة على ولاء الحكومة وسيأتى ذكر رؤسائها الذين ماتوا في سجن التعايشى وما آل اليه أمرها من الاضمحلال والفناء. والشيخ حمد النيل من أسرة تدعى (العركين) واجداده معتقدون فى السودان ومعروفون بالصلاح منذ ثلاثة قرون تقريبا وقد صادر المهديون ماله ومات حقيرا ذليلا فى اسرهم انتقاما منه حيث ساعد الحكومة فى قتل الشريف احمد بن طه

ذكر وصول عبد القادر باشا حلمي الخرطوم

قدم عبد القادر باشا حلمي الخرطوم وقلوب السكان مملوءة بالخوف لقلة الجنود في الخرطوم وخلو المدينة من كل تحصين ووجود كثير من عصابات الاشقياء حول المدينة متحفزين للوثبة عليها طمعا فى السلب والنهب وكان السكان يقضون الليل في حراسة انفسهم فوق أعالي المنازل حذرا من أن يأخذهم العدو على غرة كأخذه سنار

ولما وصل عبد القادر باشا الخرطوم قصد ظاهر المدينة فوجد الميرالاى حسين بك حلمي ومعه نحو خمسمائة جندي وثلاثة مدافع من الطراز الجبلي

وقد نصبوا لهم سرادقا وصفوا المدافع في رحبته وليس حولهم متاريس ولا شيء من معدات الدفاع فسأله ماذا تقصد بهذا العمل فقال الدفاع عن المدينة فضحك عبد القادر باشا وأمر بالسرادق فقوض ورتب عسسا لحراسة المدينة وأخذ فى جمع عدد من الارقاء وأنشأ ثلاثة طوابير منهم وكان يباشر تمرينهم على الحركات العسكرية بنفسه فى كل غدو ورواح واختبر كل الضباط الذين كانوا فى الخرطوم فلم يجد فيهم كفاءة ولا أهلية لما يشغلونه من الوظائف حتى أن ضباط الطوبجية كانوا لا يعرفون اطلاق المدافع الا اذا كانت من النوع الذى يطلق في أيام الاعياد والمواسم

وشرع في تحصين المدينة وخندق عليها ووضع على الابراج الحراس فذهب كل خوف من قلوب السكان وتوطدت السكينة وانتشر الامن حوالي الخرطوم

وكان فى حدود الحبشة نحو ستة طوابير من الجنود النظامية فاستدعاها للدفاع عن البلاد

ذكر تدبير مكيدة لقتل المهدي

لما وصل عبد القادر باشا الخرطوم كان المهدي قد تقوت شوكته فى جبل قدير فاتفق عبد القادر باشا مع شخصين من أهالى كورد فان مشهورين بالشجاعة والمخاطرة فى سبيل احراز المال يدعي أحدهما (عبدالله بن ابراهيم) والآخر (أحمد بن الحسين) ودفع لهما ثلاثة آلاف ريال ووعدهما بثلاثين الف ريال مجيدي يقبضانها أو ورثتهما على ان يذهبا الى المهدى في جبل قدير ويقتلاه رمياً بالرصاص فاذا نجوا من شر الاعداء قبضا المال وان وقعا فى أيديهم قبض

المال ورثتها وقد كتب صك بينهما وبين محمد سعيد باشا مدير كوردفان بالنيابة عن عبد القادر باشا الحكمدار وكان ممن حضر هذا التدبير (الياس باشا أم برير) أحد تجار كردفان وكان هواه مع المهدى وذهب الرجلان مصرين على انفاذ هذا العزم فارسل الياس باشا راكباً سبقهما بكتاب الى المهدي أوقفه فيه على ما دبره عبد القادر باشا لاغتياله فاخذ حذره ولما بلغه قرب وصول الرجلين من معسكره قام بين أصحابه خطيباً وأخبرهم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بامر الرجلين وما اتفقا عليه مع الكفار وأمرهم بلقائهما وإخبارهما بان المهدى عالم بما جاءا به فلما فعلوا اندهش ذانك الرجلان ولم يداخلهما شك في ان الامر كما هو وان المهدى علمه من هذا الوجه واعتقدا صدق مهديته والقيا ما بايديهم من السلاح وقصداه تائبين من ذنبهما وعاهداه على الاخلاص له وبايعاه بيعته المعلومة وصارا من خيرة انصاره واكابر قواد جيشه . والعامة تبالغ فى رواية هذه القصة وتزعم أن الرجلين اطلقا الرصاص على المهدى فلم يصبه وخضعا له عند رؤيتهما هذه المعجزة والحقيقة هي التي أوردناها وسيأتى ذكر قتل الياس باشا صبراً في سجن التعايشى

ذكر حوادث كوردفان

وفي غضون اشتغال الحكومة بامر الشريف أحمد بن طه وعامر بن المكاشفى قام بدعوة المهدي فى كوردفان رجل اسمه عبد العزيز بجهة (دار حمر) وكان المهدي أرسله بكتاب الى ابراهيم بن اسماعيل منعم شيخ قبيلة حمر وابنه اسماعيل

وقبيلة حمر هذه قبيلة كبيرة تسكن في المنطقة التي بين كوردفان ودارفور

وهى رحالة في أوقات معلومة من السنة وتنزل القري في إبان الزرع واكثر بلادها لاماء فيها ويقضون حاجتهم من الطبخ والخبز بماء البطيخ وكل من عطش اكل منه وفى بعض الجهات يخزنون ماء المطر فى جوف أشجار عظيمة تسمي (التبلدى) وعوائدهم كعوائد من ذكرناهم قبل من قبائل كوردفان ويكثر فى هذه البلاد ريش النعام لان الاهلين يقتنونه بكثرة في منازلهم ولذا يكثر تردد التجار على بلادهم للحصول على هذا الصنف

ولنرجع الي ذكر عبد العزيز داعية المهدي فنقول انه قوبل بالاجابة والتفت قبيلة حمر حوله وأول عمل أتاه انه هجم على البكباشى نظيم افندي مأمور تحصيل الاموال الاميرية بهذه الجهة على غرة وسلب كل مامعه من هذه الاموال وجرده من كل شيء حتى من ملابسه وقال له اشهد أن الله واحد وان المهدي المنتظر حق ففعل وكان في قلة من الجنود ولم يستطع الدفاع عن نفسه . وكان هذا الداعية جاهلا ابتدع من عندياته مسألة هذه الشهادة وكان يقول ان الشهادة لمحمد رسول الله قد ابطلت والغيت

ثم ان البكباشي نظيم جاءه اثنان من شيوخ حمر وحملاه الى بلدة ابو حراز التى تبعد عن الابيض عاصمة كوردفان نحو أربعين ميلا وهناك جمع جنوده المتفرقة وتحصن بداخل زريبة من الشوك . وعاد عبد العزيز الى جبل قدير حيث استدعاه المهدي ليؤدي ماعنده من الاموال التي انتهبها من نظيم افندى . ثم عزله وخلفه عبد الله بن النور فغادر جبل قدير ومر على نقطة (فوجة) بين دار حمر ودارفور فقتل من فيها من الجنود وقتل عمال التلغراف وقطع الاسلاك ثم قصد أبو حراز وناهض البكباشى نظيم أفندي فلم يظفر به وتقهقر من وجهه حتى بلغ الابيض بعد عناء شديد ووقعت بلاد

حمر كلها في قبضة المهدوية

وتقدم عبد الله النور الي البلاد الواقعة شرق الابيض وقصد نقطة اسحف التي تبعد عن مركز (باره) نحو خمسة عشر ميلا وكان بها الصنجق محمد أغا ياسين المشهور (بشبوا) ومعه النور بك عنقره من نخاسي بحر الغزال فداهمهما عبد الله النور ففر النور بك عنقره وترك امتعته ونساءه وتقهقر محمد أغا ياسين بمن معه حتي وصل الى نقطة باره وغنم عبد الله النور طبلاً حربياً كبيراً كان غنمه النور عنقره من أحد ملوك دارفور وقت فتح تلك البلاد وقد ظل هذا الطبل موجوداً عند المهديين حتى سقوط أم درمان .

والتقي عبد الله النور ودراويشه بشرذمة من الجنود المصرية كان انفذها مدير كوردفان تحت قيادة نظيم افندي واشتبك معها بحرب اسفرت عن انتصار الجنود وهزيمة الدراويش وخسارتهم الفا وخمسمائة قتيل ثم رأي قائد الحملة ان لا فائدة من هذه الحرب ما دام الاهلون كلهم مع العدو محاربين الحكومة مظهرين عدم طاعتهم لها فصدر الامر لها بالعودة الى الابيض

واقعة البركة بكوردفان

اجتمع نحو مائة الف مقاتل من قبائل البديرية رئيسها عبد الصمد ابن أبي صفية ومن قبيلة حمر وغيرهم في جنوب مكان يدعى (البركة) وبينهم وبين الابيض مسافة خمسين ميلاً وجعلوا يوالون الغارة على اطراف المدينة وينهبون الماشية فارسل لهم محمد سعيد باشا مدير كوردفان حملة تحت قيادة البكباشي نظيم افندي مؤلفة من طابور من المشاة النظاميين وانضم اليها أربعة الوية من الجنود الباشبوزق والمتطوعين المعروفين باسم (كبابين)

أى شركات كما تقدم لنا ذكرها فى خط الاستواء وبحر الغزال وسارت الحملة فكمن لها العدو فى الطريق ليحولوا بينها وبين الماء وناوشوها القتال ثم هجموا على أحد جناحيها فولجوا منه واشتغلوا بالنهب والسلب وقبضوا على الذخيرة فتمكن القائد من اعادة النظام بين الجنود وسار بهم غير ملتفت الى شىء حتى بلغ مكان الماء فحصنه واستراح هو وجنوده من وعثاء السفر وتجمع الدصاة حوله فهاجمهم في الغلس وقتل منهم اكثر من ألفى مقاتل واسترد كل ما أخذوه منه لدى هجومهم عليه فى الطريق

وقتل من قواد الجنود غير النظاميين بشير أغا الازيرق وسيف النصر أغا قائد المغاربة ومن قواد المتطوعين واحدا وعادت الحملة الى الابيض

ذكر واقعة الطيارة

(الطيارة) مدينة تجارية واقعة على مسافة مائة ميل جنوب الابيض عاصمة كوردفان يقصدها التجار لابتياع الصمغ الذي هو من محصولات البلاد الواقعة بين الابيض والنيل الابيض وهي قاعدة مركز الطيارة وسكان هاته البلاد قبيلتا (الجمع والجوامعه) والاولي يطلق عليها اسم (بقاره) لان اكثر ماشيتها من هذا النوع والثانية تنزل القري وتشتغل بالزرع والضرع معاً وكلتاهما مشهورتان بالشجاعة والاقدام مثل سائر قبائل كوردفان وعاداتهم متشابهة ويكثرون من شرب المسكرات والفاحشة شائعة بين نسائهم حتي ان الرجل يبصر ابنته واخته وسائر محارمه يباشرن الفاحشة بلا مبالاة ولا استحياء وانما العيب ان تزني المرأة بعد ان تتزوج ومن اكبر العار ان تتزوج قبل ان تلد اكثر من ثلاثة أولاد ذكور تدفعهم لاكبر اخوتها ليعينوه على

حراثة ارضه أو رعاية ماشيته وهؤلاء الاولاد يسمونهم (عينة خالهم) كما سبق ذلك ولا عيب فى ذلك كله عندهم وبعد ان تتزوج المرأة تحرص على الوفاء لزوجها وتعف عن الزنا. وقد أبطل المهديون هذه العادة وأقاموا الحدود الشرعية على مرتكبيها فبطل التظاهر بها وان ارتكبت خفية

ودخل هاتان القبيلتان فى دعوة المهدي وخلعتا طاعة الحكومة على يد رجل يدعي (المنة) كان يعلم الصبيان القرآن في احدى القري وكان متظاهراً بالصلاح على جهل كثير فكتب اليه المهدى يعده بالخلافة فاجتمع حوله من قبيلتي الجمع والجوامعة ما يربو على خمسين ألف مقاتل هجم بهم على مدينة الطيارة وكان بها نحو خمسمائة جندى تحت قيادة اليوزباشي محمد افندي شافعي ونحو عشرة آلاف من التجار فقتل العساكر كلهم ولم ينج من التجار الا نحو عشرين نسمة وبقربطون نحو ألف امرأة حبلى وقتل الاطفال شر قتلة حيث كانوا يقذفونهم فى الجو ويتلقونهم بالرماح وأحرق بضائع التجار ولم يسلم محل تجارى فى كل انحاء السودان من خسارة بالغة فى واقعة الطيارة لانها المدينة الوحيدة التى يقصدها تجار الصمغ من كل مكان للحصول عليه . وكان من الذين نجوا من هذا الخطب رجل من (شنقيط) فسأله سائل عما شاهده فقال جاء فى الحديث الشريف ما اجتمع ثلاثة من أمتى الا وفي أحدهم الخير وقد رأيت عشرة آلاف من الجمع والجوامعة يجتمعون على قتل صبي وكلهم يحرض على قتله ولا يقولون الا شراً — كأنهم ليس فيهم ثلاثة من أمة محمد — وكانت هذه الواقعة فى شهر رمضان سنة ١٢٩٩ وكانت المديرية ارسلت مائتى جندى من الباشبوزق وبلوكا من المشاة النظاميين ومعهم مدفع من الطراز الجبلي لتعزيز حامية الطيارة وبينما كانت هذه الحملة سائرة فى طريقها

اذ وثب عليها رحمة بن نوفل شيخ قبيلة الجوامعة فى الفين من قومه فثبت الجنود وانتشبت الحرب ثمان ساعات أسفرت عن هزيمة الجوامعة وانتصار المصريين وفقد العدو عدداً كبيراً من جيشه وأرسل الشيخ رحمه يستصرخ قومه فتألب منهم اكثر من خمسة آلاف وأحاطوا بموقع الحملة وفي الغد بدأوا بالهجوم عليها من الامام والخلف وساعدتهم وعورة المكان وكثرة الانخفاض والارتفاع فى أرض تلك الجهة فانقضوا على الجنود وذبحوهم عن بكرة أبيهم وغنموا كل ما معهم من الاسلحة والذخيرة وكانت هذه المذبحة بعد مذبحة الطيارة بليلتين ولم تقف المديرية على شيء مما أصاب الطيارة الا بعد هلاك الحملة حيث اتصل بها الخبران معا

ذكر زحف المهدي من جبل قدير الي الابيض

لما رسخت قدم المهدى في جبل قدير وتغلب على كل الذين ناهضوه اجتمع عليه خلق كثير من الاعراب سكان تلك الجبال وكان ماذكرناه من أمر انتشار دعوته في اقليم كوردفان عدا الابيض عاصمة الاقليم وبعض المراكز التى تحتلها حاميات الحكومة وكان تجار كوردفان كلهم يكاتبونه ويستحثونه على القدوم اليهم وفى مقدمة أولئك التجار (الياس باشا أم برير) وكان شديد الكره للحكومة كثير الميل لجهة المهدى وقد ذكرنا انه اطلعه على خبر المكيدة التي دبرها عبد القادر حلمى باشا لاغتيال حياته

ولما ظفر المهدي بحملة يوسف باشا الشلالى جمع كل ما غنمه من الساعات والاشياء ذات القيمة وأرسلها الى الياس باشا فباعها وأرسلها ثمنها له ... وانى أرى اتماما للفائدة اثبات ترجمة هذا الرجل فاقول هو من قبيلة الجعليين

التي تسكن اقليم بربر من احداً نخاذها المدعو (النفيعاب) سافر الى كوردفان في العهد القريب من فتحها فاثري من التجارة وكان له تداخل مع الحكام وميل منهم له بما يقدمه لهم من الرشا فاطلقوا يده حتى انه كان يقتل وينهب أموال الناس وفى الايام الاخيرة بذل مالاطائلا لاحدالحكام فعينه مديراً على اقليم كوردفان فارخي العنان لنفسه وأصاب من الاموال وارتكب من المظالم ما أوجب عزله قبل مضي شهرين على ولايته وقد شق عليه العزل فسعى مجداً ليعود الي المنصب فلم يفلح وفقد وراء هذا السعي جل ثروته ولما أدركه اليأس علل نفسه بمساعدة المهدى عساه أن ينال منه مالم ينله من الحكومة فخاب ظنه وانتقم الله منه بعبد الله التعايشي حيث قتله صبراً ونفى أولاده وقتلهم مثله (ومن أعان ظالماً سلط عليه)

وكان بين الياس باشا وبين احمد بك دفع الله من تجار كوردفان عداوة شديدة لانه يشاطره النفوذ وأحمد بك من قبيلة الجعليين أيضا وكان شديد الولاء للحكومة وسيأتي ذكر قتله مع مدير كوردفان وكان ذا شهامة وشجاعة رحمه الله يمحض الحكومة النصح ويحذرها من الياس باشا فكانت تقابل أقواله بعدم الاصغاء نظراً لما اشتهر بينهما من العداوة

ولما أحس عبد القادر باشا بنوايا المهدى عن كوردفان أخذ يطلب من الحكومة الامداد لحشد جيش جرار في كوردفان يستطيع مقاومة المهدى واخماد الثورة التي عمت البلاد وكانت الحكومة اذ ذاك واقعة فى الفتنة العرابية ومن جهة أخرى فى الازمة المالية المعروفة فى ذلك العهد فلم تجبه ولكنه مع ذلك لم يترك حيلة بل جند كثيرا من الصناجق الباشبوزق وسيرهم الى كوردفان وبعث بطابور من الجنود النظامية سيأتي خبر الفتك به في الطريق

قبل بلوغه الابيض واجتمع تجار كوردفان بايعاز الياس ورفعوا عريضة الى عبد القادر باشا يسألونه عزل محمد سعيد باشا مدير كوردفان وتولية الياس باشا بدله وكان قصدهم من ذلك أن يسلم المديرية الى المهدى بغير مقاومة متي صار الآمر الناهي عليها فادرك عبد القادر باشا الحيلة واجاب طلبهم وعزل محمد سعيد باشا وولي بدله علي بك شريف وكيل المديرية وبعد بضعة ايام اعاد محمد سعيد باشا لانه كان لايري فى علي بك شريف كفاءة عسكرية لمقاومة تيار المهدى

ولما وطن المهدي عزمه علي الزحف ارسل دعاة كثيرين حوالى الخرطوم ليشغلوا عبد القادر باشا عن امداد كوردفان وقد أفلحت سياسته حيث اشتعلت نيران الحروب واضطر عبد القادر باشا الي العدول عن الاهتمام بامر كوردفان وانقطع ارسال المدد اليها وماتم له الانتصار على أولئك الدعاة الا بعد أن تم للمهدي الاستيلاء على عاصمة كوردفان والقضاء الاخير علي سلطة الحكومة فيها وسيأتي تفصيل ذلك على حدة

نعود الى المهدى فنقول انه ترك اثقاله ونساءه في جبل قدير ووكل حراستهم الي عمه السيد محمود بن عبد القادر

على ان المهدي لم يكن واثقاً بالغلبة على كوردفان لقربها من الخرطوم وكانت عزيمته متجهة الى الزحف على دارفور واخضاعها حيث يتخطاها الي جهات السودان الغربى كممالك بورقو وبورنو وأبو ريشه وغيرها من تلك الجهات وبالفعل كانت دعوته قد بلغت ديار (فلاته) من نواحى (تمبكتو) ولكن الياس أم برير كان يقلقه بكثرة الحاحه عليه بالقدوم الى كوردفان ويوقفه على مافيه الحكومة المصرية من الفوضى بسبب الفتنة العرابية فتقدم نحو كوردفان

وترك أثقاله بجبل قدير ليعود محتمياً اذا قدرت له الهزيمة والفشل

ذكر وصول المهدي الي كابه

(كابه) منهل جنوب البحر الابيض بمسافة عشرة أميال وماؤه من الامطار تجتمع فى مكان منخفض ويقصده الاعراب لسقي ماشيتهم وهو أقرب منهل الى الابيض فى طريق المهدي وقد استقبله فيها خلق كثير من أهالى كوردفان ومعه من المقاتلة مائتا ألف أو يزيدون منهم نحو ثلاثين ألف فارس وما كاد يصل الي كابه حتى بعث رسولين بكتاب الي محمد سعيد باشا مدير كوردفان ومن معه من ضباط الحامية وجميع سكان الابيض يدعوهم فيه الي التسليم ويحذرهم من بطشه وفى ذلك الكتاب ما فى غيره من الدعاوى التي ينتحلها لنفسه ككفر من لم يصدق بمهديته وغير ذلك مما تقدم لنا ذكره وكنقش اسمه على ورق الاشجار وبيض الدجاج فدخل الرسولان علي محمد سعيد باشا ودفعا له الكتاب وجلسا بجانبه بغير اذن وأخذا يسبانه ويتوعدانه بكل مكروه حتى قالا له ان خيل المهدي لابد أن تطأ موضع قدميك وتروث على بساطك هذا. وما وقفت سفاهة ذينك الرسولين عند هذا الحد بل تناولا شخص الجناب الخديوى فاستدعى المدير كل الضباط ووجوه السكان وقرأ عليهم كتاب المهدى فكان جواب الضباط انا لا نسلم لهذا الشق وفينا قطرة دم ووقف احمد بك دفع الله التاجر الذى تقدم لنا ذكره وقال كما قال الضباط وزاد عليهم انه أقسم بالوفاء. أما الياس باشا أم برير وسائر التجار فانهم سكتوا ولم يفوهوا بكلمة والرسولان مسترسلان فى ميدان السفاهة والشتائم مما هيج غضب الضباط الذين ألحوا على المدير بقتلها فأمر قومندان الجنود اسكندر بك محمد بقتلهما

رمياً بالرصاص ففعل وأخذ المدير في اتمام حفر الخندق واعداد مايلزم من المعاقل والطوابي ومعدات الدفاع . ومكث المهدي أياما ينتظر عودة رسوليه ثم علم بقتلهما فأرسل ألف فارس تفرقوا فى أطراف المدينة يرفعون أصواتهم بدعوة الناس الى اللحاق بالمهدى فى كابه فخرج اليهم محمدين بن العريق من التجار وكان رئيس المجلس المحلي واشتغل المدير بأعمال الدفاع

ذكر استحكام الابيض

مدينة الابيض كبيرة وسكانها يزيدون عن مائة ألف نسمة وكانت الحكومة خندقت عليها ولكن رأى محمدسعيد باشا ان هذا الخندق لايقوم بحراسته أقل من ستين ألف جندى وبداخل هذا الخندق خندق آخر يحيط بالاماكن الاميرية ومنازل الضباط وأعيان المصريين وقد أعدت الحكومة منازل لالياس باشا وغيره من التجار داخل الخندق الصغير وشددت عليهم فى نقل أمتعتهم الي المنازل التي أعدت لهم ففروا ولحقوا بالمهدي فى كابه عدا أحمد بك دفع الله وابراهيم بن عدلان وهاهى أسماء أولئك التجار الذين كانوا سببا في اغارة المهدى على كوردفان بل كانوا السبب فى شقاء السودان كله وسفك دماء مئات الالوف من البشر لان المهدي كما قدمنا كان لايبتغى غير طريق الى السودان الغربى وقد انتقم منهم كما انتقم من الياس باشا وسيأتي ذكر ذلك في مكانه وهم (الياس باشا أم برير . محمدين بن العريق . الحاج بان النقا) ولحق بهم من مستخدمى الحكومة (الريح حامد) باشكاتب المجلس المحلى ومن قواد الباشبوزق (طه بن الجعلى) و (ابن ناى الله) و (ابن الحسين)

ذكر هجوم المهدي علي الابيض

لما لحق الياس باشا ومن معه من التجار بالمهدي فى كابه حرضوه على الهجوم على المدينة فامر أخاه محمد بن عبد الله قائد جيشه ان يزحف بالجيش بعد منتصف ليلة الجمعة لست ليال بقين من شهر شوال عام ١٢٩٩ هجريه وأن يبتدئ بالهجوم في الغلس وخطب المهدى على الناس وحثهم علي الجهاد وقال لهم ان نيران البنادق لا تصيبكم وانها تحول ماء كما تحولت نار الخليل برداً وسلاما فزحفوا واستاقوا غزلان الفلاة وغيرها من الحيوانات امامهم وفي الغلس بدأ هجومهم فوقف لهم الجند وقفة الاسود وأصلوهم نيراناً حامية حتى انتصف النهار وتكاثف الدراويش على الخندق مما يلي الجبخانات فولجوا وتقهقر الجنود بانتظام وحالوا بينهم وبينها ثم عادوا الى مواقفهم الاولي من الخندق بعد ان قتل كل الذين ولجوا الخندق وفى منتصف النهار تمت الهزيمة علي العدو وخسر اثني عشر ألف قتيل عدا المجروحين حيث كانوا يبلغون ثلاثة أضعاف هذا العدد وسقط محمد بن عبد الله شقيق المهدي وقائد جيشه قتيلين وقتل يوسف شقيق عبد الله التعايشي وقتل قاضي المهدية أحمد بن جباره وقتل الشيخ الامين أحد مؤسسي دعوة المهدية وانفض الاعراب من حول المهدى وارتابوا فى صدقه بعد اخباره لهم ان نيران البنادق تحول ماءا ولحقوا بديارهم ولم يعودوا الي معسكر المهدى بكابه . وقد وقعت هذه الهزيمة اسوأ موقع عنده ولم يبق حوله غير نفر قليل من ذوي قرابته والذين لحقوا به من مدينة الابيض فصمم علي العودة الي جبل قدير أو الاعتصام بجبال دارفور وأوديتها السحيقة فاشار عليه الياس باشا بالدنو من الابيض ومحاصرتها

لانها فى حاجة عظيمة الى القوت وأوعز اليه بان يكتب منشوراً الي جميع القارين يخبرهم بان الذين ماتوا احياء فى الجنة وسيلقاهم أهلوهم فيها وان النبي صلى الله عليه وسلم وعده ان لا يقع لانصاره مكروه حتى يفتح الله عليهم المدينة وانه قد اباح لهم الغنيمة يأخذونها دون بيت المال فتراجع كثير من المنهزمين فزحف فى اليوم الثالث وعسكر فى جهة (عد العود) التي تبعد عن حصون المدينة بنحو خمسة آلاف متر وأقام المتاريس حول المدينة وضيق عليها الحصار وسنعود الى تتمة ذلك

حملة علي بك لطفي

فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٩٩ انفذ عبد القادر باشا حلمى طابوراً من الجنود النظامية تحت قيادة القائمقام على بك لطفى لتعزيز حامية كوردفان حيث انتهت اليه أنباء تقدم المهدى نحوها وكان مع الطابور نحو الفين من الجنود الباشبوزق تحت قيادة افراد من عمد القرى المجاورة للمدينة وقصد عبد القادر باشا من تجنيد الباشبوزق ان يكونوا على الدوام فى طليعة الجنود يستكشفون العدو وينبهون الحملة على كل كمين فى طريقها ولولا ذلك لم تكن فائدة لاؤلئك الجنود الذين يجهلون النظامات العسكرية وفى كثير من الوقائع كانوا السبب الاعظم فى فشل الجنود بما يأتونه من الحركات التى لا تنطبق على الفنون العسكرية وما كادت الحملة تبلغ حدود كردفان حتي تألب لمناوأتها قبائل الجمع والجوامعه فاضطرت الى تشكيل قلعة تدافع بها الهاجمين وهى سائرة فى الطريق التي يكثر فيه الماء وهو منحرف لجهة الشمال وينتهى سيره عند نقطة (باره) وبعد بضعة أيام وصلت الحملة الى مكان تقرب من باره يدعى (كوا)

والجنود على آخر رمق فقدوا معه الصبر لانهم لم يذوقوا النوم والراحة منذ وصلوا حدود كوردفان وهجمات العدو متوالية عليهم ليل نهار وكان العدو قد تجمع منه زهاء ثلاثين الف مقاتل ووثبوا على الحملة وبالرغم عما ابدته الجنود من الصبر تمكن العدو من الولوج فى المربع وقتل القائد والجنود كلهم الا كوكبة تزيد على المائة قادها اليوزباشى السيد أفندي القوال وتمكن بها من الوصول الى باره وكان لعبد القادر باشا عيون يسيرون خلف الحملة وهم الذين أبلغوه خبر القضاء عليها حيث أذاع عكسه تسكينا للخواطر وتطمينا لسكان الخرطوم

سقوط باره

باره مدينة كبيرة فى الشمال الشرقى من الابيض تبعد عنها بمسيرة أربع مراحل وفيها بساتين كثيرة بسبب وفرة مياهها وقربها اذ البئر لا يتجاوز عمقها مترين وأكثر سكانها من المصريين والاتراك ويوجد بها من الدنقلين عدد كبير

ولما قامت ثورة المهديين حصنتها الحكومة ووضعت فيها حامية فاغار العدو عليها عدة غارات ورجع مقهوراً منها ولما ثبتت قدم المهدى في محاصرة الابيض سقطت باره فى قبضته علي شرط ان لا يمس الاهلين بسوء في أموالهم وذراريهم ولم يوف لهم بل تناول امراؤه الاموال ومدوا أيديهم الى النساء فذهبوا اليه وهو يومئذ محاصر للابيض متظلمين فاحال ظلامتهم على عبد الله التعايشى فجمعهم وقال لهم ان الخضر عليه السلام قال له لا ترد اليهم ما أخذ منهم لانهم يخسرون الآخرة ويعودون الى ما كانوا فيه من شرب الخمور وأغلظ عليهم القول وتوعدهم ان عادوا الى التظلم وكان المهدى أصدر منشورا ضمنه

الثناء على عبد الله التعايشي وقال فيه انه أوتي الحكمة وفصل الخطاب وان الخضر عليه السلام رفيقه ووزيره ومن رأى في حكمه اعوجاجا ظاهرا ففي باطنه من الحكمة كالتي في قصة موسى عليه السلام مع الخضر وكان الذى أشار على المهدى بكتابة هذا المنشور أحمد بن سليمان أمين بيت المال تمهيداً لحكمه على أهالى باره والمنشور فيه اختلاف بين نسخه فالنسخة التي بيد امين بيت المال تخالف التي بيد التعايشي وهي التي طبعت في مجلد المنشورات ويقول أمين بيت المال ان عبد الله التعايشي هو الذي أوعز الى كاتب سره فوزى بن محمود باريه باحداث الزيادة وسيأتي ذكر قتل فوزى وأمين بيت المال وانهما اقرا بالحقيقة عند القتل اه

ذكر كنيسة جبل الدلن

كان جماعة من القسوس الكاثوليك شخصوا الى كوردفان وشادوا بها كنائس وتوغلوا في بلاد المتوحشين وجبالهم يدعون القبائل الى النصرانية وبنوا كنيسة في جبل الدلن من أعمال كوردفان وكان بهذا الجبل حامية وضعتها الحكومة للمحافظة على أولئك الدعاة ولمنع الاتجار بالارقاء تحت قيادة رجل من الاوربيين وكان كاتبه مصريا اسمه خليل حسنين وكان ميالا الى المهدى ففي ذات يوم أصبح يقص على الجنود رؤيا منامية فحواها انه رأى المهدي وأنه بشره وسائر الذين في الجبل بانهم من خيرة انصاره وصفوة محبيه وكساهم حللا سندسية ووضع على رؤسهم تيجانا زمردية فوقعت هذه الرؤيا موقع القبول عند الجنود ومالت قلوبهم نحو المهدى وبعث خليل حسنين بكتاب الى المهدى يقص عليه الرؤيا ويعرض به دخولهم في طاعته فارسل

لهم مائة فارس من الاعراب ومعهم كتاب يقول فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بصدق رؤيا خليل حسنين وانه يبذل الامان لكل الذين في الجبل حتى القسوس الذين تعهد لهم بالحرية الدينية ودعاهم للقدوم اليه فلبوا جميعاً ولما مثلوا بين يديه قابلهم بالبشاشة وطيب خواطرهم أما خليل حسنين فكوفئ بادخاله ضمن عمال بيت المال وبقي القسوس حتى سقوط الابيض ثم صودرت أموالهم واجبروا على اعتناق الاسلام بعد تعذيب شديد اه

ذكر واقعتي شات والمرابيع

(شات) قرية تبعد عن النيل الابيض بنحو عشرة أميال وهي أول منزل ينزله المسافرون من الدويم الى كردفان وبها تجار لابتياع الصمغ ويسكنها مصريون من أهالي مديرية أصوان وكان بها حامية من الجنود خندقوا على القرية فمر بهم أحمد المكاشفي قادما من قبل المهدي بالولاية على سنار وقد عززه بامراء كثيرين من أهالي البحر الابيض أشهرهم ابن كريف عهد اليه المهدي بجمع قبائل البحر الابيض ونشر دعوته بينهم ونصرة أحمد ابن المكاشفي الذي تقدم لنا ذكر أخيه عامر بن المكاشفي وما أتاه في سنار

ولما وصل أولئك الامراء الى شات التف حولهم الوف من رجال ابن كريف فهجموا على شات وذبحوا من فيها من الحامية وقتلوا النساء والاطفال وأتوا من المنكرات مالم يسمع بمثله انسان حيث كانوا يسوقون الاسرى من النسوة عراة كيوم ولدتهن ويتركهن عرضة للحر والبرد حتى يمتن من الجوع والظمأ مقرنات في الاغلال يضربهن كل من مر بهن ثم اجتازوا النهر الابيض الى الجزيرة وكانت بها حامية من الجنود في مكان يدعي المرابيع فتمكنوا بها

وانتشرت دعوة المهدي في الجزيرة وعلى الخصوص في البلاد المتوسطة بين النيلين الازرق والأبيض مثل معتوق وعبود

ذكر واقعة عبود

عبود قرية تبعد عن النيل الازرق بمسيرة خمس مراحل وكان فيها نقطة عسكرية فهب الاهلون وحاصروا من فيها من الجنود فأرسل عبد القادر باشا الى طابور من المصريين كان معسكراً في مدينة المسلمية يأمره بالتقدم لانقاذ (عبود) فتمرد الجند لوشاية وصلت اليهم وقالوا لا نتقدم وحسبوا ان المسألة حيلة يقصد بها هلاكهم في وسط الصحراء لانهم من العساكر العرابيين الذين بعثتهم الحكومة بعد اخماد نار الثورة فتدارك عبد القادر باشا الامر وشخص بنفسه الى المسلمية فاستقبله الجنود وقصوا عليه ما بلغهم فطيب خواطرهم وقال لهم اني سائر معكم بنفسي فثابوا الى الطاعة وزحف معهم الي عبود ومعه من الجنود الباشبوزق عثمان بك الدالي فلما اقتربوا من عبود فر العدو من حولها وأنقذت حاميتها وما كادت تمضي عليه بضع ساعات حتى وافاه نبأ بأن الداعية ابن كريف جمع نحو ثلاثين ألف مقاتل في معتوق التي تبعد عنه بمسيرة نحو يومين ووجهة سيره مجهولة ويخشى أن يقصد بهم الخرطوم ووافاه نبأ آخر بتضييق احمد بن المكاشفي الحصار على سنار وجاءه ثالث بظهور عصائب حول الخرطوم يقودها الشيخ مضوي عبد الرحمن المحسي الذي ذكرنا نبأ شخوصه الي المهدي في جبل قدير ثم جاءه تلغراف من المعية السنية مضمونه ان الحكومة قد عينت الجنرال هيكس باشا رئيس الاركان حرب الجيوش السودانية فيجب ايقاف جميع الحركات العسكرية الى حين

وصوله وانه سيغادر القاهرة بعد بضعة أيام هذا ما كتبته المعية فى حين أن إيقاف الحركات العسكرية بضع ساعات أقل نتائجه وقوع الخرطوم وسنارفى خطر ربما كان انقاذهما من مخالبه عسيراً

ذكر واقعة معتوق

لم نقف على شىء مما أقنع به عبد القادر باشا المعية بضرورة متابعة الحركات الحربية فقد زحف بجنوده فى اليوم التالي والتقى بابن كريف في غابة معتوق واصلاه ناراً حامية ففر منهزما تاركا نحو ألفي قتيل في ساحة الحرب وتأثره حتى تفرق أنصاره وبلغ عبد القادر باشا (الـكوه) على شاطىء النيل الابيض ومن هناك قصد الخرطوم على احدى البواخر وطارد العصائب التى ظهرت حوالي الخرطوم وقبض على جماعة من زعمائها وأودعهم السجون وأخذ فى الاهبة للحملة على احمد بن المكاشفى وانقاذ سنار

ذكر واقعة الداعي

زحف عبد القادر باشا من الخرطوم في ثلاثة آلاف من الجنود المصريين النظاميين لانقاذ سنار وكان أحمد بن المكاشفي محاصراً لها منذ شهر تقريباً ومعه نحو ثمانين ألف مقاتل التفوا حوله من قبائل (جهينة والكواهلة) وغيرهم ولما وصلت الحملة الي مدينة ولد مدني لحق بها الشيخ عوض الكريم بن أبي سن زعيم قبيلة الشكرية التى تقدم لنا تعريفها ومعه عدد كبير من فرسان قومه كانوا يسيرون في طليعة الحملة يستكشفون المواقع والمكامن وبعد اقامة بعض أيام في ولد مدني رتب عبد القادر باشا هيئة الزحف وجعل صفوف القتال أربعة واعتني بأمر الجناحين اللذين يدافعان

عن القلب وكان العدو فى حماس شديد يقتحم النيران بخيله وبصبر تحت تطاير المقذوفات ويلتحم بالجنود فدبر عبد القادر باشا حيلة قاومت اقتحام فرسانه حيث صنع آلة صغيرة من الحديد عليها ثلاثة مسامير فاذا ألقيت على الارض وقف أحدها وبهذه الحيلة خفت اضرار فرسان العدوّ حيث يضع الجنود بينهم وبينه هاته الآلة وزحف عبد القادة باشا من ولد مدنى فى أواخر ربيع الآخرة سنة ١٣٠٠ هجرية فالتقي باحمد بن المكاشق فى مشرع الداعي ومعه ثمانون ألف مقاتل فانتشب القتال بينهما بضع ساعات أصيب فى خلالها عبد القادر باشا برصاصة خرقت ثيابه ودخلت في جوف ساعته ولم تصبه بأذى وانهزم ابن المكاشني وتكبد خسارة تزيد على عشرة آلاف قتيل وتابع عبد القادر باشا سيره نحو سنار ورفع عنها الحصار ولحق ابن المكاشفي بجبل (سقدى مويه) الذي يبعد عن سنار بمسيرة ست مراحل وأقام عبد القادر بسنار يرتب معدات الدفاع ويلقى على الحكام الاوامر

ذكر واقعة سقدي مويه

وبعد أيام انفذ عبد القادر باشا حملة من الجنود الباشبوزق تحت قيادة صالح اغا الملك ومعه صنجقاق عثمان بك الدالى والملك الحسين الى (سقدى مويه) فذهبت الحملة والتقت بابن المكاشفى هناك وثبت القواد وأصلوا العدو ناراً حامية وفر ابن المكاشفى فى عدد قليل من أنصاره وغنموا كل ما في معسكره من الذخيرة والرايات والطبول التي يدقونها وقت الحروب وعادت الحملة الى سنار وأقيم لها احتفال باهر وزينت المدينة وبينما كان الناس يتبادلون عبارات التهنئة والسرور ويقدمونها الي عبد القادر باشا اذ ورد عليه نبأ برقى من الخرطوم

بان الجواسيس اخبروا بسقوط مدينة الابيض عاصمة كوردفان في قبضة المهدي فاستاء لهذه الفاجعة ولكنه تجلد ولم يوقف من كانوا حوله على شيء من هذه المصيبة التي نغصت سروره

ذكر رأي عبد القادر باشا في انقاذ الابيض

ذكرنا ماكان من أمر المهدى وانه لما وطن عزمه على الزحف الى كوردفان أرسل دعاته ليهبوا بالثورة والعصيان حوالي الخرطوم كي يشغلوا عبد القادر باشا عن الاهتمام بامر كوردفان وتعزيز حاميتها وقد قرنت سياسته هذه بالنجاح حيث لم يستطع عبد القادر باشا الغلبة على أولئك الدعاة الا بعد أن تم للمهدي الاستيلاء على عاصمة كوردفان والقضاء الاخير على نفوذ الحكومة في ذلك الاقليم

على انه بعد أن نال عبد القادر باشا الظفر فى واقعة (سقدي مويه) لم تزل امامه عقبة أخري وهى وجود داعية يدعي ابن عبد الغفار جمع حوله جيشا جرارا فى جهة (كركوج) جنوب سنار يخشي من تقدمه نحوها وقد لحق ابن المكاشفي بعد هزيمته من سقدي مويه بجهة النيل الابيض ولكن معاودته الكرة على سنار كانت متوقعة وقد اطمان فى هذا الوقت عبد القادر باشا على مدينة الخرطوم حيث وصل اليها عدة الوية من الجنود المصرية التى يقودها الجنرال هيكس باشا وزحفت فرقة منها لمطاردة ابن المكاشفى فى جهات النيل الابيض كللت حركاتها بالنجاح

كان رأي عبد القادر باشا ان تمده الحكومة بالمال والرجال فيترك حامية تقاوم دعاة المهدى فى الجزيرة وحول الخرطوم ويتقدم هو نحو

كردفان في الطريق الشمالية التى يكثر فيها الماء بعكس الطريق الجنوبية التى سارت فيها حملة الجنرال هكس بحيث تكون جنوده كافية لحفظ خط الرجعة وتأليف قوة تكون هاجمة ولا ريب ان هذا التدبير كان كافلا لانقاذ كردفان وارجاع المهدى بصفقة الخاسر المغبون لو مدت الحكومة له يد المساعدة ولكن من أين لها ذلك وهى واقعة وقتئذ تحت براثن الثورة العرابية ومخالب الازمة المالية وقد كانت الجنود التى ناهض بها عبد القادر باشا العدو في حروبه كلها فى حالة يرثي لها من شظف العيش وقلة الملابس فقد كانوا يلبسون الجلود ويقتاتون بلحوم الماشية التى يغتنمونها من العدو ويلبسون فى أرجلهم أحذية من جلدها مع كثرة الحشرات والشوك في تلك البلاد التى يجتازونها ومع هذا كله كانوا على جانب عظيم من الصبر والسكينة لا يتذمرون ولا يتضجرون وقد مضي عليهم بضعة شهور لم يقبضوا مرتباتهم في خلالها

وقد بلغنى ان عبد القادر باشا بعث يسترحم الحكومة فى ارسال ثلاثين الف جنيه لصرف تلك المرتبات وقال انه لا يليق بنا ان نسوق الجند وضباطهم الي مواطن الموت وأولادهم ونساءهم يتضورون جوعاً فلم يلتفت الي قوله حتي انه كان يسأل الحكومة المكافآت بالرتب والنياشين لكثير من الضباط فتقابل مطالبه بالرفض والاباء . ويقولون ان سبب ذلك كله هو اسماعيل أيوب باشا الذى كان وقتئذ أحد الوزراء فقد أوقف نفسه لمماكسة عبد القادر باشا وحمل الحكومة على عدم الاصغاء لاقواله وهو أمر في غاية الغرابة يبعد على الانسان تصديقه وقبوله لولا تواتر رواياته وتصحيحها عند الكل.

وقد وقف القلم خجلا عند هذه المسألة ولولا أن تقرير حقيقة تاريخية ساقه لما طاوعني فى هذا المجال اذ يبعد كل البعد أن يكون وزير من وزرائنا يقف

نفسه لاخفاق مساعى آخر فى مسائل عمومية قد لا يلحقه منها ضرر بل أضرارها لاحقة بالحكومة ومادعاه الى هـذا كله غير انه يكره لبغيضه احراز الفخار ونيل شرف الانتصار فانا لله وانا اليه لراجعون

وقد كان فى امكان عبد القادر باشا لواجابت الحكومة مطالبه أن يحول بين المهدي وبين كوردفان بوضع الحاميات فى جميع المناهل التى على طريقه وقصارى القول أن عبد القادر باشا كان ذا ند بيرات جليلة يستحيل معها على المهدي أن يبلغ أربه من كوردفان ولو اتبعت الحكومة آراءه في العدول عن ارسال حملة الجنرال هيكس الى كوردفان لاستطاعت القضاء على المهدوية في ذلك الاقليم وسنبين ذلك كله فيما يأتى

ذكر واقعة ابن عبد الغفار

وبعد واقعة سقدى مويه زحف عبد القادر باشا بجيش جرار الي جهة سنار للقاء الداعية ابن عبد الغفار الذى جمع حوله ثمانين الف مقاتل من قبائل جهينة والكواهلة وغيرهم وأغار بهم على مدينة (كركوج) وقتل خلقاً كثيرين من التجار وأحرق شيئاً كثيرا من بضاعتهم. (وكركوج) هذه مدينة كبيرة على ضفة النيل الازرق يقصدها التجار من كل انحاء السودان للحصول على الصمغ الذي هو من اكثر حاصلاتها ولكن ثمنه ينقص نحو الثلث عن ثمن صمغ كردفان لجودة هذا ورداءة ذاك والصمغ فى كردفان صنف واحد وهو المعروف باسم (الهشاب) بعكس صمغ كركوج فان أنواعه كثيرة يتفاضل بعضها عن بعض وأما السمسم فانه من اكثر حاصلات تلك البلاد وثمنه لا يتجاوز أربعين قرشاً لكل أردب ويجلب هذا الصنف لحاجة جميع الاقاليم الشمالية

السودانية لانه لا ينبت بارضها

نعود الى ذكر الحملة فنقول إن العدو ناوشها عدة مرات مناوشات صغيرة كان يقصد بها أن يغرر بها حتى يبلغ الاماكن الوعرة كثيرة الغابات فادرك عبد القادر باشا هذه الحيلة وأرسل جواسيسه الي معسكر العدو وحيث تمكنوا من الوشاية بين القائد وأنصاره حتى الحوا عليه بوجوب الهجوم على الحملة فهاجمها فى الغلس وقبيل منتصف النهار تمت الهزيمة عليهم وتركوا فى ساحة القتال أكثر من عشرة آلاف قتيل عدا المجروحين وتابعت الحملة السير جنوبا حتي تمكنت من تفريق العدو والقضاء عليه وقفلت راجعة الى سنار وجرح أربعة من أكابر قواد العدو جروحا بالغة واتم عبد القادر باشا تحصين سنار وانقطعت أسباب القلاقل من الجزيرة وانحصرت المهدوية فى اقليم كوردفان وانقشع كل خطر عن الخرطوم التي احتشدت فيها جنود حملة الجنرال هيكس

مأمورية الكولونيل ستيوارت

كانت الحكومة انتدبت الكولونيل ستيوارت بمأمورية الي السودان وكانت سرية فلما وصل الى بربر عرض كتابا على مديرها من المعية السنية وطلب التصريح له باجراء تفتيش عام على كل دفاتر الحكومة ومصالحها فارسل المدير على جناح البرق يعلم عبد القادر باشا الذى أمره بالانقياد لكل مايامره به الكولونيل ثم قصد الخرطوم وكان معه ايطالى اسمه موسيو داليه سبق له التوظف فى حكومة السودان وكان ذا بغض لججلر باشا الالمانى وكيل الحكمدارية فأخذ يسعي مجدا فى الايقاع به عند الكولونيل ستيوارت الذي كان بعده يتبوأ منصب وكالة الحكمدارية بعد فصل وكيلها ججلر باشا الالمانى

وفى ذات يوم زار الكولونيل ستيورات عبد القادر باشا فى سراى الحكمدارية فجلس معه وابتدر ججلر باشا بكلام أغضبه وتبادلا عبارات الشتم وتطاولا على بعضهما بالمضاربة بالكراسى فوقف بينهما عبد القادر باشا ومنعهما من المضاربة وقصد محاكمتهما وبعد أيام ترجيا العدول عن معاقبتهما حيث اصطلحا واعتذر كل منهما لصاحبه. ثم غادر الكولونيل ستيورات الخرطوم قاصدا سنار والقضارف فكسلا فصوع فمصر وأثنى على عبد القادر باشا واستحسن ادارته وأعماله العسكرية

ويقول البعض ان مأمورية الكولونيل المذكور كانت الوقوف على حقيقة ماذاعه ذوو المقاصد السيئة عن عبد القادر باشا حيث قالوا أنه طامح للاستقلال بالسودان وقد فند الكولونيل هذه الاشاعة وأظهر سوء قصد الذين اذاعوها وروي بعضهم أن ساكن الجنان الخديو توفيق باشا كان يوالي الاسئلة عن أعمال الكولونيل مما يدل على أن مأموريته كانت ذات اهمية عظيمة

ذكر حصار الابيض

تركنا الكلام على المهدي وقد زحف بخيله ورجله وعسكر فى (عد العشر) وتراجع اليه المنهزمون ورتب مقاتلته حول المدينة وأعد المتاريس والطوابي ومنع دخول الاقوات

أما الجنود فكانوا يخرجون الى منازل الاهالي ويأخذون مافيها من الغلال والاقوات اذ لا ميرة في مخازن الحكومة ودام الحال علي ذلك حتي غاية شهر ذى الحجة سنة ١٢٩٩ هجرية فنفدت الاقوات

وفى مستهل محرم سنة ١٣٠٠ ابتدؤا يذبحون الماشية والمجاعة آخذة في التفشي وذبحوا الحمر الاهلية وبلغ ثمن الاقة من لحمها مائتين وخمسين ريالا

وكذلك ثمن الاقة من لحوم الكلاب وبلغ ثمن الكيلة من الغلة سبعمائة ريال وأخيراً عدم كل شيء من ذلك وحكى لنا واحد من المحصورين أن خادم أحمد بك دفع الله كان يوما حاملا مائة ريال يطلب بها شراء دجاجة لمولاه فلم يجدها مع أن ثمن الدجاجة فى الابيض كان لا يتجاوز نصف قرش مصري وثمن أردب الغلة لا يبلغ الريال وحكى لنا ضابط من المحصورين أن اربعة ضباط اشتروا دجاجة ضئيلة بمائة وخمسين ريالا واقتسموها بينهم

وكان الجنود يخرجون على شكل مربع فى كل غداة الى حوالي المدينة ليأخذوا حشيشا اسمه (الحكنيت) وهو كالحسك وفى جوفه حبوب تشبه الغلة يقتاتون بها ثم نفد هذا الحشيش واشتدت المجاعة على الجنود الذين أكثروا من أكل الصمغ وتفشت امراض الاسهال والدوسنطاريا بينهم وازداد عدد الوفيات

ولما وصلت الحالة الى ماتقدم جمع المدير الضباط والموظفين والوجهاء وشاورهم فى الامر فقرروا جميعا أن يشاطروا الحكومة مادخروه لقوتهم وأن يحسب لهم ثمن الاردب بمائة وستة وتسعين ريالا فتحصلت الحكومة علي ثلاثمائة أردب وزعتها على الجنود فأصاب كل واحد أقل من كيلة كانوا يخلطونها مع الصمغ ويقتاتون بها ثم فرغت هذه الاقوات وعاود المدير مفاوضة أولئك الناس فتحصل على كمية يسيرة من الغلة أصاب كل واحد من الجنود نحو رطلين منها ثم فقد الكل الاقوات وفر كثير من الجنود وأسلموا نفوسهم للمهدى واختل النظام وتمرد العساكر علي ضباطهم حتي انهم كانوا يضربونهم ويهينونهم وتألفت عصابات من الجنود يوالون الهجوم على المنازل فى المدينة ليسلبوا مايجدونه من الطعام وصار الخندق خاليا من المدافعين

ولولا ماوقع فى قلب العدومن الفزع والخوف بعدهزيمته الاولى لاستطاع الاستيلاء على المدينة بلاعناء

على أن الجند كان ينتظر رفع الحصار بواسطة نجدة تقدم عليه من الخرطوم وقد كان ذلك متوقعا من عبد القادر باشا الذي تقدم لنا أن الحكومة لومدته بالمال والجنود لكان فى استطاعته انقاذ الابيض واستئصال الثورة من اقليمها كله وقد كان المهدي في غضون حصاره الابيض يروعه كل يوم مايرفعه اليه دعاته من توالى هزيمتهم امام عبد القادر باشا لكنه كان يتعزي برسوخ قدمه فى كوردفان عموما والابيض خصوصا

ذكر سقوط الابيض

وفى أواخر شهر ربيع الآخرة سنة ١٣٠٠ هجرية عقد الضباط ومحمد سعيد باشا مدير كوردفان مجلسا للمداولة فقر راى الكل على طلب الامان من المهدى بعد أن ايقنوا انهم غير قادرين على البقاء على هذه الحالة فكتبوا كتابا يسألونه أن يؤمنهم على مايملكونه وأن لايمد يده لغير الاموال الاميرية فكتب لهم بذلك وزاد أن حلف على المصحف الشريف أمام الملأ بالمحافظة على هذه الشروط . وفي اليوم التالى خرج محمد سعيد باشا ومن معه من الضباط ومن بقي من الجنود وقابلوا المهدى فامرلهم باكواخ انزلوافيها وأمر بمصادرة أموالهم وأموال كل الذين فى المدينة فشرع عمال بيت المال فى التنفيذ وأخرج الناس من منازلهم واوقف الحاج خالد العمرابى بقبيلته على الابواب يفتشون كل خارج وينزعون ملابسه ووضعوا نسوة تفتش النساء فكن يجردن نساء المصريين من ملابسهن ويفتشن عوراتهن ويقبضن على كل حسناء منهن

وأخرج كل سكان المدينة وأقيم عليهم الحراس في صعيد واحد حيث يأخذهم عمال بيت المال الى منازلهم ويضربونهم ويعذبونهم ليدلوا على أموالهم المخبوءة ودفائنهم المستورة وكثير منهم مات من شدة التعذيب وقيد المدير محمد سعيد باشا ليدل على ماخبأه من ماله

ذكر مقابلة المهدي حامية الابيض

وفى صبيحة اليوم الذي ضرب أجلا للتسليم خرجت الحامية من المدينة على هيئة طابور والموسيقي تصدح أمامها فقابلها المهدي راكبا ولما دنت منه وقفت وترجل هو عن حصانه وجلس على فروة وأذن لمحمد سعيد باشا وضباطه فى الجلوس فجلسوا بين يديه وقبلوا يده ثم سأل واحدا من الضباط اسمه يوسف شعله عن اسمه فاجابه وكان يوسف شعله مامورا بضواحي المدينة وكان مشهورا بالشدة فاجتمع تجار الابيض ساعتئذ حول المهدى وأشاروا عليه بقتل يوسف شعله الذى خاطب المهدي وقال له أنت خليفة الرسول والعفو منك مأمول فعفى عنه ونزع جبته والبسه اياها ثم التفت الى محمد سعيد باشا وقال له أنت قتلت رسولى فاجابه القائمقام اسكندر بك انا الذى قتلهما فقال انهما كانا يرغبان فى الشهادة وقد من الله عليهما بها ثم التفت الي أحمد بك دفع الله وقال له ان أخاك عبد الله مات كافرا مع يوسف باشا الشلالى وقد نصحته بالتسليم لى فلم يفعل وأخشى عليك أن تموت كافرا مثله وتحرم من دخول الجنة فقال له لا احب دخول جنة لم يدخلها أخى عبد الله ثم انصرف عنهم ودعاهم الي طعام فأكلوا وحلفهم علي المصحف أن لا يخبأوا أموالهم لانها صارت غنيمة له فحلفوا ودخل المهدى المدينة وأقام بسراى المدير

ذكر احصاء ماغنمه المهدي من الابيض

أحصي ما اجتمع فى بيت المال فبلغ ثلاثة ملايين ونصفا من الريالات ومائتين وخمسين ألفاً من الجنيهات وأربعة آلاف أوقية من الذهب قيمتها ستة عشر ألف جنيه ومن أصناف البندقي والمجر والخيري ما يقدر بخمسة قناطير وأربعة آلاف أوقية من الذهب المصنوع حلياً وأكثر من أربعين قنطاراً من الفضة

وكان محمد سعيد باشا قد خبأ ماله الذى يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه وأبي أن يظهره للمهدى وكان أمين بيت المال استدل على مكانه من احدى جواري الباشا فأسر هذا الخبر للمهدي فكتمه وجلس فى محرابه ودعا محمد سعيد باشا وأخذ يذكره بنعيم الجنة وخسة الدنيا ويقول له أظهر مالك فيقول له ليس عندى مال وأخيراً دعا أمين بيت المال وقال له على رؤس الاشهاد ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنى بالمكان المخبوء فيه مال محمد سعيد باشا فاذهب الى مكان كذا من الدار وانبشه تجده فيه فذهب ومعه خلق كثير فأخرج المال وأذيعت الاخبار بهذه الكرامة وعدها كثير من الناس من أكبر كرامات المهدى

وبلغ عدد الارقاء الذين غنمهم ألفين وجمع من الملابس والفروشات وأثاث المنازل شيأ لا يدخل تحت حصر وانتدب أمين بيت المال ابراهيم رمضان من أهالي أصوان لبيع الفروشات وانتدب ابراهيم بن عدلان لبيع الارقاء والماشية وعين كثيراً من كتبة الحكومة كتبة فى بيت المال وجلهم من الاقباط

ذكر القبض علي محمد سعيد باشا والضباط وقتلهم

لم يمض أسبوعان على سقوط الابيض حتي قبض على محمد سعيد باشا وعلى بك شريف وجميع الضباط عدا القائمقام اسكندر بك والملازم الثاني يوسف منصور ودفع كل واحد منهم الى أحد المشائخ وجمع التعايشي الضباط وقال لهم ليذهب كل واحد منكم مع أحد المشائخ ليقوم بحاجاته وأوعز الي أولئك المشائخ أن يشددوا المراقبة عليهم ويبقوهم كأرقاء عندهم وبعد أيام أصدر أمراً بقتل محمد سعيد باشا وعلى بك شريف ومحمود افندى حسن فقتل كل واحد منهم بالضرب بالعصى الغليظة على رأسه وبقي صغار الضباط في الاسر الى مابعد هلاك الجنرال هيكس وزحف المهدي على الخرطوم

وقد تضاربت الروايات عن الاسباب التى حملت المهدى على الايقاع بهؤلاء الضباط ونحن نورد هنا ماقالوه بايجاز فنقول

روي سلاطين باشا ان محمد سعيد باشا وجميع الضباط كتبوا كتابا بعد سقوط المدينة الى عبد القادر باشا يخبرونه بما حل بهم وشرحوا له الاسباب التي أدت الي هذا السقوط وكان من الذين وقعوا على هذا الكتاب الضابط يوسف منصور الذى ألح على اسكندر بك وأقنعه بالذهاب معه الى المهدي وتقديم أعذارهما عما فرط منهما فأطاعه اسكندر بك لانه أيقن بأن المهدى ينتقم منه مع الباقين مادام يوسف منصور مصراً على اخباره وعند وصولهما اكب يوسف منصور على أقدام المهدى يقبلها واعتذر فصفح عنه وكافأه بتعيينه قومندانا على الطوبجية وعدل عن معاقبة اسكندر بك ولم يكافأه بشيء هذا مارواه سلاطين باشا

وقد سمعت من الحاج خالد العمراني أحد تجار الابيض الذين انضموا

الي المهدي وجعله أميراً من أكبر قواده ان ابن أخته عمر أزرق رأى مناما بعد سقوط الابيض. وهو ان الدراويش الذين قتلوا فى واقعة يوم الجمعة وقفوا بين يدي الله عز وجل وقالوا يا ربنا ان محمد سعيد باشا وضباط الابيض قتلونا ظلما وكان النبي صلى الله عليه وسلم حاضرا فالتفت الى المهدى وقال له لك الخيار بين قتل أولئك الظلمة أو نفيهم من الارض أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فقال المهدي أقتل محمد سعيد باشا وعلى بك شريف وانف بقية الضباط وقد قص على عمر أزرق هذه الرؤيا فامرته بتدوينها على قرطاس قدمته للمهدي في مجلس كان التعايشي حاضرا فيه ومعه الفقيه جلال الدين الفوراوي وكان من المعتقدين فقرأ المهدي عليهم الرؤيا وقال حقا اني كنت حاضرا بهذه الحضرة ثم أمر بالضباط ومحمد سعيد باشا ففعل بهم ما بيناه

وقال آخرون انهم قتلوا بثأر محمد عبد الله شقيق المهدي ويوسف شقيق التعايشى لان المهدي لما دخل المدينة وأخذ يفتش على جثة أخيه فعثر عليها زرفت عيناه واستل سيفه وقال سيؤخذ بثأرك فى الآخرة ليوهم من حوله انه لا ينتقم لنفسه

هذا وقد مكث الضباط فى الاسترقاق وكتب التعايشى منشوراً أباح فيه أخذ كل حسناء من زوجها وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالحيلولة بينهن وبين أزواجهن الكفار

وقبض على أحمد بك دفع الله ومحمد ياسين وهذا كان ناظر أحد الاقسام بتهمة أنهما غير مصدقين بالمهدية فنفيا ثم قتلا وكانا مسجونين عند الحاج خالد ويقال انه الذى رماهما بهذه التهمة وأخذ المهدي أم الحسن بنت أحمد بك دفع الله موطوءة بملك اليمين وكتب منشورا قال فيه ان هاتفا الهيا قال

له لا بأس عليك منها وانها غنيمة النبي صلى الله عليه وسلم

على ان المهدي والتعايشي كانا راغبين في استحياء أحمد بك دفع الله وارضائه حتى ان التعايشي كان يود اعطاءه راية يجمع حولها كل ذوى قرابته ويكون أميراً عليهم فاغتاظ الياس باشا أم برير من ذلك وحذر التعايشي من هذا الامر وقال له ان أحمد بك دفع الله اذا رفعت له راية وانضم اليه محمد يس فانهما بلا شك يعملان ضد المهدية وبعد مداولات كثيرة بين المهدي والتعايشي أصدر المهدي منشورا قال ان النبي صلي الله عليه وسلم أمره بقتلهما فانتدب التعايشي قريبه يونس بن الدكيم ومعه خمسون فارساً وسار بهم الى منفاهما وضرب عنقيهما بعد ان صليا ركعتين وروى يونس بن الدكيم ان محمد يس لما قدم للقتل أظهر جبنا وهلعاً فانتهره أحمد بك وقال له اخسأ فالى أين تفر يا جبان ثم قال للسياف تقدم نحوى يا ابن الفاعلة فتقدم وضرب عنقه رحم الله الجميع

ذكر ترتيب جيش المهدي واحكامه

ذكرنا ما كان من أمر المهدي وترتيب جيشه في جبل قدير وأنه جعله فرقا ثلاثا يقود كل واحدة منها خليفة من خلفائه الثلاثة وجعل القيادة لاخيه محمد بن عبد الله الذي قتل بواقعة الابيض ونقول الآن انه بعد انتشار نفوذه في اقليم كوردفان كله واستيلائه على الابيض تكاثفت جيوشه وأسند القيادة العامة على جيشه للتعايشي وجعله مستشاره الذي لا يقطع أمرا دونه وعين أحمد بن على قاضيا بدل أحمد بن جباره الذي قتل في واقعة الابيض ونصب أربعة رجال دعاهم الامناء وفوض اليهم النظر في كل العرائض التي ترفع اليه

والفصل فيها وانتدب نحو عشرة رجال دعاهم النواب وفوض اليهم النيابة عنه فى نظر المسائل المعظمة التى لها دخل فى بيت المال فكان كل فريق من النواب والامناء يحكمون فيما يعرض عليهم من المسائل بغير تحديد

وأخذ يوالي اصدار المنشورات بعضها فى ذم الدنيا وخستها وبعضها في الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وفي ذات يوم جاءه أحد خدامه (الملازميه) وقال له انه رآى امراة تزنى خلفه على المصحف الشريف وأمر بالمرأة فقتلت رجما بالحجارة وخطب فى الناس وقال لهم إن أصحابه لايكذبون ولا داعي لاربعة شهداء مادام الشاهد الواحد يحلف وقضي ان كل المظالم التى اقترفها الحكام قبل ظهور دعوته لايسمع فيها أدعاء وذلك لان مااغتصبه أولئك الحكام صار ملكا لبيت ماله ورده يفقد بيت المال كل مايملكه . وكان لكثير من الناس ودائع عند تجار الابيض فأمر بعدم ردها الى أصحابها اكراما لخواطر أولئك التجار

هذا حال جيشه وأحكامه وأما تقدمه لامتلاك الخرطوم فقد انحلت عزيمته عنه على أثر ما توالى على دعاته من الهزيمة والفشل وعدا ذلك فان الخرطوم أو انئذ كان فيها نحو عشرين الف جندى وامتلاء قلب المهدى فزعا وخوفا من عبد القادر باشا وصرح في كثير من خطاباته بان النبي صلي الله عليه وسلم أخبره بترك التقدم على الخرطوم مادام عبد القادر باشا حاكما على السودان وكان يرفع يديه عقب كل صلاة ويقول (ياقادر اكفنا عبد القادر) وقد وجه عزيمته نحو دارفور ورآى ان امتلاكها اقل صعوبة من امتلاك الخرطوم وسيأتي ذكر تفصيل استيلائه عليها

ذكر فصل عبد القادر باشا والغاء نظارة السودان

فى شهر جمادى الاولي سنة ١٣٠٠ أثر انتصارات عبد القادر باشا على دعاة المهدي فى جنوب سنار صدر امر عال بفصله عن حكمدارية السودان والغاء النظارة وانشاء قلم مخصوص بنظارة المالية لمراقبة حسابات السودان

وقد وقع نبأ فصله اسوأ وقع عند أهالي الخرطوم وسائر مستخدمي الحكومة والاعراب الموالين لها وقد رفعوا العرائض تباعا الى المنفور له الخديوى توفيق باشا يسألونه العدول عن هذا الامر فلم يفعل

ولم يكن هذا الاسترحام قاصراً على من ذكرناهم بل تناول النزلاء الاوروبيين وقناصلهم فانهم اشتركوا فى هذا الالتماس وما ذلك الا لان الكل موقنون بان الطريقة التي اتبعها عبد القادر باشا كانت السبب الوحيد فى نجاة الخرطوم وسنار والجزيرة كلها وكان من وراء أعماله ماقنط المهدى من التغلب على الخرطوم وقد أصدر منشورات لكل دعاته فى الجزيرة يأمرهم بكتمان الدعوة مادام عبد القادر باشا حاكما على السودان وقال لهم ان النبى صلى الله عليه وسلم أخبره بان دعوته لاتفلح الا بعد مغادرته السودان

على ان الانسان يحار من اقدام الحكومة على هذا الامر الذى فتح بابا للقيل والقال حيث أوله كثيرون بانها غضبت عليه لانتصاره على العدو أو أنها كانت لاترى بأسا في تقلص نفوذها من السودان وبسط سلطان المهدي عليه وقد محضها النصح وبين لها ان ارسال حملة الجنرال هيكس ضرب من الجنون وأن غلبة المهدي عليها ضربة لازب فلم تلتفت الى نصحه وضربت باقواله عرض الحائط كما فعلت معه حين نصحها فى شأن يوسف باشا الشلالي

خطر العقوبه فابلغت بعلها أن أخاه راودها عن نفسها فاستشاط غيظا ونادى بالرحيل فرحل الحى وانفرد هو باخيه في الفلاة وضربه بالسيف حتي عقر رجليه وتركه مصروعا على الارض ولحق بالظعن وأمر أتباعه ومواليه بلحاقه وطلق المراة وتابع مسيره الى واداي وأدرك الموالى احمد المعقور فى وسط الفلاة فضمدوا جراحه وأبلغوه أمر اخيه وأنه كان لا يقصد قتله بل أن يفترق وسار أحمد المعقور مع مواليه ونزلوا على ملك من الزنوج كان متسلطا على قسم كبير من دارفور وكان كسائر زنوج افريقيا لا دين له فاكرم وفادتهم وقرب أحمد منه وكان ذا دهاء وشجاعة فاحبه سكان البلاد ولم يمض أمد طويل حتي توفى السلطان فاختار الشعب أحمد المعقور ملكا عليهم فقام بالسلطنة أحسن قيام وأخضع كل الاقاليم المجاورة له وترامت أخباره حتى بلغت الاعراب النازلين بوداى فنزحوا اليه وشدوا عضده وانتشروا فى البلاد واستأثروا بخيراتها وانقرض السكان الاقدمون ولم يبق غير قليل منهم استوطنوا بين دار فو وبرقو وأسسوا مملكة هناك تعرف باسم (ابورنشه) وطالت ايام أحمد المعقور حتى ازال كل الصعوبات من المملكة وجعلها ميراثا لولده من بعده وسار خليفته علي سيرة والده ثم حفيده السلطان دالى وكان عالما فاضلا رفع منزلة العلماء ورتب القضاة ليحكموا بالشريعة الغراء وانتشر نفوذ سلطان دارفور حتي بلغ كوردفان وضفاف النيل الابيض وانتشرت الدعوة الاسلامية حتي عمت البلاد التى يحكمونها

وفي أوائل القرن الثالث عشر من الهجرة افتتح الدفتردار كوردفان وضمها الى املاك مصر

ولما دخلت كوردفان فى حوزة الحكومة المصرية لزم سلاطين دارفور

ذكر تعيين محمد علاء الدين حكمدارا للسودان

وخلف عبد القادر باشا محمد علاء الدين باشا وأعيدت نظامات الحكمدارية والغيت النظارة وكان علاء الدين باشا حكمداراً للسودان الشرقي وله مع سكانه صداقة مذ كان مديراً على كسلة فلما قبض على زمام الحكمدارية وعهدت اليه الحكومة بشراء الجمال للحملة كان أول عمل أتاه انه أخذ من مال الخزينة نحو مائتي الف ريال وشخص بنفسه الى السودان الشرقي لشراء الجمال مع ان مثل هذه المأمورية يقوم بانجازها متعهد من التجار ولكن علاء الدين باشا سرب المال الى جيبه والزم مشائخ القبائل بتقديمها له مجاناً ولا غرابة فى ذلك لان الجمال كثيرة عند أولئك الاعراب ويوجد منها عند كل شخص مايربو على مائة راس وقد اشتهر عن علاء الدين باشا تناول المسكرات بكثرة ونقل لنا واحد من خدامه الذين كانوا معه بحملة هيكس انه شرب زجاجة كنياك قبل ان يقتل بعشرين دقيقة

وتلاعب علاء الدين باشا باثمان الاقوات التي تقدم للحامية حيث اتفق مع المتعهدين على اثمان تبلغ ثلاثة أضعاف الأثمان الحقيقية وقبض أموالا طائلة من ذلك

وقد سار على سنته حسين باشا الذى ناب عنه فى الحكمدارية ونشأ من وراء تلاعبه ماأضر بالخرطوم في غضون حصارها وسيأتي ذكر ذلك فى مكانه ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. وباع علاء الدين باشا وظائف الحكومة الى كثير من التجار السودانيين فاغتنموا الفرصة وتملقوا للمهدي باتفاقه على أسرار الحكومة ووعد بالرئاسة على مجلس

الاستئناف الي تاجر بربري اسمه (حمد التلب) لاارى له أقل أهلية ترشحه لهذا المنصب غير أهلية الاصفر الرنان ومثل هذه المخرقة أشياء كثيرة لايسع المقام تفصيلها وقصاري القول ان الحكومة كانت لاتهتم بغير انفاذ حملة الجنرال هيكس ومحمد علاء الدين باشا كان لايهتم بغير جمع الاموال من وراء نفقات تلك الحملة التعيسة هذا ماعولت عليه الحكومة وأما المهدي فانه وقف وقفة المدافع ينتظر قدوم الحملة عليه وأرسل دعاة كثيرين الي دارفور يجمعون الناس على دعوته ويناهضون الحكومة فيها وسنأتي على سرد كل مايهم القاريء الاطلاع عليه ثم نعقبه بذكر حملة الجنرال هيكس وبيد الله التوفيق

ذكر دارفور

دارفور بلاد واسعة فى الجنوب الغربى من كوردفان وسكانها ينقسمون الى ثلاثة أقسام قسم يسكن القرى والدساكر. والثاني يسكن البوادي ويعيش بألبان الماشية كمألوف عوائد الاعراب. والقسم الثالث يسكن رؤس الجبال وبين هؤلاء وسكان القرى تشابه فى الاخلاق والعادات والمعيشة حيث يشتغل الفريقان بفلاحة الارض وافتراق حيث تجد سكان القري منغمسين فى الملذات ولهم مهارة في اجادة طبخ الاطعمة وتعدد الالوان الامر والذي يجهله أهل السودان كلهم وهم مشهورون بالكرم وقرى الضيوف وبلادهم خصبة وأراضيهم تجود بمحصولات كثيرة وثمن القوت منخفض فيها جدا حتى أن الاردب من الدخن الذى هو اكثر محصولاتهم لايتجاوز بضعة قروش مصرية والقمح يكاد يكون أنخس ثمنا من الدخن ويوجد بدارفور تجار أغنياء

لهم أعظم صلاة التجارة مع القطر المصرى يجلبون العاج وريش النعام وغيرها من سلع السودان

وهؤلاء السكان تناسلوا من عنصر عربى استوطن دارفور منذ أجيال وسنأتى على ايضاح ذلك حتي يكون القارىء على بينة منه

وفى دارفور جبال كثيرة أشهرها (جبل الحلة) وبه قبور الملوك وفيها مدن كبيرة أشهرها (الفاشر)عاصمة تلك البلاد ومدينة (داره)و(كبكابيه) و (كلكل)

وفيها معادن كثيرة من النحاس والحديد والرصاص وأهل دارفور ميالون للهرج والقلاقل والحروب

تاريخ دارفور القديم

لخصنا للقارىء تاريخ السودان القديم ونرى اتماماً للفائدة أن نثبت له تاريخ دارفور القديم الى انحلال دولتها وضمها الى الاملاك الخديوية فنقول

نزح الي السودان الغربي أعراب من تونس وما جاورها من البلاد الافريقية في أواخر القرن الثامن للهجرة واستوطنوا بلاد واداى وبرقو ويحكي أن أخوين من أولئك النازحين وصلا الي دارفور اسم أحدهما علي والآخر احمد المعقور الذي أطلق عليه هذا الاسم بسبب ان أخاه علياً عقر رجليه بضربة سيف

وتحرير القصة أن عليا كان متزوجا بامراة بارعة الجمال وكان تحب أخاه احمد حتى كاشفته بهذا الحب وهو أنكره عليها وتعالى في تعنيفها حتي اضمرت له الشر وصممت على الايقاع به عند أخيه لئلا يسبقها بابلاغه شغفها به فتقدم هي تحت

حدودهم وحشدوا جيوشا جرارة لصد تيار المصريين من بلادهم وكان الدفتردار ينوي التقدم الى بلادهم والقضاء على سلطتهم فلم يثن عزمه غير نبأ قتل الامير اسماعيل باشا في شندي حيث قفل راجعا الى شندى كما تقدم لنا ذكر ذلك وبقيت مملكة دارفور حافظة لاستقلالها ولكن تجار المصريين الذين كانوا يألفون الشركات في النيل الابيض قوضوا سلطتها من بحر الغزال وكانت خاضعة لها وثقلت وطأة أولئك الحكام على الاهلين حيث ضاعفوا الضرائب على أثر تقدم كوردفان وبحر الغزال وتوالت الحروب الاهلية والثورات الداخلية فضعفت المملكة وكانت تخل عزائم رجالها وأشهر هاته الثورات ثورة الرزيقات وهي قبيلة من البقارة يزيد عدد نفوسها على خمسمائة الف نسمة تسكن بادية جنوب دارفور وكانت هذه القبيلة شديدة الحمية وكثيرة الرغبة فى الاستقلال وقد ناهضت مملكة دارفور مرات عديدة وفي كل مرة تدور عليها الدائرة فتثوب الى الطاعة ريثما تسترد قوتها فتعود الى الثورة والحروب

ذكر فتح دارفور

يعلم الكل ما كان عليه المغفور له الخديوى اسماعيل باشا من حب اتساع المملكة ومتابعة الفتوحات ولذا وجه عنايته لفتح دارفور واستمال اليه كثيرا من تجارها وأغنيائها وذوى النفوذ فى بلاط سلطانها

وكان اقليم بحر الغزال يومئذ بايدي التجار لم تنشر الحكومة الخديوية نفوذها عليه وقد تقدم لنا ان غردون هو الذي أدخلها ضمن أملاك الخديو وقد باشر انفاذ ذلك حيث انه أول حاكم عين لها وفى سنة ١٢٨٢ هجرية

وفد على المغفور له اسماعيل باشا رجل اسمه البلالى من أقرب مقربي سلطان دارفور وأصله من أهالي بورنو فاكرم وفادته واستشاره في أمر فتح دارفور فاخبره بامر الشركات التجارية التى كانت متسلطة على دارفور وكان الزبير باشا وكيلا لشركة أبو عموري وهو تاجر مصري وكان يوسف باشا الشلالى وكيلا لاحدى الشركات وكذا النور بك عنقره ومع الزبير باشا نحو الفين من الجنود المعروفين باسم (باذنقر) ومع كل من يوسف باشا والنور بك عنقره اكثر من هذا العدد

وقصد البلالي ان يكون رسولا من قبل الخديو الى هؤلاء الثلاثة وبعدهم بارائه كي يهاجموا مملكة دارفور من الجنوب ليسهل على جنود الخديو مهاجمتها من الشرق

وعلى هذا العزم غادر القاهرة بعد ان انعم عليه الخديوي بالرتبة الثانية ثم غادر الخرطوم ولحق ببحر الغزال ونزل ضيفا على الزبير باشا وقبل انقضاء ايام الضيافة الثلاثة أرسل له بعض اتباعه في منتصف الليل وأمرهم بقتله فذبحوه على فراش نومه وحملوا رأسه الي الزبير

ولما علم الخديو بذبح رسوله امتلا غيظاً وصمم على الانتقام من قاتله ومفاجأته بحملة كبيرة تقتص منه فانتدب اسماعيل ايوب باشا لقيادة هذه الحملة وجعله حاكما على السودان وما كاد يبلغ الخرطوم حتي ندم الزبير على فعلته وأخذ يكتب الى الحكومة ويعدها بالاغارة على جنوب دارفور فارتأى اسماعيل أيوب باشا قبول وعده وتأجيل معاقبته لفرصة أخرى

وفي غضون ذلك كتب الزبير الى سلطان دارفور يقول ان العبيد لادين لهم وهم عبدة أوثان بحل استرقاقهم شرعا فكتب اليه سلطان دارفور يقول

صدقت انه ليحل لنا استرقاق العبيد وبائعي (الشطيطه) لان الزبير من قبيلة الجمليين واهل دارفور يسمونهم بهذا الاسم لانهم يذهبون الى بلادهم تجارا بهذا الصنف.

وفى أوائل سنة ١٢٩١ كان الزبير باشا والنور بك عنقره قد بلغا حدود دارفور وكان عرب الرزيقات التى تقدم لنا ذكرهم اعتدوا على قافلة من التجار كانت مجتازة بين دارفور وبحر الغزال فقتلوا رجالها ونهبوا متاعها فتذرع الزبير بهذا السبب وسأل سلطان دارفور تعويضاً عنها فامتنع وأرسل اليه بجيش جرار تحت قيادة وزيره أحمد شتا فتحالف الزبير مع عرب الرزيقات وقال لهم ان غلبني سلطان دارفور فكونوا معه عليّ وتأثروني بخيلكم واغنموا اسلابي وان أنا غلبته فكونوا معي عليه وافعلوا به ماتقدم فرضي الرزيقات بهذا الشرط وتقدم الوزير احمد شتا ورجاله في تيه عظيم نحو الزبير وسلاحهم الرماح والسيوف لايعرفون ما البندقية وسروجهم مصفحة بالذهب فصب عليهم رصاصاً كالسيل فكانوا يظنونه رعداً قاصفاً ويتلون الآية «ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته» وسقط ألوف منهم قتلى وقتل قائدهم وأكابر قواده وانهزم الباقي وتمزق شملهم كل ممزق وتأثرهم فرسان الرزيقات واثخنوهم قتلا ونهباً وأرسل الزبير يعلم اسماعيل أيوب باشا ويطلب منه المدد فسافر اليه مدير كوردفان في ثلاثة طوابير من الجنود النظاميين ومعه مدافع وسواريخ فاجتمع عليه وفتحوا مدينة (داره) وتحصنوا فيها وزحف اسماعيل أيوب باشا بعسكر كثيف من الخرطوم قاصدا دارفور ولما تحصن الجند فى داره جمع السلطان ابراهيم جنده وتقدم نحو داره حتى صار على مقربة من الحصن ففاجأه الجنود بنار حامية اضطرته الى التقهقر فرماه قومه بالجبن فقبض

على كثيرين منهم وزجهم في السجون وضرب أعناق كثير منهم ثم هاجمته الجنود فحمل هو وجماعة من بطانتـه وآل بيته ممسكا بيده سيفا حتى دخل وسط الجنود وهو يصيح أين صاحبكم الزبير بائع الشطيطة فصبوا عليـه الرصاص كالمطر فسقط قتيلا هو وبطانته وذوو قرابته ودفنت جثته بالاكرام اللائق وتقدم الجنود نحو الفاشر عاصمة البلاد واستولوا عليها ونهبوا ما فيها حتي كانت الريالات مبعثرة على وجـه الارض والطرقات مملوءة منها وفي اليوم التالي وصـل اسماعيل أيوب باشا الفاشر ونال حظاً كبيراً من الغنيمة واشتد الخلاف بينه وبين الزبير باشا الذى شخص الى القاهرة لمقابلة الخديو فنعمـه من المودة وكان من أمره ما نحن فى غنى عن ايراده ومن ثم خضعت بلاد دارفور للحكومة وقسمت ادارتها الى ثلاثة أقاليم (الفاشر) وهي مقر الحاكم العام و (داره) و (كبكابيـه) ولكل اقليم مدير وعلى الكل المدير العام

ولما أبعد الزبير عن دارفور ظن ابنه سليمان انه وارثه وانه سيكون حاكما مستقلا على دارفور فخاب ظنه وفى غضون سياحة غوردون في اقليم دارفور دبر ابن الزبير مكيدة لقتله قبل أن يبلغ حصن (داره) وبينما كان ابن الزبير واعوانه يتشاورون فى الامر اجتاز صفوفهم غوردون ودخل الحصن فاندهشوا حين سمعوا اطلاق المدافع للترحاب به

ولم يمض غير بضع دقائق حتى بعث يستدعي النور عنقره والسعيد حسين وكانا نخاسين مع ابن الزبير فحضرا وبعد أن جلسا أمر لهما بالقهوة والسجاير ثم سألهما عما دبراه مع ابن الزبير لاغتيال حياته فقالا ان ابن الزبير يريد القبض عليك واخذك أسيرا يستفك بك أباه من مصر فقال لهما ولماذا لم تنصحاه وتبينا

له مغبة مثل هذا الجنون فقالا انه محاط باشرار من رجال النخاسة وانه لا يصغى لنصحنا الا اذا كان موافقا لما يشير به أولئك الاشرار فصدقهما وأمر السعيد حسين بالتوجه الي (شكا) وجعلها حاكما عليها وولى رفيقه جهة أخرى ثم استدعي ابن الزبير ومحضه النصح وحذره وخامة عاقبة الخروج علي الحكومة فتظاهر بالطاعة فامره بمغادرة دارفور واللحاق بحر الغزال ثم كان من أمره فيها ماتقدم لنا ايراده

ولما خرج ابن الزبير من عند غوردون استطال بالشتم على النور عنقره والسعيد حسين فردا عليه أقبح رد وقالا له لولانا لم يبلغ أبوك ذرة مما بلغ وانا سبب كل خير له وها نحن فارقناه وسيكون من وراء فراقنا اياه مايذهب بحياته وقد صدقت الايام قولهما وسيأتي ذكر السعيد الحسين وقتله في غضون حصار الخرطوم لخيانة ارتكبها

وقبل انصراف اسماعيل ايوب باشا من دارفور عين حسن حلمي باشا الجويسر حاكما عاما على أقاليمها وحشد فيها جيشا كثيفا كانت نفقاته عبئاً ثقيلا على كاهل الحكومة الخديوية لان دخل البلاد لا يقوم بعشر تلك النفقات لاسباب منها ان الضرائب موزعة على القبائل بغير قيد فيؤدي الجباة جزأ طفيفا مما يجبونه ويأخذون الباقي لانفسهم

علي ان التعامل لم يكن بالذهب ولا بالفضة بل بقطع من القماش صنع أوروبا وكل ثلاثة أذرع قيمتها خمسة غروش مصرية وبقطع من خرق تصنع هناك اسمها (الدمور) ومن الاسباب الداعية لزيادة النفقة توالى الحروب الاهلية والثورات الداخلية من المطالبين بالملك من وزراء السلاطين بالرغم مما اتخذته الحكومة من الحيطة بالقبض على اكثرهم وارسالهم للقاهرة

وما كادت سلطة الحكومة تتم تلك البلاد حتى قام رجل من سلالة ملوكها يدعى هارون وعقد البيعة على حربها ولقب نفسه بالرشيد واستصرخ سكان الجبال وبعد حروب كثيرة تمكنت الحكومة من طرده من البلاد حيث لجأ الى الجبال فاغتنم غردون هذه الفرصة لتقليل الحامية واقتصاد النفقات ثم تمكن غردون بدهائه من القاء النفرة والشقاق بين النخاسين ليتمكن من اراحة دارفور منهم وذلك بما أتاه مع النور عنقره والسعيد حسين وابن الزبير

وعلى أثر ذلك ثابت البلاد الى السكينة وأخلدت الى الطاعة ففاجأتها المهدوية بدعوتها وحروبها كما تبين ذلك

ذكر راي عبد القادر باشا في دارفور

قبل ان نذكر استيلاء المهدى عليها نأتي على ذكر رأى عبد القادر باشا في دارفور لكيلا يفوت القارئ الوقوف عليه فنقول . قد ذكرنا ان عبد القادر باشا كان يري ان المهدوية يمكن حصرها في اقليم كوردفان حتي تدب عقارب الاختلاف بين انصارها وحينذاك يكون القضاء عليها كما قدمنا ان المهدى كان ذا طموح شديد لدارفور لتكون طريقة الي السودان الغربي أو ملجأ يعتصم به من وجه الحكومة اذا أحس بالفشل وقد كان في غضون حصاره الابيض يوالى ارسال الرواد ويسعي مجداً لاستمالة البيوت القديمة ويعد من بقي من ذرارى الملوك بارجاع الملك الى نصابه فقام دعاة كثيرون وجمعوا عصائب كثيرة فى امكنة مختلفة

على انهم لم يأتوا أمراً جللا بل جل ما أتوه انهم قطعوا الطرق بين المدن

وعطلوا سير البريد الذى لا يقدر على السير الا اذا كان حراسه نحو الخمسمائة

وقد كان عبد القادر باشا يبحث على طريقة تعيد خطوط المواصلات مع دارفور ولو بطريق الصحراء المعروف بطريق الاربعين أو من طريق بحر الغزال فاذا تم له عمل كهذا كان أقل نتائجه تعزيز حامية دارفور حتى تصبح قادرة على مطاردة دعاة المهدية من البلاد والوقوف فى وجه المهدي والحيلولة بينه وبين دارفور

ولو اتخذت الحكومة من الحيطة ما يمنع تقدمه على الخرطوم واتبعت مشورة عبد القادر باشا وعدلت عن ارسال حملة الجنرال هيكس كما سيأتي ذلك فى محله لكانت النتيجة مرضية وقاضية على المهدية فى كوردفان ولكن سبق السيف العذل

على انني أقول كلمة وهى ان الحكومة الخديوية بعد اخذها لنصائح عبد القادر باشا مكنت المهدي من السودان ورضيت بالمذابح والفظائع التي ارتكبها المهدي وأول هذه المذابح حملة الجنرال هيكس التى أرسلتها كقطعان من الغنم تتنابها الذئاب من كل جهة

نقول ان حملة الجنرال هيكس أول هذه المذابح اذا قلنا ان الحكومة كانت معذورةً بسبب الثورة العرابية وغير قادرة على ملافاة ما تقدم من المذابح التي أولها واقعة (آبا) الى سقوط الابيض

هذا وقد علمت ان المال الذي كان يطلبه عبد القادر باشا للقيام بهذه الاعمال لا يتجاوز مائة الف جنيه وبهذا القدر الزهيد كانت الحكومة تقتصد بقية النفقات التي انفقتها مؤخرا على ازالة دولة المهدية بعد ان دمرت البلاد وصيرتها خرابا لا تسترد حالتها الاولى الا بعد قرن

ذكر قدوم محمد خالد زقل من دارفور

وفى أواخر سنة ١٣٠٠ هجرية وفد محمد بك خالد زقل وكيل مديرية (داره) على المهدى قادما من دارفور برسالة من سلاطين باشا مدير عموم دارفور فاستقبله المهدي خارج المدينة وأطلق له مائة مدفع واستعرض جيوشه امامه وقدم له هدايا كثيرة من الجواري الحسان وقرأ كتابا من سلاطين باشا على رؤس الاشهاد فى المسجد يقول فيه « انى تركت النصرانية منذ زمان مديد واعتنقت الاسلام دينا وانى مسلم ومؤمن بالمهدى ومصدق بدعواه وأنا مستعد لتسليم البلاد والدخول فى دعوة المهدي » فأثنى علي سلاطين باشا ودعا له بخير وكان ذلك قبل هلاك حملة الجنرال هيكس ببضعة شهور

وهنا نورد ترجمة محمد خالد اتماما للفائدة فنقول انه دنقلي من أقارب المهدى يجتمع معه فى الجد الرابع استوطن أبوه دارفور وولد المترجم بها وكان يشتغل بالتجارة حتى حصل علي ثروة عظيمة ثم صار وكيلا لمديرية (داره) وكان ذا دهاء وحيل وزقل لقب له

نعود الى ذكر كتاب سلاطين باشا فنقول يوجد هناك كتاب بعثه سلاطين باشا ولكن مضمونه لم يكن كما قرأه المهدى وليس ببعيد ان يكون حرفه كعادته ليبث به طمأنينة في قلوب انصاره حيث كانوا على وشك مناجزة الجنرال هيكس

وهنا ننقل تلك الاسباب عن سلاطين باشا نفسه فقد قال. انه لما أحس بكثرة دعاة المهدى في البلاد أيقن أنه اذا عمد الى اعادتهم الى الطاعة بالقوة لا تلبث الذخيرة أن تنفد ولا يمكن الحصول على غيرها وحينئذ تكون

العاقبة بلا ريب وبالاً

وكان على (داره) مدير ايطالى توفى بالحمى وناب عنه فى وظيفته وكيله محمد خالد زقل وكان سلاطين باشا عالما بقرابته للمهدى وقد نميت اليه أخبار ميله اليه ودعوته له سراً فخاف سلاطين باشا العاقبة فشخص الى (داره) من الفاشر وهناك بث العيون على محمد خالد فتحققت ظنونه وزادت هواجسه منه وزاد الطين بلة انه تحقق تفاقم الخطب وأحس بميل كثيرين من الاهالي لجانب المهدى وعلم ان المهدي لايمنعه من ارسال جيش لاخذ دارفور عنوة الا تربصه لحملة الجنرال هيكس ففاتح محمد خالد فى مابلغه عنه فلم يجحد قرابته للمهدى ولكنه حلف ايمانا غليظة على انه باق على ولاء الحكومة والاخلاص لها فسأله سلاطين باشا أن يكون رسوله لدى المهدى ويحمل كتابه له ويعمل لتأخير زحفه على دارفور حتى الفراغ من حملة الجنرال هيكس فاذا كانت الغلبة عليها أسلم سلاطين باشا البلاد للمهدي وان كانت عليه كانت الحكومة جديرة بمكافئته وعلى ذلك بارح محمد خالد زقل دارفور وافداً على المهدى وكان من أمر الاحتفاء به ماأوردناه

هـذا مارواه سلاطين باشا وقد أصحب محمد خالد احمد أغا الجريدلي قاوش أغاسى المديرية

وحكي لنا من نثق بروايته ان وفود زقل الي المهدي كان من الاشياء التى قدر بها المهدى على تسكين خواطر كثير من أنصاره الذين كانوا يحسبون ألف حساب لحملة الجنرال هيكس التى وصلت اليهم انباءها بغلو كثيرفكانوا يتحدثون بما لديها من الاسلحة ومعدات القتال بكلام يبعد عن العقل مثل قولهم ان الجنود لايحملون أسلحة بل الرصاص يتقذف من أفواههم وعيونهم

وأنوفهم وان لديهم نيرانا تسير فى الجو كالسحاب ولا تترك شيأ مرت عليه من شجر ومدر الا جعلته رماداً ومثل ذلك كثير لو أردنا ايراده لضاقت عنه المجلدات. ويقول كثير من ضباط حامية دارفور انهم كانوا يستطيعون النجاة والفرار من وجه المهدي بطريق الاربعين حيث ينتهي سيرهم في دنقله

وهذا زعم باطل لان حامية مؤلفة من بضعة آلاف شخص عدا عائلاتهم التى تبلغ أكثر من اثنى عشر ألف نسمة كيف تستطيع الهرب فى وسط صحراء لايقطعها الراكب في أقل من أربعين يوما وليس في هذه المسافة ماء غير أربعة مناهل فقط

وبقى محمد خالد في الابيض مع المهدى حتى فرغ من حملة الجنرال هيكس فأعاده الى دارفور وجعله حاكما عاما عليها وسيأتي ذكر ذلك بعد حملة الجنرال هيكس

ذكر حملة الجنرال هيكس باشا

لما قررت الحكومة بصفة رسمية ارسال حملة الجنرال هيكس أبلغ المهدي جواسيسه ماعولت عليه الحكومة فأصدر منشوراً يحض الناس فيه على الجهاد في سبيل الله وأمر المقاتلة أن يعسكروا خارج المدينة فكانوا يقضون الليل في المعسكر ويعودون فى الغداة الى المدينة وكان هو وخلفاؤه يفعلون كذلك وأصدر منشوراً الى القضاة والنواب بتأجيل نظر مايرفع اليهم من القضايا الى ما بعد الفراغ من الجهاد وكان ذلك قبل قدوم الحملة بنحو ستة شهور

وأخذ يستعرض جيشه مرتين فى الاسبوع وصفة هذا الاستعراض أن

كل قبيلة تقف تحت رايتها وهو يمر عليهم ويقف عند كل راية يعظ من حولها ويحضهم على الجهاد في سبيل الله فينتحبون بالبكاء ويعضون الانامل شوقا الى الجهاد وفي الحقيقة ان الرجل كان واعظا بليغا يعرف كيف يتمكن من إلانة قلوب أولئك الجهلاء الأن مواعظه كانت مشوبة باكاذيب وخرافات لايقبلها غير أولئك الجهلاء ويكاد يكون وعظه خلوا من الحكم الدينية ويرجع إسنادها الى دعاويه الطويلة العريضة أمثال أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرني بكيت وكيت

على أن جميع هذه الاخبار المختلقة لايخفى اختلاقها على جاهل من عامة المسلمين مثال ذلك أنه كان يقول لهم ان رسول الله صلي الله عليه وسلم أخبرني بان اصحابي أفضل من أصحابه لانهم يحاربون النيران ويخوضون صفوف القنابل والرصاص بخلاف أصحابه صلى الله عليه وسلم فانهم ماحاربوا غير السيوف والرماح ولم يخوضوا غير صفوفها ولايخفى مافي ذلك من الكذب عمدا على الله ورسوله

وأدهى من ذلك كله دعواه أن فضله كفضل رسول الله صلى عليه وسلم لاينقص عنه شيئا وأن خليفته عبد الله التعايشى أفضل من ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه والخليفة على بن حلو افضل من موسى كليم الرحمن عليه السلام والخليفة محمد شريف أفضل من عيسي روح الله وكلمته عليه السلام

ودخل عليه مرة شاعر ينظم اشعارا باللغة العامية يدعى ابن التويم وكان يتغالى فى مدح المهدى حتى افتي كثير من العلماء بكفره واسروا فتواهم حيث أيقنوا أنهم ان اظهروها حكم عليهم بالكفر وقتلوا شر قتلة وقال للمهدي اطلب منك اعطائي مقاما فقال له اعطيتك مقام حسان بن ثابت رضي الله عنه ثخنقته

العبرة وبكى وقال ياسيدى إن حسان كان شاعرا مثلي ولـكنه كان جبانا لايقاتل مع مولاه وانا شجاع أخترق صفوف القتال وانا قائد عشيرتى فكيف أرضي بمقام حسان فقال له المهدي قد اضفنا لك مقام خالد بن الوليد رضى الله عنه على مقام حسان فانت اذن حائز للمقامين فاستبشر وقبل يد المهدي. ومنح أحد الموالى مقام زيد بن حارثة وسمى نساءه بامهات المؤمنين وسيأتي بيان ذلك فى غير هذا الموضع

ومن هاته الاكاذيب انه قال ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بان حملة الجنرال هيكس مخذولة وان أرواح كل جنودها تحت مصلاه وانه اذا شاء قبض على تلك الارواح فيموت الجند جميعه قبل ان يغادر الخرطوم وانه اختار ان يتركها حتى تقدم عليه ليحرز أصحابه ثواب المجاهدين فى سبيل الله ويفوز من أراد الله به خيرا بالشهادة

وكان أولئك الجهلاء يتلقون هذه الاكاذيب بالارتياح والقبول ولا يجسر أحد على اظهار الشك فيها لان عقابه القتل فورا

وأرسل المهدي قائدا من قواده اسمه الحاج محمد أبو قرجه وعمر بن الياس أم برير ومعهما أربعون الف مقاتل من الجمليين والدناقلة وأمرهم ان يعسكروا فى مكان يدعى (البساطه) بالقرب من أم درمان فاذا غادرت الحملة أم درمان ساروا من خلفها بمسافة لا تزيد كثيرا عن مرمي المقذوفات النارية

وهنا نورد طرفا من ترجمة الحاج محمد أبو قرجه فنقول هو أول من حاصر الخرطوم ثم صار أميرا على السودان الشرق واصله دنقلى استوطن اسلافه قرية (القطنية) التي تبعد عن الخرطوم بخمس مراحل على النيل الابيض وكان تاجرا متوسط الحال لحق بالمهدي في جبل قدير وصار قائدا من

قواد فرقة الخليفة شريف وكان من احزم أمراء المهدى واعقلهم تزوج ابنت حامد شقيق المهدى وكان الامراء يرمونه بالانغماس في الملاذ والمكوف على الشهوات لانه كان لايجاريهم فى التغالى في الظهور بالزهد والتقشف كما عليه المهدي وخلفاؤه وقواده وجميع المقربين منه

وابتدأت الحملة سيرها من أم درمان براً وبحراً حتي بلغت (الدويم) وهي قرية على ضفة النيل الابيض تبعد عن الخرطوم بنحو عشر مراحل وهناك اجتمعت الالوية كلها وأخذت فى الاهبة للسير في الصحراء الى الابيض وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٠ هجرية

وأكره علاء الدين باشا نحو ثلاثين رجلا من التجار والموظفين الملكيين على مرافقته واناب عنه فى ادارة شؤون الحكمدارية وكيلها حسين باشا سري

ورافقه دليلان أصلهما من قبيلة الجمع قدما الخرطوم بايعاز من المهدي وصارا دليلين لها ليسلكا بها الطريق المعطشة المملوءة بالغابات

وغادرت الحملة الدويم فى أواخر شهر ذى الحجة وكان عدد مقاتلها أربعة الوية مصرية نظامية كل لواء يتبعه اربعة آلاف مقاتل فالجملة ستة عشر الفا ومعها الف جندى من السواري لابسى الدروع والخوذ ونحو الف جندى سودانى وجنود أتراك غير نظاميين كلهم فرسان تحت قيادة الصناجق عبد العزيز بك ويحيي كامل بك وخير الدين بك

ورافق الحملة مكاتبان حربيان لجريدتي التيمس والدالنيوز الانكليزيتين وكان عدد الجمال المعدة لحمل الأثقال يربو على ثلاثين الفا عدا البغال واسلحتها من طرزرا منجتون واربعة مدافع كروب قطر تسعة وستة مدافع مترليوز

انكليزي بست طلقات وثلاثون مدفعا من الطراز الجبلي وستة عشر صاروخا حربياً أما الذخيرة الحربية فكثيرة جداً والاقوات كافية لمؤنة ستة شهور

وسارت الحملة من (الدويم) الى (شاة) ومنها الى عقبة وما كادت تغادر ضفة النيل حتى رأت العدو يقلقها بالجلبة والصياح فاضطرت ان تسير في شكل مربع يحيط بدواب الحمل وكانت لا تقدر على المبيت الا في داخل زريبة من الشوك وكل جنود يتعدون الزريبة عن جلب الحشائش لعلف الدواب يقعون في يد العدو وقد مات اكثر الدواب من قلة العلف ولحق الجنود تعب كثير من قلة النوم لان العدو كان يقلقهم بصياحه في كل ليلة مرات عديدة فيقومون للاهبة لصد هجمته فيعود بغير قتال وهكذا حتي مطلع الفجر

ولما بلغت الحملة منهلاً اسمه (الرهد) يبعد عن الابيض مسيرة أربع مراحل قام المهدي يحرض قومه على الجهاد ويقول لهم اذا رأيتم العدو فكبروا ثم قولوا (اللهم نواصينا ونواصيهم بيدك وأنت القاتل لهم) وقبض العدو على الماني كان مهندسا في الحملة بينما كان يرسم بعض الغابات فارسله الي المهدي واكد سلاطين انه هو الذي ابلغه ما يقاسيه الجنود من التعب وماهم فيه من الخور واعتنق هذا الالماني الاسلام وبقي أسيراً بيد المهدي حتى مات ببلاد الحبشة فاراً من الاسر

وكان الخلاف مستحكما بين الجنرال هيكس وعلاء الدين باشا حتى قيل ان اكثر الجنود والضباط كانوا يظهرون لهيكس الكراهة وعدم الطاعة

وفي يوم الجمعة مستهل محرم سنة ١٣٠١ هجرية وصلت الحملة الى (شيكان) وكان بها غدير مملوء بماء المطر وفي اليوم التالي زحف المهدي وعسكر في (البركة) على غدير ماء كان يخشى ان تسبقه الحملة اليه وكان عدد مقاتلته المشاة

نحو خمسمائة الف مسلحين بالحراب والسيوف ونحو ستين الف فارس من المسلحين بالبنادق وأصلهم من جنود الحكومة السود الذين غنمهم منها وكان يقودهم حمدان أبو عنجه

وفى صبيحة الاحد ثالث محرم هجم حمدان ابو عنجه بالفرسان على ركن من أركان الزريبة فوقف له الجنود وقفة الابطال فرجع بخسارة وقتل فى هذه الهجمة الميرالاى رجب صديق بك وجورجي بك طبيب الحملة وغنم العدو مدفعين من طرز متر ليوز ونحو عشرين جملاً وبالرغم عما كان فيه الجند من المتاعب تمكنوا من دحر العدو واعادة النظام وأصيب عبد الله بن النور من اكبر قواد المهدى برصاصة فى فخذه الايمن وقتل محمد فوزى كاتب المهدي وأصله رقيق ربته الحكومة فى مدرستها حتي صار تلغرافياً وأخيراً طرد من خدمة الحكومة لاسباب قانونية ثم لحق بالمهدى وقتل نحو الفين من مقاتلة العدو

وفى ذلك اليوم أى يوم الاحد فر جندي اسود وأبلغ المهدى ان الحملة فقدت الماء منذ أمس وان غدير (شيكان) نفد ماؤه ولم يبق فيه غير الوحل وان الجنود يأكلون الطين والاوحال من شدة الظمأ وقد تمردوا على ضباطهم وسقطت هيبة النظام من قلوبهم حتي أن الضابط اذا أمر الجنود بشيء لا يجاوبونه بغير الضرب وقد مضى عليهم اكثر من أربع وعشرين ساعة لم يذوقوا فيها طعم الماء، وفى صباح الغد أى الاثنين رابع محرم ربما زحفوا على الابيض لانهم علموا بوجودكم فى البركة وخلو المدينة من المدافعين

فلما سمع المهدى هذه الانباء جمع خلفاءه وقواده والقي عليهم خطبه قال فيها ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بهلاك الحملة في صبيحة الغد لو لم

تقدموا نحوها

وفى صباح يوم الاثنين الرابع من محرم صلى المهدى بنفسه وقسم جنده على ثلاث فرق وأمرهم بالهجوم على الحملة التي كانت غادرت شيكان سائرة الى الابيض بنحو ميل وكانت تسير بغير انتظام بسبب ما يقاسيه رجالها من الظمأ فهجم عليها العدو فى غضون السير فلم تستطع المقاومة فانقض عليها وذبح كل الجنود ولم ينج منهم الا مائة وعشرون جنديا مصريا وضابطان من رتبة ملازم اسم أحدهما محمد حلمي والآخر محمد عزمي وأخذ الدراويش يجردون القتلى من ملابسهم ويطلقون النيران فى أجسامهم مدعين ان النار انما تأكل أجسامهم اظهاراً لكفرهم وكرامة من كرامات المهدي وزعم المهدي ان احراق النار علامة على ان الملائكة هم الذين قتلوهم لانهم حاربوا معه فى هذه الواقعة كما حاربوا مع النبي صلي الله عليه وسلم فى بدر. وقتل علاء الدين باشا والجنرال هيكس وحسين باشا مظهر ونجا تاجر من الابيض اسمه عبد الرحمن بان النقا وهو ابن الحاج بان النقا الذى تقدم لنا ذكره مع تجار الابيض وكان المهدى أوصى بعدم قتله لانه كان مسجوناً مع الحملة حيث ثبتت خيانته وانه كان عيناً للمهدى عليها

وفرق المهدي الناجين من رجال الحملة عبيدا للامراء واكد عليهم باستخدامهم فى خدمة خيولهم وأقام ستة أيام فى البركة ريثما أتم بيت المال جمع الغنائم والاسلحة وقفل راجعاً الى الابيض

هذه تفاصيل مهلك حملة الجنرال هيكس التي لايخفى ماخامر الناس من الحزن والذهول لما اتصلت بهم أنباؤها في الخرطوم ومصر وقد كان عبد القادر باشا يرى أن لالزوم لارسال هاته الحملة بعد ان سقطت

الابيض فى قبضة المهدى وان خير طريقة يستخدم فيها هذا الجيش هو اقامة معسكرات منيعة على ضفة النيل الابيض عند حدود كردفان لتمنع تقدم المهدى على الخرطوم من جهة ومن جهة أخرى تناوش حدوده لتضطره الى مهاجمتها اذ لاشك انه يعود مدحوراً منها وقد أدرك القاري، انه كان لايستطيع الغلبة على حاميات الحكومة بغير الحصار وفقد الاقوات أو الماء كما حصل فى سقوط الابيض ومهلك هاته الحملة التعيسة وبديهى ان المهدي كان لايستطيع الغلبة عليها مادامت محصنة على ضفة النيل وذخيرتها وميرتها تصل اليها من الخرطوم على طريق النيل

وبهذه الطريقة نجو بقية السودان من الوقوع تحت براثن المهدية ويصبح من المستحيل عليه لاستيلاء على الخرطوم ونشر نفوذه فى السودان كله

على ان حصر المهدية في اقليم كوردفان بضع سنين كان ذا نتيجة مرضية لجانب الحكومة لو لم ترسل الجنرال هيكس لان المهدى جمع حوله من المقاتلة مثل العدد الذى ذكرناه ولا بد له من نفقات تقوم بحاجات هذه النفوس ومن أين يقوى اقليم كوردفان على القيام بهذه الاشياء وقد تناقص محصول الزراعة بسبب ان اكثر المزارعين صاروا جنداً وهجروا المزارع وسكنوا الابيض مع المهدى وكانت تجارة الصمغ معين ثروة كبيرة لهذا الاقليم وقد أبطلها المهدي

وعليه لايلبث المهدى اذا منع من التقدم الى الخرطوم أن يضطر الي وضع ضرائب فادحة على الاهالى لتقوم بنفقاته وحاميته ولا ريب ان تلك الضرائب تستنفد كل ثروة كوردفان فى عام واحد وفى الثانى تكون مجاعة يعجز معها من تقديم الاقوات للذين جاؤا معه من القبائل المستوطنة فى

جبال قدير وفي أطراف دارفور ولا بد أن أكابر القواد يمدون أيديهم وينهبون مابأيدي قبائل كوردفان فتقع النفرة بينهما ولا يخفي ان المهدى كان يقسم كل ماغنمه لاستمالة الناس وليوهمهم انه منزه عن ادخار المال وان أمنيته هي الدار الآخرة

وبناء على هذه الاسباب يرى المتأمل ان الحكومة أخطأت الصواب بارسال هذه الحملة بل قدمت السودان لقمة دسمة للمهدي ثم هي أصرت على خطئها ولم تشأ انقاذ السودان بعد هذه الحملة وذلك انها صمت آذانها عن ارسال جنود مع غوردون باشا حيث كان في الامكان اعادة حفظ الحالة التى كان عليها المهدى قبل ارسال الحملة ولكنّ ارادة الله غالبة على كل شيء لارادلقضائه ولا حائل دون مشيئته

ذكر ترك السودان

فقدت الحكومة كل جلد لما اتصل بها نبأ فشل حملة الجنرال هيكس وكان أول عمل أتته ان كتبت الى الحكمدارية تأمرها باجلاء الحاميات من الدويم والكوة وفشوده وسنار لتعزيز حامية الخرطوم وأمرت بترحيل المصريين على نفقاتها تدريجا للجلاء من الخرطوم فأخلت مراكز الدويم والكوة وفشوده من حامياتها وكان ذلك بمثابة أمر صريح من الحكومة لعموم سكان السودان بالانضواء الى راية المهدي والخضوع لجبروته

وكان دعاة المهدى حوالى الخرطوم وسنار لايجرأون على الظهور بالدعوة خوفاً من الحكومة فكتب لهم المهدي يبشرهم بما أتيح له من الفوز ويأمرهم باظهار الدعوة ومناوأة الحكومة وسيأتى تفصيل ذلك على حدة

ووثب احمد بن المكاشف الذي تقدم لنا ذكره وحشد نحو سبعين ألف مقاتل حاصر بهم سنار ومنع الحامية من انفاذ أمر اخلائها وسيأتي ذكر ذلك

وزاد الطين بلة صدور أمر عال بترك السودان وأخذ أهل الخرطوم ينزحون الى بربر وأحصى من فيها من المصريين فبلغوا أكثر من مائتى ألف نسمة يتعذر اجلاؤهم عن الخرطوم فى أقل من سنتين وعادت القلاقل ودخل السكان أجمعون فى طاعة المهدى فكانوا يجتمعون خارج القرى والمدن ويضربون الطبول ويخلعون ملابسهم ويستبدلونها بالجبب المرقعة التى هى شعار المهدية ويرسلون منهم وفداً الى المهدى لتقديم الطاعة والخضوع ولم يعد للحكومة نفوذ وسقطت هيبتها وكان المهدى لا يقطع بان الحكومة عاجزة عن ارسال جنود تمنع تقدمه على الخرطوم ولذلك عاد الى الابيض وصوب عزيمته لاسقاط دارفور كما سيأتى ذكر ذلك فى مكانه

ذكر فرار وكيل مديرية الخرطوم ولحاقه بالمهدي

أشرنا الى أعمال محمد علاء الدين باشا حيث أباح وظائف الحكومة الى تجار السودانيين فجعلوا يتزلفون الى المهدي باطلاعه على الاسرار التى تدبرها الحكومة وكان من بين أولئك التجار رجل اسمه محمد الجزولى توصل لمنصب وكالة المديرية مع عدم الاهلية ثم أرسلته الحكومة لجباية الضريبة من جهة المسلمية التى هى وطنه الاصلي فاجتمع لديه اكثر من اثنى عشر الف جنيه ثم اتصل به صدور أمر الحكومة بترك السودان فقبض على من معه من موظفى الحكومة وشخص الي المهدى بالابيض ودفع له المال وأطلعه على ما عولت عليه الحكومة من ترك السودان فكاد يطير من الفرح وأطلق مائة مدفع

وادعى ان النبي صلى الله عليه وسلم بشره بالاستيلاء على الخرطوم وأن اصحابه سيغنمون اموالهم كما غنم اصحابه صلى الله عليه وسلم أموال الفرس والروم

وكان لمحمد الجزولي عم يدعى حمد التلب مات مع حملة الجنرال هيكس وكانت له أموال فاستولى عليها ابن أخيه هذا واودعها تاجراً ذهب بها الى مصر

ولما ولي التعايشي قبض على محمد الجزولي وشدد عليه فى اداء مال عمه لانه لبيت المال وبقى معذبا فى السجن عدة سنوات حتى مرض به ومات بعد اخراجه منه بايام يسيرة ولم ينتفع بنوه بشيء مما اغتاله من مال عمه بل ذهب كل ما كان يملكه لبيت المال واغتال التاجر ما اودعه من المال وهكذا مغبة الظلم ومصير الظلمة

ذكر سقوط دارفور

ذكرنا ما كان من أمر سلاتين باشا وانفاذه محمد خالد زقل للمهدي

ولما هلكت حملة الجنرال هيكس رفع أهالى دارفور رؤسهم الى الثورة وجاهروا بخلع طاعة الحكومة واجتمع جيش كبير من الثوار وحاصروا سلاطين باشا فى داره فشاور ضباط الحامية وسائر الموظفين الذين رأوا عدم قدرتهم على الدفاع وانهم اذا دافعوا لا يمكن ايصال نجدة اليهم بعد هلاك حملة الجنرال هيكس وتقلص نفوذ الحكومة من كوردفان فكتب سلاطين باشا كتابا الى المهدي عرض فيه التسليم على شرط ان يكون عمال الحكومة آمنين على أرواحهم وأموالهم فاستدعى المهدى محمد خالد زقل وكتب له منشوراً بالولاية على دارفور من قبله وأوصاه باستصفاء أموال عمال الحكومة عدا سلاطين باشا فقد أوصاه باكرامه ومراعاته وأن لا يمسه

بسوء وانتدب عمر بن الياس أم برير ومعه نحو عشرة آلاف مقاتل لمرافقة محمد خالد وعززه بجيش يزيد على أربعين ألفاً وخرج لوداعهم مسيرة ستة أميال ثم عاد الى الابيض

ولما وصل محمد خالد الى ظاهر داره خرج للقائه سلاطين باشا ومعه الضباط والعساكر ودخلوا المدينة وأبرز محمد خالد كتاباً من المهدى الى سلاطين يعلمه فيه بأنه عين أميراً على دارفور وأكد عليه في طاعته وبعد تلاوة الكتاب شرع محمد خالد في استلام الجبهخانات والاسلحة وما في خزينة الحكومة وبعد الفراغ قبض على عموم الضباط والموظفين وصادر أموالهم وشرع فى تعذيبهم ليدلوا على ماخبأوه من أموالهم وقتل كثيرين منهم بالتعذيب

وكان من بين الضباط رجل اسمه حماده افندى رتبته صاغقول أغاسي وكان ذا ثروة تبلغ الخمسة آلاف جنيه غادر القاهرة بنحو ألفين منها وحصل على الباقي من الاقتصاد لانه كان مشهوراً بالبخل والحرص فأمسكه الدراويش وشرعوا فى تعذيبه عدة أيام فكان يتحمل التعذيب بثبات غريب ويشتم معذبيه ويقول لهم لماذا تضربوننى فيقولون له لتدل على مالك فيقول اذا كان مالي فأى دخل لكم في اخفائه أو اظهاره فيقولون انه مال المهدى فيقول لهم هل مات أبوه وتركه عندي أم كيف تقولون ماله فيشتدون عليه بالضرب والتعذيب ولسانه لايسكت عن سب المهدى عليه وأخيراً توفي من شدة التعذيب ولم تسمح نفسه أن يدلهم على ماله وقال لهم لو كان مهديا لعرف المكان المخبوء فيه المال

ولما فرغ محمد خالد من مصادرة أموال المصريين بعث بالاموال الى المهدى وخلفائه وأرسل ألوفا من نساء المصريين كحظيات للمهدى وخلفائه

واستكتب سلاطين كتابا الى السيد بك جمعه مدير الفاشر يأمره بالتسليم للمهدى وجمع محمد خالد أموالاً كثيرة وبنى داراً لسكناه وتزوج بأخت سلطان دارفور وابتسم له ثغر السعادة وأخذفي الاهبة والاستعداد للزحف على الفاشر

ويروى عن بعضهم ان سلاطين باشا لما أنفذ محمد خالد لم يشأ ابلاغ الضباط بما كان بينهما من الاتفاق وما دبراه لدفع شرور المهدى عن دارفور ريثما ينظران عاقبة حملة الجنرال هيكس فثار الجنود وهجموا على دار محمد خالد ونهبوها حتي ألحقوا العار ببناته وسجنوا كثيراً من ذوي قرابته والمنتمين اليه وما زالوا مسجونين حتي أطلقهم سلاطين باشا يوم خروجه للقاء محمد خالد ونقل لنا واحد من أولئك المسجونين ان محمد خالد لم يعمد الي نهب أموال الضباط عملا بأوامر المهدى كما أشيع بل لينتقم منهم على فعلهم بال بيته ونهبهم داره

على ان هذه الرواية قريبة من الصحة وقد سألناه لماذا لم يشرك معهم سلاطين باشا فقال لأني كنت عالما بانه غير راض عن فعلهم وانهم كانوا قد هددوه ظناً منهم انه أرسل محمد خالد ليسلم البلاد الى المهدى فى حين أن ارساله كان خدعة ليؤخر تقدم المهدى الى دارفور ريثما ينظرون ما يصير بينه وبين حملة الجنرال هيكس وعلى كل حال كان وقوع دارفور فى قبضة المهدي ضربة قاضية

ونقل لنا كثير من الضباط ان سلاطين باشا لما رأي ما أتاه محمد خالد مع المصريين من العذاب الاليم كادت نفسه تزهق وفقد صوابه وذهب الى دار محمد خالد وقال له على رؤوس الاشهاد لو كنت اعلم انكم تعاملون ضباطي بهذه المعاملة لاصليتكم حربا يشيب لهولها الطفل الرضيع ولسمحت

بموت هؤلاء الرجال في ساحة الحرب وانا على يقين بان الواحد منهم لا يموت الا بعد ان يقتل عشرة منكم فاخذ محمد يلاطفه ويلين له الكلام وأوصى بتخفيف العذاب عن بعض الضباط وأطلق البعض . وكان بعض الحاضرين يتوقع شرا يصيب سلاطين باشا على أثر تهديده لمحمد خالد فخاب ظنهم ولم يلحقه مكروه

ذكر سقوط مديرية كبكابيه

كبكابيه قاعدة الاقليم الشمالى من الفاشر وقد تقدم لنا ذكرها وكان حاكمها ضابطا سودانيا يدعي آدم أفندي عامر وكان رقيقاً ثم انتظم في سلك الجندية النظامية حتي بلغ رتبة البكباشي

ولما استولى محمد خالد على داره كتب آدم أفندى الى سلاطين باشا بصفته مديرا عاما يستشيره عما يفعله فوقع الكتاب فى يد محمد خالد فامر سلاطين باشا ان يكتب له كتابا يضمنه انه مصدق بمهدية المهدى وانه لا طاقة له بمقاومته وينصح له ان يفعل مثله حذراً من ان يخسر الدنيا والآخرة فاطاع سلاطين باشا وكتب كما شاء محمد خالد

ولما وصل الكتاب الى آدم أفندي اعلن دخوله فى طاعة المهدى وخلع طاعة الحكومة وأرسل وفدا الى المهدى ليبلغوه الامر فتقبل الوفد بالحفاوة وكتب منشورا أثنى فيه على آدم أفندي وجعله أميرا من قبله على الاقليم وقائدا على الجند وأرسل له راية عليها شعاره وأمر ان يزحف بمن معه من المقاتلة والاسلحة والمدافع وينضموا الى محمد خالد الذي كان وقتئذ على وشك الزحف على الفاشر

وكتب المهدى أماناً لعامر أفندي ومن معه من الضباط والموظفين واكد ان لا يمسهم أحد بسوء في أموالهم واعراضهم وقد كان ذلك ولم يصبهم ما أصاب غيرهم من الظلم والحيف ومصادرة الاموال وهتك الاعراض وما ذاك الا لانهم سودانيون غير مصريين

ذكر سقوط الفاشر

مدينة الفاشر هي عاصمة دارفور منذ دخولها في حوزة المصريين وكانت مقر السلاطين دارفور

وقد ذكرنا ان سلاطين باشا كان مقيما بها ولكنه غادرها على أثر وفاة مدير (داره) الايطالى وكان السيد بك جمعه مديراً عليها وقومندانا لحاميتها وهو ضابط مصرى

ولما استولى محمد خالد علي (داره) خاطب مدير الفاشر ودعاه للتسليم والدخول في طاعة المهدي على الشرط الذى قبلته حامية داره فاجابه بالرضا والقبول ولما اتصل به نبأ مافعله محمد خالد بحامية داره وما عامل به الضباط من النهب والسلب وأنواع التعذيب صمم على نكث العهد والدفاع حتي آخر لحظة من الحياة فتقدم نحوه بجيش جرار ومعه مدافع وسواريخ وجميع الاسلحة التي انفذها معه المهدي والتي غنمها من حاميات دارفور وهجم على الفاشر ليأخذها عنوةً فقابلته ببسالة عظيمة والزمته التقهقر بخسائر جمة

وكانت الآبار التى تستقي منها الحامية خارج الاستحكامات ولا آبار بداخله فهجم العدو ليلا على تلك الآبار وردمها وأصبحت الحامية بلاماء تقاسي الظمأ ثلاثة ايام فاضطرت الي التسليم ودخل محمد خالد المدينة وضاعف عذاب

الحامية ونهب أموال رجالها وسبي نسائهم وساق منها قطعاناً كالغنم بعث بها الى المهدى وخلفائه

وقبض على السيد بك جمعه وكان محمد خالد ينوي قتله ولكنه عدل عن ذلك ونفاه بجهة (كوى) وبقي منفيا حتى غادر محمد خالد دارفور فأطلقه

ذكر مسألة الجبخانه بدارفور

كان بحامية (داره) ضابط صغير اسمه محمد سليمان وهو من الارقاء الذين ترقوا تحت السلاح وبعد سقوط الفاشر جعله محمد خالد قائدا على الجنود السود الذين غنمهم من الحكومة وجعل على حراسة الجبخانات ضابطا مصريا اسمه محمد أفندي اللقاني فاقره محمد خالد في وظيفته ومعه عشرة من صف ضباط مصريون يشتغلون فى الجبخانات بعمل تعبئة الخرطوش وغيرها وكان محمد سليمان طامعا لوظيفة محمد اللقانى ليكون ذا وظيفتين فاوعز الى رجل من اتباعه أن يقذف في الجبخانه قبسا من النار في الوقت الذي يكون العمال مشتغلين فيه باشغالهم ففعل والتهب البارود وتقاذفت القنابل واحترق محمد اللقاني وخمسة من عماله ونجا خمسة منهم كانوا قد تغيبوا عن الجبخانة في قضاء حوائج لهم فدخل محمد سليمان على محمد خالد وقال له المأمحضك النصح باجتناب اللقانى وسائر قومه المصريين فانهم احرقوا الجبخانه من تلقاء انفسهم ليموتوا ويتلفوها اضرارا بنا وان الخمسة الذين كانوا خارج الجبخانه هم الذين رموها بقبس النار فقبض عليهم وضربت اعناقهم لانهم كفار مصريون رحمة الله عليهم أجمعين

ذكر قتل عمر اغا ترحوه

ذكرنا أن المهدي بعث عمر بن الياس أم برير مع محمد خالد الى دارفور وقد تقدم لنا الاشارة الى المنكرات التى كان يأتيها ابوه الياس ام برير والى ماكان منه من الانحياز لجانب المهدى وشدة بغضه للحكومة

وكان في دارفور صنجق اسمه عمر اغا ترحوه مشهور بالشجاعة والاقدام وله اليد البيضاء فى الحروب التى رفعت أوزارها بين الحكومة والمسمي هارون الرشيد المطالب بعرش دارفور وانه هو الذى قتل وزيره سعد الذي جاء قتله سبب قتل مولاه ولذلك قصة لا بأس من ايرادها هنا

وهى أن القائمقام على بك شريف شهيد كوردفان الذى تقدم لنا ذكر قتله مع محمد سعيد باشا كان يقود قوة لمطاردة هارون ووزيره ففرا منه واوغلا فى الغابات فتأثرهما حتى لحق التعب فرسانه فأحجموا عن المطاردة الا عمر أغا ترحوه فانه تابع المطاردة بنفسه بالرغم عما لحقه من التعب وفقدان الرفيق حتى أدرك الوزير وقتله وحز رأسه فنازعه خشم الموس (أغا) وقتها (باشا) وادعى انه الذي قتله وبعد التحقيق ظهر فساد دعواه فكافأت الحكومة عمر أغا ترحوه وجعلته قائداً على أربعمائة جندي من الباشبوزق

ولما استولى محمد خالد على (داره) أكرمه وجعله قائداً من قواده وبعثه مع عمر بن الياس لمصادرة أموال قبيلة من الاعراب أظهرت عدم الطاعة للمهدوية فجعل عمر بن الياس همه في احراز المال وانفاذه الي أبيه في الابيض ويقال انه أنفذ أكثر من ثلثمائة ألف ريال فخاف أن يكون عمر أغا ترحوه عيناً عليه من قبل محمد خالد فرماه عنده بأنه يدبر مكيدة ضده وانه ينوي

الخروج عليه فقبض عليه وعلى الملازم الاول ابراهيم زيان ويعقوب رمزي باشكاتب المجلس وكانا صديقين حميمين له وضربت أعناقهم وقيل عن الاخيرين انهما شريكاه في تدبير المكيدة وانهما يجمعان له الاسلحة والذخيرة رحم الله الجميع

ذكر قدوم سلاطين باشا على المهدي

لما تم لمحمد خالد الاستيلاء على دارفور كلها أرسل خطاباً الي المهدى يبشره بما أتيح له من النصر وقدم له أشياء كثيرة من الغنائم وأرسل له خيولاً عربية تعد بالآلاف فأطلق مائة مدفع ومدفعا اظهاراً للسرور وكتب له كتاباً بالتفويض العام فى كل مايراه لازما لتلك البلاد بغير قيد ولا شرط وأذن له بالمبايعة وأمره بارسال سلاطين باشا فأدركه وقدغادر الابيض ونزل (الرهد) كما سيأتي ذكر ذلك فى مكانه فخرج للقائه جمع من الناس وكان ممتطياً فرساومتأبطا كنانة مملوءة بالنبل

ولعل هذا الفرس هو الذى أخبر سلاطين باشا ان الشيخ مادبو أحد شيوخ العربان أهداه له فاعتذر عن قبوله بأن حالته الحاضرة تمنعه من ركوب الخيل فلاطفه مادبو وقال له العبارة التي نقلها بحروفها واتخذها مثلا وهى باللغة العامية (إلي عمره طويل يشوف كثير) وقبل منه الفرس ورد له طبولا حربية كان غنمها منه في احدي وقائعه وقال سلاطين باشا ان هاته الطبول عندهم بمثابة رايات الحرب عند الاوروبيين

ولما مثل سلاطين باشا بين يدى المهدى قبل يده وبايعه البيعة التى

تقدم لنا ذكرها وسماه عبد القادر سلاطين وأمره بلزوم باب التعايشي والائتمار بأمره وسيأتي ذكر بقية أخباره

والفرس التي أهداها له مادبو تسمى (صقر الدجاج) أى انها سريعة فى اقتفاء أثر النعام وادراك الصيد لان صاحبها كان يقتنص بها

ذكر قتل آدم ام دبالومك تقلي

ذكرنا فيما تقدم بعض الايضاح عن جبال تقلي وهنا نذكر ان المهدي لما كان فاراً من وجه الحكومة الى جبل قدير تقابل مع آدم ام دبالومك جبال تقلى فأكرم وفادته وأضافه خمسة وعشرين يوماً وأهدي اليه شيأ كثيراً من التبر والماشية وأمده بخمسمائة فارس من قومه أوصلوه الى جبل قدير وقفلوا راجعين الي جبال تقلى

ولما ظفر المهدى بحملة الجنرال هيكس رغب الى الملك آدم أن يزوره فى الابيض فأجاب الدعوة وقدم فى عدد كبير من قومه ومعه مائتا فارس مسربلين بالدروع والخود وخيولهم مغطاة بعخيشات من القطن فخرج المهدي للقائه بجميع جيشه وأطلق له مائة مدفع ترحيبا بقدمه واستعرض له جيشه وأطلقت نيران البنادق أيضا ونصبت له السرادقات ونحرت النوق لطعامهم ومكثوا أكثر من أربعة أسابيع وبلغت درجة اكرام المهدي له انه كان يحمل قصعة طعامه بنفسه الى أن يضعها بين يديه حتى حسده التعايشى الذى كان يخاف على مركزه من أى انسان يحس باقبال المهدى عليه

وكان الملك آدم استأذن المهدي في العودة الى بلاده فاغتنم التعايشي هذه

الفرصة وأشار على المهدي أن لا يأذن له في المودة ويسأله مرافقته الي الخرطوم للجهاد معه فانكر عليه المهدي هذا الرأى فاقنعه بانه لا يرغب في هذا الامر وانما يقصد اختباره ويتأكد من طاعته للمهدي ففعل المهدي فلم يظهر من الملك آدم غير الاستحسان والطاعة ثم عاد التعايشي لانفاذ بقية مقاصده فنقل الى المهدي ان الملك آدم ممتعض منه وانه ساخط من فعلته وقد أظهر سخطه لكثير من الامراء حيث قال لهم ان مهديكم كذاب ولا وعد له وقد غررني وابعدني من بلادي ثم انه يريد مرافقتي له حتى يفرغ من الخرطوم وقد نكث العهد الذي أعطانيه حيث وعدني بالاوبة بعد ايام يسيرة وما زال التعايشي يسعي به حتى أصدر المهدي منشوراً زعم فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بقتال الملك آدم أم دبالو وقاضيه الفقيه أحمد لانهما غير مصدقين بدعوته فضربت اعناقهما وسط الجيش الذي استقبلا فيه واسترضاه والي الله تصير الامور

وهنا نورد صورة كتاب أصدره المهدي نقلا عن الجزء الثاني من كتاب منشورات المهدي المطبوع بعد سقوط الخرطوم صحيفة ٣٦ ومنه يفهم ان جبال تقلي دانت بالطاعة للمهدي وانه يعتبر ملكها حاكم من قبله وهو

«بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدى بن عبد الله الي أهل جبل الكدرو والصبي والمندل والتمتل وكافة أهل الجبال المؤمنين بالله ورسوله وتابعين لامرنا فقد أمرنا عليكم عمر بن الملك آدم فقوموا كلكم بحروبكم معه الى قتال الدجال الترك والنصاري ولا تتأخروا عن القيام مع الملك عمر

فمن خالفه فقد خالفنا ولا عهد له عندنا ولا يلومن الا نفسه والسلام التاريخ
١٢ شوال سنة ١٢٩٩ »

ذكر قتل المنه

ذكرنا ما كان من أمر المنه وقيامه بدعوة المهدى فى كوردفان واستيلائه
على الطيارة وقد بينا ما أتاه من الفظائع والمنكرات

وكان المهدي يعده بتبوأ منصب خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه
ولما زحف المهدي على الابيض اجتمع عليه «المنه» وزاد في اكرامه وكان يروح
ويغدو الي المهدى وحوله نحو عشرين من خدامه شاهرى السيوف حوله
خلافا لما كانت عليه عادة المهدي من عدم السماح لغير الخلفاء ان يحيط بهم
أناس كحراس اظهاراً لعلو مراتبهم

وكان المنه يضايق المهدي ويستنجزه ما وعده به من منصب الخلافة
فيعده من يوم لآخر لانه كان ينوى خدعة السيد محمد المهدى بن السنوسي
المشهور بهذا المنصب كما سيأتي ذكر ذلك على حدة

وقد اغتر المنه بوعود المهدي وأخذ يذيع بين الناس انه رابع الخلفاء
وكان شديد البغض للخليفة عبد الله التعايشى ويكثر من الوشاية به عند
المهدي الذي كان لا تتبدل ثقته فى التعايشى ولكنه كان يدارى المنه ويخادعه
لماله من المنزلة عند قبيلتي (الجمع والجوامعه) اللتين تسكنان شرق اقليم كوردفان
الذى هو طريق حملة الجنرال هيكس حيث كان المهدى يخشي انتقاض هاتين
القبيلتين عليه وانضمامهما الى الحملة

ولما فرغ المهدى من أمر هذه الحملة لم يعد قادراً على احتمال ماوقر فى نفسه من المنه فاشخصه الى جهة الطيارة وكتب له بالامارة المطلقة عليها فغادر الابيض ولحق بقرية له خارج المدينة وبعد أسبوع انتدب التعايشى الفي مقاتل من حملة البنادق والفين من الفرسان تحت قيادة حمدان ابي عنجه وسلمه كتاباً من المهدي يأمره فيه بمغادرة الابيض بمن معه من المقاتلة ولا يشعر أحدا بوجهة سيره حتى يدرك المنه ويقبض عليه على غرة ويضرب عنقه ويأتيه برأسه ويصادر جميع أمواله فسار حمدان وبلغ القرية قبيل الفجر واحاط بها احاطة السوار بالمعصم وقبض عليه على فراش نومه وقبض على أخيه ووكيله واوثقوا كتافا وقادهم الي الطيارة وضرب اعناقهم بجانب الحصن الذى ذبح فيه المنه حامية الطيارة

ولما دنا الجلاد ليضرب عنقه رفع رأسه وقال للحاضرين « اشهدوا أنني لم أذنب ذنباً غير قتلي للمصريين الذين كانوا بهذا الحصن وقد اغتررت بوعود الظالم المهدى وأعنته فانتقم الله مني وسلطه عليّ ومن أعان ظالما سلط عليه » وحملت الرؤس للمهدى الذي أعلن بان النبي صلى الله عليه وسلم اخبره بان المنه منافق ايمانه لا يتجاوز تراقيه وانه ادعى الخلافة كذبا وبهتانا ولذلك قتله وأظهر التعايشي كتاباً من المنه الي المهدى يقول فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بانه الخليفة الرابع وانه وارث مقام ذي النورين عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان وانه صلي الله عليه أمره بمقاومة المهدى اذا لم يرضخ لهذا القول

على أن هذا الكتاب ملفق لم يكتبه المنه بل اختلق ذريعة لتبرير عملهم وتسكين خواطر الذين ساعدوا المهدى على امتلاك البلاد واذلال العباد

ذكر قتل التوم بن زعيم
الكبابيش وعجيل زعيم الزيقات

الكبابيش اسم لقبيلة بدوية رحالة تسكن صحراء بيوضة الواقعة بين دنقلة وكوردفان وماشيتها من الابل ويشتغل رجالها بنقل سلع التجار من كوردفان الى دنقلة وبالعكس وهى قبيلة كبيرة يربو عدد نفوسها على نصف مليون نسمة وعندهم الخيول بكثرة والسيوف والخوذ والدروع وسائر آلات الحرب التى من هذا القبيل وزعيمها فضل الله بن سالم

ولما وصلت دعوة المهدى الي كوردفان لم يصادف القائمون بها نجاحا عند الكبابيش الذين كانوا يجاهرون بولاء الحكومة والبقاء على طاعتها

ولما استولى المهدي على الابيض عاصمة كوردفان قصد الانتقام منهم لانهم كانوا يوالون الاعتداء علي القبائل التى خضعت لنفوذه ومن ذلك أن الكبابيش اعترضوا ظعنا لقبيلة من جهينة كانت تدين بطاعة المهدي ونهبوها فكتب المهدي كتاباً الي التوم وصالح ابني فضل الله زعيم الكبابيش وعلى بن قريش من مشايخهم نقله هنا بنصه كما هو مثبت في صحيفة ٢٥ من الجزء الثاني من مجموعة المنشورات وهو

«بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله الى صالح ولد فضل الله والتوم أخيه وعلي ولد قريش انه ان كنتم منقادين لامر الله ورسوله وتابعين لامرنا في المهدية سلموا لدفع الله ولد محمد الجهيني أهله جميع ما نهبتموه منهم من مال ورقيق ومواش ونبهوا على جميع أهاليكم

الكبابيش ومن معهم ان يتركوا جميع العوائد المخالفة للكتاب والسنة واتركوا نهب أموال المسلمين ولا تتعرضوا لأحد بعد ذلك وأقيموا الصلواة فى أوقاتها واخرجوا زكاة أموالكم واحضروا عندنا سريعا بدار الهجرة فانها واجبة على كل مسلم فاذا فهمتم ما ذكر فافعلوا جميع ما أمرناكم به وارجعوا لجماعة جهينة مالهم كله فان سمعتم ما ذكر فعليكم امان الله ورسوله وتفوزوا برضاء الله وان خالفتم أمرنا هذا فعليكم غضب الله ورسوله بمخالفتكم لامر الله ولا بد من مجازاتكم وخراب دياركم والسلام التاريخ ٢٠ رجب سنة ١٢٩٩»

ولما وصل الكتاب الي المرسل اليهم اذعنوا بالخضوع للمهدى وهم يبطنون له العداء وفعلوا ما أمرهم به ووفد على المهدى التوم بن فضل الله تائباً عما فرط من قومه واثقا بامان المهدى

وفى اليوم الثانى عشر من ربيع الاول سنة ١٣٠١ قبض التعايشي على التوم وعجيل زعيم قبيلة الرزيقات التى ذكرناها فى الكلام على دارفور وضرب عنقيهما فتأثر الناس لانهم لم يعلموا من سبب لذلك واجتمع الخليفة شريف ابن عم المهدي وعمه عبد القادر ساتي على ومحمود عبد القادر وغيرهم من ذوى قرابته ودخلوا على المهدي وسألوه هل أمر التعايشى بقتل ذينك الرجلين فاجابهم سلباً وانحدرت الدموع من عينيه فقالوا له ان التعايشي فعل هذه الفعلة لينفر الناس من مهديتك ويشوه سمعتك فاعزله وولّ أحدنا مكانه وهاهو محمود عبد القادر خير كفؤ لهذه الخلافة فلم يجبهم بغير الاسترسال فى البكاء وأخيراً أمرهم بالانصراف حتي يأتيه النبى صلى الله عليه وسلم ويرشده الى حل هذه المشكلة وزاره التعايشي فامره بلزوم بيته ريثما يأتيه النبي صلى الله عليه وسلم

وفى اليوم التالى خرج ومعه منشور هو الذى أوردنا نحواه عند الكلام على سقوط (باره) وقد اشرنا الى ما كان من أمر هـذا المنشور وانه أصدره ليقنع أهالي باره عن المطالبة بحقوقهم

وقد تضاربت الاقوال في أمر هذ المنشور ففريق قال ان هذا المنشور أصدره المهدي لاقناع أهل باره وقال آخرون انه أصدره فى هذا اليوم وعلى كل حال فان المهدي خرج على قومه في اليوم التالى بهذا المنشور وتلاه عليهم ليكفوا عن توجيه اللوم ونسبة الظلم لعبد الله التعايشى

ويدل هذا المنشور أيضاً على انهما كانا متفقين باطناً على هـذا العمل وهاهي صورة المنشور بالحرف الواحد نقلا عن الجزء الاول من كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله اعلاما منه الي كافة عباد الله المؤمنين بالله وبكتابه أما بعد اعلموا أيها الاحباب ان الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية المشار اليه فى الحضرة النبوية فذلك السيد عبد الله بن السيد محمد حمد الله عاقبته فى الدارين فحيث علمتم ذلك يا احبابى ان الخليفة عبد الله هو مني وانا منه وقد أشار اليه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فتأدبوا معه كتأدبكم معي وسلموا اليه ظاهراً وباطناً كتسليمكم لى وصدقوه فى قوله ولا تتهموه فى فعله فجميع ما يفعله بامر النبي صلي الله عليه وسلم أو باذن منا لا بمجرد اجتهاد منه ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه فى تنفيذ أمره صلى

الله عليه وسلم والقضاء باشارته فان فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك واعلموا
يقيناً ان قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى
«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة
من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا» فمن كان فى صدره
حرج لاجل حكمه فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته وذلك
بشاهد قوله تعالى «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم
لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» ولا شك فى شرك من
استنكف عن حكم الله ورسوله سيما بقوله صلى الله عليه وسلم « ان أخوف
ما أخاف عليكم الشرك الخفي » الخ الحديث مع انه خليفة الصديق وأول
المصدقين فى المهدية فانظروا لمكانة الصديق عند الله ورسوله بنص القرآن
العظيم وانظروا لمكانة من أورثه الله مكان الصديقين ووازره بالباطن بالخضر
عليه السلام فهو مسدد مؤيد من الله ورسوله ويد من أيادى الله لنصر دينه
باشارة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقد ورد فى فضله كثير فهمتم
ذلك فالتكلم فى حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الايمان واعلموا أن
جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لانه أوتى الحكمة وفصل الخطاب
ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم فلا تعرضوا عليه
فقد حكمه الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم
وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسى جزماً فقد خسر
الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ويخشي عليه من الموت على سوء
الخاتمة والعياذ بالله لانه خليفة الصديق الذى قال الله في حقه « اذ يقول لصاحبه
لا تحزن ان الله معنا » وقال صلى الله عليه وسلم ان أمن الناس على فى الصحبة

أبو بكر وقال عليه السلام ما طلعت شمس على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر وحيث علمتم فهو بمنزلته الآن لان أصحابنا كاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المذكور خليفتنا فى الدين وخلافته بامر النبي صلى الله عليه وسلم فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدقاً بمهديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً واذا رأيتم منه أمراً مخالفاً فى الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولى الابصار بقصة موسى والخضر عليهما السلام حكاها الله فى كتابه العزيز لحكم داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام لتسلموا من الشكوك والاوهام وانما أنذرتكم بهذا رحمة لكم وشفقة عليكم وليبلغ الشاهد منكم الغائب لئلا تسبوه وتنسبوا اليه الظلم والجور فتهلكوا فاحذروا عن أذية أولياء الله فانها أذية الله ورسوله وقد لعن الله ذلك في كتابه فقال «ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة» كما ان من آذى لي وليا فقد أذنته بالحرب فان الله غيور على أوليائه فقد علمتم أنه ورد من نقض الكعبة حجراً حجراً ثم حرقها بالنار أهون عند الله من أن يؤذى وليا من أوليائه وان الخليفة هو قادة المسلمين وخليفتنا النائب عنا فى جميع أمور الدين واياكم والوسوسة فى حقه وظن السوء وعدم الامتثال اليه في قوله والمشاجرة له أو لاحكامه والخلاف والحسد فتوبوا الى الله وارجعوا قبل أن تذهب حسناتكم وتسلبوا ثواب الايمان وانما حملني على هذا البيان النصيحة في الله وحمايتكم من الوقوع في هاوية الانفس والاماني فمن تاب تاب الله عليه ومن عاد فينتقم الله منه ويسلط عليه وهذا أمر الله ورسوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والسلام

حوادث السودان الشرقي

السودان الشرق عبارة عن فيافى مترامية الاطراف تمتد من شرق وشمال نهر (أتبره) حتى شطوط البحر الاحمر كمصوع وسواكن وغيرهما من تلك الشطوط ومتاخم للاحباش من جهات كثيرة وهو عبارة عن اقليم (التاكا) وقاعدته مدينة (كسلا) ومحافظات الشواطئ كمصوع وسواكن وغيرهما وسكانه قبائل ضاربة ألوانهم الى لون النحاس أو بعبارة أخرى كلون زنوج أفريقية الجنوبية الذين تختلف ألوانهم عن زنوج السودان الاوسط

وهاته القبائل تشبه بعضها في الاخلاق والعادات مع بعض فروق وكلها لا تتكلم باللغة العربية بل بلغات أعجمية لا كتابة لها وتعيش اكثر القبائل كما يعيش الاعراب الرحالة بالبان الماشية ولحومها وماشيتهم جلها من الابل وتسكن بعض القبائل رؤس الجبال وبعضها يأوي الى كهوف فى الارض متسعة تسع عدة قرى فى داخلها

ومن القبائل التى تعيش كعيشة الاعراب قبائل (الهدندوه) وبنى عامر والحباب وأمارأر فالهدندوه تسكن حوالي كسلا وبنوعامر والحباب يسكنان حوالي مصوع وأمارأر تسكن ضواحى سواكن وهناك قبائل كثيرة اضربنا عن ذكرها فراراً من التطويل

واكبر هاته القبائل قبيلة الهدندوه وعدد نفوسها يتجاوز مليون نسمة وماشيتها من الابل كثيرة جداً ورجالها ميالون الى الحروب وسفك الدماء والغارة على جيرانهم عكس بنى عامر والحباب المعروفتين بالميل الي الدعة والسكون ونوقهم مشهورة بعظم السنام حتى ان الواحدة منها لا تستطيع القيام

بغير مشقة ومن أشهر القبائل التي تسكن رؤس الجبال وبطون الكهوف (الباريه) وهى قبيلة أعجمية ديانتها مجوسية ولم تخضع للحكومة ورجالها ذوو بأس وشجاعة يقطعون السبل على المارة ويغيرون على بلاد الحكومة ومنهم قبائل كثيرة تدين بالاسلام وعوائدها تشبه عوائد طوائف الدروز واليزيدية

وتنتسب قبائل بني عامر والحباب الى رجال من الاكراد سجنهم سلاطين العثمانيين فى سواحل البحر الاحمر منذ أربعة قرون أو اكثر فتزوج أولئك المسجونون نساء من الاحباش والزنوج وانتشر نسلهم وعاشوا بعيشتهم البدوية كاسلافهم الاكراد

أما الزراعة فى جميع أنحاء السودان الشرقي فانها لاتذكر وأكثر القبائل تعيش بغير الخبز ووجد منهم من لم يذق الخبز مدة حياته وقس على ذلك سائر البقول فانها غير معروفة عندهم ألبتة

ويوجد فى داخل مدينة سواكن أناس من السكان الاصليين لايذوقون الخبز مرة فى السنة وغذاؤهم قاصر على اللحم واللبن وطريقتهم فى اللحم واحدة لاتتبدل وهي انهم يأتون بأحجار يضرمون عليها النار حتي تتحول جمراً فيضعون عليها اللحم حتي ينضج ويصير اللحم لذيذاً واسمه (سلات) ويمكن لكل انسان أن يحصل على هذا اللحم بثمن بخس اذ الاسواق مملوءة به وثمن الشاة الواحدة لايبلغ خمسة عشر قرشا مصريا والوعاء الذي يحوى نحو خمسة وعشرين رطلا من اللبن لايبلغ ثمنه أكثر من قرشين

ومن ألطف النوادر التي سمعتها ان اعرابيا من قبائل السودان الشرقى التقى بقافلة سائرة من بربر الى سواكن فرأي بين أيديهم بصلاً يأكلونه مع

الخبز فأعطوه بصلة فأراد ان يشمها ويأكلها كما رآهم يفعلون فتصاعد ريحها الى انفه فقذف بها الى الارض وأخذ يركض الى الحي مستصرخا قومه الى الانتقام من هذه القافلة التى جاءت الى بلادهم بنوع خبيث ينشر بينهم الامراض وينقل الى بلادهم جراثيم الاوبئة والامراض وبعد عناء شديد تمكنت القافلة من متابعة سيرها ونجت من الهلكة

ومن ذلك ان رجلا من أهالى بربر تعرف برجل من كبار الاعراب فنزل ضيفاً عليه فى بربر فقدم له غذاء من طبيخ الملوخية فامتلأ الرجل غيظاً وقال لمضيفه هل أنا بمنزلة الثور عندك حتى تقدم لي الحشائش الخضراء التي لا يأكلها غير ثورك فأخذ الرجل في ملاطفته ليقنعه بأن غذاءه وغذاء سائر مواطنيه من هذا النوع فلم يصدقه وخرج من منزله فى أشد حالات الغضب فسبحان من اقام العباد فيما أراد

وأهالي السودان الشرقى كلهم يتركون شعورهم حتى تبلغ من الطول الحد النهائى وشعورهم صلبة قوية يتركونها واقفة غير مسبولة يخالها الرائي من البعد قبعة من النوع الاسود الطويل جداً ويدهنونها بشحم الجمال أو البقر وملابسهم هي ملاءة من (الدمور) ولا يلبسون شيأ من السراويل أو الاقبية ويزعمون ان لباس السراويل والاقبية مما يولد الامراض في الجسم سيما أمراض المعدة وحلق الشعر أو قصه مما يولد أمراض العيون وضعف البصر هذا ما نورده هنا عن شرق السودان عموما حيث نسرد حوادثه وسيأتى الكلام عن كل جهة بما فيه الفائدة والله الموفق

ترجمة الشيخ الطاهر المجذوب

غير خاف ان عثمان دقنه هو الذي كان داعية المهدي ونائبه في السودان الشرقي وكان عثمان دقنه مريداً للشيخ الطاهر المجذوب ومخلصا وسيعلم القارىء مما يجيء ان المهدي لم يكن يصطفي عثمان دقنه لهذا الامر الخطير بل الذي اصطفاه له أستاذه الشيخ الطاهر ولذلك رأينا أن نترجمه هنا ثم نعقبه بترجمة عثمان دقنه ليكون القاريء على بينة من أمرهما فنقول

الشيخ الطاهر المجذوب هو شيخ الطريقة المجذوبية ورث هذه السجادة عن عمه الشيخ محمد المجذوب الصغير تلميذ السيد احمد بن ادريس المغربي وأصلهما من بطن من بطون قبيلة الجعليين اسمه المجاذيب نسبة الى جدهم حمد المجذوب ويسكن هؤلاء الناس على ضفة النيل جنوب نهر (أتبره) فى قرية (الدامر) محل ضريح جدهم حمد المجذوب

أما محمد المجذوب عم صاحب الترجمة فانه ولد بهذه القرية ثم هاجر منها ولحق بالحجاز وهناك التقي باستاذه السيد احمد بن إدريس ومكث ملازما كبقية تلاميذه مثل السيد السنوسي صاحب الطريقة السنوسية المشهورة بافريقة الغربية والسيد محمد عثمان الميرغني صاحب الطريقة الميرغنية أو الختمية وغيرهم كابراهيم الرشيد نزيل مكة المكرمة ثم عاد محمد المجذوب الى الحجاز بعد أن نال من أستاذه كل رعاية والتفات وتحصل على درجة سامية من العلوم العقلية والنقليه ثم غادر الحرمين الشريفين واستوطن ضواحي سواكن فانتظم فى سلك اتباعه الالوف من رجال القبائل وترامت شهرته في أطراف البلاد حتى صارت القبائل تحترمه احتراما زائدا وتحبه حبا فوق العادة

وكانت بينه وبين صاحب الطريقة الميرغنية مناظرات شديدة توارثها اتباعهما وكانت أسرة عثمان دقنه من أعظم اتباع الشيخ محمد المجذوب. وله ديوان فى المدائح النبوية وتوفي ولم يعقب فورثه ابن أخيه الشيخ الطاهر المجذوب وكان فى بداية أمره على منزلة تقرب من منزلة عمه فى قلوب الناس وله أملاك في سواكن والحكومة تبالغ فى احترامه وتتسابق الى استرضائه حتى كان من أمره ما سنورده ولله في خلقه شؤون

ترجمة عثمان دقنه

هو عثمان بن أبي بكر دقنه نسبة الى قبيلة (الدقني) وهي قبيلة صغيرة تسكن سواكن وأصلها منسوب الى قائد تركي نفاه ساكن الجنان السلطان محمود وكان عماه وجيهين في سواكن أحدهما علي دقنه حاز لقب بك من الحكومة وكان المترجم صاحب أملاك في سواكن وتاجراً يتردد الى مصر في كل عام

وفى سنة ١٢٩٤ هجرية سافر الى دارفور ويقال انه قبض عليه مع قافلة نخاسين وسيق الى المحاكمة ثم فر منها وفقد كل ثروته التي كانت حوالي عشرة آلاف جنيه وكان متزوجا بابنة عبد الغفار الضوي أحد تجار المصريين في بربر وكان أعطاه عشرة آلاف ريال ليتجر بها فأضاعها ثم لحق بسواكن ومكث بها فحجر الدائنون على أملاكه

وحكى لنا موظف فى سواكن ان عثمان دقنه جاءه متظلما مما أتاه الدائنون معه حيث حجروا على كل ما يملكه حتي الضروري لحياته فوجد الموظف مرتبكا فى بحر أفكار شديدة فسأله عن حاله فقال أتاني تلغراف ان ابنتي

مريضة جداً فقال له انني أعرف نوعا من الزايرجة ولكنني اشك في صدقها فقال ولماذا فقال لانها منذ عشرين سنة مضت تخبرني بانني أصير ملكا كبيراً وشهرتي تطبق آفاق الارض كلها فقال له الموظف لا بأس من سؤالها عن صحة ابنتي فتناول قرطاسا وقلما وبعد ساعة رفع رأسه وقال له تقول الكاذبة ان ابنتك قد زال عنها الخطر وانه يأتيك خبر شفائها قبل ان تقوم من مقامك هذا ثم قال انها تقول ذلك ولكنني أخبرتك بانها تكذب على منذ عشرين سنة ولم يتم هذه الكلمات حتى دخل موزع التلغراف ورفع الىّ رسالة قرأت فيها شفاء ابنتي وزوال الخطر عنها فلما سمع عثمان دقنه هذا الكلام ضحك حتى استلقي على ظهره وقال هذه أول مرة صدقت فيها ولعلها تصدق بعد الآن وانى لا انصرف من هاهنا حتى اسألها السؤال الذى لم تصدق في الاجابة عنه منذ عشرين عاما فتناول القرطاس والقلم وأخذ يرقم الاعداد وفي النهاية ضحك وقهقه وقال لى انها تقول دنا الاجل فاطرح الوجل ثم أخذنا في حديث آخر فاستأذنني بالانصراف فشيعته الي الباب وكررت عليه الرجاء ان لا يجعل زيارته كبيضة الديك فقال مازحا وهل تحب ان تكون بيضة دجاجة فقلت نعم فقال يفعل الله ما يشاء وانصرف فلم أره حتى سمعت بظهوره فى ارباض سواكن وانتشار نفوذه في كل انحاء السودان الشرقي وبيد الله كل شيء

وقد كان عثمان مشهوراً منذ حداثة سنه بالميل الى العبادة ومواظبة الصلاة وملازمة أوراد الطريقة وكان مشهورا بالشفقة والرحمة

هذا وقد رأينا صورا كثيرة يقال انها صورته ولولا وقوع بصرنا ادركنا انها غير حقيقية بل هي صور وهمية اوخيالية تبعد عن الحقيقة بعدا شاسعاوغاية

ما يقال فيه ان فتل ساعديه واعتدال قامته يدلان على القوة والفتوة

واشتهر عن عثمان الشره فى الاكل حتى انه يأكل الخروف المشوى وحده وكما اشتهر بالنهم فقد عرف عنه الصبر على الجوع حتى انه في اكثر أسفاره وغزواته يصبر عن الغذاء اياما معدودة ويقتصر على اكل ورق السدر وغيره من ورق الشجر الكثير المرارة والحاصل انه غريب الشكل فى اخلاقه وعاداته وسيأتى ذكر كثير من هذه الغرائب

ذكر وفود عثمان دقنه على المهدي

كانت الخطابات بين المهدى والشيخ الطاهر المجذوب متبادلة منذ وطن المهدي نفسه على انتحال هذه الدعوى ويقال ان اول خطاب وصل الى الشيخ الطاهر من المهدى مؤرخ في شعبان سنة ١٢٩٨ يخاطب به كل المشايخ ومثل هذه الخطابات كثير وقد اخترنا هذا لنورده هنا نقلا عن الجزؤ الاول من كتاب المنشورات وهو بنصه

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فن العبد المفتقر الي الله محمد المهدى بن عبد الله جزيل السلام الي كافة الاخوان من المحبين ومشايخ الدين لايخفى عزيز علمكم أن المؤمن لاعناية له الا فيما يرضي الله من كمال الايمان والاتباع على السنة والكتاب وبصرف الهمة فى هذا الوجه يتولاه الله ويقوم بحظوظه فى الدارين واذا التفت الى حظوظه وصرف همته الي ذلك وكله الله على نفسه ولم يحصل له من حظوظه شيء الا بالتعب القلبي والبدنى وانتم ايها المؤمنون الذين يظن بكم المعاونة على

تقويم السنة ومعلوم أن جاه الدنيا ولذتها لايؤثره العاقل العارف لأن ما في الدنيا مفارق يصير كانه لم يكن ولذتها لاتفي بحسرتها بل عين اللذة تصير عين الحسرة حتي لايجد بيده شيء. فالعاقل العارف لايسعي الا في رضا الله وعلى ذلك ياحبابي انى لم أقدم على تنبيه الناس احثهم على التعيم لاقامة السنة الا بأمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ولا يكذب على سيد الوجود الا من لاخلاق له عند الله ومع ذلك شهد على ذلك جمع من الاتقياء الذين يعبؤبهم ومكانهم عند الله لايخفي وفضلا عن ذلك تعلمون هذا الزمن وما فيه من البدع وما لهم تحصن من ذلك الابالقرار بالدين وطلب الهجرة بالدين فى هذا الحال وارد كتابا وسنة ووعيد من ترك الهجرة وارد كتابا وسنة كما لايخفى وقد كانت على أمر النبي صلى الله عليه وسلم جميع أهل الدين بالليم علي دين الله واقامة السنة وقد ضمن النبي صلى الله عليه وسلم من يكون معنا وما ذلك الامر من الله ورسوله فان كانت قد بلغتكم تلك الاجوبة السابقة فهذا اليكم لتشمروا على ذلك فان هذا الامر مابثثته الا بعد أن خرج من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ثم تكرر مرارا عديدة وفضلا عن ذلك أن من مثلكم لازم يكون لمثل هذا الامر أول قائم ويحث عليه ومعلوم أن من تركه وصد عنه فعليه اثمه واثم من صدهم جميعا واعلموا انكم ان اتبعتم هذا الامر صرتم من المقربين والاكان عليكم اثمكم واثم من تبعكم وهذا الامر حقيقة من الله ورسوله ولا يخفى انه لايعز على الله أن يظهر قدرته في أضعف خلقه ويظهر الدين على كراهة اهل معصيته فمن أعرض عن ذلك فحسبه الله فان مات قبل ظهوره لم يأمن عقوبة الله في اعراضه عن الحق وصده لمن اراد الاستقامة والهجرة لله ورسوله ومعلوم أن من لم يتبع هذا الامر مخذل في الدارين

ومن حصل له شك يظهر له فيما بعد كما بين والسلام شعبان سنة ١٢٩٨»

ولما حاصر المهدي الابيض كان يوالى ارسال الخطابات الى الشيخ الطاهر يستحثه فيها على مناوأة الحكومة والقيام بدعوته في السودان الشرقي وأذن له بمبايعة الناس نيابة عنه وانه أمير من قبله على هاته البلاد فبعث اليه الشيخ الطاهر بوفد من اتباعه يرأسه عثمان دقنه ومعه كتاب يقول فيه ان عثمان دقنه من خيرة مريديه وأصدق أتباعه وانه من رجال الحزم والعزم وانه لا يفضل أبناءه النازلين من صلبه عليه وان إمارة شرق السودان خليق بها اكثر مني وانى لا أستنكف أن أكون تابعا لافضل مريديّ عثمان وأكون مستشاره ومدبر أموره وأنصح لكل أتباعي بالقيام بنصرته وموازرته وان المانع لى من قبول هذا الامر لنفسى هو الطعن فى السن وعدم القدرة على الانتقال والقيام والقعود اذ هي من ضروريات هذا المنصب ويكفيني ان أكون أول من يذعن بالطاعة لعثمان وفى ذلك من التعضيد والحض لعموم اتباعي مايقرن عمله بالنجاح

ولما قدم عثمان على المهدى وجد الابيض سقطت فى قبضته فتلقاه بالحفاوة والاكرام

ولما اطلع على الخطاب داخله بعض الريب فى أمر الشيخ الطاهر وتردد في قبول ماأشار به عليه لانه لم يكن واثقا بانه يرفض قبول الرئاسة لمثل هذه الاعذار ويهديها الى أحد مريديه وبعد بضعة شهور تحقق ان الشيخ الطاهر مصيب في كل ماقاله وخصوصا لأنه ملازم للخلوة والانفراد ويتألم من الغوغاء وليس بين أولاده من ينهض بهذا الحمل الثقيل وبعد مداولات كثيرة بينه وبين التعايشي أيقن بصحة القول وعزم على انفاذ عثمان دقنه واسناد هذه المهمة اليه

وكان ضمن هـذا الكتاب ان الحكومة عولت على انفاذ حملة لقهر المهدي وسيكون طريق هذه الحملة من ثغر سواكن الى بربر وأشار على المهدى بوجوب المبادرة بارسال عثمان لان أهالى السودان الشرقى كلهم متأهبون للقيام معه وخلع طاعة الحكومة فيتعذر سير الحملة الى بربر وتتهيأ للمهدى الفرصة للاستيلاء على الخرطوم لان قيام الثورة فى ضواحى سواكن يضطر الحكومة الى اعادة الجنود الى مصر كي ترسلهم عن طريق دنقله أو المطمور فلا يصلون الخرطوم فى أقل من عامين على ان هذه الطريقة كانت تأتي بالنتيجة المذكورة لو لم يتردد المهدي فى قبولها لان الاشهر التى أقامها عثمان عند المهدي كانت كافية لبلوغ معظم الجنود بربر فلم ينجح عثمان فيما كان دبره له أستاذه من عرقلة سير الحملة وسد الطريق في وجهها وان نجح من جهة أخري حيث خلع أهالي شرق السودان أجمعون طاعة الحكومة والتفوا حوله وبلغ ما كانت تحدثه بالارتقاء اليـه زايرجتـه ونال فوق ما كان يتمناه ثم أخذ أمره بالاضمحلال وساءت أفعاله وثقلت وطأته على الذين شدوا أزره وتجردوا لنصرته وكان سقوطه مساويا لارتفاعه كما سنشرحه بعد

ذكر أوبة عثمان دقنه الي سواكن

لما اقتنع المهدي بسلامة نية الشيخ الطاهر خاف أن تفوته فرصة عرقلة سير الجنود من سواكن الي بربر فسير عثمان دقنه من الابيض في شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٠ وكتب له منشوراً الى جميع أهالى السودان يعلمهم بأمر دعوته ويأمرهم بطاعته وموازرته وقد بحثنا على صورة هذا المنشور فى مجلدى المنشورات فلم نظفر بها ولكن عثرنا على منشور كتبه بعد ان وصل

الى سواكن يعظه فيه واتباعه ويزهدهم في الدنيا

أما المنشور الذي يتضمن توليته فنورد فحواه نقلا عن مصادر أخرى وهو بعد ذكر ما أصاب الاسلام من الضعف وما انتابه من تعطيل الحدود اني قد وجهت اليكم الشيخ عثمان بن أبي بكر دقنه السواكني نائباً عني فيكم فبايعوه ووازروه وانصروه واني أزف لكم بشرى ما أتاح الله لي من النصر والاستيلاء على كوردفان كلها ولكم البشرى أيضا بان الله سينصركم ويثبت أقدامكم ويورثكم السودان الشرقي ويهلك من فيه من جنود الحكومة لقوله تعالى (ألم نهلك الاولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين)

وأما المنشور الذي تضمن عبارات الوعظ والتزهيد فان بعضهم يقول انه صدر مع هذا المنشور وهذا قول لا نصيب له من الصحة اذ المنشور يتضمن عبارات كثيرة من المدح والثناء على عثمان دقنه مما يدل على انه صدر بعد ان عاد عثمان الى سواكن وبدأ بتمثيل رواياته التي أدهشت المهدي نفسه كما أدهشت العالم كله لانه لم يكن يتوقع منه مثل هذه الاعمال الباهرة وهاهي صورة المنشور بنصها نقلا عن الجزؤ الاول من كتاب المنشورات صحيفة ٨١

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الي حبيبه وصفيه وعونه ونائبه في اقامة دين الله ذي الرأفة بالضعفاء عباد الله المستسلمين المنيبين الى الله والشدة على المتكبرين اعداء الله عثمان بن أبي بكر دقنه وقاه الله كل محنة وجعله الله من أعلا أهل المكرمة. حبيبي ان الدين قد انهدم بسبب تشييد الحظوظ النفسية السفلية التي تزول عن قريب وتحجب عن دوام النصيب

فشمر انت واخوانك التابعون لنا عن ساعد الجد على ترك المشتهيات النفسية ومقاساة الشدائد التى تقرب الى رب البرية فيدوم خيرها في الدار الأخروية والمعلوم أن الخير الذى لا يدوم خير منه الشر الذي لا يدوم لأن صاحب الخير الذي زال أشد الناس حسرة وتوجعا وصاحب الشر الذى زال أشد الناس فرحاً وسروراً فلما علم العاقل المؤمن بما عند الله عاقبة خيرات الدنيا زهدها لشؤمها عند الفوات وشدة حسرتها عند الممات مع انها تشغل عما فى الآخرة وتصرف عن القيام لله خالصا والوثوق بالله صادقا فانيبوا لما عند الله وا كتفوا بالله ولا تتنعموا فى دار البلايا ودار الظالمين الاشقياء فتصرفوا بذلك عما أعد للمتقين واقتدوا بالنبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه فى الاعراض عن الدنيا ومتاعها واصبروا على الجوع والخضوع لما عند الله بالقلب القنوع واعلموا انه لو كان في الدنيا خير لصبها الله على عبده المؤمن ولاعطاه كل ما عند الكفار ولكن ليست هذه الدنيا محل العطاء ولا دار الجزاء ولا زمن السراء فاعرفوا ما خلقت له من الاكتساب منها الي محل الاجتماع بالاحباء ودوام اللقاء فيها يا احبابي ولا تعطلوا بهذه الدار مع من تعطل بها لغروره بمحض البلاء قال الله تعالى «انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا وانا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً» نخير الدنيا مؤد الى الوقوع فى الهوي الخلاء وانظروا ثواب ما فيها من البلواء اذ قال الله تعالي (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فانظروا العطاء الذى في البلاء وهو الصلاة من الله مع الرحمة والهداية اذا كان العبد راضياً أو صابرا على مراد الله لما عند الله معتقدا

أولوية الله له وشفقته عليه فيحسن به الظن زيادة عما يحسنه فى أبيه الشفيق عليه الذي يعلم خبرته وقدرته وغناه فيعلم يقينا أن أباه الموصوف بتلك الصفات لولا محض الشفقة عليه وارادة الخير له لا يفصده ولا يسقيه الدواء المرّ المغن البشع ولا يأخذ ماله الا لزيادته له فكذلك المؤمن بالله وباولوية الله يعلم ان عند الله خيرا لا تزنه السموات والارض وما فيهما ويعلم انه قادر على اعطائه كل خير وبيده خزائن الخيرات ولكن المعلوم أن المريض اذا أعطاه أبوه لذيذ الاطعمة عجلت بموته واذا أباح له الملاعب والشهوات عن الحبس للتعليم كبر سفيها جاهلا وكذلك حكمة الله فى صرف النعم عن عبده وتنفيره عنها فى الدنيا من هـذا القبيل وأعلا علما في ضرره بالحاضر الذى يعقب حسرة طويلة ولذلك فعل باصفيائه ما فعل مما هو معلوم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (أشدكم بلاء الانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل) والاخبار في هذا المعنى كثيرة من الكتاب والسنة فانظروا ما ناله العبد بالبلاء في قوله تعالى (وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فقوله قالوا انا لله وإنا اليه راجعون هو حسن ظن بالله معرفة به لكثرة أياديه ونعمه عليه واشتياقا اليه دون الشهوات التي تكون قبل لقائه فالمعلوم ان من انتسب الى ملك واخلص فى انتسابه له وعلم الملك ان له حقيقة عمل له كل احسان ورفعه بكل درجة واذا علم الملك أيضا من قلب ذلك الشخص انه الى ابده مستمد من قلبه انه لا يرجع الي غيره أعدله ما يقدر عليه من حسن المأوى فكذلك العبد المؤمن لما يعلم أيادى الله عليه وأولويته له مع معرفته انه قادر وغني وخبير يفرح بما يقضيه عليه قائلا انا لله يعنى نحن ملك الله وهو الاولى بنا منا ولما يعلم

انه لا مرجع له الا اليه مع معرفة أياديه وعظمته وما أعده فى الآخرة يشتاق اليه فقط ويصرف نظره عن مايعطله قائلا وإنا اليه راجعون فيثيبه الله بصلوات عليه فيصلي عليه كما صلي على أحبابه من الانبياء والمرسلين والملائكة والمقربين ويرحمه الرحمة الخاصة التى تليق بعظمته وبما ظنه في الله قد سلك طريق الله والجنة فهداه الله الي ذلك لان الجزاء من جنس العمل ومن جاهد يهديه الله كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فلا تطمعوا أحبابي فى غير ربكم ولا تتشوفوا لغير دار الدوام مما يزول ويعقب حسرة تطول فتنعموا ببلاء الدنيا لحسن الظن بالله وأعرضوا عن متاع الدنيا التى تعقب الشقاء وحثوا اخواننا الذين معكم بالحال والمقال وكونوا كما قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوة ان الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) ووطنوا أنفسكم على الرضا بقوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) لتنالوا بالرضا والصبر على مراد الله تحسينا لظنكم بالله الصلوات والرحمة والهداية كما ذكرت ذلك ولا تغفلوا عن ذلك والسلام »

(ملحق)

وانه يا حبيبي بعد وصيتى هذه فليكن اعتمادكم على الله تعالي فى كامل أموركم تصديقا وامتثالا لقوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فالتوكل على الله كنز المؤمن لان المؤمن كنزه ربه كما ورد وحيث ان مطمح نظره ربه وصل اليه وجازاه ومن اعتمد على غير الله خذله في محل حاجته كما لا يخفى

ذلك وأيضاً لا تعتمدوا على الكثرة بل اجتهدوا في الصفوة التي هى الاعتماد على الله وحده وزهد الدنيا والتشوف الي ماعند الله في دار البقاء فالذى عندكم ينفد وما عند الله باق فان الكثرة بغير الله خذلان فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين فاصبروا على مراد الله راجين له وانظروا لنصرة الله ولا تعاينوا للقوة الاخري فقد قال تعالى (ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ) فانظروا لذلتكم الحقيقية التي هي عجزكم من أنفسكم اذ أنتم من نطفة مذرة فما بكم ما ترونه من كمال هيكلكم بقوته والروح التى تتحركون بها هي بيد الله قل الروح من أمر ربي وبغيرها الانسان خير منه الطين لانه يصير منتنا ومن نظر هذا المعنى عرف ان ملكوت كل شيء بيد الله فلا يخشي من غير الله وهو الذي له الخلق والامر فلا تخشوا الناس واخشوا الله الذى بيده كل شيء وقوموا بامره له فقد قال الله تعالى (ولينصرن الله من ينصره) فاعتمدوا على الله واكتفوا به واشتاقوا الى الذي عنده والسلام

ولما غادر عثمان دقنه بربر وجد آخر حملة من الجنود نازلة على منهل بين بربر وسواكن اسمه (ككريب) فاخذ يبكى وينتحب ويقول لمن معه تثب على هؤلاء الكفار لنقتلهم فلم يوافقه أصحابه وكانوا بضعة أشخاص ثم تابع مسيره والناس يفدون عليه لاخذ البيعة وتقديم الطاعة والخضوع ومع ذلك كان يكتم أمره ولم يجاهر بدعوته حتي يجتمع بالشيخ الطاهر

وقد سلم المهدى كتابين بخط يده الي عثمان ليوصلهما له فى أحدهما ان نائبه علي السودان الشرقى هو الشيخ الطاهر ويأمر الناس بمبايعته وفي الخطاب الثانى استعطاف له والحاح بقبول هذا المنصب وانه اذا كان مصراً

على الرفض وعدم القبول فليكن الآمر الناهي في باطن الامر علي عثمان دقنه وقد أوصي المهدي عثمان دقنه بترك الامارة لاستاذه اذا رضي بما كتبه المهدى وان أصر علي رأيه الاول فليكن مؤتمراً بكل ما يأمره به وفى كلا الحالين ان المسؤل الحقيق أمام المهدي هو الشيخ الطاهر لا عثمان دقنه

كل هذا يدل على أن المهدي لم يكن واثقاً بعثمان دقنه وقد اتفق الطاهر وعثمان على ان يكون الثانى منفذاً لكل أوامر الاول

على ان عثمان دقنه لم يكن واجداً في نفسه أقل شيء من استاذه وكانا على حالتهما الاولي وعثمان أطوع له من يده وكل الاعمال التي كانت بالنجاح الباهر في أوائل أمر عثمان دقنه كانت من أعمال أستاذه وسيأتى ان الشيخ الطاهر لما لحق بالتعايشى فى أم درمان ظهر الخلل في أعمال عثمان دقنه فاعيد الى سواكن فتدارك الخلل وبعد وفاته هزم عثمان من توكر وتفرقت من حوله القبائل. وقصارى القول ان الفاعل الحقيقي لكل ما جري فى السودان الشرقي هو الشيخ الطاهر وان عثمان دقنه لم يكن الا آلة فى يده وهذه حقيقة لا ينكرها الا الذين يجهلون الحقائق ويحكمون بالاشاعة

ذكر لحاق الشيخ الطاهر بعثمان دقنه وذبح المسجونين

كان جواسيس الحكومة فى كوردفان أبلغوا الحكمدارية في الخرطوم أمر عثمان فعولت على القبض عليه قبل وصوله الى سواكن فلم تفلح ويقول الثقات انه قضى عدة أيام فى بربر عند صهره والحكام لاهون عنه بالرغم عن تشديد الحكمدارية فى القبض عليه

ولما قرب عثمان من (هندوب) التي لا تبعد عن سواكن بأكثر من خمسة

أميال بعث يعلم الشيخ الطاهر وكان مقيما فى سواكن مغموراً بنعماء الحكومة الى درجة أنها كانت تكلف المسجونين بقضاء حوائجه الذاتية كالابنية وحفر الآبار اسوة أعمال الحكومة

وفى اليوم الثامن من شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٠ هجرية استأذن الشيخ الطاهر الحكومة ليغادر المدينة الى هندوب حيث عزم على حفر بئر فيها وتشييد مسجد فأعطته الحكومة ثلاثين مسجوناً من المصريين ليقوموا بهذا العمل وفي اليوم التالى شخص من المدينة ومعه كل أسرته

ولما أطلع عثمان الشيخ الطاهر على ماكتبه المهدى وألح عليه فى قبول الامارة لم يتغير عن عزمه الاول وقام فى وسط الجموع وبايع عثمان بيعة المهدي ونزع ملابسه ولبس شعار المهدية الذى هو القميص المرقع وقبض عثمان على الثلاثين مسجوناً وذبحهم وكان ذلك ضحوة يوم عيد الاضحى فكان الناس يقولون نضحى بهؤلاء الكفار

والتفت القبائل كلها حوله وبايعوه اقتداء بالشيخ الطاهر وترامت أخباره الي كسلا ومصوّع ودخلت جميع القبائل فى طاعته ماعدا قبيلتى بني عامر والحباب ثم غادر عثمان ومن التف حوله هندوب لقربها من سواكن ولحق (بسنكات) لبعدها ومنعتها بالوعور والغابات

هـذا وقد بقى بعض القبائل يبطن الولاء لعثمان ويظاهر الحكومة بالطاعة حتى كانت واقعة سنكات وقيام الاهلين عن بكرة أبيهم بالثورة وخلع طاعة الحكومة

ذكر واقعة سنكات وقتل توفيق بك

لما عسكر عثمان فى سنكات أصدرت الحكومة أمرها الى محافظ سواكن بوجوب القبض عليه فانتدب توفيق بك مأمور توكر وستين جنديا للقبض عليه ولم تكن الحكومة عالمة ان عثمان معه نحو عشرين ألف مقاتل واستصحب توفيق بك شيخي قبيلتي الشعياب والنوراب اللذين أكدا له سهولة القبض على عثمان وأقسما له أن يكونا عونين له وما كاد توفيق يصل الى (سنكات) حتي فرا منه ولحقا بعثمان الذي بدأ يهاجم الجنود وهم بالرغم عن قلتهم يردونه ويدفعونه بخسائر وفى آخر الامر تحصن توفيق بك داخل زريبة من الشوك واحتفر متاريس ليدافع بها حتى صار من أمر الحملة ان عثمان فتك بها بعد هزيمة الحملة التي كان يقودها محمود طاهر باشا وتلتها هزيمة بيكر باشا كما يأتى سرد ذلك

ذكر حملة محمود طاهر باشا

لما قررت الحكومة ترك السودان واخلاءه عهدت الى محمود طاهر باشا قيادة خمسة آلاف من الجنود لانقاذ توكر وسنكات فشخصت الحملة من سواكن الى ترنكيتات بحراً ثم سارت براً من ترنكيتات قاصدة توكر

وكان عثمان قد علم بأمر هذه الحملة فحشد جيشا جراراً يزيد عدده على خمسين ألف مقاتل كلهم فى نهاية الحماس وكمن بهم في منتصف الطريق بين توكر وترنكيتات ولم تقطع الحملة مسيرة عشرة أميال حتى خرج عليها الكمين من كل ناحية وداهمها على غرة فأوقع بها ولم ينج منها غير القائد وقليل من الجنود وغنم عثمان كل ذخيرتها ومدافعها

وعلى أثر ذلك جاءت الانباء الى الحكومة بزيادة الخطر على الخرطوم وعولت على اجراء عمل من شأنه أن يسهل اخلاءها وصار العدو يشن الغارة حول المدينة ولولا البحر لاستولى عليها فأرسلت الحكومة البريطانية سفنا حربية حافظت على المدينة ومنعت وقوعها فى قبضة العدو

حملة بيكر باشا

لما هزمت حملة محمود طاهر باشا انتدبت الحكومة بيكر باشا قومندان الجندرمة المصرية ومعه نحو أربعة آلاف جندي وفى أواخر المحرم سنة ١٣٠١ هجريه استعرض المغفور له الخديوى توفيق باشا جنود بيكر باشا في القاهره وأبدى سروره من حسن انتظامهم ثم غادر بيكر باشا القاهرة قاصداً سواكن ومكث أياما يخابر رؤساء القبائل مخابرات سلمية فلم تسفر عن نتيجة مرضية ثم ابدى رغبته الي الحكومة أن تاذن له بمخابرة قبائل مصوع عساه يجد منهن حلفاء يعاونونه على فتح الطريق الي كسلا ومنها الي الخرطوم فصادفت مأموريته بعض النجاح حيث وجد قبائل بني عامر والحباب ينفرون من المهدوية ولذا لم يدخلوا في طاعتها فتولد عنده أمل النجاح وأخذ يخابر القبائل الواقعة بالقرب من كسلا فعلم انها كلها دخلت فى طاعة المهدوية ورفعت لواء العصيان على الحكومة

وبعد بحث طويل علم أن الطريق من مصوع الى كسلا مملوءة بالغابات ومحاطة بكثير من الصعوبات وان الطريق من كسلا الى الخرطوم بعيدة وانه يخترق صحراء قاحلة فعاد الى سواكن واخذ في الاهبة للزحف علي توكر لانقاذها وانقاذ سنكات

وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠١ هجرية ابحر بيكر باشا بحملته من سواكن الي ترنكيتات اي فى طريق حملة محمود طاهر باشا ثم سار بحملته في ذلك الطريق ولشدة وعورة المسلك وتكاثف الغابات المظلمة والاشجار العظيمة كانت القوة سائرة علي هيئة (بوجله) تتقدمها المدافع وبجانبيها الفرسان وكان العدو كامنا فى الطريق فوثب عليها عثمان واختلطت مقدمته بمقدمتها فحاول القائد تشكيل قلعة من المشاة ولكن اسراع العدو فى الهجوم وخفة حركاته حالا دون اتمام العمل فركن من في الساقة الي الفرار والقوا مابايديهم من الاسلحة واثخن العدو فيهم قتلا وضربا فكانت جملة الخسارة نحو ثلاثة آلاف قتيل ونجا القائد ولحق بترنكيتات وغنم عثمان كل الاسلحة والمدافع التى كان فيها عدد من الطراز الكبير جداً

على ان هذه الهزيمة جاءت تلو التى قبلها وبالاسباب عينها الا أن جنود بيكر باشا أطلقوا نيرانا كانت كافية لارجاع العدو القهقرى لو لم يختلط فرسان العدو بفرسان الحملة فتقوض الجانب الذين يحمونه من هيئة المربع المستطيل فكان الفشل من نصيب الحملة ولا يعزب عن فكر القارىء ان هذه الحملة جاءت مذبحتها بعد مذبحة الجنرال هيكس فكانت الدهشة بمصابها عظيمة وان توفيق بك كان قد وصلت اليه أخبار تقدمها فكان الامل يملأ جانبيه بأن تنقذه فلما بلغه ماأصابها خرج بجنوده القليلين ليخترق صفوف العدو إما له وإما عليه فخرج فى حالة تدل على ما كان عليه من الشجاعة التي ضاعفها اليأس وما كادت جنوده تفارق الزريبة حتي أحاط بها العدو من كل جانب ومكان وعدده يربو على ستين ألفا أي لكل رجل من رجاله ألف من رجال عثمان فقتل هو وجنوده بعد دفاع اعترف له ولجنوده بفضله الاعداء

وتوفيق بك هذا سوري الاصل كان نصرانياً ثم اعتنق الاسلام ودخل في خدمة الحكومة

وعلى كل حال فان عثمان نال في أعماله نجاحا ما كان المهدي يتوهمه وجاءت أعماله في شرق السودان معطلة لما كانت عليه سرعة المواصلات بين بربر وسواكن وتقوى به ساعد المهدي حيث كفاه مكافحة جزء ليس بقليل من قوات الحكومة كان في الامكان أن تحول بينه وبين تقدمه الي الخرطوم لو عمدت الحكومة الى ارسالها مع غردون لدى عودته

ومن المدهش ان الحكومة في تلك الايام قصدت فتح طريق من مصوع الى كسلا فالخرطوم وهي تجهل ما في تلك الطريق من العقبات الكؤد والصحاري القاحلة ولو عمدت الي فتح هذا الطريق على شاطيء النيل لم تقم في طريقها صعوبات كالتي قامت في وجه بكر باشا لما عاد فشلا من مخابرة القبائل من كسلا ولا أضاعت الاوقات في الاشياء التي لا تعود بفائدة فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

واقعة الجنرال جراهم في التيب

ولما فشلت حملة بكر باشا قررت الحكومة الانكليزية ارسال قوة عسكرية لقهر عثمان دقنه وفتح الطريق بين بربر وسواكن وعهدت بقيادة هذه الجنود الى الجنرال جراهم فوصلت هذه القوة الي سواكن في أواخر ربيع الثاني سنة ١٣٠١ وبعد بضعة أيام ابحرت منها الى ترنكيتات

على ان المصائب التي حلت بالحملتين السابقتين دعت الجنرال جراهم لاخذ الحذر وعدم الاغترار فسار بحملته وعدد مشاتها ثلاثة آلاف وفرسانه

ثمانمائة ونحو أربعمائة من المهندسين والطوبجية وجعل الفرسان في جانبي المربع ثم سار المربع من ترنكيتات قبيل الظهر ورافق بيكر باشا الجنرال جراهم

هذا ما كان من أمر الجنرال جراهم أما عثمان فقد تحصن في التيب واحتفر خندقاً صغيراً أحاطه بمتاريس وضع عليها مدافع الكروب التي غنمها من الواقعتين السابقتين ولكنهم كانوا بلا مؤخرة تحفظهم من الخلف فكانت هذه الغفلة مما شجع الجنرال جراهم فتقدم هاجماً على العدو وكان ضمن رجاله جنود من الذين شهدوا واقعة بيكر فجبنوا ولم يثبتوا في الدفاع وولوا الادبار

وكانت مقذوفات العدوّ متواصلة ومع ذلك لم تجاوبها قنابل الجنرال جراهم وأخيراً تقدمت الحملة حتى صارت على بعد ميل واحد من حصون العدو والذي كانت نيرانه وقنابله شديدة جداً عليها وهناك أخذت نيران الحملة وقنابلها ومتراليوزاتها تجاوب مقذوفات العدو وكان أحد جوانب الحملة عرضة لمقذوفات العدو فاراد القائد ابدال شكل المربع بطريقة تصير الأضرار خفيفة فلم تفلح وجرح كولونيل انكليزي فاغتنم عثمان الفرصة وزحف بخفة غريبة ثم اشتبك مع الحملة وصار القتال بالسلاح الابيض وبعد بضع ساعات انفصل الجيشان ووضعت أوزار الحرب وخسر عثمان نحو ثلاثة آلاف قتيل وتقهقر الى (توكر)

وتابع الجنرال جراهم مسيره متأثراً له فلم يصادف مقاومة فى طريقه

وكان عثمان يقصد من هذا التقهقر ان يغتر الجنرال جراهم ويتأثره فاذا توغل فى الغابات وأدرك جنوده بعض التعب يكر عليه ولكن الجنرال أدرك الحيلة وقفل راجعا من توكر ولم يتأثر العدو وقتل بكباشي انكليزي وجرح بيكر باشا

وقد وصلت أخبار هذه الهزيمة الى غوردون في الخرطوم وهو في أوائل

الحصار فكانت مما ضاعف احزانه وسيأتى ذكر ذلك على حدة

ذكر تقدم عثمان دقنه الي سواكن

قلنا ان عثمان كان يقصد بالتقهقر التغرير بالحملة حتي تتأثره فلما أدرك قائدها الحيلة وقفلت راجعة الى سواكن أخذ يعض أنامل الندم لفوات الفرصة حيث كان في امكانه معاودة الكرة عليها فى طريق توكر أو بعد احتلالها اياها فزحف على سواكن وتحصن فى مكان يدعى (طمية) وأرسل قسما من رجاله يناوشون المدينة حتى يضطروا الحامية الى الخروج اليهم فاشتدت وطأتهم على المدينة وكادت تسقط فى أيديهم لولا نيران السفن الانكليزية التى اضطرتهم الى النكوص على اعقابهم مرات عديدة وكان ذلك مما ايأس الجنرال جراهم الذى كان آملاً فتح الطريق بين بربر وسواكن

ذكر واقعة طمية

ولما كثرت غارات العدو على سواكن حمل الجنود الانكليز على العدو وخرجوا فتقهقر المغيرون أمامهم حتى بلغوا طمية

ولما ترا آى الجمعان لزم الجنود خطة لدفاع وتحصنوا داخل زريبة من الشوك فانقض العدو عليهم ليلا وذبح عدداً كبيراً منهم وما زالوا فى دفاع حتي مطلع الفجر فانقسم الجنود قسمين وشكلوا مربعين أحدهما يقوده الجنرال بول والثانى يقوده الجنرال دافيس وتقدم هذا نحو العدو الذى قابله بثبات مدهش وفتك باكثر الجنود واختلط بهم فتدارك القائد الامر وتقهقر بانتظام حتى صار حيال مربع الجنرال بول وأخذ المربعان فى اطلاق النار على العدو

معاً فتقهقر بخسائر جمة وبلغ عدد من قتل من الجنود الانكليزية نحو أربعة آلاف ويقال ان جنود الجنرال دافيس أظهرت جبنا واحجمت عن اطلاق النار حتي تمكن العدو من الدنو منها وعادت الحملة الى سواكن

أما عثمان فقد أعاد الكرة على سواكن وأخذ يوالي حث القبائل على الجهاد وذلك كله ليمنع تقدم أى قوة الى بربر يشتد بها ساعد غردون وأرسل دعاة كثيرين حصروا كسلا كما سيأتي ذكر ذلك في مكانه

ولما اتحد المربعان تقدمت الجنود قليلا الى معسكر العدو وأشعلت النار في معسكره وأحرقت خيامه واسرت كثيرا من العائلات والنساء ولحق العدو بعض خور اضطره الى عدم تأثرها حتي بلغت سواكن

وقد تغالي مكاتبو الجرائد الانكليزية في وصف هذه الحادثة الى حد انهم قالوا بان الدراويش اشجع رجال في الدنيا وأكثر الناس خبرة بفنون الحرب

على أن الحقيقة عكس ماقالوا لان القوم لم يكونوا الا في الدرك الاسفل من الغباوة والجهل وما أظهروه من الشجاعة كان نتيجة ما كان يقال لهم عن نعيم الجنة وحياة الشهداء فهم يريدون احراز ذلك والتمتع به. هذا وقد امتدح المجذوب بن الشيخ الطاهر عثمان دقنه بقصيدة طويلة عقب هذه الواقعة مطلعها

بطل تهاب بنو الاصيفر باسه   لم لاوساء صباحهم تكرارا

والقصيدة طويلة اكتفينا بايراد مطلعها لخلوها من الفائدة وتضمنها الغلو في المدح والخروج عن حد الادب في ذم الحكومة وهجائها

ذكر تقدم الجنرال جراهم الي بربر

وفى غضون ذلك وردت الاخبار الى القاهرة ولندره بقطع الاسلاك التلغرافيه بين الخرطوم والقاهرة وشرع العدو يحاصر الخرطوم فقررت الحكومة الانكليزية ارسال حملة الجنرال جراهم لفتح الطريق بين بربر وسواكن وأمرت الجنرال جراهم بالحملة على عثمان دقنه واختراق الصحراء للوصول الي بربر

وكان لعثمان دقنه عيون فى داخل سواكن يبلغونه كل أخبار الحكومة ونواياها ولما سمع هذا الخبر سر به وعزم على عدم مقاومة الحملة بالقرب من سواكن واخلاء الطريق لها حتى تتوغل فى الصحراء وهناك يثور فى وجهها ويتمكن من ابادتها

ولما خرج الجنرال جراهم كان علي حذر شديد وتقدم فى الصحراء مسيرة يوم وليلة ثم علم بحقيقة مادبر له وعلم أنه ان تابع مسيره كانت عاقبته لاتختلف عن مغبة حملة الجنرال هيكس فصمم على العودة الى سواكن قبل أن تطرأ ظروف تجعل السلامة فى خبر كان فعاد ولم يصادف كيدا في ذهابه أو ايابه

ولما سمع عثمان بعودة الجنرال جراهم أسرع اليه ليهاجمه قبل أن يبلغ سواكن فلم يفلح وبلغت الحملة مأمنها سالمة غير ظافرة بشيء مما كانت تتوق اليه وبهذه الحملة ختمت رواية الجنرال جراهم حيث غادر سواكن وانصرفت أميال الحكومتين المصرية والانكليزية عن فتح الطريق بين سواكن وبربر وأصبح الامل ضعيفا من اسعاف غوردون وامداده من جهة السودان

الشرقي حيال ما أظهره عثمان من القوة والبسالة اللتين أدهشتا العالم أجمع وشددت عزائمه وقوت أمله في الاستيلا على الخرطوم ووقوع السودان كله تحت قهره وجبروته

وفي غضون ذلك كانت القبائل التي حول بربر رفعت راسها للثورة وسقطت بربر في يد المهدي والخلاصة أن جميع حركات الجنرال جراهم لم تمد باقل فائدة بل كانت مما قوى ساعد العصاة بما غنموه من الاسلحة والذخيرة والى الله مصير الامور

وانسحب الجنرال جراهم من سواكن بكل عساكره ولم يترك غير مائتين منهم ليقوموا بحراسة المدينة مع السفن الانكليزية

وكان انسحاب الجنرال جراهم من سواكن بعد أسبوعين مضيا على حصر غوردون وقطع الاسلاك البرقية بين الخرطوم ومصر

ذكر حوادث كسلا

كان السيد محمد عثمان الميرغني شيخ الطريقة الميرغنية مقيما في قريته (الختمية) بجوار كسلا وقد خاطبه المهدي مرات عديدة يدعوه الى القيام بدعوته في إقليم (التاكا) فكان لا يجاوبه بحرف واحد واعرض عن إجابته كل الاعراض

وفي شوال سنة ١٣٠١ كتب له خطاباً ملأه بالوعد والوعيد وصرح له بان لا نجاة له الا باحد امرين اما اللحاق به أو القيام بدعوته تحت إمرة عثمان دقنه وعرض له وسأله ان لا يأنف من رئاسة عثمان دقنه عليه لان ذلك لا يؤخر مثله عن نصرة الدين ولو كان عثمان (شلكاويا) نسبة الى قبيلة (شلك) في

مقاطعة فشوده وهي قبيلة من العبيد لا دين لها ينام افرادها على الرماد ويغسلون
وجوههم ببول البقر ويمشون عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم وها هي صورة المنشور
بنصها نقلا عن الجزؤ الثاني من المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه في الله محمد عثمان بن
محمد الحسن ميرغني كان له مولاه الغني آمين

أما بعد فجزيل السلام ورحمة الله وبركاته عليكم وعلى من لديكم ثم نعلمكم
انه قد تكررت المخاطبات منا الى عباد الله بالدعوة الى الله والانابة الى
ما عنده والقيام بامره والانقياد له والخروج عن النفس والعلاقة المعوقة
وكل من أخلص لله وكان أمره لله قد اتصل لدين الله معنا ومن لم يجتمع
وقام بامر الله على قصد إعانتنا وقاسى الشدائد لصفاء سريرته في إيثار ما عند
الله فهو منا والينا ولو مات على ذلك فجدير ان يتصل بربه ويتنعم عنده بما
لا يوصف من النعيم المقيم ويستريح من شؤم الدنيا وقد كاتبناك خاصة غير
مرة رعاية لمقامكم وشفقة عليكم وظنا للخير بكم فما رددتم الينا جوابا ولا
حضرتم للهجرة ولا حصلت منكم غيرة للدين باعمال حركة في جهتكم وما
أدري ما المانع لكم من ذلك مع انكم أولى بالفرح بنا واجابتنا ونصرة دين
الله تعالى من كل أحد فما الذي أخركم حتى فاتكم العوام وأنتم العارفون
وأولو الشرف والمقام وذوو الالباب الذين قال الله فيهم «ان في خلق السموات
والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما
وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت

هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من انصار ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا » وانك من أعظم من يعدويظن بالصداقة والاخلاص لله فى مثل هذا الامر وما عهدتك انك تتباطئ على قدر هكذا لانك جد عارف بعظمة ماعند الله وخسة الدنيا ومافيها ووجوب الهجرة الي اذانه لا يخفي على من دونك نورا انى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم محيي ما اندرس من الدين ومظهر آثار المرسلين ومن المعلوم ان المهدية اختبار لمن يدعي الدين فكل من كان لدين الله الخالص صادقا لا يأبي التعبد والانقياد والتواضع لحوز ما عند الله الدائم ومن كان باطنه حب الجاه وما يجبي اليه من الهدايا والوظيفة عند غير الله مال الى ذلك وتوقف وصرف جماعة من الناس عن الدين الواصل كما كان ذلك دأب القسيسين والرهبان الذين كانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خوفا من فوات الجاه والوظيفة عند الناس وما يجبي اليهم من الهدايا والقطائف حبا لمتاع الحياة الدنيا وما ذلك عند الله بمخلص ولا يتولي العبد عند لقاء الله قال تعالى «ليس بامانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً» وقال «وما يغنى عنه ماله اذا تردى » الي غير ذلك وانك يا حبيبنا ممن لم يكن دينه على حرف ان أصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنه انقلب على وجهه بل أنت ممن يطلب رضاه الله ولو تقطعت اربا اربا وفاتت عنك المطالب النفسية لما تعلمه من عظمة الله ونعمته وشدة عقابه لمن وقع فيه وكل ذلك أنت خبير به وشانك ان تربي من أتاك هكذا فاستعمل ذلك وتبصر عاقبة

أعظم من يقبل النصح تواضعاً لله الذى خلق وأحيا واليه المرجع ومن أخص المؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فاذا بلغك جوابى هذا فاما ان تهاجر الى أنت ومن معك من الاصحاب المحبين من غير نظر الى علاقة واما ان تحاصروا الترك الذين فى جهتكم وتجاهدوا من اغتر بزينة الدنيا ولا رضاء لنا عنكم الا بهذين الامرين فان فعلتم احدهما رضينا عليكم والا فلا وقد تعلم انه لا يحول أحد بغير الله فلا تخافوا اعداء الله الذين نواصيهم بيد الله واستعملوا أمر الله فيهم ولا تأبوا بلاء الله لكم لتصفية الايمان والفوز عند الرحمن فالي متي الفرار من بلاء الله تعالى الذى فيه لكم الكرامة والفخامة والله تعالي يقول «ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا» وكيف لمثلك ان يركن الى الراحة وترف المترفين فى دار الظالمين فانهض همتك وقو بالله عزمك وشمر فيما يرضيه جهدك وقد ذكرتك بهذا امتثالا لامر الله تعالى لقوله «وذكر فان الذكري تنفع المؤمنين» هذا واذا توكلتم على الله ورغبتم الجهاد والمحاصرة هناك فاتحدوا مع عثمان دقنه مع جميع الامراء الموجودين هناك ولا تخالفوا عثمان دقنه فى شيء ولا تأنفوا من ذلك فان منزلتكم عندنا معروفة وأولى التقدم المذكور في ايثار ما عند الله والرغبة فى وسع درجات الآخرة لمعلومكم ان ما عند الله خير وأبقى ومعلوم ان العاقل يسعى فيما هو خير ولا سيما وقوة احاطتكم بمعرفة عظمة ما عند الله ومعرفة خسة الدنيا وما فيها فلذلك لايخفى ان المخلص في طلب ما عند الله يطلب قلبه ان يشيد الدين ويؤيده ولو مع شلكاوى وان قصد المؤمن المصدق حوز رضاء الله والسعى فيما يقربه من الله ومن

كان على حرف من الدين فى حران وجد الراحة والمال والنافع الفانية وان

لم يجد ذلك نازع أو أعرض أعاذنا الله وإياكم من ذلك اذ أن ذلك للمنافقين الذين قصرت همتهم على الدنيا فرضوا بها واطمأنوا غافلين عن آيات الله تعالى ولم يجعل الدار الآخرة الا للمؤمنين المخلصين قال الله تعالى «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً» فارادة العلو مفهومة وارادة الفساد أعظمها حب الدنيا اذ هي رأس كل خطيئة ولظننا ببراءة ساحتكم عن ذلك كاتبناكم أولا من ابتداء أمر المهدية لظن الخير فيكم وقيامكم بخالص الدين وما نظن توقفكم عن الهجرة والجهاد الى هذا الآن الا بحسد الحاسدين وصرف المعرضين فاذا بلغكم جوابي هذا فحققوا ظني فيكم وقد ذكرنا لكم ان ذا الكشف الصادق والذكر السيد الحسن أشار الينا مرارا وتكرارا بالمحلات وببعض الصفات التي تحققت فبعد هذا فتلكم أولى بالقيام بما لله وايثاره على جميع المشاهي والسلام شوال سنة ١٣٠١

ولما وقف السيد محمد عثمان الميرغني على كتاب المهدي له أرسل يدعو القبائل لاجتماع عام عند سفح جبل (تكروف) فاجتمع ألوف منهم فقام فيهم خطيبا يسألهم أن يعرضوا عن دعوة المهدي وحذرهم الفتنة فكان جوابهم له السخرية والازدراء فعاد الي قريته واخذ في الاهبة للرحيل ومحض النصح لكل من قابله بمغادرة السودان الى الحبشة والفرار من وجه الفتنة وقال لاتباعه فروا بدينكم وغادر (التاكا) الي بلاد الحبشة ومنها الي مصوع فسواكن لان الطريق من كسلا الى مصوع كانت مملوءة بدعاة المهدية واكثر القبائل دانت بالطاعة لعثمان دقنه ولم تخلف عليه غير قبيلتي (بني عامر والحباب) لانهما أتباع الطريقة الميرغنية واوغلنا في البلاد حتي قرب مصوع وتخلفت عليه قبيلة (الحمران) وهي قبيلة تسكن شرقي نهر أتبره بين حدود الحبشة وكسلا ورئيسها يدعي (محمد)

فنزح باكثر قبيلته الى بلاد الحبشة حيث امده الملك يوحنا بما يحتاجه وجعله مرابطا فى حدود بلاده يدفع عنها غارة المهديين ويوالي الغارة على بلادهم وسنأتي على بقية حوادثه

ونقل لنا بعضهم عن الشيخ مضوي عبد الرحمن انه قال لما دخلت حدود الحبشة فاراً من عبد الله التعايشي قابلني الشيخ عجيل الجمراني بالحفاوة والاكرام فلما حضرت صلاة المغرب قام يصلي بالناس اماما وبعد تكبيرة الاحرام رفع صوته بالقراءة فقال ياسيدي محمد عثمان الميرغني الكبير ياسيدي الحسن ياسيدي محمد عثمان الصغير وصار يعدد أسماء آل بيت الميرغني صغيرهم وكبيرهم ذكورهم واناثهم بياء النداء حتي جاء علي آخرهم ثم كبر للركوع ثم رفع وسجد ثم عاد للقراءة بمثل الركعة الاولي ولما انتهت الصلاة كان بجانبي رجل من أهل العلم فالتفت اليّ مسرعا وقال اياك ان تفوه ببنت شفة فقد مضى علينا سنوات نصلي هكذا وقد ضربت اعناق كثيرين لاقل كلمة ابدوها فى الاعتراض على هذه الصلاة فالتزمت السكوت وكانت قبائل شرقي السودان الى اوائل القرن الثالث عشر من الهجرة مثل سائر زنوج افريقية ولم ينتشر الاسلام بينها الا بعد ان استوطن السيد محمد عثمان الميرغني بين ظهرانيهم

وقبل وصول هذا الكتاب الى السيد محمد عثمان كان رجل يدعى الكميلابي جاء من قبل عثمان دقنه بدعوة المهدية وقطع الاسلاك التلغرافية بين كسلا وسواكن وقتل صنجقا اسمه جباره اغا كان يجبي الضريبة من الاهلين فانتدبت الحكومة راشد كامل باشا قومندان حدود الحبشة فى قوة كبيرة للقبض على هذا الداعية وبعد مسير القوة اياما عديدة صدر لها الامر بالعودة فعادت بغير أن تصادف كيداً

ويقال إن السبب في رجوع الحملة هو أن جماعة من أعيان البلاد كتبوا عرائض على لسان البرق للحكومة يظهرون ولاءهم وطاعتهم للحكومة وكان ذلك خدعة لها فانخدعت الحكومة وأصدرت الاوامر برجوع الحملة

ويوجد فى صحراء (ريره) التى بين النيل الازرق ونهر أبتره قبيلة الشكرية التى رفضت الدخول فى دعوة المهدية محافظة على ولاء الحكومة

والى هنا نكتفى بايراد حوادث السودان الشرقى حيث نشبع الكلام عليها بعد ايراد حوادث الخرطوم وسقوطه فى يد المهديين والله الموفق

الخرطوم قبل قدوم غوردون عليها

ذكرنا أن الحكومة لما اتصل بها نبأ هزيمة الجنرال هيكس وهلاكه ارتبكت وأمرت بجلاء حاميات الدويم والكوة وفشوده وسنار لتعزيز حامية الخرطوم حتى تصير قادرة على حفظ خط الرجوع الى مصر حيث عولت على اخلاء الخرطوم وترك السودان غنيمة للمهدي

ولما اتصل النبأ بوكيل الحكمدارية حسين سري باشا اذاعه وأخذ الناس في الاهبة للرحيل ولكن معدات النقل لم تكن كافية فكانت أجرة الشخص فى المراكب الشراعية لاتقل عن عشرين ريالا مجيديا من الخرطوم الي بربر وأجرة حمل الجمل من هذه الي كروسكو لاتقل عن خمسين ريالا مع أن الاولي كانت لاتتجاوز ثلاثة قروش والثانية ثلاثة ريالات وتوالت الانذارت من المهدى الي سكان الخرطوم بالتسليم وكان وكيل الحكمدارية يقول للناس جهارا انزحوا من الخرطوم الى مصر أو الى المهدي فقد تركت الحكومة بلادكم والقت زمام أحكامكم الى المهدى فكانت هذه الاقوال مما جرأ الاهلين المتحفزين للثورة وخلع نير الطاعة عليهما

هذا وقد ظهر دعاة كثيرون سنورد أخبارهم ونستقصي أعمالهم للوقوف عليها حتى لايفوت القارئ شي منها

ذكر عصيان الشيخ العبيد بدر

الشيخ العبيد بدر من قبيلة اسمها (المسلمية) تسكن فى الفيافى التى

تبعد عن ضفة النيل الازرق شرقي الخرطوم وتعيش بلبن الماشية الصغيرة والزراعة

وكان الشيخ العبيد هذا أميا رعى غنم الناس بالاجرة ثم تظاهر بالانخراط في سلك الطريقة القادرية وكان على جانب عظيم من الذكاء والفطانة استخدمهما بين أولئك الاعراب حتى اجتمع حوله اتباع كثيرون

ومما اشتهر عنه ان اعرابياً قال له ان حماري ضاع فقال له شرب سمنا فشربه ولما احس بالاسهال خرج الى الفلاة فعثر على حماره وسط الاشجار فعد اولئك الاغبياء ذلك من اكبر الكرامات للشيخ العبيد وشرب السمن للدواء شائع في السودان كله حتي ان الدواء اما ان يكون السمن أو الكي بالنار او العشبة أو الرقية بالقرآن

وكان الشيخ العبيد مشهوراً بين قبائل جهته يقصده الناس من اطراف السودان التماسا لبركته ولمداواة مرضاهم وعلاجاته قاصرة علي السمن ويسميه دواما (الفقيه سمن) ويعمل لبعض المرضي عمليات جراحية لمرض كثير الانتشار هناك وهو آفة فى الرجل يسميها السودانيون (النبت) وفي الغالب ان عملياته تقرن بالنجاح ويرق بعض المرضي الذين يصابون بالامراض العقلية التي يطلق عليها العامة لبس الجن لابدان المصابين بها

وقد حصل الشيخ العبيد على ثروة طائلة من هذه الاشياء واصبح نافذ الكلمة بين القبائل التى تسكن شرقى الخرطوم ومرعى الجانب عند كل قبائل السودان وهو يسكن في قريته التي تبعد عن الخرطوم مسيرة مرحلتين فى الضفة الشرقية واسمها (ام ضبان) أى ان الذباب كثير فيها وسيأتى ذكر قتل محمد على ونحو ثلاثة آلاف جندى بهذه القرية

ولما ظفر المهدي بحملة الجنرال هيكس أرسل كتابا الى الشيخ العبيد يدعوه الي الدخول في دعوته وان لا نجاة له الا بالقدوم عليه أو حصر الخرطوم وعرّض له بذكر الشريف أحمد طه الذي تقدم خبر قتله وكان الشيخ العبيد ملازما للحياد مدة قيام المهدية بكوردفان فكان يظاهر المهدى ولا يحب ان تسمع عنه الحكومة الميل لجهته فكان اذا سأله سائل عن حقيقة دعوى المهدي يجيبه بعبارته المشهورة وهي (اذا كان مهدى جيد لينا وان كان ما مهدى شين لنا) ومعناها اذا كان مهديا فانه جيد لنا وان لم يكن مهديا فاي شيء لنا وهذا الجواب يدل على ما كان عليه هذا الرجل من الدهاء وكان رسل المهدى واتباعه اذا جاؤه يقابلهم بالاكرام ويسر اليهم انه منهم واذا جاءه عمال الحكومة أظهر لهم الطاعة ونوه لهم عن الضعف بعبارة عامية مشهورة أيضاً وهي (أنا جنيزه محنطه وجديده مكشنه) ومعناها انا كالجنازه المكفنة ان حملت الى المقابر فانها لا تقاوم أو كدجاجة مطبوخة بالبصل لا تقاوم من يريد أكلها

ويقول البعض ان الرجل ولو انه أول من حاصر الخرطوم وقتل عدداً كبيراً من جنودها في واقعة أم ضبان فانه مكره اخاك لا بطل وكان الشيخ العبيد قبل ظهور المهدية بعدة سنوات يكره دخول مدينة الخرطوم ويقول كلمة مشهورة أيضا (بركة القيوم ما أدخل الخرطوم) أي أسأل القيوم أن لا يدخلني الخرطوم وكثير من اتباعه يقولون انه عالم بطريق الكشف وخرق حجب المغيبات بما يصيب أهل الخرطوم من البلاء ولذلك كان يخشي ان يصيبه ما يصيبهم الي غير ذلك من الامور التي ليس في وسعنا ايراد جميعها في مثل هذا المؤلف لعدم فائدتها

وحاصل القول انه رجل من أدهى أهل بلاده ولذا لم تقدر على الحكم

بحقيقة نيته بل تترك الحكم ويقرب من الظن انه كان مكرها لا بطلا والله أعلم بالصواب وهذه صورة الكتاب نقلا عن الجزؤ الثاني من المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة علي سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي مولاه محمد المهدى بن عبد الله الي حبيبه فى الله (العبيد بدر) وقاه الله جميع الضر ووفقه على ماعند الله بسر ومن معه من المحبين حبيبي قد تكررت المخاطبات الى عباد الله للانابة الى ماعند الله والانقياد لامر الله والخروج عن النفس والعلاقة المعوقة وكل من أخلص لله وكان امره لله قد اتصل لدين الله معنا ومن لم يجتمع وقام بامر الله علي قصد اعانتنا وقاسى الشدائد لصفاء سريرته في ايثار ماعند الله ومات علي ذلك اتصل بربه وتنعم بما لايوصف من النعيم واستراح من شؤم الدنيا كاحمد بن طه الشريف المعلوم الذي جاهد الترك ومات على صدق حبه واتباعه وكذلك أمثاله قال الله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » فحاشا ان من له معرفة يجعل فتنة الناس فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة بل هان عليه كل تعب ومشقة فى الدنيا ليسلم من عذاب الله الذي لا يساوى عذاب الناس فى جنبه بشيء ما ولا سيما ما عند الله من الخيرات التى لا تزن الدنيا جميعها فيها شيأ قليلا كما ورد فمن نظر ذلك هان عليه فوات كل متعة في الدنيا ومفارقة كل حبيب بالنظر الى الدوام العظيم كما هان عليه مقاساة شدائد لدنيا بالنظر الى شدة عذاب الآخرة وانك من أعظم من يعد ويظن بالصداقة والاخلاص لما عند الله وما عهدتك انك تتباطئ على قدر هكذا مع انك جد عارف بعظمة ما عند الله وخسة الدنيا وما فيها

ووجوب الهجرة الى اذ انه لا يخفى على من دونك نوراً انى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم محيي ما اندرس من الدين وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن المعلوم عند ذوي العرفان ان المهدية اختبار لمن يدعى الدين فكل من كان لدين الله الخالص صادقاً لا يأبى التعبد والانقياد والتواضع لحوز ما عند الله الدائم ومن كان باطنه حب الجاه وما يجبى اليه من الهدايا والوظيفة عند الناس توقف عن الانقياد لاجل ذلك وصرف جماعة من الناس عن الدين الواصل لله كما كان ذلك دأب الاحبار والقسيسين والرهبان الذين كانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خوفاً من فوات الجاه والوظيفة عند الناس وما يجبى اليهم من الهدايا والقطائف لمتاع الحياة وما ذلك عند الله بمخلص ولا يتولى العبد عند لقاء الله قال تعالى «ليس بامانيكم ولا اماني أهل الكتاب من يعمل سوأ يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا» وقوله تعالى «وما يغني عنه ماله اذا تردى» الى غير ذلك وذلك من المعلوم عندك وانك ممن لم يكن دينه على حرف فان اصابه خير اطمان به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه بل أنت ممن يطلب ما عند الله ولو تقطعت اربا اربا وفاتت جميع المطالب النفسية لما تعلم ماهو عند الله من العظمة التى لا توازيها جميع المطالب بل من فاته ذلك ووقع فى عقاب الله الذى هو معلوم بالشدة أحب ان يفتدي بجميع مافى الدنيا من محبوباته التى لا يبقى له منها عن قريب أثر شيء منها وكل ذلك وأنت تربى به من أناك فاستعمل ذلك حبيبي فانه لا غناء لك من صلاح نفسك واكتساب ما عند الله وانك من أعظم من يقبل النصح تواضعا لله الذى خلق وأحيي واليه المرجع وقد وعد وأوعد كما قال تعالى «وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين» فليس

بعد الله شيء ولا أصدق من قوله وانك من أخص المؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب وفقني الله واياك والمسلمين لما يحب ويرضى فاذا بلغك جوابي هذا فاما أن تهاجر أنت ومن معك من الاصحاب المحبين ومن يطلب ماعند رب العالمين من غير نظر الى علاقة وإما ان تحاصروا الخرطوم وتجاهدوا من اغتر بزينة الدنيا ومتاعها عن الصدق مع الحي القيوم حتى نأتيكم ولا رضاء لنا عنكم الا بهذين الامرين فاذا فعلتم رضينا عليكم وأنت تعلم انه لا يحول أحد بغير الله فلا تخافوا أعداء الله الذين هم نواصيهم بيده واستعملوا أمر الله فيهم فانه أحق ان يخشى ولا تأبوا بلاء الله لكم لتصفية الايمان والفوز عند الرحمن فالى متى الفرار من بلاء الله تعالي الذي فيه لكم الفخامة والكرامة فقد قال الله تعالى « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا » الي غير ذلك من كلام الله في هذا المعنى فلا تطلبوا الراحة وترف المترفين فى دار الظالمين وكل ذلك ذكرتك به لانك أهل لذلك وممن له الصداقة مع رب العالمين والسلام » اه

وفي اوائل شهر صفر سنة ١٣٠١ قامت عصابات من اتباع الشيخ العبيد وقطعت اسلاك التلغراف بين الخرطوم وبربر فارتاع لهذا الحادث وكيل الحكمدارية وارسل وفداً برئاسة أحمد بك على جلاب مدير الخرطوم وسر التجار وثلاثة من الاعيان ولما دنا رجال الوفد من ام ضبان قابلهم اتباع الشيخ العبيد بالشتم والسباب وقالوا لهم لماذا جئتم ياكفار. الله اكبر عليكم فلم يجاوبوهم بشيء بل دخلوا على الشيخ العبيد الذى قابلهم بالحذر الشديد وقرأ عليهم ماكتبه له المهدى فقالوا له نحن عازمون على التسليم والدخول فى طاعة

المهدي والمخابرة دائرة بيننا وبين مصر وقطع اسلاك التلغراف يعطل هـذه المخابرات وكرروا عليه الرجاء بوجوب التصريح باعادة إصلاح ماتلف من تلك الاسلاك فاجاب الى ذلك وعاد الوفد الى الخرطوم وارسل وكيل الحكمدارية سفينتين بخاريتين عادتا بعد إصلاح التلغراف

وعلى أثر هذه الحادثة سقطت هيبة الحكومة سقوطا نهائيا من قلوب القبائل المجاورة للخرطوم وعدوا ذلك ضعفاً وهنالا مزيد عليهما لحقا الحكومة وما اتصلت الحادثة بالمهدي حتي أيقن بما عليه الحكومة من الضعف الذى يجعل وقوع الخرطوم فى قبضته ضربة لازب وفى غضون ذلك كان محمد بن البصير داعية المهدى في الجزيرة قد استفحل أمره ودانت بطاعة المهدي على يده أكثر قبائل الجزيرة وبلدانها

ولما أذن الشيخ العبيد للحكمدارية فى اصلاح ماتلفه جماعته من الاسلاك التلغرافية قامت عليه قيامة الداعية ابن البصير وشدد عليه النكير وكتب الي المهدي يعلمه بان الشيخ العبيد مذبذب يبطن الولاء للحكومة ويخدع المهدية فكتب المهدي له كتابا جمله آخر خطاب وكتب الى جماعته يستميلهم اليه وهذه صورة ماجاء الكتابين

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فجزيل السلام من عبد ربه الواثق بمولاه محمد المهدي عبد الله الى حبيبه العبيد بدر وكافة من كان لله وبذل نفسه في نصرة الدين من عباده المؤمنين أما بعد فالذي نعلمكم به أيها الاخوان أنه تكررت منا اليكم المخاطبات والانذارت والمواعظ المكررات التى يهون في جنبها ارتكاب كل صعب

شديد في طاعة الملك المجيد وقد كنا نعدكم للنائبات التي تزل من عدم الصبر
عليها أقدام الثقات لتعمير بواطنكم واوقاتكم بذكر الله ودلالتكم لخلق الله
وعكوفكم على قدم الصدق لذي تنافس فيه أهل الله وحزبه وانتم أهل دراية
ومعرفة وقد علمتم ان القلب اذا خلا من غير الله يمتلىء نورا ويفيض منه
الى خلق الله ولاشك ان الرباني المتمسك بالله كامثالكم شأنه هكذا وسيماه
وعلامته هي عدم الخشية من أحد غير الله والى الآن انتم معدودون عندنا
لاجل ذلك وقد بلغنا عنكم عدم الاهتمام والقيام لقتال الكفرة حيث ندبكم
محمد بن الطيب البصير لذلك فتخلفتم عن إجابته وما كان لكم أن ترغبوا بانفسكم
عن الله ورسوله وتشاركوا المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاي
عذر لكم بعد أمر الله ورسوله وأمرنا هذا وإن كنتم في أشد البلايا فان
الدين بالبلوي يزيد تجملا ولا يعرف الذهب من الزيف الا بحرقه في النارولا
يرغب عن ملة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام الامن سفه نفسه
وما أراكم أن ترضوا بذلك لكونكم عندنا من الاخيار فاطلبوا ماعند الله
فالبدار البدار وتوبوا مما توقفتم لاجله فانه لاشيء يعتذر به ويستحي المؤمن
اذا وقف بين يدى الله تعالى وينكس رأسه ذليلا منكسراً حيث آثر الغير
على محبة الله وتأنى من طلب الله لاجل شيء ظنه عذرا وتوانى عن نصرة الله
فيود أن تسوى به الارض من شدة وجله وخجله من الله حيث انكشف
له حقيقة حاله عند الله وبعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور فاذا بلغك
جوابي هذا فشمر وقو عزمك في الله وشد حزام العزم والحزم وتوكل على
الله واعتصم به وانتصر بالله فنعم المولى ونعم النصير وبوصول جوابي هذا
اليك اجمع همك في الله وأرسل لجميع اتباعك وأحبابك وأهلك وعشيرتك في

الله وجاهر في معاداة الكفرة واقطع الشكك وبارز بالعداوة ظاهراً وباطنا بالقتل والاسر والرباط والحصار ولا تتوقف ابدا لامر مّا ان كنت ممتثلا مصدقا بمهديتنا افعل ذلك ولا تبال حكم مافعل محمد الطيب البصير وان خشيت فانضم اليه وهاجر من محلك الذي أنت فيه واتحد معه كيد واحدة فلا يكون لك بد عن هذا أبداً حرض المؤمنين على القتال وسلم نفسك واتباعك من الحساب والسؤال فان من قصد الله ورسوله واقامة الدين يجاهد عدو الله ورسوله ولو مع شلكاوى فلا تضر نفسك فلا يكون رضاي عليك الا بفعل ما أمرتك به من أحد الامرين مع عود الافادة الينا عاجلا لنعلم ما أنت عليه والسلام

ولا تجاوبنا بغير ما أمرناك به ولا تبسط لنا الاعذار وها قد أنذرناك ومن بلغه الانذار لاحق له فى الاعتذار والسلام

« الثاني » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدى بن عبد الله الي احبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه خصوصا دفع الله تلميذ العبيد ولد بدر وكافة عصبته ورجاله واتباعه اجمعين اما بعد فالذى نعلمكم به أيها الاحباب انه جاء الحق وزهق الباطل وقد علمتم ان خروج المهدى وظهوره كقيام القيامة يتضح فيه أهل الدين والايمان ويكشف عن الصادقين من الاحباب وأنتم أبناء الطريقة وخدمتها المريدون لحرث الآخرة والمجتهدون فيها وهذه سنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خلعت وايدها الله بظهورنا وأوجب عليكم طاعتنا ونصرتنا فى الله لاقامة الدين وترك كل ماألهي وشغل من مال وبنين وحيث فهمتم ذلك فانكم الهجرة

الاولي وكان الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب اليكم من كل شيء سواه فبمجرد وصول جوابنا اليكم صحبة رافعه محمد النابر تحزبوا فى الله احزابا أحزابا وجهزوا حالكم واستعدوا للقتال والجهاد للكفرة بكل ما أمكنكم وانضموا الى العبيد بدر وبمجرد سماعكم بحلولنا بالبحر الابيض تقوموا بكامل رجالكم خفافا وثقالا وقابلوا الخرطوم بجهتكم التى يقال لها القبة وحاصروا أعداء الله وضيقوا عليهم فان الله يخزيهم وينصركم عليهم فانى موعود بالنصر والظفر عليهم باذن الله تعالى ولو كنت وحدى فمن تخلف بعد مجيئنا فدمه هدر وماله وأولاده غنيمة للمسلمين يكون معلومكم ذلك وبعده السلام

وأيضا كتبنا لوالدكم العبيد بالحصار والجهاد تجاه القبة للخرطوم وان يساعدكم على هلاك الكفرة فتعاونوا عليهم فان المؤمنين كالبنيان يشد بعضه بالبعض يكون معلوم والسلام

وسنعود الي ذكر تأثير هذين الكتابين

ذكر غارة الشيخ مضوي عبد الرحمن علي ارباض الخرطوم ونهبه الماشية وهزيمته

في أوائل شهر صفر سنة ١٣٠١ جمع الشيخ مضوى نحو الف رجل أغار بهم على الخرطوم ونهب نحو الفى رأس من الماشية كانت ترعى خارج الخندق ولما تأثرته الجنود فر الى جهة الجديد على بعد مرحلتين من الخرطوم جهة النيل الازرق ثم انتدبت الحكمدارية اللواء ابراهيم حيدر باشا فى الفين من المشاة المصريين فابحر من الخرطوم على باخرتين حتي بلغ الجديد فقابله الشيخ مضوي براياته وبنوده فصبر لهم حتي اقتربوا من المربع وأصلاهم

ناراً حامية فلم يستطيعوا الثبات امامها وولى قائدهم مذعوراً وسقط نحو مائتين منهم قتلى وتفرقوا في الفلاة ومنذ ذلك اليوم اختفى أثر الشيخ مضوى ولم يوقف له على خبر الا بعد ان زحف أبو قرجه وابن البصير وحاصرا الخرطوم من جهة الجريف كما سيأتي ذكر ذلك في مكانه

ذكر الداعية محمد بن الطيب البصير

تقدم لنا تعريف قرى الحلاوين عند ذكر الشيخ القرشي أستاذ المهدى ونقول الآن كان في الحلاوين رجل اسمه الطيب البصير كان أستاذ القرشي هذا قبل ان يجتمع بالاستاذ الكبير أحمد الطيب بن البشير ناشر الطريقة السمانية في الاقاليم السودانية وكان الطيب البصير ضريراً فسماه أستاذه بصيراً وكان ورعا تقياً ذا شهرة كبيرة وسيرة حسنة في أيامه توفى في منتصف القرن الثالث عشر من الهجرة الشريفة وله أولاد أرشدهم محمد بن البصير

ولما أباد المهدى حملة الجنرال هيكس أرسل الى ابن البصير يامره بالقيام بدعوته وكان المهدي زوج ابنته فاحجم في بادئ الامر وأخذ يدعو الناس سرا ولم يقدر على المجاهرة

وكان في مدينة ولد مدني رجل سورى اسمه محمد اغا جباره وهو والد احمد جبارة قاضي المهدية الذي ذكرنا خبر قتله يوم واقعة الجمة بالابيض كان يدعو الناس سرا للمهدي بهذه المدينة

ولما اتصل بالحكمدارية هذان الخبران انتدبت احمد بك على جلاب مدير الخرطوم وشددت عليه الاوامر بالقبض عليهما فذهب على احدى البواخر واحاط بالقرية التي فيها ابن البصير وبعد ان قبض عليه أوكاد قدم

عليه ابن حبوبه شيخ هذه القري وعرض عليه عشرين الف ريال على أن يترك ابن البصير فقبض المال وكف عن القبض عليه ثم تابع مسيره الى ولد مدني فافتدى منه محمد اغا جيارة باربعمائة ريال وعاد الى الخرطوم ولم نعلم بماذا اعتذر الى الحكمدارية

ذكر واقعة العسكري بالحلاوين

لما وصلت كتب المهدي الي ابن البصير ومعها شيء مما غنمه من المصريين في حملة الجنرال هيكس كملابس الضباط ونياشينهم أرسل يدعو قبائل الدباسيين والحوالده وسائر أعيان القرى فاجتمعوا عنده في يوم السوق الاسبوعي فتلا عليهم كتاب المهدي وأمرهم بالمبايعة فبايعوا وخلعوا ثيابهم ولبسوا المرقعات ثم ضربوا طبول الحرب

وكان في السودان عسكري من الجباة أرسله حاكم الخط ليدعو الصراف الي تسليمه ماقبضه من الضرائب فقام الصراف ولطم العسكري على وجهه ثم أحاط من في السوق بالعسكري وقتلوه وكان الذين في السوق يبلغون ستين الفاً كلهم غمسوا سلاحهم في الجثة وأخذ من في القري يهرعون الى السوق كي يغمسوا أسلحتهم في جثة العسكري تفاءلا بان سلاحهم سينغمس في أجسام كل الجنود ومن ثم أعلنت البلاد كلها دخولها في طاعة المهدي وخلعها طاعة الحكومة

وقال بعضهم ان هذه الواقعة كانت قبل شخوص المدير الى الحلاوين والحقيقة انها كانت بعدها لانه اذا كانت قبلها لم تعمد الحكومة الى ارساله ولكانوا قاتلوه بدل ان يرشوه

ويقول كثير من الناس ان هذا المدير كان ذا ميل الى المهدى وقد أمنه على ماله وأولاده ووعده بالجزاء الحسن وقد قبض غوردون عليه في غضون حصار الخرطوم واظنه لم يحقق لديه شيء مما نسب اليه والرجل مات قتيلا يوم سقوط الخرطوم رحمه الله وتجاوز عنه

ذكر كتاب من المهدي الي الشيخ السنوسي

قلنا ان المهدي نصب خلفاء ثلاثة وسمى كل واحد باسم خليفة أحد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين عدا عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان وانه كان ينوى اهداء هذه الخلافة الى حضرة الشيخ محمد المهدى بن السنوسي

وفى سنة ١٣٠٠ كتب كتابا مع الطاهر اسحق من أهالي البلاد الواقعة غربي دارفور الى الشيخ السنوسي يخبره بانه كان ينتظره لاقامة الدين والجهاد فى سبيل رب العالمين حتي أتته المهدية الكبري وان النبي صلى الله عليه وسلم اجلس ثلاثة من أصحابه على كراسى خلفائه وأبقي كرسي عثمان بن عفان رضي الله عنه له وقال هذا لابن السنوسى عاجلا أو آجلا وقال ان نورانيتك تحضر معنا في حضرات كثيرة ورجا منه القدوم عليه أو القيام بدعوته فى جهته والغارة على مصر . قال الرسول لم يجاوب السنوسى بخطاب بل قرأ كتاب المهدي وقال انني لم ابلغ منزلة الغبار الذى ثار فى أنف فرس عثمان بن عفان رضى الله عنه في احدي غزواته مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا جواب عندي على هذا الكتاب ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء.

وهذه صورة الكتاب نقلا عن كتاب المنشورات أيضا

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير اليه محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه فى الله الخليفة محمد المهدي ابن الولي السنوسي فيا أيها الحبيب الواقف على سنة النبي المرشد المرق العباد الى مقام التقريب قد كنا يا حبيبي ومن معنا من الاعوان ننتظرك لاقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك الي الله على السنة النبوية وتأهبك لاحياء الدين بان نصير اليك ونجتمع معك فلم ترد الينا المكاتبة وأظن عدم وصولها اليك حتى انى ذاكرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والامراء المعينين فابوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة فى قلوبهم وقلة توحيدهم حتى بايعوني الضعفاء على القرار بالدين واقامته على ماطاب رب العالمين وقنعت نفوس من بايعنا من الحياة لما يرون الدين من الممات ولا زال المساكين الذين لم يبالوا فى الله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون حتى هجمت المهدية الكبري من الله ورسوله على العبد الحقير والله هو الفاعل المختار الذى هو على كل شيء قدير فامرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اكاتب بها الشرق والغرب من غنى أو فقير فصدق بها من أراد الله سعادته وكذب بها الاشقياء وصاروا فى النكير مع ان النبي صلى الله عليه وسلم قد خلفنى بالمهدية مراراً بالجلوس على كرسيه والبسني سيفه بحضرة الخلفاء والاولياء والاقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام وأعلمت انه لاينصر على أحد بعد إتيان سيف النصر الي من حضرته صلى الله عليه وسلم ولا زال التأييد من الله ورسوله يزداد وأنت منا على بال حتى جاءنا الاخبار

فيك من النبي صلى الله عليه وسلم انك من الوزراء لى ثم لازلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي الخضر عليه السلام باحوالكم وما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي صلى الله عليه وسلم خلفاء خلفائه من أصحابى فجلس أحد أصحابى على كرسي أبي بكر الصديق وأحدهم على كرسى عمر واوقف كرسى عثمان وقال هذا الكرسى لابن السنوسي الى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابي على كرسي على رضوان الله عليهم أجمعين ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابى الذين هم خلفاء خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم وان كان لا يخفى عليك ان المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة الا الله كما بينه المحققون كالسيد احمد بن ادريس فانه قد قال كذبت في المهدي أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله وقال سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها وكذلك قال محيي الدين في بعض تفاسيره الى غير ذلك من أقاويل المحققين ولا سيما وان المهدية لا تدعي لكثرة أعدائها وقوتهم وعلى انها لما ظهرت أنا بين أظهرهم فى أشد الضعف والقلة فلولا انها من الله تعالى لما مكثنا فى الدنيا يوما واحداً من شدة قوتهم وضعفنا وهم محتاطون بنا من كل جانب فالقى الله فى قلوبهم الرعب وصدهم بالخيبة وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى جبل بالغرب يقال له (قدير) بلصق جبل يقال له ماسه فجمعوا جموعهم الينا مراراً فقتلهم الله وأحرق جلودهم بالنار يرى ذلك الخاص والعام علامة لشقاوة من أنكر مهديتي وقد أعلم صلى الله عليه وسلم ان من شك فى مهديتي كافر وكررها ثلاثا ومراراً يقول من أنكر مهديتي ومن خالفنى فابى أمرى كافر فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتي ومن لا جعل الله له شكوكا وشبها تصده عن الايمان بمهديتي فيخذله الله في

الدنيا قبل الآخرة الا من أراد الله تعالى له الهداية بعد فاذا بلغك جوابي هذا اما ان تجاهد في جهاتك الي مصر وجهاتها أو تهاجر الينا والسلام ٥ رجب سنة ١٣٠٠

وكان الناس متشوقين للوقوف على ما يجاوب به السيد السنوسي ولما لم يعلن شيأ من ذلك تداول الناس ما نقلناه عن الرسول وأمسك المهدى عن الكلام في شأن السنوسي حتى كانت أيام الخليفة التعايشي فصعد المنبر في ذات يوم وقال ان المهدي أخبره بان خلافة عثمان أمرها مفوض له وانه ان شاء أبقاها للسنوسي وان شاء أعطاها غيره وكان يقصد بهذه المقدمة إعطاء الخلافة لاخيه يعقوب أو لابنه عثمان الذى لقبه بشيخ الدين ثم تراآى له من أميال العامة انه ان فعل ذلك لاقى من تشنيعهم مالا يأمن مغبته وربما اتخذه البعض ذريعة للازدراء باقوال المهدى وحجة لاظهار كذبه وفريته على رسول الله صلي الله عليه وسلم حيث قال في خطابه للسنوسي ان نورانيتك تحضر معنا فى حضرات كثيرة

وقد كان المهدي يجزم بان السنوسي يقع فى حبائل كذبه ويسقط فى مهواة غدره فخاب ظنه ولم يعد قادراً على الخوض فى أمره بما اعتاده من تكفير كل من اعرض عن دعوته ورغب عن متابعته بعد الذى شاع عنه من الثناء عليه والاعجاب بامره مما تضمنه هذا المنشور

وتوجد أقوال غير متواترة عن المهدي انه قال ان رسول الله صلي الله عليه وسلم أخبره بان السيد السنوسي سيموت قتيلا بسيف دعوته وانه طرد من الحضرة النبوية منذ أعرض عن دعوة المهدية وهذه الاقوال معزوة الى عبد الله التعايشي لانه يرمي بها الى تمهيد الخلافة المزعومة لابنه أو لاخيه

والحاصل ان اعراض السيد السنوسي عن دعوة المهدية جعل أهالى (واداي) و (باقرمه) وغيرهم من ممالك السودان الغربي أعداء ألداء للمهدي ودعوته وسيأتي ذكر حروبهم للمهدوية وقيامهم لمناجزتها في السودان الغربي

وعلى ذكر ممالك السودان الغربي نقول ان أميراً من أمراء بلاد (فلاته) اسمه عثمان بن محمد فوديه كتب له المهدي كتابا قال فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم بشره بانه يكون وزيراً من وزرائه وانه يحضر معه فى الحضرة فاجابه بكتاب طويل قال فيه انه كان حاضراً معه فى حضرة فيها جميع الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين وان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بطاعة المهدي ونشر دعوته فى السودان الغربى فسر المهدي بهذا النبأ ولكنه صادف مقاومات عنيفة من السيد السنوسي وكل ملوك السودان الغربى الزمته بترك هذه الدعوة والتبرأ منها بعد ان اتصل به نبأ موت صاحبها

ذكر فخر الدين مدعي الخلافة

كان لنجاح المهدى وانقياد الناس له وتصديقهم لما جاء به من الاباطيل والخزعبلات وقع سيء عند كثير من رصفائه والذين على شاكلته وبدت عليهم علامة الندم على مافاتهم من الفرصة لان منهم من كان مشهورا بالصلاح وحوله من الاتباع مايربو على شهرة المهدى وعدد اتباعه

وكان جماعة من المشايخ يكتبون له أنهم رأوه فى الحضرة وشهدوا جلوسه على كرسى النبي صلى الله عليه وسلم كما يزعم ويزيدون على ذلك انه صلى الله عليه وسلم أمر باعطائهم كذا وكذا أو بولايتهم على بلاد أو بتبوئهم منصبا من مناصب الخلافه فكان هو يقابل كل هذه الدعاوى بالتكذيب وعدم

التصديق ويقنع منتحليها بان الحضرات والاجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلم لاتكون لغيره ألبتة وانه لاولاية ولا كشف في زمانه وانه خاتم الولاية كما انه صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وقد حذر أرباب الطرق ومنعهم من اعطاء العهود وابطل اجتماعاتهم واذكارهم ومن فعل ذلك منهم نكل به شر تنكيل وما ذلك الا ليتفرد بالسلطه المطلقة فى الامور الدينيه والسياسية

وبعد مقتل الشيخ المنه بايام ادعي غلام من أولاد المشائخ المشهورين أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بانه خليفة الخليفة عبد الله التعايشي وانه سمع هاتفاً يقول له. انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالعدل. فاجابه المهدى بخطابين فيهما أن الخليفة عبد الله التعايشى هو فى باطن الامر المهدى وفيه أن الخضر عليه السلام رأى الاولياء مجتمعين في بيت المقدس يستبشرون بظهور المهدي ووزارة عبد الله التعايشي له وأن الشياطين يقولون كنا نعيش بالمكر والخداع والآن لاعيش لنا لان المهدى ظهر ولو أشير بالخلافة لغير عبد الله لوجدنا فى المهدية دخولا وفي الكتاب الثانى تاويلات لما رآه مدعي الخلافة وهاهى صورة ماجاء الكتابين نقلا عن كتاب المنشورات

« الاول » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي الله محمد المهدى بن عبد الله الى حبيبه فخر الدين حسن فقد بلغنا جوابك وتلوناه وفهمناه وذلك مطلوب كل مؤمن شفيق ومن ينيب الي الملأ الاعلى وأحسن الرفيق وقد بلغنا عنك مرارا وتكرارا من الواردين

والمترددين وبعض من أهل العيان أنك قد تظاهرت للناس بالخلافة وتحكيها عن النبي صلى الله عليه وسلم مع ان الله أظهرنا رحمة للامة وجعل هذا الامر منوطا بنا ومتوقفا علينا وأيدنا على ذلك بما لاينكره الا كافر والحمد لله اذ جئت منيبا بلا سيف فنرجو الله على جوابك هذا ان يزيل عنك كل حيف ولكن حبيبي ان المؤمن المؤثر ماعند الله بسبب ايمانه لابدان يبتليه الله تعالى على صدق ايمانه فان كان ما ادعاه من الايمان حقيقيا صبر ورضي واحتسب أجره على الله حيث ان النصيب نصيب الآخرة قال الله تعالى «أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» وحيث انك كاتبتنا بادعاء الحالة المطلوبة فى الايمان فاعرض على عبد الله الذى جعله النبي صلي الله عليه وسلم خليفة أبي بكر الصديق وأجلسه على كرسيه في أول تأييد المهدية وتواتر بذلك التصديق الي ان أظهر الله الدين بموازرته وقد أتانا خبر من الخضر عليه السلام ان الاولياء اجتمعوا في بيت المقدس يقولون الحمد لله الذى أظهر المهدي وجعل عبدالله وزيره وثم وجد اجتماع الشياطين وهم مهتمون يقولون كان عيشنا بالغش والمكر والخداع والكذب فاتى المهدى وقطع علينا عيشنا ولولا ان عبدالله وزير له وكان الخليفة غيره لكنا نجد في المهدية دخولا فالآن أعرض عليه قبل وصولك الينا فان كان صدقا يتضح وتصبر وترض فيما يحكم به عليك ثم بعد ذلك تلاقيني بالعفو والرضى وتكون من أصحابنا المقربين والسلام ٢ شوال سنة ١٣٠١

« الثانى »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى الاخ فى الله فخر الدين ان أمر الخلافة من الله ورسوله الذى عرض لك كما كاتبتنا بذلك وقلنا لك لما تأتنا نبين لك معني ذلك وانك اذا كنت سمعت هاتفا من قبل الله باناجعلناك خليفة فى الارض فهو أن الله جعل كل أحد خليفة عن آبائه وكل قرن خليفة عن القرن السابق قال الله تعالى «ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون» وقال تعالي «هو الذى جعلكم خلائف فى الارض فمن كفر فعليه كفره» ونظائر هذه الآيات كثيرة وأما قوله جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق فبعد أن عرفت ان الخلافة مجرد الوجود في الارض بعد موت اهلها السابقين وقوله لتحكم بين الناس بالحق هو قوله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته فالرجل راع على أهل بيته وأولاده يحكم بينهم بالحق ليزيل عنهم الفساد ويدلهم الى رب العباد ويكون لهم خير هاد فيكون إماما لهم كما تعالى «ربنا هب لنا من ازواجنا وذريتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماما» فقرة الاعين من الازواج والذرية هم المتقون وابوهم امام لهم في تقوى الله وطاعته والقيام بالحق كما سبق فى الحديث الآنف ذكره وأما الرؤية النبوية اذا تحققت في كونك خليفة عبد الله فهو أن عبد الله دال لجميع الخلق الى الله وهو خليفتنا على ذلك وانت خليفة على أهلك وذريتك واما عبد الله فى الباطن فهو المهدى لانه أول دال الى الله فى آخر الزمان وأنت خليفته على أهل بيتك وذريتك فهذا بيان ما أشكل عليك وطلبت بيانه منا والسلام

٤ شوال سنة ١٣٠١

وبعد اطلاع مدعى الخلافة على الكتابين قدم على المهدى فقبض عليه التعايشي وسجنه حتى مات واحجم الناس عن ادعاء مثل هذه الخزعبلات

وتركوها للمهدي الذي يزعم ان ظهوره أغلق أبواب المعيشة في وجه الشياطين واهمهم لا لكونه المهدي بل لانه اكذب منهم ويفوق عليهم في المكر والخداع

ومن النكات المضحكة انى كنت أقرأ هذين الكتابين على أديب مصرى فقال لى ان صح هذا الخبر فلا بد أن يكون الشياطين رأوا المهدى قد فاق عليهم فى مقام الابلاس وتولي غواية الناس بما جعلهم يحسدونه على نجاحه

ذكر جمع الغنائم وعسر بيت المال

كان كثير من الامراء واتباعهم اخفوا كثيراً من الغنائم ولم يسلموها الى بيت المال فانتدب المهدى كثيراً من الامراء فى كل البلاد التى خضعت له ليجمعوا ما يعثرون عليه في أيدى الناس ويواصلوا التجسس والاستعلامات السرية عن حال الناس ليعلموا من كانت عنده أشياء من الغنائم فتذمر الناس من هذه الحالة فاخذ يطيب خواطرهم باصدار منشورات عديدة فى ذم اخفاء الغنائم وتغالى في تلك المنشورات بما لم يعهد له مثيل

وقد كان المهدي وقتئذ واقعاً فى أعسار مالية شديدة وما فى بيت المال لا يكفي نفقاته ونفقات أقاربه الذين كانوا يتناولون من بيت المال نصيباً وافراً اذ كانت أعلى مرتباتهم خمسمائة ريال واقلها خمسون ريالاً فكتب اليه كثير من القواد والامراء يعرضون باحمد سليمان أمين بيت المال وأنه يخص أقارب المهدي بالعطايا الوافرة دون غيرهم وكان عبدالله التعايشى المحرك لهذه الحركة لان أمين بيت المال كان لا يساويه في العطاء باقارب المهدى ويمنع أقاربه العطاء فكتب المهدى منشوراً قال فيه انه مجتهد وانه يفعل ما يشاء وكتب اليه بعض الناس ... شرعية عن الواجب الذي يتعين اتباعه في أمر توزيع الغنائم

وقسمتها فاجاب عليها كلها بمنشور نثبته هنا نقلا عن كتاب المنشورات ليقف القارئ على مراوغة المهدى وهربه من الحقيقة وبعد المنشور صورة حضرة يعظ فيها الناس وان الذين يخفون الغنائم سيصيبهم من العذاب ما يقطعهم عن صحبته وكل هذه الاخبار موضوعة على النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم انه من خليفة رسول الله محمد المهدي بن عبد الله إعلاما منه لكافة أمرائه ونوابه وجميع عماله فى سائر الجهات والاقطار مع جملة الفقراء والفقهاء والعلماء والعمار والتجار خصوصاً أحبابه وأتباعه المهاجرين والانصار متع الله جميع العاملين بها بالنظر الي وجهه الكريم فى دار القرار اللهم آمين. أما بعد اعلموا أحبابى انكم عندنا من الاصفياء الاخيار الناظرين بنظر أولى النهى والابصار واني قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لاقامة الدين وجئتكم داعياً الى الله ومبلغا عنه ما حمله اليكم اقتفوا آثار من سلف من المهتدين السالفين وعلى نهج سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم خاتم الانبياء والمرسلين ولم يكلفنا الله واياكم باقامة الدنيا والسعي فيما هو مضمون وليس من عرفنا الاصغاء الى طلاب الدنيا لنأتي لهم بما فات منها ونجتهد لهم فى مصالح تدبيرها فكل ذلك في أم الكتاب مكتوب ومختوم وانما قصدنا منكم جميعا المعاونة فى تقويم الدين القويم واني فى ذلك كواحد منكم ولوددت ان لو قام به غيري وصرت من جملة اعوانه فما كان الا ارادة الله من تحملى باقامة الدين وقد بلغكم من الانبياء والرسل ما بلغكم من اعراضهم عن الدنيا ومباعدة أصحابهم منها مع ان

ادلكم على الله وانهاكم عنها وتطلبون الصرف من بيت المال ونسيتم ما دعوتكم اليه حتى حملكم انكم تتهموني بالتعريض بالمخاطبات وتورون بالشيخ أحمد سليمان وانما فعلتم ذلك كى تطلبوا الصرف في زعمكم لاجل اقامة الدين الذى لست أولى به منكم حيث طلبتم الصرف منا لاقامته وتشييده ولو شاركتموني فى الدين وصرتم فيه مثلى لكان لكم ان لا تطلبوا الصرف مني الا بعد العجز عن الكليات والجزئيات حيث انكم من جملة المجهزين للدين والمطلوب حينئذ ان يكون المؤمن مع أخيه كاليدين تغسل احداهما الاخري وان المؤمنين بعضهم من بعض والمؤمنون أوليائي وأعواني حيث يقول الله «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» واذا كنتم كذلك فاذا صدق الايمان فلست أولى به منكم بحسب اتصافكم بهذه الشروط وأما بحسب الانفاق فيه فقد أنفق أبو بكر ماله وعمر وعثمان وعلى والزبير وطلحة فناء لانفسهم وأموالهم فى نصرة الدين فقد صاروا لنصرة الدين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كنفسه بل انهم فدوه بانفسهم وأموالهم وأولادهم وأهليهم برضى من أنفسهم حتي انهم يفدون طعنة الشوكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بارواحهم فضلا عن الغير. أحبابي فانا لم آتكم ان تقيموا بى دنياكم وتسألوني عن صلاحها وانما كان سؤالكم لي واجتهادكم معي فيما حملته فقط مع مراعاة ما كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له في كامل أحوالكم وأموركم ومع ذلك لما رأيت انه لابد لى من اجابتكم فيما طلبتم جعلت لرد ظلامتكم وقضاء حوائجكم اعوانا ولفصل قضاياكم نوابا والجميع من بعضكم البعض فتركتم نوابي وأعواني وفضلتم تتهموني بالتعريض وتسبون أصحابي وأعواني وتؤذوني فيهم وقد بلغكم ان أصحابي كأصحاب رسول

الله صلي الله عليه وسلم وأهل بيتي كأهل بيته وأنتم تعلمون منع ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فكيف تؤذونني في أصحابي وتنقمون قسمة الله تعالى لكم وتطلبون مالم يكن لكم مع انكم ليس لكم حق ولا نصيب لكم فى مال الابيض قطعا من جهة كونه غنيمة لانه مما افاء الله به علينا لكونها فتحت بغير قتال فماله كله في لبيت المال خاصة وانما كان أعطاؤنا لكم منه من باب التفضل والاحسان فقط وأما بالنسبة الي الصرف فليس لكم فيه حق الا بعد العجز عن الجزئي والكلي كما ذكرنا وبعدها طهارة السرائر من التكذيب والجحود والانكار وحل عقدة سرائر الاصرار وبعده التجرد معي لاقامة الدين حيثما كان وبعد ذلك الرضا بقسمة الله تعالى فى القليل والكثير دون التشوف والتمني الى ما فضل الله به بعضكم على بعض فى الرزق فانها قسمة أزلية كما قال جل من قائل « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوة الدنيا » الآية فهو قضاء سبق كما فى الحديث القدسي. أحبابي انكم بايعتموني على المهدية وتزعمون انكم مصدقون بمهديتي وتعلمون الوقائع التي حصلت فى زمن رسول الله صلي الله عليه وسلم في الجهاد مما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعلوم ان في حنين أخذ أموالا كثيرة مما غنم من حنين فاعطاه للمؤلفة قلوبهم من أهل مكة وكما لا يخفاكم انه قد بذل لابناء مرضعته حليمة أموالا كثيرة مع ان المجاهدين غيرهم مساكين وضعاف وعطاياه صلى الله عليه وسلم كثيرة حتى عرفوه بانه يعطى عطاء من لا يخشى فاقة وذلك كله مع وجود المجاهدين كما تقدم آنفا وما ذاك الا بعلمه صلى الله عليه وسلم وفيما رأي من أحوال الصحابة من الجوع والعرى سابقا ومن الضرر الذى لم يحصل على أهل صحبتنا فى هذا الزمان فرأى أموال قريش وأموال بني

قريظة والنضير فتمنى ان يكون له شيء من ذلك يزيل به ضرر أصحابه وأهل بيته فقال الله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم » الآية فمع انه صلى الله عليه وسلم يري المجاهدين والمساكين أعطى أغنياء من أهل مكة لتأليفهم وضعاف الانصار الذين لم يعرفوا ما حواه رسول الله صلى الله عليه وسلم من التأليف وعود المصلحة على المجاهدين مما أعطاه وغيره من الحكم فانه أولي لهم وقد فعل في الافياء ما تعلمون مع انه حاصر هو وأصحابه مدة طويلة وغير ذلك مع انكم في زعمكم بعتم نفوسكم وبذلتم أموالكم فلم أمسكتموها ولم تسلموها لبيت المال ولم تأكلوها وتنفقوها على أنفسكم في إقامة الدين حتي تنفذوها بل تؤخرونها وتطلبون غيرها فانظروا لحالكم معي وحال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ولكن أقول ان الصحابة رضوان الله عليهم مسلمون لرسول الله صلي الله عليه وسلم فيما يأتي ويذر ويعلمون انه المبين للوحي تفصيلا وانه عنده من العلم مالا يعلمونه وأنتم بايعتموني على المهدية وتزعمون أني خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم فيكم واني لكم ناصح أمين وأولى لكم من أنفسكم وأدري بصلاح شأنكم وما تعلمون ماذا أريد ان أفعل فيما بعد في الغنيمة ولا تعلمون ما يعلمه الله مما انطوت عليه سرائركم أفي الغنيمة استحقاقكم ولا تعلمون ما أفعله فيها وهذا الكلام كنتم تحكونه لي ولا تحكونه بالحبيب أحمد وغيره وأولي ان كنتم انصاراً أن تعاونوني فيما حملت به من أمر الملق وهذه الغنائم راقدة مدة طويلة اطلب الاصحاب في تفريقها فما وجدت ذاهمة يقوم بأمرها وقسمتها مع انه ورد لي فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقسم وفيما يخص بيت المال للمسلمين وتعلمون ان كنتم من أهل العلم

الخلاف فى كون القرآن ينسخ بالقرآن وبالحديث ينسخ القرآن وتزعمون انى مجتهد ولو كنتم مصدقين بمهديتي لما اتهمتمونى حتى تقولوا ما قلتم فنسأل الله تعالى ان يمن علينا وعليكم بالثبات على الايمان الكامل فتوبوا الي الله جميعاً أيها الاحباب واسلكوا نهج أصفياء الله وأمناء دينه واصرفو وجوهكم عن الدنيا وأقبلوا للواحد المتعال ولا تشغلونى بطلب الدنيا وكثرة السؤالات الخارجة عن مقتضاها وارفعوا حوائجكم الي بالصدق مع الاقبال ولا تعرضوا لي بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين فلكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال وقد علمتم ان من صدق مع الله في بيعته فى نفسه وماله فبمجرد بيعته خرج عن حكم نفسه فضلا عن ماله فلا يفعل شيأ بدون اذننا ومشورتنا هذا فى خاصة نفسه وأما بالنسبة الي ماله وهو تحت يده أمانة الله ورسوله حيث بذله لله وصار ملكه لنا فلا يصح له فيه الانفاق فى غير اقامة الدين خصوصا الصرف والاسراف فى المباهات كما علمتم والسلام

(ملحق)

وانه أحبابى بعد هذه المواعظ والتذكار وبيان الخيرات والاشرار وبيان طريق السلامة وقرب يوم القيامة فمن لم يتعظ ويهتد ويتجرد ويصف من الغنائم والاموال من الامراء فليضر عزله مع تجريده جبراً عن ما يضره فان الجاهل عدو نفسه كما علمتم انه لما حصل التذكير للاصحاب عندنا في غنائم الابيض قد أوعدنا بان من لم يتجرد من الغنائم ويصف من عطب الدنيا ويرغب فيما عند الله ويتوكل على الله وحده لا تصير له إمارة لكون امارتنا للارشاد لما عند الله والخروج من دار الملاهى واذا كان الداعى هالكا وميتا فكيف السلامة للاتباع فلا نولى ميتا لا يصلح نفسه والسلام

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم . (وبعد) سأذكر البعض من الواقعات التي وردت فى الغنائم وغيرها باختصار فبعد أن وردت الواردات فى كيفية الغنائم وضررها بالابيض حكيت للاخوان حضرة حصلت فوق السموات وكان النبي صلى الله عليه وسلم يطلب الاصحاب فلا يصل الي ذلك المحل الا الاصفياء الزهاد الخالصون من العلاقات الدنيوية وتعطل منها بعض من الاخوان لاجل علاقاتهم فلم يطيقوا الصعود اليها من علاقاتهم فأعلمت بذلك من انقطع بسبب علاقاته الدنيوية من الرقيق والاموال فتجرد لله عن ذلك وصعد الي الحضرة المذكورة وثم حصلت حضرة فعد النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جمع من المقربين ويجلسني عنده فيما روى ويغرز بيننا عوداً طويلا أملس كأنه شبه الخيمة الوسطى التي تقوم عليها وفى رأسها الثمر ويقول صلى الله عليه وسلم هذه الشجرة شجرة الصداقة فكل من له صداقة فليصعد عليها فيصعد عليها قوم ويزلق منها آخرون فلا يقدرون على الصعود عليها لينالوا مافوقها من الثمار فكان مافوقها هو نصيب الآخرة ولا يناله أحد الا بالصدق فى الايمان والطلب لما عند الرحمن فأعلمت من تعطل عن ذلك بسبب العلاقات الدنيوية فتجردوا عن ماعطلهم وثم حصلت أيضاً شجرة الصداقة فى وقت آخر وطلب الاصحاب بالصعود لنيل الخيرات فوقها فصعدها الاصحاب الا الذين أكلوا الغنائم فامتلأت عليهم سمغا فكلما أرادوا أن يتعلقوا بها ليصعدوا فوقها زلقهم السمغ الذى عليها وبعض من الاخوان الذين عندهم ولم يحضر المذاكرات حصلت له رؤية وكان المذكور قبل رؤياه متأسفاً على فوات مذاكرتنا للاخوان

في كيفية الغنائم والتجرد عنها لمن هي عنده من الانصار قال ولما أعلمني من
حضر المذاكرة عزمت على اخراج ماعندي من الغنيمة وهو أمة وحمارة
وقليل من الدراهم قال وبعد عزمي باخراجها ودفعها لبيت المال أخبره بعض
اخوانه بانك كيف تخرج هذه الامة الواحدة التى لاخادم لك غيرها ومن
يخدمك ان أخرجتها وأى شيء تركب ان أخرجت هذه الحمارة الواحدةوان
قام الامام للسفر لابد أن تشتري بالجميع جملا تسافر عليه مع المهدى للجهاد
قال فطاوعت من ذاكرني من الاخوان بذلك وعزمت على ترك اخراج
المذكورات لبيت المال قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أتى للخليفة
عبد الله يذاكره فقال المذكور في نفسه لما فاتتني مذاكرة المهدي فليكن
الاسراع مني لحضور مذاكرة النبي صلي الله عليه وسلم للخليفة عبد الله قال
فلما حضرت وجدت المذاكرة قدتمت الا اني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
يقول للخليفة عبد الله عند فراقه له لاي شيء لم تستوعب أمر المهدى فالذي
يأمرك به المهدى كله افعله هذا معنى كلامه للخليفة عبد الله قال ثم أتيت للخليفة
عبد الله لاسمع منه مذاكرة النبي صلى الله عليه وسلم فوجدت مع الخليفة بعضا
من ملازميه يصلون معه فقطع الصلاة وقال لي أين الخادم أي الأمة التى من
الغنيمة فعدم اتيانك بها لبيت المال أفسد علينا صلاتنا قال وقال لى الخليفة
عبد الله لاي شيء لم تجرد من الغنائم أما سمعت قول المهدى انه قال تجردوا
فما لك لم تجرد قال فقلت له ماعندى الا شيء يسير فقال هذا القليل أده لبيت
المال ولو قرشا واحداً ومثل هذا كثير وبعض من الذين لم يتجردوا من الغنائم
تحضر لهم تماسيح تمنعهم من لحوق المهدى وأصحابه الصادقين فتغرقه حتى
كان أحد من الاخوان عنده ازار من الغنيمة فقبضه تمساح وأوقعه في المهالك

فاستغاث بالله وبرسوله وبالمهدي فأدركه المهدى فحمله ليخرجه فأمسكه حجر لم يتركه يسلم حتي أقسم انه يعطى ثمن الازار فخلص ثم ان المذكور قوم الازار نحو ستة دراهم أو أقل فدفعه لبيت المال فسار مع الاصحاب وغير ذلك فياأحبابي ان السعيد يخلص فى الدنيا قبل الآخرة فهناك تسبق الاصفياء ويعطب أهل حطام الدنيا فقد رؤى ان القيامة قد قامت والمهدي مع أصحابه الاصفياء دخلوا الجنة بلا حساب ولا رؤية هول ولا مشقة وأحد الاخوان عنده قليل من المال والله أعلم لم يذكر من قلته فحبس من الدخول وصار يصيح ويبكى من شدة الهول حتي خلص بعد نصف ساعة فدخل الجنة والاهوال لازالت على الآخرين فصاروا يتخلصون واحداً بعدواحد على حسب صفائهم وتجردهم من الدنيا فبعضهم يخلص فيصل بعد ساعة وبعضهم بعد ثلاث ساعات الى أن خلص آخر الاصحاب نصف النهار ونصف النهار في ذلك اليوم خمسمائة عام ونصف الساعة نحو الاربعين سنة فى ذلك اليوم فمن ذا الذي يطيق هذا الهول فيرضي لنفسه مثله بسبب متعة قليلة فى أيام قليلة هى في حكم العدم فيرث بسبب ذلك هذا الهول الشديد والكرب الذي يقف فيه جائعاً عطشانا نحو الاربعين سنة أو أكثر فتجرد ذلك الاخ الذى خلص بعد نصف ساعة وحتم أن لايطلب فى الدنيا مالا قليلا ولا جاها مادام فيها حياً حتى يلاقى الله تعالى هذا وليعلم الاخوان ان من كان مؤمنا بالبعث وقرب الآخرة وحسابها وكثرة خطرها وضرها ورفعة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعظيم فوزهم وملكهم المقيم الدائم ويعلم شؤم الدنيا وهوانها على الله وشؤم ماتعقبه من الحسرة الطويلة فليتجرد لله لينال جزيل الدرجات ويفوز بدائم الخيرات وليصر من أبناء الآخرة مادام حياً ولا يطلب الدنيا ومتاعها فانها قد انقرضت

معه لهم منازل ونعم كمثل هذا فامض معي لأريك منازلكم فيريه منازل عظيمة ونعما نخيمة فيقول متى نلحق بهذا ونخرج من هذه الدار الكدرة المتعبة فيقول له لا تشفق فان أصحاب المهدي يعلون قريبا فيتنعمون بنعمهم هذه وبعضهم يري بعض اكابر الصالحين المتقدمين فيسأله عن مقامهم مع مقامات أصحاب المهدي الذين ماتوا فيقول هيهات فان أصحاب المهدي من علو درجاتهم لا نراهم فهم راقون مرق عظيما وكثيرا يري انهم يغبطون أصحاب المهدى ويقولون ليتنا كنا أصحاب المهدى لما يرون من عظيم مكانتهم وفضلهم عند الله تعالى وبعضهم يستشفع بالاصحاب ويقول اطلبوا المهدي أن يجعلنى من أخس أصحابه فانى راض برتبة أخسهم وافرح بها ان وجدت ذلك ومثل هذا كثير مما رؤى فى الجنة للاصحاب الصادقين فيا أيها الاحباب ان القدوم الى ما عند الله قريب » اه

وكانت هذه الشدائد فى إبان عودة غوردون ويمكننى أن أقول لو رافق غوردون لدي عودته جنود يحولون بين المهدى وبين الخرطوم لتحققت امنية عبد القادر حلمي باشا التى تقدم لنا ايرادها وهي ان ثروة كوردفان لا تقوم بحاجة المهدى وجيوشه اكثر من سنتين ثم يعقبها ضيق شديد ثم تكون النتيجة انفضاض الناس من حوله وتكاثر الانتقاضات عليه من الاهلين وفى ذلك القضاء عليه وعلى دعوته قبل تمكنه من الاستيلاء على السودان برمته

ذكر بنات محمد بن الحاج احمد ام برير

لاهالى السودان عادة من اقبح العوائد واشنعها وهي ان الرجل يقدم ابنته أو من له الولاية عليها الي من شاء هدية يطؤها المهدى اليه كمملوكة

معه لهم منازل ونعم كمثل هذا فامض معي لأريك منازلكم فيريه منازل عظيمة ونعما نخيمة فيقول متى نلحق بهذا ونخرج من هذه الدار الكدرة المتعبة فيقول له لا تشفق فان أصحاب المهدي يعلون قريبا فيتنعمون بنعمهم هذه وبعضهم يري بعض اكابر الصالحين المتقدمين فيسأله عن مقامهم مع مقامات أصحاب المهدي الذين ماتوا فيقول هيهات فان أصحاب المهدي من علو درجاتهم لا نراهم فهم راقون مرقى عظيما وكثيرا يري انهم يغبطون أصحاب المهدى ويقولون ليتنا كنا أصحاب المهدى لما يرون من عظيم مكانتهم وفضلهم عندالله تعالى وبعضهم يستشفع بالاصحاب ويقول اطلبوا المهدي أن يجعلني من أخس أصحابه فاني راض برتبة أخسهم وافرح بها ان وجدت ذلك ومثل هذا كثير مما رؤى فى الجنة للاصحاب الصادقين فهيا أيها الاحباب ان القدوم الى ما عند الله قريب » اه

وكانت هذه الشدائد فى إبان عودة غوردون ويمكنني أن أقول لو رافق غوردون لدي عودته جنود يحولون بين المهدى وبين الخرطوم لتحققت امنية عبد القادر حلمي باشا التى تقدم لنا ايرادها وهي ان ثروة كوردفان لا تقوم بحاجة المهدى وجيوشه اكثر من سنتين ثم يعقبها ضيق شديد ثم تكون النتيجة انفضاض الناس من حوله وتكاثر الانتقاضات عليه من الاهلين وفى ذلك القضاء عليه وعلى دعوته قبل تمكنه من الاستيلاء على السودان برمته

ذكر بنات محمد بن الحاج احمد ام برير

لاهالى السودان عادة من اقبح العوائد واشنعها وهي ان الرجل يقدم ابنته أو من له الولاية عليها الي من شاء هدية يطؤها المهدى اليه كمملوكة

يين ولا حرج عندهم من هـذه العادة بل يتفاخرون بها وهي شائعة عن الجمليين أكثر من غيرهم وفى الغالب يقصدون بها الزاني من حاكم ذي سلطة يرجى نواله ويتقى وباله

وقد قدم كثير من أعيان السودان بناتهم كمحظيات للمهدى وخلفائه وقواده حتى بلغ عددهن نحو مائة ومن هؤلاء محمد بن الحاج أحمد أم بربر ابن أخى الياس ام بربر فانه قدم بناته الثلاث هدية للمهدى وقال له على رؤس الاشهاد تمتع بهن ياسيدي الامام المهدى المنتظر فانى اهديتهن لك وملكتك إياهن فاجابه قبلت منك وانما لايجوز الجمع بين الاخوات فقال له كيف لايجوز وانا قد وهبت لك المتعة بهن فاعاد عليه المهدي قوله لايجوز فانظر الى جهله المركب وتفرقته العمياء بين حرامين كأن وطأ الحرة بملك اليمين جائز دون الجمع بين الاختين أو الاخوات

وكان المهدي يتبسم من الضحك وأمارات الفرح بادية على وجهه لانه كان يرى أن مثل هذه المنكرات من أدل الدلائل على أن القوم يحبونه وينقادون له انقيادا أعمي ويتقربون اليه ببناتهم ولا يلتفتون الي تحريم شرعي كأنهم لايحرمون الا ماحرمه وكأن كل حرام حلله حلال عندهم

ثم قال المهدي للحاضرين مكانكم حتي أختار واحدة من البنات وبعد هنيهة عاد وقال قد اخترت كبراهن نخذ الاثنتين فقال أبوهما لاآخذهما بل اتركهما لتكونا خادمتين لك وما زال المهدى يرفض قبولهما والرجل يلح عليه حتى التفت الى جلسائه فرآى بينهم محمد بن عبد الكريم من اقاربه فقال قد وهبت إحداهما لمحمد بن عبد الكريم ثم وهب الثانية الى أمين خاتمه عبد الكبير بن احمد الكنانى

وفي اليوم التالي غدا ابوها الي صهره المهدي ودفع اليه كتابا مملوأ بالاعذار وبسط الحاجة وسأله في أخر الكتاب مبلغا من المال فاندهش المهدي من سخافة الرجل الذي كانه يطلب ثمن بناته فانصرف الى داخل بيته ووعده بالاجابة على كتابه فقدمت له المرأة كتابا آخر من ابيها وجد فيه مافي الكتاب الاول فلم يطق الصبر وخرج الى مكان جلوسه ودعا بدواة وقلم وكتب الي صهره كتابا موجزا نورده هنا صورته نقلا عن كتاب المنشورات وهي

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه وصفيه محمد بن أحمد أم برير وفقه الله للخير ومن معه من الاهل وانجاهم من ظلمة القبر حبيبي ان المعطي والمانع هو الله كما أن النافع والضار الله والناس أشباع لاقوام لها بفلاح ولا نجاح والمعلوم ان الجثة قيامها وحركاتها وتصرفاتها بالروح والروح من أمر الله واذا أخذ الله سره الذي هو الروح من الجثة وقعت والحركات زالت منها فمن هنا يعلم ان تصرفات العبد هي من الله اذ هي من الروح الذي هو أمر الله كما قال الله تعالى « قل الروح من أمر ربي » فالمؤمن يكون واثقاً بالله راجياً ما عنده وخائفا منه فقط لان من نظر التوحيد بالحقيقة لا يرى مع الله شيأ من. لا إله الا الله. ومن. محمد رسول الله المخبر عن الله بمغيبات الآخرة من ان خيرها جسيم والدنيا لا تزن جناح بعوضة وانصرف قلبه من الخسيس الذي هو الدنيا وما فيها الى النفيس الذي هو ما عند الله في الدار الآخرة فما عندكم ينفد وما عند الله باق. هذا وان المبلغ الذي ذكرته ان شاء الله

يصل اليك ولكن لا تقل ان القوام به بل ان القوام بالله وهو ضامن الارزاق وما على العبد المؤمن الا ان يسعى لنصيب الآخرة لانه لا نصيب له فى الدنيا ولو كانت تزن عند الله جناح بعوضة لاعطاها المؤمن ولذلك قال الله «ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكؤن وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحيوة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين» والسلام

ذكر نهب اموال التوم شيخ عرب الكبابيش

ذكرنا قصة قتل التوم شيخ عرب الكبابيش وبعد بضعة أشهر مضت على قتله أصدر المهدي منشوراً بان جميع ما كان يملكه صار حقا لبيت المال فانتدب محمد بن ادريس بن عمه والحاج محمد أبا قرجه ومعهم نحو الفي مقاتل فذهبوا الي (جبره) شمال كوردفان وقبضوا على أموال الشيخ التوم ونسائه وأولاده وعادوا الي الابيض وبلغ ما قبضه بيت المال اكثر من عشرة آلاف بدنة من الابل وثلاثة آلاف رأس من البقر ونحو عشرين قطيعاً من الغنم وبلغ ما ذبحه محمد بن ادريس والحاج محمد أبو قرجه لغذائهما وغذاء من معهما من المقاتلة نحو نصف هذه الاعداد

ولما عادا الى الابيض وسلما ما بايديهم الي بيت المال قدم كثير من رفقائهم تقارير لأمين بيت المال علم منها ان ذينك الاميرين لم يقدما الى بيت المال غير الماشية والاشياء التي لا يمكنهما اخفاؤها وانهما اخفيا كل ذي قيمة من الذهب والفضة وقدر ما تسرب الى جيبهما عدا ما تسرب الى جيوب انصارهما بعشرة آلاف أوقية من الذهب ونحو عشرة قناطير من الفضة ولا غرابة في ذلك

فان الرجل كان معروفا باتساع الثروة وقبيلته الكبابيش اكبر قبيلة فى السودان واكثرها ماشية ومالا

ولما استوثق أمين بيت المال بصدق الذين رفعوا اليه التقارير عرض على المهدي وجوب القبض على ذينك الاميرين وارغامهما ليؤديا الي بيت المال ما اغتالاه فرفض المهدي العمل بما أشار به أمين بيت المال تطييبا لخاطر ذينك الاميرين اذ هو فى حاجة لاكتساب مودتهما

وكان من جملة الغنائم عشرة دروع من الحديد قديمة جداً وعدد ليس بقليل من الخيول العربية وقسم المهدي النساء بجوار وخص عبد الله التعايشى بالنصيب الاوفر منهن وأطلق سراح الذكور من أولاده وتركهم فى حالة يرثى لها من الفقر المدقع يسألون الناس في الطرقات وأبواب الدور ولا يجدون من يمن عليهم بكسرة خبز غير افراد قليلين من المصريين وكلما رآهم أحد من الدراويش يقول انظروا كيف صارت عاقبة ذرارى الكفار الذين لم يصدقوا بالمهدى ويؤمنوا بدعوته ومات اكثرهم جوعا فى الطرقات وسيأتى بعد ذلك ذكر مصادرة أموال قبيلة الكبابيش وفنائها عن بكرة أبيها والدوام لله وحده

ذكر قدوم الشيخ الحسين زهراء على المهدي

الشيخ الحسين زهراء من قبيلة صغيرة تسكن قرية قريبة من «الحلاوين» عند مكان يدعى «وادي شعير» فارق بلاده فى نحو العشرين من عمره ولحق بالقاهرة ومكث فيها اكثر من سبع سنين كان يتلقى العلوم فى خلالها بالازهر المعمور وكان ذا ذكاء مفرط وقريحة وقادة قل ان توجد بين السودانيين حتى قال مشايخه انه نابغة في العلوم المعقولة والمنقولة معاً خلافاً لمواطنيه

من الطلبة السودانيين وتلقي دروساً فى الفلسفة والطبيعيات زادت قريحته اتقاداً ثم عاد الي بلاده وفتح مدرسة فى قريته وانقطع لافادة العلم فافاد فائدة تذكر

وكان من عادة الحكومة ان تمديد المساعدة لكل الذين وقفوا نفوسهم لتثقيف عقول الاهلين وإزالة جهالتهم مع ان جلهم ان لم نقل كلهم يضرون اكثر مما ينفعون اذ هم اغمار لا يعرفون من العلم غير حفظ الفاظ القرآن وقليل منهم من يحفظ متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني في فقه المالكية ولم تلتفت الحكومة الي الشيخ الحسين بما تلتفت به الى اقرانه فوغر صدره منها وعظمت سخيمة صدره عليها

ولما ظهرت دعوة المهدية وتصدى العلماء لدحض حجج منتحلها واظهار تخرص مدعيها كان المتوقع ان يحذو الشيخ الحسين حذوهم وخصوصاً فيما كان من ترهات المهدي الذى يزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم جاءه فى اليقظة وأمره بتلك الخزعبلات التى جاءت كلها ناقضة لما هو معروف من شريعته صلى الله عليه وسلم وحسبنا ان هذه الدعوي مضادة للشريعة المطهرة فلم يتصد الشيخ الحسين لتكذيبها سيما وقد كان مشهوراً بين الناس بالورع والوقوف عند حد الشرع فجاء امره بالعكس حيث كان يحرض الناس سراً على نصرته وموازرته وقد ارسل له المهدي هدايا من الحظيات اللواتي أصلهن حرائر مصريات استرقهن المهدى عملا بفريته التى قال فيها انه صلي الله عليه وسلم اخبره بان من أنكر مهديته كافر دمه مهدور وماله وأولاده غنيمة للمسلمين فوطئهن الشيخ الحسين ولم يتقيد بالشرع كما كان يظن به الناس

ولما ظهر المهدى على حملة الجنرال هيكس وفد عليه الشيخ الحسين فقابله بالحفاوة والاكرام وكان الامل يناجيه بانه سيصبح في دولة هذا المهدى حائزاً لاسمي مرتبة ومتربعاً على دست اكبر وظيفة وما كادت تمضي عليه بضعة أيام حتى رأى ان هذه الدولة تبغض العلم والمتعلمين ولا تولي وظائفها غير الجاهلين فتولاه اليأس مما رآي فكتب قصيدة طويلة قدمها الى المهدى ظاهرها مدحه ونصحه بوجوب اسناد الوظائف الى العلماء وفى القصيدة مغامز كثيرة تدل على ماخامره من اليأس لما رأى ان اكبر وظيفة لدى المهدى مسندة الى أجهل رجل من اتباعه هو عبد الله التعايشى وقد اخترنا ايراد هذه القصيدة برمتها للاطلاع عليها وهاهى بنصها

برح الخفا ما الحق فيه خفاء ... وتوالت الآيات والانباء
فالامر جد والقلوب مريضة ... والداء داء والدواء دواء
والحادثات مصاعق بمنابر ... بعظاتها تتواضع الاشياء
والحق أظهر ان يرى بشواهد ... لم لا وقد قامت به الاسماء
والشمس فى أوج السما من مغرب ... بهرت عليها هيبة وبهاء
والبدر قابلها فتم كماله ... وتقلدت بعقودها الجوزاء
ودرار أفلاك العلا دارت على ... أقطابها فزهت بها العلياء
وتكاملت فى كل مجد أمجد ... لما استقام زمانها الاشياء
مالى ترى الاجيلا زاهراً ... بهرته فى حلل البها زهراء
وسقته من خمر الهوى بعيونها ... ولمي شفور شفاهها لمياء
بالآية الكبرى التى بظهورها ... كل الرضي وانجابت الاسواء
مهدى رب العرش منتظر الوري ... والي الولى والاكرمون وراء

السابق ابن السابقين الي الهدى … من معشر تجت بهم زهراء
وبهم تبلج كل غصن مثمر … بحلاه تزهو روضة خضراء
تسق بعذب رائق من أبحر … من فيضها ملأ البحور الماء
وهمى وجاد على الانام بما ترى … من غيثه الهامى عميم سماء
بشري لنا بظهور مهدى الورى … إيه ونعمي بعدها نعماء
جمعت حذافير الولاء لنا به … وعلى الجميع من الامام خباء
رفعته منه يد بقدرة قادر … فوق المباني ما عليه بناء
بمكانه الامن المؤبد وقته … والارض أرض والسماء سماء
أنعم بامر كان من جد القضا … جار وقد حكمت به الاسماء
وله الاشارة من ألست بربكم … طوعا له وليسمع العلماء
ماحالهم مابالهم لم يسمعوا … نفسى لهم مما يشين فداء
من يحفظ التنزيل من يدرى الذى … فيه ومن لم يدر ذاك سواء
من يحفظ الاخبار عن أهل النهى … وتمين ذاك فطنة وذكاء
ويرد أشكال الامور لشكلها … ولها عليه من الثناء سناء
ويرى القبيح بداية ونهاية … ويروم أحسن ما الاله يشاء
مثل الذي فى بحر جهل ليله … داج وأشرق مايراه مساء
لاوالذى خلق النوي وهدي الورى … وله وراء مماتهم إحياء
علماء أمة أحمد ناشدتكم … ردوا جوابي انكم علماء
أرضي وترضون الضلال بعيدما … ظهر الهدى وانجاب عنه غطاء
ويخيب ظني فيكم وعشيرتى … أنتم وتقمع جمعنا الغرباء
ونكون دون الدون من بين الورى … كلتا يدي احساننا خرقاء

ردوا علي أعيذكم من شامت — لكن أجيدوا فالجواب شفاء

مهدي أمة أحمد بي لم تذر — خللا يدوم له لدى اخاء

فتنكرت من ذاك كل مقاصدي — فاذا الجميع سوى علاك هباء

مالي سواك وليس بعدي من جفا — لكن بذاك جرى علي قضاء

وأرى على بوقت عدلك دائما — بين الورى تتكبر الاسماء

وأنا المصغر بين ظهرانيهم — حسبي التصاغر انهم اكفاء

لم تعرف الايام قبلك منزلي — ولذاك لم يرفع على لواء

واستعملتني اليوم في عاداتها — فأطمئن ولي اليك رجاء

أجملت فيما لا أرى اجماله — حقا ولكن للامور مضاء

ومواضع التفصيل دوني شأنها — لعبت بها من دوني الاهواء

فلسان حالي ألكنته فهاهتي — بعضال داء ماله دواء

جهل الولاة أمات دين محمد — وأهيله ماتوا وهم أحياء

وتراكمت ظلماتهم بين الورى — لما اطمأن لهم ودام ولاء

يابن النبي محمد ووليه — وأمينه ماذا اليك مراء

أنا عبد عبد أستعيذ بذمتي — أبدا اليك ولي هنا أعداء

مابي استهانوا بل بشرع محمد — فعليه من أثر الدمار حياء

واماته الجم الغفير مهاجرا — وله بعاء سمائك الاحياء

فتناولنه من اللئام واعطه — صنف الكرام فأهله العلماء

واشرط عليهم ما أردت من الهدي — يعطوا العهود لانهم أمناء

رسم ترقرق بالسنا فله الهنا — اذ ناله بعد الفناء بقاء

وكسته أثواب الرضا مهدية — تتلو المضرة أختها السراء

فغدا بها يختال فى حلل البها ... ولكل شيء شدة ورخاء
كم ارتمى من روض دانية الجنا ... ثمر الرضي تدنيه لي وجناء
طارحتها تحف الكلام فنوعت ... تحف الملام وهاجها ادلاء
واذا نسيمات الصبا دعت الصبا ... لوصالها تتنصل الاعضاء
ترتاع ان هتفت بها من كوة ... سحراً لتجديد السلام رخاء
عاش ابن سينا جهده أوصافها ... بشفائه فاذا هي العنقاء
دقت ورقت وارتقت في سكره ... بلمي شفاه دونه الصهباء
كيف التواصل والقوى نهت السري ... اذ مسها من ضعفها الاعياء
فتنزلت حاجاتها في سوح من ... بحمولهم تتنزل الضعفاء
وتركتها وكفى لقائى مرة ... اذ لايدوم مع الزمان لقاء
تلك الذى جهد الزمان لوصلها ... وله بذلك غدوة ومساء
حتى بألطاف المهيمن مكنت ... أغراضه منها يد بيضاء
فغدا بها متصرفا في أهله ... يعطى ويمنع من يرى ويشاء
ودعا بها لله دعوة قاهر ... سمعت بعز مكانها العظماء
فأجابه أهل النهى في طاعة ... سفكت بها قبل اللقاء دماء
وديار من ناوي الهدي منقضة ... وسقوفها بين السقوف هواء
حاكت بها يسري الشمال عجائبا ... شملا تفتقه يد عذراء
في ثاني أيام الدنية عطلت ... بيض المها وجواهر ونساء
في تاسع من رابع في الثان من ... بعد المئين والامور مضاء
والله دمر من طغى وأباده ... حتى تولى قتله الضعفاء
ولقد تبدد جسمه برماحهم ... فكأنه من خلقه أشلاء

صالوا به وذويه بين حصونهم | فى خندق غرت به الاذواء
شادوه بالحصن القوى وأيدوا | بالنار من فى النار فهى جناء
فى كل مزغال شراوة بندق | رام طوي من فى يديه خواء
وكروبهم كالرعد بين صواعق | للمسلمين وكل ذاك عداء
الله أكبر أن يرد وجوههم | عن شأنه أو تمنع البأساء
ولجوه عمدا باختيار صادق | ولهم يد في فتكه خرقاء
وفت بذمة أحمد ومحمد | مهديهم وجنوده شهداء
فعلوا وما فعلوا ولكن لا بهم | رام بهم ولهم بذاك سخاء
وسموا خراطيم الشقا بحوازم | بيض بكت آثارها بيضاء
نوح الحمام تنوح غير موسد | بعد الوساد وعينها وسناء
تنشاق بعد عبير عنبر مسكها | رمم الانام وذا التراب وطاء
وبنات آرام ترامت من ذوى | أوج الملا ما عندهن غطاء
فسل الطلول هناك عن أسيافهم | ورماحهم في الكافرين رواء
وامرر بهم وعلى الديار فحيها | ان الديار من الدمار هباء
واغش القبور بتحية وهدية | ان القبور ببعضها شهداء
واستجوب الاطواد صرعى بينها | ماذا الرغام وفي النفوس اباء
وتخط خط النار تعرف خط من | مج الهدي لما نهاه شقاء
والنار ترعى فى الجسوم كأنها | عشب لعمرى ان ذا لبلاء
ماالنار شأن النار أعجب ما أرى | تجرى بهم وجسومهم سوداء
عنها استفد خبرا وكن متبصراً | فى أمرها وليمل منك بكاء
عبر تجل على قلوب ذوي الذكا | إبه وتكسف بينهن ذكاء

أتظن تلك كرامة مأنوسة ... لا والذي ضلت به الآراء
وهدى لدين محمد من يهتدى ... وبه تخصص فى الهدى الخلفاء
هم والذى برأ الورى هم لاسوى ... كل النفوس لهم سواى فداء
وفدا النفوس انا فانى دونهم ... بى والذي برأ الوري ادواء
هم كالنجوم هدي وفي الجدوى ندي ... بل الصدا مابعدهم اظماء
ماذا الذي نقتاس من أفعالهم ... فقياسهم بسواهم اغواء
مادونهم مرمى مريد صادق ... هل بعد عرش الاستواء بناء
فسوي خلائف احمد مهدي الورى ... كل الانام من الحيور فضاء
الا الذين غدوا على آثارهم ... أهل الولاية والصفا الامراء
ذاك الرفيق الزمه واترك غيره ... ربط الجياد لغير ذاك نواء
واعصم سقاءك بالوكاء من الظما ... مافى الفضاء امام قصدك ماء
واصحب خبيرك فى الثرى خوف الثوى ... بين المنا وخطا الخطا بهماء
واحلل أسيرك هاهنا إن تستطع ... مافي القيامة للاسير فداء
خفض عليك فالخطوب ترسل ... طورا وطورا شدة ورخاء
وعلى النبي وآله صلي الذى ... وصل الصلات فطالها العظماء
وكذاك سلم ذا العلا ما أنشدت ... برح الخفا ما الحق فيه خفاء

ولما اطلع المهدي على القصيدة التبس عليه فهمها وتردد فى حل معمياتها فدفعها الي عبد الله التعايشي الذى اطلع عليها كاتبه فوزى بن محمود باديه فلم يهتد الي فهم ماأبطنه الناظم وغاية الامر انه قال لعبد الله التعايشي ان الناظم لايقصد بقوله . جهل الولات أمات دين محمد . غيرك وانه ينصح للمهدى بتولية العلماء وإقصاء الجهلاء ويقول انهم أمناء وأنت وأمثالك خائنون

فقبض التعايشي على الشيخ الحسين وزجه في السجن وبعد أيام أطلقه بعد أن قاسي من العذاب اشده واخذ عليه العهود بعدم العودة الى مثل هذه النصيحة وقال له في عرض كلامه سبب سلامتك أن تنسي كل ماتعلمته من العلوم وتصير كأنك لاتعرف كلمة واحدة منها وأن تتعلم من علومنا ولا تقرأ من الكتب غير منشورات المهدى لان كل الاحكام والشرائع التي كانت قبل ظهور المهدي قد نسخت بظهوره فاجاب الشيخ الحسين على هذه الاقوال بالسمع والطاعة

ويذهب بعضهم الى ان الشيخ الحسين كان ذا نظر سياسي أعماه عن النظر الى مفتريات المهدي حيث يري أن المهدى سيشيد دولة وطنية سودانية وحجة الذاهبين الى هذا موجودة فى هذه القصيدة حيث يقول وتقمع جمعنا الغرباء . وقد جاء هذه التلميح في مقام الاحتجاج على العلماء الذين تصدوا لتكذيب المهدي ونقض حججه الواهية وفيه رمز الى تبرير الواسطة التى انتجت هذه الغاية

وقال آخرون انه يقصد بالغرباء عبد الله التعايشي وقومه البقارة الذين خاف عاقبة تمكنهم من البلاد لانهم غرباء وبلادهم واقعة جنوب دارفور وحاصل القول أن القصيدة تحتمل تاويلات كثيرة ليس فى وسعنا ايرادها كلها وسنعود الى بقية أخبار الشيخ الحسين وقتله قبيل فتح أم درمان

ذكر انذارات المهدي للشيخ محمد الامين

الشيخ محمد الامين البصير رئيس العلماء بالسودان ولد بضواحى الخرطوم وأصله من قبيلة اسمها (المحس) فقد بصره منذ طفوليته وحفظ

القرآن الشريف قبل أن يبلغ العاشرة من عمره وانقطع لدراسة العلوم الشرعية على يد أستاذه الشيخ أحمد بن عيسى الازهري تلميذ مولانا الشيخ أحمد الدردير المشهور حيث قضى ثلاثا وثلاثين سنة في صحبته وتلقي العلوم عليه ثم عاد الي وطنه بالسودان واليه ينسب انتشار العلم في تلك الاقطار وكان الشيخ أحمد بن عيسى بحراً زاخراً في جميع العلوم العقلية والنقلية تقيا ورعا له قدم راسخ في الصلاح

ولزم الشيخ محمد الامين أستاذه حتى نال من العلوم نصيبا وافرا وظهر عليه النجاح والذكاء فلقبه أستاذه بالبصير عكس الضرير

ولما ولى جعفر مظهر باشا حكمدارية السودان رفع منزلة الشيخ محمد الامين وعينه رئيسا لعلماء السودان وكان يقول لايفتى وأمين بالسودان تنويها بما عرفه من فضله وغزارة علمه في فقه المالكية

ولما ظهرت بدعة المهدي كان أول من تصدي لتكذيبها فالف نصيحة ملأها بالادلة الشرعية على بطلان مادعاه المهدي وشفعها باثبات امامة مولانا أمير المؤمنين السلطان «عبدالحميد خان الثاني» واثبات نيابة المغفور له الخديو محمد توفيق باشا واستنتج أن المهدي خارج على الامام وسرد الأدلة الشرعية التى تدل على رسوخ قدمه في الشريعة المطهرة وسيأتى ذكر تلك الرسالة وغيرها من رسائل العلماء التى الفت ردا على المهدى في غير هذا المكان

وكان المهدى شديد البغض للشيخ محمد الامين حتى كان يعبر عنه بقوله أعمى البصيرة الذى أضله الله على علم وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة

وقد تبودلت بين الشيخ والمهدي خطابات عديدة كان الشيخ يمحضه

النصح فيها ويدعوه الى التوبة فكان يجاوبه بالمغالطة والاستمالة وهذه صورة ماجاء فى كتابين من المهدى له وفي أحدهما يقول ان البيان لايهدي وانما الهادى هو الله ويقول في الثاني انك لاتجهل أن النبي صلى الله عليه لم يكن أصوليا ولانحويا

«الاول»

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيدعبد الله الي شيخ الاسلام المكرم والاستاذ المعظم الشيخ محمد الامين جعله الله من المكرمين لا يخفى على عزيز علمك وجليل فهمك ان البيان لا يهدى وانما الهادى هو الله تعالى وقد أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بان ليس عليه الا البلاغ وانه لا يهدى من أحب وإنى قد كاتبتك لظن الخير فيك وأعلمتك بالحقيقة التي لا كذب فيها ولست فيها بمتحيل ولا بمتصنع وانما هو الحق الصدق الآتى من الله ورسوله فقد أيدنى الله تعالى بالمهدية الكبري ومعلوم انه لا يكذب على الله ورسوله الا من لاخلاق له عند الله تعالى ومن يعلم علم يقين ان متاع الدنيا قليل لا يزن جناح بعوضة لا يؤثره ولو آثره على ما عند الله زال كأن لم يكن وأعقب عليه حسرة لا آخر لها فلا يؤثر جاه الدنيا على التقوي والاقتداء بالانبياء والاصفياء الا من لاعقل له واني عبد مسكين لاطاقة لى بقوام أدني شيء فلولا اني على نور من الله وتأييد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدرت على شيء ولا ساغ لى ان أحكى شيأ وما أخبرت عن النبي صلى الله عليه وسلم بما أخبرت الا بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخبرنى صلى الله عليه وسلم باخبار ليست عند الاولياء ولا عند العلماء وقد قال تعالي «ويخلق مالا تعلمون» وقد جمع النبي

صلى الله عليه وسلم أرواح الذين أنكروا مهديتي من الاولياء العارفين والعلماء العاملين ووبخهم غاية التوبيخ وعدد عليهم النعم الدينية والدنيوية والظاهرية والباطنية وماصرف عنهم من البلايا الحسية والمعنوية وقال لهم ماشكرتم نعمة الله تعالى حيث انكرتم مهدية فلان وقد اعطاكم الله نعما فما شكرتموها حيث لم تصدقوا بمهدية فلان وفلان هذا قد شكر نعم الله فولاه عليكم واعطاه المهدية فكيف تنكرون حصول المهدية له قالوا تبنا يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا منه العفو فطلبوا مني العفو فمن له سعادة صدق بانى المهديّ المنتظر ومن لا جعل الله له عوارض تصده عن التصديق بالمهدية لي وقد دلت كرامات على صدق اخبارى عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ولكن لاتنفع الكرامات والآيات من أراد الله شقاوته وقد أخبرني النبي صلي الله عليه وسلم مراراً ان من شك فى مهديتي كفر بالله ورسوله وان من عادانى كافر وان من حاربني يخذل في الدارين وماله وأولاده غنيمة للمسلمين وليكن معلوما عندكم انى لا أفعل شيأ الا بامر النبي صلى الله عليه وسلم والجهاد الذي حصل للترك فانه أمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرني صلى الله عليه وسلم باسرار كثيرة الي آخر فتح البلاد بالدين والسنة وبعض مايحصل فيها وانى منصور دائما على من عاداني واقسم صلى الله عليه وسلم بانى منصور ومنظور من الله تعالى وقد كشف لى يوم القيامة وان الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا الهنا ويا مولانا الامام المهدى قتلنا من غير انذار فاقول يارب انذرتهم وأعلمتهم فلم يقبلوا قولي وتبعوا قول علمائهم وصالوا على وحضر شاهداً على ذلك سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم ذنبكم عليكم الامام المهدي أعلمكم وأنذركم فما قبلتم وسمعتم قول علمائكم فاقبل

بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم
لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن
الهدي بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وأما عدم تسليم أهل الدولة من أول
الامر فانها حكمة أزلية ووقت تسليمهم علمه عند الله وفى ذلك اسوة برسول
الله صلى الله عليه وسلم حيث لم تسلم له الملوك من أول الامر وقد حصلت
له صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاق عظيمة ومقالات كثيرة مع الاكابر
وعلماء اليهود والنصارى الذين كانوا يدعون انهم يكونون أول اتباعه صلى الله
عليه وسلم وكانوا يستفتحون به وكل ذلك وهو صلى الله عليه وسلم خير خليقة
الله عز وجل واني مقتف أثره ومهتد بنوره وقد أخبر ان الترك لا يطهرهم
الا السيف الا من تداركه الله بلطفه وقد أخبرنى صلى الله عليه وسلم أن الامة
تهتدى لى بدون المشقة التى حصلت له صلى الله عليه وسلم واتباعه وانى مخلوق
من نور عنان قلبه صلى الله عليه وسلم وبشرني صلى الله عليه وسلم ان أصحابي
كاصحابه وان عوامهم لهم رتبة عند الله تعالي كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني
فان الفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء وقد يدخر الله للمتأخرين ما عسر على
المتقدمين ولكن لا يخفي عزيز علمك ان العلماء ينكرون كثيراً من أمور
المهدى لانه ليس على معتقدهم الذين يظنونه ولانه يخالف مذاهبهم فلمهديتي
من الله دلائل فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ومما يخبرك بعدم معلومية
عين المهدى للعلماء اختلاف الروايات وكثرة الاقوال عن أهل الكشف
والمعلوم ان ما علمه فى ازله لا يكون على هذه الروايات الكثيرة وقد وردت
فيه أحاديث منها المقطوع والموضوع والضعيف بل الحديث الصحيح ينسخه
الحديث الصحيح كما ان الآيات تنسخها الآيات والتصديق بالمهدية صعب

لا يوفق له الا من أدركه الله بسابق سعادة لانه لا يهتدي الى معرفة حقيقته الا الاولياء العارفون الذين لم يحجبوا عن رؤية نبيهم صلي الله عليه وسلم وأما ما ذكرت فى رسالتك الى فمعلوم جواب كل كلمة منها في اصابة أمري لمن أنصف وكنت أردت ان أبين جواب كل كلمة ولكن قد علمت ان الهداية ليست من كثرة البيان وانك ان امعنت النظر بعد تصديقك بمهديتي وجدت جواب ذلك أوضح من الشمس كما علم ذلك كل من صحبنى من العلماء على التصديق ممن هو دون علمك في الظاهر ولو علمت حقيقتي لما كنت تكتب لى ما كتبته ولما وسعك الا المعاونة لى على ما قلدني الله تعالي فتدارك عمرك فقد مضى ولا تؤثر على اجابتي أهلا ولا مالا ولا جاها لتفوز بالفوز العظيم والخير الجسيم ولا تعاون الظلمة بعد هذا فانه لا يخفاك ما أحدثوه فى الاسلام وقد أخبر النبي صلي الله عليه وسلم فيهم باخبار كثيرة ومثلك تكفيه الاشارة والسلام

« الثاني »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فجزيل السلام من عبد ربه الواثق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الي مسلم الشريعة المحمدية المستفيض من رحمة ربه بالعلوم النقلية حبيبنا وصفينا في الله على المحبة الايمانية الاصلية محمد الامين كان الله في عونه ووفقه لمرضاته ولزوم طاعته آمين أما بعد فالذى نعلمك ايها الحبيب ان المتحابين فى الله على منابر من نور يوم القيامة وأن من أراد الآخرة سعي لها سعيها وشتت شمله فى الله ليكون من ابنائها وأهلها وبذل جهده فى طلبها ليدرك مافات من أمرها وقد أوتيت من العلم بها وبحقارة الدنيا وخستها نصيبا وافرا ونرجو الله ان

يكون نور العلم معك حجة لك وانى قد عددت وكررت لك الانذارات
والمواعظ التي تشهد حقيقتك بها وخاطبتك سابقا قبل كل الناس وخصصتك
بالحقيقة التى لاشيء بعدها وندبتك الى الاجابة لداعى الله فلم تجب دعوتي ونظرت
الى الثقل والعلائق المعوقة القاطعة عن الله ولحسن ظني فيك ومحبتى لك
فى الله وارادتى لك البر والخير الدائم والنعيم السرمدي والملك الكبير عند
الله لم أيأس من مخاطبتك ولم اتوقف عن دعوتك لانى مأمور بذلك المنهاج
على سلوك قدم الحق ومتابعة النبي صلي الله عليه وسلم فيما جاء به من الله
تعالي لارشاد امته وأنت جدير بذلك لان أحوج مايكون لك المآل اليه
وغاية المعرفة بالله اجلال الله وتعظيمه والقيام بامره حيثما كان على الراس
والعين سماوات من اكابر العلماء الوارثين قدم الشريعة المحمدية ومقتدي بك
فالى متي ترضي لنفسك التخلف عن اجابة الله ورسوله وترضي لها أن ترغب
عن ملة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام حبيبي ان كنت كما ظننت فيك
من الايمان بالله واليوم الآخر فالماضي لايعاد فبوصول جوابي هذا اليك اترك
المواطن والمساكن وجها ولا تنظر لمال ولا ولد ولا أهل ولا أحد بل
لاتراع الا أمر الله ورسوله والمبادرة للهجرة ولرؤية الضر والنفع من الله
فقط كما ورد كتابا وسنة ولا تراع غزارة علمك وكثرة فهمك ولاتستحقر
طلبنا لك فما عندنا عند الله الذى منه الحول والقوة وبادر لاجابتنا بهمة
وشفقة ولا تخش بعدها من عقاب ولا عتاب فانت فى أمان الله ورسوله
وأماننا اذا طاوعت الامر كما ذكرنا فلا نرضى عليك الا بالهجرة فقط دون
أمر آخر وما أراك أن ترضي بغير ذلك فأحسن بظننا فيك ولا تحوجنا الى
خطاب بعد هذا حيث علمت عزمنا عليك بالهجرة فلا عذر لك أبداً عنها

حبيبي وقد كتبت لك سابقا لجودة فهمك وزيادة فطنتك فيما هو حقيقة بلا
تصنع لتجيب الدعوة الي الله وتنتفع قبل الناس ولكن حبيبي تعلم ان من
كبر وبلغ الغاية في الكبر عاد الى التسافل الى أن يكون أرذل من كل شيء
والصغير لازال يزداد فلا تنظر حبيبي لكبرك في السن والعلم وصغري في
السن والعلم فانك تعلم ان الله يختص برحمته من يشاء ومن له نور ايمان
لايخفى عليه مهدي ينظر نور الايمان وكثير من العلماء الاكابر الذين لهم سابق
سعادة رأوا ذلك فرجعوا عما كانوا عليه وأتوني نادمين وانك تعلم ان النبي صلى
الله عليه وسلم ما كان أصوليا ولا نحويا بل نبيا أميا وخصه الله بخاصية لايعلمها
الا هو مع انه يتيم وبين أميين ولم يكن فى آبائه ملك الى آخر ما استنبأ عنه
هرقل ابا سفيان ليري به الحقيقة والتأهل للنبوة فعرفها مما أفهمه به ولكن
حجبه ماتعلمه من الملك والجاه والصيت وحب متاع الحياة الفانية ولم يغن
عنه ذلك شيأ كما تعلم ذلك فلا تتوقف لما تظن من قصوري فسلم الامر لله
وانقد لتسعد ولا تكن ممن حجبه الجاه والمال الفانيان فانقطع عما عند الله
ولا تكن ممن حجبته الكبرياء عن التواضع لله والانقياد للحق فانك تعلم
ان علماء اليهود والنصاري كانوا يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستفتحون به
فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خوفا من مفارقة الجاه والرياسة وما يجبي اليهم من
الهدايا والقطائف التى يتمتعون بها فى الحياة الفانية وقد ساعدوا الكفار
والمشركين لطلبهم متاع الحياة الفانية ولئلا يزاحموا الفقراء المساكين الذين
الذين خرجوا عن الجاه والمال واختاروا ماعندالله لاستحقارهم لهؤلاء وتكبرهم
عليهم ونظرهم لكبريائهم وجاههم وما يجبي اليهم من متاع الحياة الفانية أظلم
عليهم أن ينظروا عزة ماعند الله وان الشاكرين العارفين نعمة الله فى الدين

هم الذين اختاروا فراق كل عزيز لاجل ذلك وهان عليهم فراق الوطن والاهل والاولاد والاموال لما ان حدها قريب ليس لها عند الله جدوي وانما يبقى ما اكتسبه العبد مما يقربه الى الله زلفى قال الله تعالى «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى» ولئلا يقف المؤمن مع ماذكر عن ايثار الله وطلبه قال الله تعالى «قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم» الخ واذا أراد المؤمن السفر لطلب الله ورسوله وايثار ما عنده وهجس له الاهل والبنون والاموال كفاه قول الله تعالى «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» وقول النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة فى الاهل والمال والولد» وان المؤمن يعلم من نور الايمان ودلالة القرآن ان الذى وجه وجهه له هو الذى يخلفه فى أهله ولا يخفي عليه حالهم وفضل الله أوسع من فضله عليهم وهو أقدر من قدرته وأدلة ذلك من الكتاب والسنة متضحة ومثلك حبيبي لا يعرف باكثر من ذلك وماتعبت لك فى النصيحة الا لارادتى لك الخير والسلام ربيع الآخر سنة ١٣٠١

سقوط شكا وحفرة النحاس

«شكا» إقليم واقع في الصحراء التى بين بحر الغزال ودارفور وسكانه أعراب جل ماشيتهم البقر ويطلق على جميعهم اسم «البقاره» ومنهم قبائل الرزيقات والحبانية وبنو هلبه وغيرهم من قبائل البقارة

ولما استولى المصريون على دارفور افتتح غوردون باشا «شكا» وجعلها مديرية وكانت مملوءة بالنخاسين ولهم فيها شركات تقيم معسكرات يطلق عليها اسم (الديم) أي المعسكر وهي توالي الغارات على بلاد العبيد للسلب والنهب

وحفرة النحاس بالقرب من شكا جعلها غوردون مقاطعة ووضع فيها حامية وفيها معدن نحاس كبير استخرجت منه الحكومة شيئاً كثيراً الى عهد غوردون ثم أهمل أمره من خلفه من الحكام ونقلت الحامية منها وسيأتي ان الخليفة التعايشي اعتني بامره واستخرج منه شيئاً كثيراً من النحاس واكتشف معدناً للرصاص ومعدناً للكحل استخرج منهما شيئاً كثيراً

وكان في شكا أخوان نخاسان دنقليان يدعيان محمد وكرم الله كرغساوى وفدا على المهدى بعد سقوط الابيض فى قبضته وأخبراه بقدرتهما على نشر دعوته في «شكا» وحفرة النحاس وبحر الغزال ولما استولي على دارفور أشخصهما الى شكا في الف مقاتل فقصد ماعليها وكان بها الصاغ منصور أفندي حسن ومعه اكثر من الف جندى جلهم من الجنود غير النظاميين يطلق عليهم اسم (الخطرية) أى المتطوعة

ولما صار كرم الله كرغساوي على مقربة من شكا كتب الى الخطرية يعلمهم بقدومه وسألهم اللحاق به فاجابوا دعوته ولحقوا به واجتمع عليه نحو خمسة آلاف مقاتل من الدنقليين النخاسين فكتب الى منصور أفندي حسن يدعوه الى التسليم والدخول فى دعوة المهدى وبعث له بكتاب من سلاطين باشا يخبره بتسليمه للمهدوية وتصديقه بدعوة المهدى وقد كتب هذا الكتاب بناء على رغبة المهدى

ولما وقف منصور أفندي على الكتابين توقف عن التسليم فى بادئ الامر واستشار من معه الجنود وكانوا نحو ثلاثمائة فكرهوا ان يقاتلوا جميعاً واتفقوا على التسليم وكتبوا الى كرغساوى يسألونه ان يأمنهم على أموالهم واعراضهم فكتب لهم بهذا كله واقسم لهم بالايمان المغلظة على الوفاء فسلموا

أنفسهم وأسلحتهم فلم يلتفت الي شيء مما اشترطه على نفسه بل قبض على منصور أفندي ومن معه من الضباط والموظفين المصريين وعذبهم عذابا أليما ليدلوا علي أموالهم وأخذ نساءهم وبناتهم غنيمة له ولانصاره ولم يمس أحداً من السودانيين بسوء

ولما دانت له البلاد بالطاعة تقدم نحو حفرة النحاس وضم الى جنده من فيها من النخاسين وأرسل للمهدي بالوف من الارقاء وبخمس ماغنمه من أموال المصريين وبناتهم وأخذ فى الاهبة للتقدم الى بحر الغزال

سقوط بحر الغزال واسر لبتن بك مديرها

بحر الغزال هي البلاد التي تقدم لنا الكلام عليها قبل ايراد حوادثه وكنت أول حاكم ولى عليها باسم الحكومة الخديوية لما عينني غردون مديراً عليها فأعلنت ضمها الى الخديوية وقد سردت اكثر حوادثها الى خروج سليمان ابن الزبير على الحكومة بها وتولية «جسي باشا» عليها وقتل هذا الخارج له واشياعه واقصاء النخاسين منها

وأقول الآن بعد ان غادر جسي باشا بحر الغزال خلفه في وظيفته موسى شوقي باشا من الضباط المصريين وكان وكيله انكليزيا اسمه «لبتن بك» ثم عزل موسى شوقي باشا وخلفه لبتن بك

ولما استولى كرغساوى على شكا تقدم نحو بحر الغزال بخمسة آلاف مقاتل أو يزيدون وأرسل الى لبتن بك انذاراً دعاه فيه الى التسليم ومع الانذار كتاب من سلاطين باشا يختلف فحواه عن الكتاب الذي أرسل الي منصور أفندي حاكم «شكا»

وكان مع لبتن بك نحو الف وخمسمائة جندي جلهم من «الخطرية» فخذلوه ولحقوا بكرغساوي ولم يبق معه غير عدد قليل من المصريين من الضباط والموظفين وهب الاهلون العبيد واعلنوا دخولهم في طاعة كرغساوي ومنعوا وصول الاقوات الى لبتن فاضطر هو ومن معه من المصريين الى التسليم بعد ان استأمنوا كرغسلوى فامنهم ثم قبض عليهم وأذاقهم عذابا مرآ واستصفى أموالهم وهتك اعراضهم ثم بعث بهم جميعهم أسراء للمهدى

وفي غضون مسيرهم في الطريق استأنس رئيس الحراس بلبتن بك واسر اليه انه يبغض المهدية ويبطن الولاء للحكومة ولام لبتن بك على خضوعه بغير مقاومة فكشف له دخيلة أمره وقال انى لم أسلم الا لما رأيت جندي خذلني والتف حول عدوي ولو لا ذلك لدافعت حتى آخر نسمة من حياتي وعندي ان الموت أفضل من الوقوع في يد هؤلاء البرابرة المتوحشين

ولما وصل لبتن بك الى المهدي أخبر رئيس الحراس المهدى بما دار بينه وبين لبتن بك من الحديث فاسره المهدي ولم يطلعه

ولما سمع لبتن بك بقدوم غردون الى الخرطوم كتب له يعلمه بامر تسليمه ويشرح له الاسباب التي تقدم لنا ايرادها ودفع الكتاب الى قبطي اسمه صالح شنوده كان كاتبا في بحر الغزال

وكان لبتن بك لما قابل المهدي اعتنق الاسلام على يده فسماه عبد الله

وغادر صالح شنوده معسكر المهدى قاصداً الخرطوم فقبضت عليه طلائع المهدى وأعادوه الى المهدى فاخذ ما معه من الكتب وعذبه حتي اطلعه على الحقيقة فزجه في السجن وقبض على لبتن بك وسجنه وبالغ في تعذيبه

ثم أرسل له كتاباً وهو في سجنه يقول فيه ان رئيس الحراس لما أخبره لم يلتفت الى اخباره بل كان يتوقع أنه سيحسن اسلامه بعد مواجهته له وشرح له مسألة القبض على صالح شنوده وقال له انك اذا تبت في سريرتك ورجعت عن غوايتك لا بد ان يأتيني خبر من الغيب عن ذلك ولا بد ان النبي صلي الله عليه وسلم أو الخضر يخبرني بامرك وبقي لبتن في اسوء عذاب وسنعود الى تتمه اخباره حتي وفاته

وكان سقوط بحر الغزال في أواخر شهر جمادى الأخرى سنة ١٣٠١ هجرية وهاهي صورة كتاب المهدي الي لبتن بك نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي الله محمد المهدى بن عبد الله الي عبد الله المسلماني وقاه الله السوء وجعله من أهل التداني كان سابقا أخبرنا الاخ الصادق وفى العهدى الذي جاء صحبتكم من كوردفان بانه أظهر لك انه لم يكن راضيا بالمهدى وقصد بذلك الوقوف على حقيقتك فاعلمته بان التسليم الذى حصل منك ليس على غرضك وانما هو لعدم الموازر على الحرب لاجل أن العساكر التي معك سلمت جميعها وأظهرت النفاق معها وانك على ما أنت عليه من الكفر وصراكنة الترك فصفحنا عن ذلك أملا فى أنك ان لاقيتنا يصف اعمالك ويتم تصديقك وتسليمك لنا بالمذاكرة ولما قابلتنا ذاكرتك وأعلمتك ان أمرنا هذا الهى وان الله اذا أراد أمرا امضاه ولم تنفع فى مقابلته مدافع ولا جيوش انكليز ولا غيرها ولا بوابير ولا كافة الحيل اذ انه لا يغلب الله غالب وكل ذلك لتصفى معنا سريرتك ويصير لك الحظ الوافر عند الله وتنال سعادة الابد و تكون

من الاصحاب المؤمنين الذين لهم عند الله حسن المكانة العظمى وكل ذلك خير لك ابدى حتي ظهرت خيانتك وتصميمك علي النفاق بمكاتبتك لغردون واظهارك له انك لم تسلم باختيارك وانك منتظر نجدة الانكليز واظهارك له ان جماعتنا اكثرهم مرضي جائعون لا يقدرون على حرب شهر كل ذلك ظهر عند ضبط صالح شنوده لخيانته أيضا فمن الآن وصاعدا ان تبت من سريرتك بينك وبين الله واعتقدت ان هذا السجن لتصفيتك وتجريدك عما يضرك عند الله وصدقت مع الله فى تسليمك لنا لابد ان يظهر لنا على سمتك أو باخبار من الغيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من الخضر عليه السلام وان لم تتب من سريرتك وبقيت على نفاقك كذلك فلابد ان يظهر لنا فتزيد عذابا علي عذابك والآخرة أشد عذابا وأشد تنكيلا فان أراد الله بك خيراً يهدك وتظهر هدايتك لاتباعنا والصداقة معنا وان أراد الله شقاوتك وعذابك فى الدنيا والآخرة تصمم علي ما أنت عليه من النفاق ولا تقل ان الهداية التي تنفع بادعاء اللسان فان ذلك لا ينفع كما رؤي عليك حين أتيتنا من عدم الصفا علي وجهك فان اهتديت من سريرتك سترى خير الدنيا والآخرة ان شاء الله تعالى والسلام ٢٠ محرم سنة ١٣٠٢

ذكر عودة غردون الي السودان

لما سقطت وزارة شريف باشا وخلفتها وزارة نوبار باشا كانت الحكومة الخديوية في ارتباك فقدت معه كل تدبير وذلك انها كانت لا تكاد تقرر شيأ في السودان حتى تنقضه قبل أن يمض على تقريره يوم أو بعض يوم

وبينما هم في هذه الحالة عرضت عليها الحكومة البريطانية تعيين

غردون باشا بوظيفة حاكم عام على السودان ومنحه سلطة مطلقة . وكان هذا العرض في شهر صفر سنة ١٣٠١ هجرية

وفى منتصف شهر ربيع الاول أعلنت الحكومة رفض هذا الاقتراح ثم لم تمض بضعة أيام حتى تلقينا من مصادر الاخبار الرسمية نبأ مغادرة غردون لونده قاصداً القاهرة حيث أمر بتقديم نفسه لجناب السرافلن بارنج قنصل جنرال انكلترا في مصر

وفي يوم ٢٦ ربيع أول سنة ١٣٠١ كان وصول غردون القاهرة وفى اليوم التالى اجتمع بالسرافلن بارنج وتلق منه كل التعليمات التى يجب عليه اتباعها فى مأموريته

ذكر العفو عن المؤلف وارجاع رتبه والقابه

ونياشينه اليه ومرافقته غردون الى السودان

قصصت فى أول الكتاب ما أصابني من تجريدي من رتبي وألقابي ونياشيني التى أحرزتها فى إبان مرافقتى لغردون فى خط الاستواء لما كان حاكما على الاقاليم الاستوائية وقد مضي علىّ نحو سنة ونصف

وفى شهر ربيع الاول سنة ١٣٠١ جاءنى خطابان أحدهما من الجنرال وود باشا سردار الجيش المصري والآخر من نوبار باشا رئيس الوزارة يرجوني كل منهما ان اقابله في الغد فذهبت الى السردارية وقابلت وودباشا فأخبرنى ان غردون بعث اليه بتلغراف يعلمه بعزمه على مرافقتى له فى العودة الي السودان فأجبته بأني مطرود من خدمة الحكومة فقال انى لاأجهل ذلك ولكن غوردون سيطلب لك العفو من سمو الخديو

المعظم وختم كلامه بلزوم أخذ الاهبة والاستعداد الى السفر فودعته وانصرفت بعد ان وعدته بأخذ الاهبة ثم ذهبت الى نوبار باشا فأعلمني ان غردون بعث اليه بتلغراف كالذي بعث به الى وود باشا وكان حديثه معي كحديث وود باشا فانصرفت عنه بعد ان أكد علىّ في الاستعداد للسفر

وفي يوم وصول غردون باشا الى محطة سكة حديد القاهرة كانت غاصة بالمستقبلين من ضباط الانكليز وموظفي الحكومة ورجال التشريفات الخديوية ولما وصل القطار الذي كان يقله استقبل بكل حفاوة وكرامة ولما وقع بصره علىّ تقدم نحوي وصافحني مخاطباً انك ياعزيزي متوجه معي الى السودان فسردت عليه مالحقني من التجريد والطرد فطيب خاطري قائلا سأطلب من الجناب الخديو العفو عنك وارجاع كل ماسلب منك فشكرته ثم قدمني لكل الذين استقبلوه من الانكليز وسرد عليهم تاريخ مرافقتي له في المرتين السابقتين ثم اركبني معه العربة الي منزل وود باشا حيث كان مدعواً الي مأدبة هناك وبعد وصولي لهذا المنزل استأذنته في الانصراف بعد ان أكد علىّ في العودة اليه في الغد

وفي نحو الساعة التاسعة صباحاً عدت اليه بمنزل وود باشا فقابلني بوجه باش وقال لي اذهب الي نوبار باشا لاستلام الاوامر بسفرك فقلت في نفسي كيف أستلم الاوامر بالسفر قبل صدور العفو وترددت قليلا ثم امتثلت وذهبت الى نوبار باشا فقابلني بالاكرام واجلسني بجانبه وقال ان غوردون باشا مسافر على عجل وإنه يرغب مرافقتك له واني أعطيك راتب ثلاثة شهور كرتب أمير الاى ثم انك لاتبلغ بربر حتي أكون قد التمست من الجناب العالي الخديو العفو عنك وارجاع كل رتبك ونياشينك لك وسأرسل لك

البراآت والنياشين قبل وصولك الى بربر فقلت له لا يمكن ذلك ابدا ولا أرضى بمغادرة القاهرة قبل ان أحرز رضا مولاي الخديو واتحصل على العفو منه فاخذ يراجعني ويقسم لي الايمان المغلظة بصيرورة ذلك لامحالة فلم أقبل وما زال يراجعني وانا مصر على الرفض واخيراً استأذنته في الانصراف وعلامات الغضب ظاهرة على وجهي فقصدت محل غوردون وأخبرته بما جري بيني وبين نوبار باشا فاستاء وقال لي لم يكن اتفاقي مع نوبار باشا هكذا ثم ركب عربته قاصداً السراي الخديوية وتقابل مع الجناب الخديو وعرض على مسامعه طلب العفو عني فاجابه بان هذا مطرود من خدمتي ومعه من هم أرفع منه ومن هم دونه ولا يوافق العفو عنه دونهم فقال له يامولاي انك جدير بالعفو عنهم كلهم فقال ولكن الظروف غير الجدارة واني أعطيك ضابطا بدله ولو من ضباط حرسي فالح غوردون في الرجاء وقال إني رغبت مرافقة اثنين كانا معي وحضرا معي فتوحات خط الاستواء وهما ابراهيم فوزي وكاتبي محمد بيك النهامي الذي أسفت لفقده البصر مما كان حائلا دون مرافقته لي وأخذ يسرد على مسامع الخديو الخدامات الجليلة التي قمت بها معه من رحلة خط الاستواء والخدامات التي اديتها في غضون ولايته على السودان فوعد الخديو بالعفو عني فشكره غوردون وانصرف وارسل الخديو يدعو الوزراء الاجتماع عنده

ولما عاد غوردون من السراى الخديوية قص على كل مادار بينه وبين الخديو من الحديث ثم دفع الي كتاباً بالفرنساوية وأمرني بايصاله الى الخديو في الساعه الثانية بعد الظهر فحملت الكتاب وذهبت الى المعية اتعثر في أذيال الخجل وأعض انامل الندم ولات ساعة مندم وتمثل لي مافرط مني في ولاء

العرابيين باقبح صورة وزاد عليه تبكيت الضمير حيث تذكرت ماكان من الجناب الخديو ونصحه لي بالابتعاد عن المسألة العرابية وتذكيره لى بنعم والده على واني ان تابعت العرابيين كنت مقابلا لهاته النعم بالعقوق والكفران فلم التفت الى الذكرى بل انغمست في الفتنة العرابية وكان ما كان حتي كأنني فقدت العقل وعدمت الرشد ولا حول ولا قوة الا بالله

ولما دخلت المعية السنية وجدت طه باشا و يوسف شهدى باشا جالسين فى أودة التشريفات ومعهما كثير من الضباط فسلمت عليهم فلم يردوا تحيتي وظهر على وجوههم التقطب والعبوس والتفتوا الى محملقين ثم أداروا وجوههم يتغامزون على ّ فتقدمت وجلست بجانبهم غير مكترث بشيء مما أبدوه وبعد هنيهة دخل علينا زكي بك تشريفاتي خديو فاندهش لرؤيتي بهذا المكان ولكنه تجلد وأخفى ما خامره وحياني قائلا (طيبين يامسيو فوزي) فقلت له (طيبين يامسيو زكي) وبعد هنيهة أشار الي ّ بالدنو من مجلسه وابتدرني بقوله . ألم تعلم ياأخى ان ضباط الثورة المطرودين محظور عليهم المجيء الي هنا فقلت نعم فقال وما الذي جاء بك فقلت أقصد التشرف بمقابلة الحضرة الفخيمة الخديوية فقال انى اخشى عليك من زيادة الغضب وألح على بالعدول عن هذا القصد فشكرته وأخرجت له كتاب غردون فنظر الي العنوان وأسرع بايصاله الي الخديو ثم عاد وقال لي على مسمع من الحاضرين ان الجناب الخديو يسلم عليك وبعد خمس دقائق تحظى بمقابلته فاندهش أولئك الذين لم يردوا تحيتي والتفتوا نحوي يرحبون بي بقولهم (مرحباً) فلم التفت اليهم ولم أرد تحية واحد منهم وقلت فى نفسي واحدة بواحدة

وبعد مضى الخمس دقائق دخلت على الجناب الخديو فوجدته واقفاً

فلم أتمالك نفسي ووقعت على قدميه وأنا أقول (العفو يا أفندينا) حتي انحنى على وأخذ بكتفى وهو يقول (استغفر الله قد عفوت عنك وردت عليك رتبك والقابك ونياشينك وكل ماجردت منه) وكررها ثلاثا فوقفت على اقدامى فجلس وأمرني بالجلوس وأخذ يعاتبنى وأنا لا أقول له غير «وكان أمر الله قدراً مقدوراً» ثم استدعي خيرى باشا المهردار وقال له انني عفوت عن ابراهيم بك فوزي ورددت له كل ما سلب منه فدعا له بطول البقاء وأمنت على دعائه وبعد برهة عاد ومعه البراآت والنياشين فوقف الخديوى على قدميه وسلمنى البراآت وقال لى اذهب الى منزلك وتقلد بزة عسكرية لاقلدك النياشين بيدى فذهبت وبعد برهة عدت فقلدني النياشين بيده وجلس وأمرنى بالجلوس وقص علىّ فحوي الشهادات الحسنة التي شهد بها غردون عن سلوكى معه في الايام السالفة وأعرب لى عن أمله في نجاح غردون وأوصانى بطاعته وحذرنى من مخالفته ووعدني بالالتفات ونوال الخيرات ثم انصرفت شاكراً بعد ان ودعني بأرق الفاظ المجاملة

ثم قصدت محل اقامة غردون وأنا متقلد نياشيني ومتحل بملابسي الرسمية فاستقبلني بالضحك الذي ينشف عن زيادة السرور وأمرنى باخذ الاهبة حيث السفر فى الساعة التاسعة من مساء الغد من محطة بولاق الدكرور فعدت الى منزلي وأنا مشغول بأخذ الاهبة للسفر ومقابلة المهنئين من الاهل والخلان

وقصصت على غردون كل مادار بيني وبين الجناب الخديو من الحديث وكتب الى المالية بصرف مرتب ثلاثة شهور مع نفقات السفر وفي اليوم التالى قبضت المال وتأهبنا للارتحال والحمد لله على كل حال

ذكر سفر غردون باشا

في مساء يوم ٢٨ ربيع أول سنة ١٣٠١ في الساعة التاسعة مساء أعد قطار خصوصي في محطة بولاق الدكرور ليقل غردون باشا ومن معه الي أسيوط فازدحمت المحطة بالمودعين وفي مقدمتهم نوبار باشا رئيس الوزراء ومعه النظار وقنصل جنرال الدولة الانكليزية وعدد عظيم من ضباط جيش الاحتلال والموظفين الانكليز وبعض من رجال التشريفات الخديوية

واتصل بي ان عبد القادر حلمي باشا تحادث مع غردون يومئذ في شأن مأموريته وقال له اني أتوقع لك شراً مادمت قاصداً السودان بلاجند وأما مأموريتك السلمية فاني أجزم منذ الآن بأن المهدي وأعوانه لايقابلونها الا بالسخرية والازدراء على اني أقول لك لو كان معك ألف جندي فان أخبارهم تصل الي المهدى بغلو كثير وخصوصاً اذا ذاع ان جنوداً غيرهم قادمون لامدادك وفوق ذلك فاني أشك في وصولك الخرطوم سالما فأجابه غردون على كل ماقاله بقوله ان معي الله وحده وخاطب عبد القادر حلمي باشا الكولونيل ستيوارت الذي ذكرنا انه سافر بمأمورية سرية الى الخرطوم في عهد ولاية عبد القادر حلمي باشا عليها واختاره غوردون لمرافقته عما خاطب به غردون فأجابه انى لاأشك في صحة كل ماقلته ولكنني رجل عسكري أطيع أوامر رؤسائي طاعة عمياء لان أقل احجام مني يعد جبنا واني لاأرتاب في انى ذاهب لحتفي بنفسي

وفي الساعة العاشرة سافر القطار بين هتاف الجماهير قاصداً أسيوط التى وصلناها في صباح الغد فاستقبلنا مديرها وتناولنا طعام الغداء على مائدته

ثم ركبنا باخرة في النيل الى أصوان وهناك قابلنا قسوس من الكاثوليك كانوا دعاة للنصرانية في السودان وهجروا الخرطوم لما أحسوا باحداق الخطر بها فقضينا معهم بضع ساعات كان غردون يسألهم فى خلالها عن الاحوال فكانت أجوبتهم لا تختلف عما قاله عبد القادر حلمى باشا لغردون

ثم غادرنا أصوان الى الشلال وركبنا باخرة هناك قاصدين كروسكو وبعد مسيرة يومين وصلناها فألفينا الجمال ومعدات السفر كلها فى انتظارنا فعينني غردون قومندانا للحملة وأخذت فى الاشتغال بتجهيز وحزم الامتعة حتي الظهر ثم ألقيت التنبيهات على رعاة الجمال بأن السير يبتدىء فى الساعة الثالثة بعد الظهر وعدت الى الباخرة وأخبرت غردون بجميع الترتيبات وكان جالسا على ظهر الباخرة ومعه الكولونيل ستيوارت والجنرال جراهم أحد قواد جيش الاحتلال وكان عين لمرافقة غردون الى كروسكو ثم جلسنا نحن الاربعة لتناول طعام الغداء فقال غوردون للجنرال جراهم انني التمست من الجناب الخديوى الاحسان على الكولونيل ستيوارت وابراهيم فوزي برتبة اللواء ليكون الاول وكيلي والثانى قومندانا للعساكر البرية والبحرية فأجابه الجنرال جراهم بالاستحسان

وبعد الغداء طير رسالة برقية للجناب الخديوى بهذا الالتماس ثم امتطينا الجمال وغادرنا النيل فى طريق الصحراء قاصدين آبار المرات التي هى منتصف الطريق بين « ابو حمد » الواقعة علي ضفة النيل وبين (كروسكو) وسنعود الي هذا الموضوع فى غير هذا المحل

ذكر كتاب غردون الي المهدي وهديته

قبل أن يغادر غردون كروسكو كتب كتابا الي المهدى ومعه هدية من نوع الهدايا التي تقدم لمشائخ الاعراب كالبنش وغيره ويحوى الكتاب كما يأتي بالايجاز «انى أعترف بك سلطانا على السودان الغربي كله وملكا مطلقا على كل اقاليمه التي هى كوردفان ودارفور واني لما بلغني ما أصاب أهالى السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرني غم شديد ولذا قد عينتنى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمي وامبراطورة الهند واليا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية وانني من صميم فؤادى ارغب توثيق عرى العلائق الودية بيني وبين سلطنتكم وأرجوان تسمحوا باعادة المواصلات التلغرافية وأظن ان أدوات ذلك قد تلفت فى غضون الخطوب وقد أصدرت الاوامر الى مركز الحكمدارية بأن يعطى لكم كل ما تطلبونه من أدوات التلغرافات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير وقد داخلنى حزن شديد لما علمت بقطع طرق السودان الشرق التي جاءت حائلة بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها في كل عام لاداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لفتح هذا الطريق والقاء السلاح لتشييد أركان الراحة ونوطد دعائم السلام

هذا ملخص خطاب غردون للمهدى وسنأتى على اجابة المهدي عليه بعد وقد طير رسالة برقية الي الحكمدارية يأمرها باستقبال سفير المهدي باطلاق المدافع والزينات واعطائه كل مايطلبه من أدوات التلغراف فقوبلت هذه السياسة من الخرطوم بالدهشة والاستغراب ولكن الآمال كانت

تخيل لهم ان غردون لابد أن يكون معه جنود يجبرون المهدي على قبول مثل هذا الامر ويمنعونه من التقدم الى الخرطوم على ان الامر الذي لامراء ولا جدال فيه ان المهدى كان يرضخ صاغراً لما رسمه له غردون لو كان هناك جنود ولو بضعة آلاف

الخرطوم وغردون

ما كاد نبأ تعيين الجنرال غردون يبلغ الخرطوم حتي كان الاهلون المصريون في فرح شديد ظناً ان غردون لابد أن يكون قادماً بعناية كبرى من الحكومتين البريطانية والخديوية وانهما لا يتخليان عن مساعدته بجنود يقدر بها علي ارغام المهدي ومنعه من التقدم اليهم فأرسلوا اليه بالتلغرافات وفي كلها التنويه بأنه محط الآمال

وأرسل علي لسان البرق منشورات فيها الاعتراف بسلطة المهدي على السودان الغربى وانه عين من قبل الحكومة البريطانية الخ ماجاء في خطابه الي المهدى

وزاد انه تجاوز عن المتأخرات من الضرائب والاموال الاميرية وتجاوز عن ضرائب ثلاثة أعوام فى المستقبل

وأرسل تلغرافا بفصل حسين سري باشا من وكالة الحكمدارية وتعيين الكولونيل دي كوتلجف بدله وهو انكليزى كان في الخرطوم منذ سنة بمهمة سرية

وأرسل تلغرافا ايضا بتعيين عوض الكريم أبى سن زعيم قبيلة الشكرية مديراً للخرطوم وسنأتى علي ترجمته وأخباره بعد

وأرسل ايضاً على لسان البرق أمراً بتعيين الفقيه عبد القادر بن أم مريوم قاضيا لقضاة السودان

ذكر وصول غردون الي ابو حمد

وبعد مغادرتنا كروسكو ظللنا سائرين أربعة أيام بلياليها لم نذق الراحة فيها غير ساعتين في كل يوم وليلة ومأوٰنا وزادنا على ظهور المطايا لا يرى المسافر فى تلك الصحراء القاحلة طيراً ولا وحشاً ولا شجراً حتي ألقينا عصا السفر عند آبار «المرات» وهى واقعة فى منتصف الطريق بين أبو حمد وكروسكو وماؤها ملح لا يستقر في جوف شاربه حتي يأخذه الاسهال

وبعد استراحة ليلة وبعض يوم استأنفنا المسير قاصدين أبو حمد وبعد مسيرة أيام وليال أخرى وصلنا أبو حمد وهي أول حدود مقاطعة بربر من جهة الشمال وأول حدود اقليم دنقله من الجنوب وسكانها يقال لهم (الرباطاب والمناصير) وهم من جنس قبيلة الجعليين التى سنتكلم عليها بعد وبلادهم قاحلة وكلها مكسوة بالاحجار ولا قوت لاهلها غير ما يجلب الى بلادهم من محصولات البلاد الشمالية والجنوبية

ويحكى ان رجلا من الرباطاب كان يأكل نوعا من الحبوب اسمه (قوسيل) فسقطت من يده حبة وكان الظلام حالكا فصرخ صرخة ارتجت لها جوانب قريته فنسل الناس نحوه يصيحون هل لدغتك أفعي فقال سقط من يدي ثور قوسيل فاصطكت أسنانهم وسقطوا على الارض لعظم تأثرهم لانهم يعدون الحبة كثور من البقر والقوسيل نوع من اللوبيا

واستقبلنا فى أبو حمد حسين باشا خليفة مدير بربر ومعه أعيان المديرية

فالقى عليهم غردون خطبة أبان فيها انه تجاوز عن كل المتأخرات لغاية سنة ١٨٨٣ كما انه تجاوز عن ضرائب ثلاث سنوات فى المستقبل وانه أطلق لهم النخاسة والغى الاوامر الصادرة بمنع هذه التجارة فقال له أحد شيوخ الاعراب انك عافيتنا من هذه الضرائب وانا لا نأمن أن يخلفك حاكم آخر فيعود الى جبايتها ما دامت اسماؤنا في بطون الدفاتر فقال له صدقت وسأصدر الاوامر باحراق هاته الدفاتر لزيادة الطمأنينة فشكروا ودعوا له وللخديو

ثم قال لهم وبعد مضى الثلاث سنين أنظر في تخفيض الضرائب وتنزيلها حتى تكون أقل بكثير مما هى عليه الآن ثم قال وانى أحذركم من الركون الي المهدى الكذاب خصوصا وأنتم تعلمون انه دنقلي كاذب في كل ما ادعاه وانه لا يقصد غير تقويم معاشه وتسلطه عليكم فصاحوا جميعاً بصوت واحد انا ندافع عن سلطة الحكومة بما ندافع به عن أبنائنا وانه يستحيل علينا ان نخضع لهذا الكذاب فشكرهم وأحسن على كثير منهم بالرتب والنياشين على ان ذلك كان منهم محض خداع لانهم كانوا يخشون ان يكون مع غردون جنود

ثم طير غردون رسالة تلغرافية الي السر افلن بارنج يقول فيها ان المقابلة والمحادثة التى دارت بينه وبين الاهلين فى أبوحمد تبشر بنجاح مأموريته وتزيد ثقته بالفلاح سيما وان الاهلين وعدوه بان يقبضوا على كل داع يقوم بدعوة المهدي بين ظهرانيهم

وقضي غردون جزأ من الليل في مشاهدة الالعاب التى أقامها الاهلون احتفاء به وهى لعبة (الدلوكه)

وفي الغد استأنفنا السير على ظهور المطايا الى بربر حيث كانت البواخر فى

انتظارنا وكنا كلما مررنا بقرية استقبلنا أهلوها بالابتهاج والفرح وكان غردون يوزع عليهم الملابس والدراهم وبعد مسيرة خمس مراحل وصلنا بربر فالفينا بها شرذمة من العساكر مصطفة فى انتظارنا ثم أطلق واحد وعشرون مدفعاً ترحيباً بقدوم غردون وبعد الاستراحة فى سراى المديرية ابتدئت المقابلات فدخل عليه قناصل الدول وحادثوه فى شأن مأموريته ولم يخفوا عنه ما داخلهم من الارتياب في نجاحه فقابل تصريحاتهم بعدم الاكتراث

ثم دخل عليه موظفو الحكومة فكانت آراءهم كآراء القناصل فقال لهم ان الجنود على أثري قادمون من مصر ثم دخل عليه الاعيان فوعدهم بالاجتماع عنده بعد الظهر

وبعد تناول طعام الغداء عقد جلسة من الاعيان وكبار الموظفين للمشورة فى أمر المهدي فقال له الاعيان ان المهدى اشتدت شوكته وخضع له السودان الغربى كله وان لديه من الاسلحة خمسين الف بندقية من طراز رامنجتون وخمسين مدفعا وانه لا يخضع أبداً لما جئت به الا اذا رأى قوة تضارع قوته أوتربو عليها فقال لهم مهما يكن من أمره فان الحكومة الخديوية أقوي سيما وان حكومة جلالة الملكة ڤيكتوريا تساعدها وانه لا بد من ان نقهره عاجلاً أو آجلاً ثم ختم أقواله بالقاء الاوامر المشددة على الكل بالاخلاد الى السكينة والابتعاد عن الهرج وأسباب الفتن

ذكر مغادرة غردون بربر

وبعد قضاء ثلاثة أيام فى الراحة من وعثاء السفر أبحرنا من بربر قاصدين الخرطوم على احدى البواخر وكنا كلما اقتربنا من الخرطوم نرى

من الاهلين نفوراً منا حتي بلغنا (السبلوكه) وبينما كانت الباخرة تمخر الماء عند جبلى الرويان اللذين هما جبلان على ضفتى النيل يخترقهما النهر اذ سمعت صياحاً في الضفة الغربية فامسكت النظارة المعظمة فابصرت بها عشرة أشخاص ممتطين خيولهم يصيحون بقولهم (نحن مظلومون يا أفندينا) ثم أبصرت كميناً خلفهم يبلغ مائتى فارس يتوارون وراء الجبل وخيل لى من هيئة ملابسهم المرقعة انهم عصاة يقصدون الوقيعة اذا القت الباخرة مرساها فقلت لربان الباخرة الذي كان ممسكاً نظارته أيضاً ان هؤلاء يقصدون البطش بنا ونحن ومستخدمو الباخرة لا يربو عددنا على خمسة وعشرين رجلاً وان غردون اذا سمع صياحهم الذى لم يكن الا خدعة أمر برسو الوابور واذا رسا الوابور وقعنا فى حبالتهم بلا ريب ولا سبيل لاقناع غردون بسوء قصدهم كما انه لا سبيل لنجاتنا الا بشىء واحد وهو أنه اذا أمرك بايقاف الباخرة تعتذر له بان هذا الشاطىء مملوء بالصخور ولا يمكن الرسو فيه فتردد الربان فى قبول ما أشرت به عليه وقال لى ان أمرت برسو الباخرة امتثلت الامر فاخذت ألح عليه وبينما نحن فى المحادثة خرج غردون من غرفته وما كادت اذنه تسمع الصياح حتى أمر الربان برسو الباخرة فامتثل ولم يلتفت الى ما حدثته به فقلت لغوردون ان هذا مكان قفر وليس حوله قرى وانى أرى وراء هؤلاء الصائحين كميناً والأولي بنا ان نعدهم بالنظر فى ظلامتهم بعد خروجنا من بين الجبلين فغضب غردون ولم يكترث بنصيحتي وقال لى أرى انك بعد رجوعك للقاهرة فقدت ما كنت أعرفه فيك من الشجاعة والجرأة وأظن ذلك نتيجة الانغماس فى الترف فقلت له لم يكن شيء مما رأيت وظننت بل انى رأيت الكمين وهو ما دعانى للريبة فى أمرهم فازداد غضبه ودخل غرفته

واعرض عني كل الاعراض وما كاد يبلغ غرفته حتي أطلق علينا أولئك المتظلمون النيران وظهر الكمين على سفح الجبل فاطلع غردون فرآي العشرة صاروا مائتين يطلقون النيران علينا ويسبوننا باقبح السباب فأخذ يضحك ويقول لي لاتؤاخذني ياعزيزي فوزي فقد بالغت في لومك مع ان الحق معك وأنا المخطىء.

ثم انا بعد خروجنا من بين الجبلين لم نر أحدا وعرجنا على مكان يدعى (ولد أبو حليمه) فيه محطة للخشب الذي يوقد للسفن فالقت الباخرة مرساها لأخذما يلزمها من الخشب فالفينا بهذه الجهة شيأ كثيرا من الخشب فى مكانين متقاربين ولم نجد أحدا من الخفراء أو المتعهدين بجانبه فخرج نوتية الباخرة وأخذوا يحملون الخشب الى داخل السفينة وانا واقف أحثهم على الاسراع وخرج غردون وجلس في ظل شجرة تبعد عن النهر نحو مائة يرده

وبينما نحن دائبون على العمل لمحت شخصاً لم أكن رأيته قبل فى السفينة فدنا مني وحياني فعرفته واذا هو جندى من جنودى الذين كانوا معي فى خط الاستواء يعرفنى جيداً ويعرف غردون فأحببت أن استطلع ماعنده من الاخبار فقطع علىّ الكلام وقال انى عائد من حيث جئت انما جئت لاخبرك للصداقة القديمة بيننا بان سكان هاته الجهة سمعوا بقدومك مع غردون وسيهجمون عليكما في هذه اللحظة وانصرف مسرعاً وعاد من حيث جاء فأسرعت الى غردون فوجدته غائصا فى لجة أفكار فابتدرته بقولى قم بنا بسرعة الى الباخرة فقد طرأ أمر يمنعنى من الكلام فقام معى مسرعا ولم يبد أقل مراجعة وصحت بالنوتية ادخلوا الباخرة ولم نكد ندخل حتي هجم على السفينة عدد كبير فأسرعنا الى قطع الحبال وتأخرعن الدخول شخصان من النوتية لازدحام الطريق الموصلة

من البر الي السفينة فقتلها العدو وأخذ يطلق النار علينا ويسبنا

وبعد ان توسطت الباخرة لجة النهر قصصت على غردون أمر ذلك العسكري فتعجب وأثني عليه وعلى مروءته وأظهر رغبة شديدة في مكافأته على حسن صنيعه

ثم تابعنا مسيرنا حتى وصلنا أم درمان فألفينا بها نقطة من الجنود قابلتنا بالحفاوة وأطلقت المدافع وبعد ان تفقدنا حصونها تابعنا سيرنا الي الخرطوم

على ان غردون استشعر بان مأموريته لن تصادف نجاحاً وانه كان مخطئا فى قدومه بلا جنود وانه تسرع ولم يتثبت فى ارسال تلغرافه الى السرافلن بارنج ولكن كان عنده بقية أمل حيث كان ينتظر اجابة المهدى

وصول غردون الي الخرطوم

ولما أبحرنا من أم درمان رست بنا الباخرة في (المقرن) أي نقطة اجتماع النيلين الابيض والازرق وبعد أن ادت الحامية التحية العسكرية أخذنا نتفقد الحصون فسر غردون من متانتها وأثنى على العساكر وشجعهم ثم استأنفنا السير الى الخرطوم وهناك ألفينا العساكر مصطفين والاهلين محتشدين فخرجت من الباخرة انا والكولونيل ستيوارت صحبة غردون فاندهش الناس وقالوا أمن هؤلاء الثلاثة يخاف المهدى ويترك التقدم علينا ان هذا لشيء عجاب

ولما وصلنا الي سراى الحكمدارية وقف غردون عند السلاملك ودفع فرمان توليته الي الشيخ حسين المجدى رئيس أساتذة المدرسة الاميرية فصعد على منبر الخطابة وقرأ الفرمان بصوت مرتفع والناس منصتون لسماعه كأن

الطير على رؤوسهم ثم أطلقت المدافع ثم صعد على المنبر ابراهيم بك مأمور الضبطية وأخذ يملي عليه هذه الخطبة وهي « يا أهالي السودان عموماً ان الجناب العالي الخديوي يسلم عليكم صغيراً وكبيراً أحراراً وعبيداً اناثاً وذكوراً وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند وانكم لا تجهلون شفقتي عليكم ومحبتي لكم وقد ساءني ما سمعته عنكم حيث نشبت الحرب بينكم وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تادية فريضة الحج التي هي من أركان الاسلام وزيارة قبر النبي عليه السلام وقد أساء هذا الحال كلا من جلالة الملكة وسمو الخديو المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لاكون واليا على السودان ومرخصا فوق العادة وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاما وفوض الى الحكم المطلق وقد خابرت حضرة السيد محمد أحمد المهدي بفحوى مأموريتي واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربي برمته على شرط ان لا يمد يده لغيره. هذا وقد الغيت جميع الاوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وقد تجاوزت أيضا عن ضرائب ثلاث سنوات منذ أول سنة ١٨٨٤ وأمرت باحراق دفاتر المتأخرات وأمرت باطلاق جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم وعزمت منذ الآن ان لا يكون أعضاء حكومتي الا من الوطنيين حيث اني اود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه وقد عينت عوض الكريم ابا سن مدير الخرطوم وأحسنت عليه برتبة الباشوية ولي الامل بان العلائق ستصبح بيني وبين سلطان الغرب وثيقة العرى وقد أمرت منذ اليوم بفتح ابواب الحصون واتلافها وسحب الجنود منها لتلتفتوا الى عمران بلادكم ومرت اراضيكم

وانماء تجارتكم ومنى عليكم السلام » اه وكان أهل الخرطوم يسمعون هذه الخطبة ودموعهم تنهمر من أعينهم حيث كانوا موقنين بان هذه سياسة خرقاء وأن المهدي سوف يتقدم نحوهم ويقهرهم

ثم دخل عليه العلماء مسلمين وقالوا له إنا نصبح قتلي وأسرى في الغدان اتلفت شيأ من الحصون وان المهدي لا يلتفت الي شيء مما دعوته اليه ولا يرده عن بغيه غير جيش جرار وان من حولنا من الاعراب متحفزون للوثبة علينا فاظهر لهم التردد ولكنه كف عن تخريب الحصون وتدميرها

وعلى أثر ذلك هجر المدينة كثير من الناس قاصدين القطر المصرى واستقال كثير من الموظفين ومنهم الكولونيل دي كوتلجن فتعجبت من اصرار غردون على رأيه الاول بعد ان رأي الخطر الذى أحدق بحياته مرتين في الطريق وعلم اجماع الآراء على عدم نجاحه

ذكر عبد القادر بن ام مريوم

عبد القادر بن أم مريوم فقيه من أهالى القري التي حول الخرطوم وأهالى هذه القرى كانوا ينقادون له ويعظمونه فقصد غردون توليته القضاء رجاء ان يؤثر بنفوذه على أهالى هاته الجهات ويمنعها من الدخول في دعوة المهدى

ولما وصل غردون الخرطوم وفد مسلما عليه فاكرم وفادته وأحسن عليه بثلاثمائة ريال فأخذ يقول على رؤس الاشهاد ان محمد احمد كاذب في دعواه وانه لم يكن مهديا وبعد قبضه الثلاثمائة ريال قال لغوردون اني ذاهب الى قريتي لاعود بعائلتي وعشيرتي فقال له غردون أخشى ان لا تعود فقال له أقسم ببيعة ايمان يعرضن على الله لاعودن بعائلتي وعشيرتي واني أموت

على ولاء الحكومة وطاعتها ولو بقي من عساكرها واحد فانني اكون الثاني فاذن له غردون في العودة الى قريته واكد عليه في الاسراع بالقدوم وشيعه الي الباب

وفي اليوم التالي ورد على غردون كتاب من عبد القادر المذكور يقول فيه انني أنصح لك ولمن معك من الموظفين ان تسلموا للمهدى المنتظر الذي من شك فيه فقد كفر وان النبي صلى الله عليه وسلم بشرني به منذ ثلاث وثلاثين سنة وقال لي صلى الله عليه وسلم انك تصير أحد وزرائه فتغيظ غردون من هذا الكتاب وكتب منشوراً قال فيه من جاءني برأس عبد القادر ابن أم مريوم فله جائزة الف جنيه ولحق عبد القادر بالمهدي فعقد له لواء بالامارة على كل أهالي القرى المجاورة للخرطوم وفي يوم سقوطها دخل منزل محمود محي الدين أحد أعيان المدينة وقتل صاحبه وسبى نساءه

وجاءت هذه الحادثة من اللواتي آذنت بان مساعى غردون ذاهبة ادراج الرياح وانها لا تجدي نفعا ولا تغنى فتيلا

ذكر عوض الكريم ابن ابي سن

قلنا ان غردون عين عوض الكريم ابن أبي سن مديرا للخرطوم واهداه لقب باشا وعوض الكريم هذا زعيم قبيلة (الشكرية) وهي رحالة تسكن شرقي النيل الازرق في صحراء (ويره) الواقعة بين نهر اتبره والنيل الازرق وماشيتها من الابل والبقر كثيرة جداً وعدد نفوسها زهاء خمسمائة الف نسمة ورجالها مشهورون بالشجاعة وقوة الباس وعندهم من الخيول العربية الجيدة كثير وكان أحمد باشا أبو سن والد عوض الكريم مديراً للخرطوم وزعيما

لهذه القبيلة وقبيل وفاته قدم القاهرة وقدم للخديو اسماعيل باشا هدايا كثيرة وتوفى بالقاهرة بغتة فخلفه ابنه عوض الكريم فى زعامة قبيلته

ولما ظهرت دعوة المهدية كانت قبيلة الشكرية وزعيمها من أصدق القبائل ولاء للحكومة واجتمع منهم نحو عشرة آلاف مقاتل ساعدوا الحكومة على اخماد الفتنة التي أضرم نارها الشريف أحمد طه الذى تقدم لنا ذكر واقعته وقتله وشهد عوض الكريم وكثير من رجاله اكثر الوقائع مع عبدالقادر باشا حلمي وبالجملة فان هذه القبيلة حافظت على ولاء الحكومة ولم تؤثر تخرصات المهدى على عقول زعيمها وعشيرته أسرة أبى سن

ولما فتك المهدي بحملة الجنرال هيكس وانتشرت دعوته فى السودان الاوسط حوالى الخرطوم كانت قبيلة البطاحين التي تسكن غرب صحراء ربره قد دخلت في دعوة المهدى وقبيلة البطاحين هذه رحالة أيضا وماشيتها كماشية قبيلة الشكرية الا انها أقل منها نفوسا اذلا تبلغ نفوس قبيلة البطاحين خمسين الف نسمة ولكن رجالها مشهورون بالقوة والاقدام وهم لصوص يقطعون الطرق فى كل انحاء السودان فلا تكاد تكون عصبة لصوص أوقطاع طرق الا من البطاحين ولما دخلت هذه القبيلة فى دعوة المهدى وقويت شوكة الداعية محمد بن الطيب البصير ابتعدت قبيلة الشكرية عن ضفة النهر وأوغلت فى الصحراء الي قرب نهر اتبره فاوعز ابن البصير الى قبيلة البطاحين بمناوأة قبيلة الشكرية والغارة عليها لسلب ماشيتها

وكان عوض الكريم يقصد من الدنو من نهر أتبره مقابلة بيكر باشا حينما عزم على فتح طريق من مصوع الى كسلا ومنها الى الخرطوم حيث يخترق صحراء ربره ثم لما عاد بيكر باشا الى سواكن وفشلت حملته كانت عيون

عوض الكريم تاتيه بالاخبار من سواكن عن حركات الجنرال جراهم وكان مؤملا الاجتماع باى جنود تتقدم لتعزيز حامية الخرطوم أو انقاذها

ولما حصر المهديون كسلا أحدقت الاخطار بقبيلة الشكرية وكثرت اعتداآت البطاحين عليها فعمدت الي مظاهرة المهدى وكتبت له بالخضوع والطاعة وسألته ان يعتبرها خاضعة له فكان جوابه لها أن ذلك لايكون بغير انضمامها الى محمد بن البصير واتحادها معه لقتال جنود الحكومة فكانت تعتذر تارة بمرض زعيمها وأخرى بتوالى غارة البطاحين عليها

ولما وصل غوردون الخرطوم بعث بكتاب الى عوض الكريم باشا ابى سن يعلمه بتعيينه مديرا للخرطوم ويدعوه لاستلام منصبه فوصل الرسول مع رسول قادم من المهدى بكتابين لعوض الكريم وسائر أفراد اسرة ابي سن فاختلى عوض الكريم وأسرته برسول غوردون وسألوه هل جاء معه بجنود فقال لا ولكنهم سيجيؤن فحثا عوض الكريم التراب على رأسه وقال ياضيعة الأمل ثم كتب الي غردون بحرج موقفه وعدم قبوله هذا المنصب وأرسل اليه بالكتابين اللذين جاآه من عند المهدى وزادان البطاحين يسافرون بكثرة الى بربر ليساعدوا داعية للمهدي قدم اليها ولا بد انهم يتغلبون على بربر وان بقائي فى هذا المكان انفع لك من قدومي الى الخرطوم اذ لابد لي ان أظاهر أية نجدة تقدم اليك من شرقي السودان فوقع رايه موقع القبول والاستحسان عند غوردون فاقره عليه وهاهي صورة ماجاء فى الكتابين

« الاول » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الي أحبابه فى الله واعوانه على سكة

رسول الله عوض الكريم أحمد أبي سن وعبدله أحمد ابى سن وعبد الله أحمد أبي سن ومحمد احمد أبي سن وعمارة أحمد أبي سن وعبد القادر أحمد ابي سن والامين أحمد أبي سن وأبي عاقلة أحمد أبي سن وحسان أحمد ابي سن وعمر أحمد ابي سن ومحمد عوض الكريم وعلي عوض الكريم وعبد الله عوض الكريم ومحمد عوض الكريم وعوض الكريم أحمد واخوانهم وأولادهم وعشيرتهم وقبيلتهم أحبابي ان الدنيا ظل زائل ونعيمها مائل هائل وسرورها غم وراحتها تعب وهم والركون اليها غرور وكفي بذلك شهيدا وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور وجمعها شتات وشتاتها عقل وثبات والتخلى عنها نعيم والتحلي بها نار وجحيم ومكرها خفى حائق والالتفات لها عن الله عائق والتعلق بها خمول وبوار والسعي فى طلبها دمار وخسار والتمتع بعيشها ضرر والفرح بها انقباض وكدر والتنعم بها بوس وطالع سعدها غارب منحوس وشرابها سراب وصفاؤها عقاب وحلوها مر وميلها غدر وحنانها قطيعة وصلتها فظيعة وعاقبتها ندم ووجودها محض عدم وخيرها يسير وحسابها كثير وطلبها وبال وبقاؤها محال وعلوها سفل والاجتهاد في طلبها حمق وجهل وكفي في التحذير منها والتبعيد عنها قول الله المتين «وماهذه الحيوة الدنيا الالهو ولعب» ولايغتر باللعب واللهو الا الخامدون وقول النبي الاواب الناطق بالصواب «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقي كافرا منها جرعة ماء» فانظروا رحمكم الله الى خستها وما فيها وذم خالقها وباريها ومبدعها ومنشيها ورسوله المأمون الذي أوضح للخلق السر المكنون فكيف بعد هذا تركنون اليها وتمدونها دار اقامة مع انها جنة أعدائكم المبعدين عن رحمة الله والكرامة ولو كان فيها خير للمؤمنين السالكين طريق خير المرسلين لما خرج منها صلي الله عليه وسلم ولم يضع

لبنة على لبنة ولما زهدها الصحابة ونظروها حقيرة ممتهنة أمالكم فى رسول الله اسوة حسنة واتباع لسيرة أصحابه الواضحة المستحسنة فاخرجوا عنها فانها ذميمة وتجنبوا نتائجها فانها عقيمة واصبروا على شدائدها وبلاياها وجاهدوا النفس وصدوها عن ركوب مطاياها وشدوا أزركم على اقامة الدين وعلى اعداء الله الكافرين والخروج عن طاعتهم وتشتيت شملهم وتفريق جماعتهم وبارزوهم بالعصيان لتنالوا كمال الرضوان وقاتلوهم فانهم مخذولون وجاهدوهم فانكم عليهم منصورون وشمروا فى ذلك عن ساعد الجد والاجتهاد لنيل غاية القصد وبلوغ المراد وقابلوهم بعزم قوي وصدق نية وغيرة وحمية وحسن طوية وارغبوا فيما أعد الله للمجاهدين وابذلوا نفوسكم وأموالكم فى الله طمعا فيما ادخر لانصار الدين قال الله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة » فكيف بعد ان جعلت الجنة ثمنا للنفوس والاموال تتأخرون عن الجهاد ولا تبادروا اليه بكامل الاحوال ما هذا التوانى والتأخير وأنتم لا تملكون لانفسكم نقيرا ولا قطمير وخذوا بزمام حزمكم وسارعوا الى مغفرة من ربكم وبادروا الى قول نبيكم ايما عبد من عبادي خرج مجاهدا فى سبيلي وابتغاء مرضاتي ضمنت له الجنة ان أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وان قبضته غفرت له ورحمته أو كما قال فكونوا عباد الله إخوانا فى الدين وجاهدوا في الله فان الانهماك فى الدنيا ضلال مبين وقاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ولا تتأخروا عن جهادهم وخذوهم بقوة وذلك بانضمامكم مع محمد الطيب البصير وإعمال الرأي والمكيدة وما يجب للعدو

والتدمير واعتمدوا على الله العالم بما فى الضمير وأخلصوا النية فان خلوصها مطايا كم وحسنوا الظن في عالم سركم ونجواكم وكونوا يداً واحدة وشدوا بعضكم بعضا فانما الرجال بالاخوان والمعاضدة وتيقنوا ان عفونا لكم عن الهجرة ورضانا عنكم مقرون بذلك ولا تأخذكم نخوة الجاهلية والتفاخر بالآباء فان الله عالم بما هنالك بل أفيقوا من سكرة الغفلات واندموا على الزمن الذي صرفتموه في البطالات فان الدنيا ذهبت والآجال اقتربت وطلب الآخرة أصفى لكم وانقى وما عندالله خير وأبقى واحرصوا على مافيه نجاحكم وفلاحكم واعلموا ان الجهاد فيه صلاحكم ورباحكم واياكم وسماع قول من يغركم ولا ينصحكم ويحسن لكم مافيه هلاك نفوسكم وفي مهاوى الهلاك يطرحكم وتيقنوا ان صحبتنا مبنية على الانكسار وصفاء السرائر من دنس الاغيار واطلاق النفوس من سجن حب الدنيا وطلب ما اعد الله للمجاهدين المتقين من الرتب العليا فان كنتم صادقين فى جوابكم المحضر الينا بالصحبة والاتباع فحرضوا قبائلكم وعشيرتكم واحضروا بانفسكم تنالوا كمال المزية وحسن الارتفاع وكونوا أنتم ومحمد البصير في المعاونة على شعائر الدين يداً وساعد واحذروا الكبر الذي يصد عن الله ويباعد ففى الحديث القدسى العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما غمسته فى ناري واشتاقوا لما أعد الله للمجاهدين حيث قال في كتابه العزيز « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتيهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولاهم يحزنون» فاعتبروا يا أولي الابصار وانظروا بعين الحقيقة والاستبصار والسلام

« الثاني » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم (وبعد) فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى أحبابه عوض الكريم أحمد أبي سن والطيب محمد وحمد احمد أبي سن وعبد الله أحمد أبي سن وعبد الله أحمد أبي سن ومحمد احمد أبي سن وعمارة أحمد أبي سن وعبد القادر أحمد أبي سن وأبي عاقلة أحمد أبي سن والامين أحمد أبي سن وحسان احمد أبي سن ومحمد عوض الكريم وعلى عوض الكريم وعبد الله عوض الكريم وحمد عوض الكريم ويوسف أحمد أبي سن وأولاد محمد أبي سن وجميع أتباعهم وعائلتهم وخواصهم أحبابي قد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم «واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم» ومعلوم انكم تعلمون ان الله أنزل القرآن ليهتدى به وهو الذى هدي به نبيه صلى الله عليه وسلم وهو شفاء ورحمة للمتقين فامعنوا النظر فيما دل اليه وآمنوا بما جاء من عند الله بيقين فان المؤمنين قد وحدوا لله بما سمعوه فيه من آيات الانفس والآفاق فلما نظروا انه لا يقدر على ذلك أحد سواه وعلموا ان ملكوت كل شيء بيده لم يخافوا الا من الله ولم يرجوا سواه فمن له نور بالتصديق بما عند الله آثره على كل شيء ولا سيما اذا سمع قوله تعالى «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى» والاحوال السابقة معلومة وقد علمتم فوات مارغب فيه من متاع الدنيا من قبلكم فاذا صدقتم وعلمتم انى داع الي الله لمصالحكم التي لا يعود عليكم سواها وكل ما آثرتموه من متاع الدنيا فانما يعود بالحسرة الطويلة عند الفوات كما حصل

لمن سبق فأفيقوا فانكم عقلاء وأهل قريحة فلا تضيعوا فيما قال الله فيه «يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» فاذا بلغكم جوابي هذا وكنتم مصدقين كما حسنا فيكم الظن بحسب مجاوبتكم وما أسررتموه من بعض الاحسان على الاهل بحسب حسن الظن وكل ذلك لا يخلص الانسان بل يخلصه صفاه وحسن تصديقه لما عند الله الذى يوجب له ايثار ماعند الله فان الذين كانوا جامدين على ماهم فيه من الجاه والمال احتجبوا عن الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كانوا ينتظرونه ويستفتحون به فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به خوفا من فوات المال والجاه وخوف الخلق والطمع في المال فاخلصوا لله كما كتبتم الاتباع فانه لا يخلص عند الله الا الاتباع الخالي من النفاق الذي هو ايثار الآخرة على الدنيا واذا آثرتم الآخرة وعلمتم مالكية الله وانه لا اله الا الله وان الذى أخبرنا بخسة الدنيا ونفاسة الآخرة بمقاله وحاله محمد رسول الله صادق أمين فاخرجوا عن ملكية الترك واستعملوا شرع الله ولو متم فى ذلك فان الدار الآخرة والحياة حياتها ولا متاع خال عن طول الندم الا متاع الآخرة ولا والي في الدارين ولا حبيب غير مفارق الا الله فأنيبوا للآخرة وثقوا بالله واصبروا على بلاء الله الذى فيه لكم التصفية وتكثير الدرجات الدائمة ولا تقفوا مع الزائلات فيفوتكم بها خير الدوام ومع هذا فشمروا على احياء شرع الله في أنفسكم ومن معكم ولا تتبعوا الا طريق الرسول صلى الله عليه وسلم الي أن يأتيكم منا أمر أونأتي بالبحر الابيض فتلحقوا بنا فيه واكتفوا بالله وأنيبوا اليه ولا تلتفتوا بعد هذا الى غير الله قال الله تعالى «وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم

لا تشعرون أن تقول نفس ياحسرتا على مافرّطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين »الآية وأيضا من المعلوم ان المنيب لما عندالله الذى عرف قدرة الله يخاف منه يمتثل أمر من ولاه الله للدلالة اليه والدعاية الى ماعنده فان لم يمتثل ويدخل فى التسليم فى جميع الامور حارب الله ورسوله فاذا وصلكم جوابي وكنتم مؤمنين مطيعين لله فكفوا عن البطاحين وان كان لكم عليهم تبعات فاصبروا حتى يحكم الله بينكم على يدنا فيوصل لكل ذى حق حقه والسلام ربيع الاول سنة ١٣٠١

غردون وابن البصير

ذكرنا ما كان من أمر ابن البصير ودعوته للمهدى فى الحلاوين وسائر بلاد الجزيرة وانه كان في قلة وقد سعت الحكومة فى القبض عليه فلم تفلح

ولما وصل غردون الى الخرطوم كتب الى ابن البصير كتابا يخبره فيه باعترافه بسلطة المهدي على السودان الغربي وان بلاد الجزيرة خارجة عن دائرة نفوذه وأن قيامه بدعوة المهدى فى تلك البلاد مخالف لهذه المعاهدة وانه اذا كان لابد من بقائه تحت سيادة المهدي فليغادر الجزيرة ويلحق به أو ليكن خاضعا لامر غردون ودفع الكتاب الى رسول أصله من الذين وقعوا في أسر الحكومة من العصاة

ولما وصل الكتاب الى ابن البصير جمع أهل مشورته وتلا عليهم الكتاب فقالوا بلسان واحد انه . ضرب من الشعوذه ونوع من الاسحار وانا نحن

انصار الدين وقد عصمنا الله من أن يؤثر فينا هذا السحر فكتب ابن البصير الى غردون كتاباً تحاشى عن ايراده لما تضمنه من الشتم وبذاءة القول فى حق غردون وجلالة الملكة فيكتوريا والتهديد حيث قال له انى قادم عليك ومتحفز لمناجزتك ايها الكافر ولما اطلع غردون على الكتاب مزقه لشده تأثره مما تضمنه من الاهاجى السافلة وجاء كتاب ابن البصير ضغثا على ابالة حيث لم يبق عند غردون ذرة من الامل وامر بترميم الحصون وإصلاح ماتلف منها واخذ في إعداد معدات الدفاع والتأهب للطوارئ

ذكر خطاب المهدي لغردون

ذكرنا ماكتبه غردون للمهدي وما اهداه له من الملابس

ونقول الآن لما وصلت الهدية والكتاب للمهدي كتب الى غردون كتاباً ضمنه الاحتجاج عليه بعدم جواز ولايته على المسلمين ودعاه فيه الي الاسلام وعرض له بذكر خضوع دارفور له وانتشار نفوذه فى جميع انحاء السودان الغربي وبعث له بصور الانذارات التي خاطب بها يوسف باشا الشلالى ومحمد سعيد باشا حاكم كوردفان والجنرال هيكس وقد تقدم لنا ايراد انذار يوسف باشا الشلالى فلا حاجة الى اعادته هنا

وعرض له بذكر سلاطين باشا وغيره من الذين دانوا بطاعته وذكر تاجرا يونانيا اسمه دمترى سجاده اعتنق الاسلام وحسن اسلامه

وأرفق الكتاب بآخر شكر فيه غردون على الهدية التى اهداها له واعتذر عن قبولها بعدم حاجته الى مثلها لان ملابسه مما يلبسه الزهاد الذين يعرضون كل الاعراض عن متاع الدنيا وذكر انه مرسل بهدية الى غردون

من نوع ملابسه يسأله قبولها والتحلي بها اذا وفقه الله لاعتناق الاسلام وكتب على ظهر الغلاف بخط يده ان محمد سعيد المسلمانى الذي كان اسمه جورجو اسلامبوليه اخبرني بأن السيد أفندي نعيم الاجزاى يعرف لغة اوربية فاسألك ان تقف على ماحواه الكتابان وليترجمهما هو لك والسيدافندي نعيم هذا كان صيدلى الحكومة بالخرطوم وأصله مصرى ومحمدسعيد أوجورجو تاجر سوري وقال المهدى فى كتابه الى غردون ان محمد سعيد باشامدير كردفان بعد ان مات جاء خبر بانه صارمن السعداء بسبب انه بايعه وجلس معه وهاهي صورة ماجاء فى الكتابين وصورة انذار وصل الى هيكس قبل مقتله بايام

« الاول » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي الله محمد المهدى بن عبد الله الى عزيز بريطانيا والخديوية غردون باشا قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه وانك تزعم ارادة اصلاح المسلمين وفتح الطرق لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وحل المسيحية من النصاري والمسلمانيين وان تجعلنى سلطانا على كوردفان فاقول والامر لله انى قد دعوت العباد الي صلاحهم وما يقربهم من ربهم وان يفرغوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ويعملواما يصلحهم في آخرتهم وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وأنا «بابا» بدعايته الى الحق وبان مهديتى من الله ورسوله ولست فى ذلك بمتحيل ولا مريد ملكا ولا جاها ولا مالا وانما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين واكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فاخذوا

الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خير القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئاً وندموا على قدر الذى تمتعوا به فايدنى الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلالتهم الى الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى الى العز الدائم الابدى فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد لعاجلة ويظن انه ساع فى رضى الله ويكون له نصيب في الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً ومن ظن انه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور فكذلك من ظن انه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له في الآخرة شأن. فأنب الي الله الباقي واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن ان هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريق النبي صلى الله عليه وسلم يفتح باب زيارة قبره ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن يرغب زيارة الكلاب كما ورد ان الدنيا جيفة وطلابها كلاب ولم يكن يرغب من عبد غير الله ونسي الله واعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فان كنت شفيقاً على المسلمين فبالاولى اشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أحيي ما اندرس من ملل الانبياء والمرسلين وأتى مصدقاً لما بين يديه من الكتب فجميع الانبياء عليهم السلام لو حضروه لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون ان يكونوا من أمته ومن حضر بعثته ومن بعدهم لا يقبل منه دين غير دينه فطهر نفسك أولاً بالدخول فى ملته ثم أشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا تكون الشفيق ومن غير هذا فالك من المحقين رفيق كيف وقد قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود

والنصاري أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين» الى ان قال «انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون» وانا قد امتثلنا أمر الله فما نتخذ وليا الا الله ورسوله والمؤمنين وعلى ذلك قد وعد الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا حيث ان الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فان رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسلام وأنبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا وتكون من اخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى «ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيآتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو انهم أقاموا التورية والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» الآية فبعد هذا تتصل المحبة والمودة فيما بيننا وبينك وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الابدي والا حيث علمت ان حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون من كلام الله فاعلم ان حزب الله واصل اليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فادعيت ملك عباده وأرضه مع ان الارض لله يورثها عباده الصالحين وأما المسلمانيون والمسيحيون الذين دعوت الى اطلاقهم اليك فانا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفى دار الابد كما أريده لك ولكافة عباد الله فلا أبعدهم من جنتهم الى محنتهم فان الله قد أبدني رحمة للعباد لانقذهم من الهلاك الذى هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم انى

المهدى المنتظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا في مال الدنيا ولا زخرفها وانما أنا عبدالله دال على الله والي ما عنده فمن كان سعيداً اجابني واتبعني ومن كان شقيا أعرض عن دلالتى فازاله الله عن موضعه وأذله وعذبه عذاب الابد وقد أيدني الله تعالى بالانبياء والمرسلين والملائكة والمقربين وجميع الاولياء والصالحين لاحياء دينه وقد بشرني النبي صلي الله عليه وسلم ان جميع من يلقانى بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك اخوانك فافهم وسلم تسلم. وأما الهدية التي أرسلتها لنا فعلي حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك الى الصواب واعلم انه كما كتبنا لك أنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فهاهي مرسولة اليك مع مانرغبه من اللبس لنفسنا ولاصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباق الابدى ليستحقوا بذلك نعيم الابد وملك الدوام كما درج على ذلك الانبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسي عليه السلام وحواريه وقد قال كبيت لكم الدنيا فلا تنعشوها بعدي فتعلم بذلك ان من خالفه من الاحبار والرهبان وجميع من يدعي اتباعه ليسوا محقين وانما غرتهم الحياة الفانية والامتعة الآيلة الى ان تكون جيفة وعذرة ثم عدما محضا فتكون حسرة وندما عند فراقها لما فوته من اكتساب خيرات الدوام ثم ان مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلبا لما عند الله وأقول فى ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتيكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم

منها اذلة وهم صاغرون» واعلم انك اذا أتيتنا مسلما نربيك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك ان رأينا فيك خيراً وصلاحا للمسلمين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير (دارا) سابقا فانه لما أتانا ورأى الحق وفرح بلقائنا غاية وندم على مافات مما ضيعه من عمره فى الفاني واطمأن قلبه بالله واختار الآخرة ووثق بالله وليناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين بالتسليم فاكرمناه والي الآن نزيد كمال تربيته وهو الآن فى خير كثير وكذلك السيد جمعه الذى كان مدير الفاشر الآن أرسلنا الي محمد خالد المذكور يأتى به الينا لكمال التربية والارشاد وبلغنا حسن اسلام الدمترى سباده وصدق اتباعه لنا وانابته الى الآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد اذعنوا لله كباقي سلاطين دارفور وسلموا جميعا أمرهم الينا فى حب الله ورسوله لحسن تسليمهم واتباعهم لنا وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتي مهاجراً لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد اكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلم جرا فكل سعيد لابد ان يتصل بنا من جميع أقطار الارض ومن أبي لابد أن يخذله الله ويعذبه في الآخرة كما أشار الى ذلك النبي صلي الله عليه وسلم مراراً وليكن معلوما عندك يا حضرة الباشا ان جميع الذين قتلوا على يدى قد انذرتهم أولا انذارا بليغا وهاهو واصل اليك انذار ولد الشلال بعد مخاطبته لى وانذار هكس باجوبة عديدة للعامة وجواب مخصوص له ولاكابر جيشه وقد أرسلنا الي باشة الابيض بجواب فقتل رسلنا وبعد أن وقع فى يدنا اكرمناه واعطيناه جبة جميلة ليتدرج الي الصدق مع الله ولا زلنا نكرمه ونعظمه ليقتدي بنا ويصدق مع الله فيكون من الاصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولا زال

يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته نيته فمات ومع ذلك لاجل مبايعته ومجالسته معي اياما قد اتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه فى الآخرة فصار من السعداء والعبد اذا كان يسعد في الآخرة فهو المقصود ولا خير فى الدنيا ولا في نعيمها بل انما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونبتي بالعباد سعادتهم فى آخرتهم الابدية وازالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الاكابر وأهل الدولة بالقول والفعل ليعرفوا ما عند الله فيرغبوا فيه ويتركوا الخسيس الفانى وهكذا جميع من وقع في قبضتنا من الاكابر من اهل الدولة والحكام ما عملنا معه الا الخير والاكرام فمن صدق منهم معنا فهم الآن في خير كثير وازدياد شرف والسلام — جماد أول سنة ١٣٠١

وبعد هذا البيان فان اهتديت وسلمت لي واتبعتني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت باجرك وبأجر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك اثمك ومثل آثام جميع من اتبعك وان كان لك حسن نور فى العقل تعلم اني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تتهمنى فيما أسوق به الى الله والدار الآخرة ولا تسمع عليّ قول الظالمين الحساد الذين يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الا أن يتم نوره وقد قال صلى الله عليه وسلم من شك في نصرة المهدي فليقرأ قوله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقوله تعالى كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا والهادي هو الله وكثرة البيان لاتهدى هدانا الله والعباد الى الصواب آمين

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم * والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

(وبعد) فمن عبد ربه الفقير الي الله محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا باطلاعك على ماندوّن بالجواب اليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبري الذين لا يبالون عما فات من المشتهيات طلبا لعالي الدرجات وهي جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فان أنبت الى الله وطلبت ماعنده فلا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وهاهو الرسول الذي أتى منك واصل اليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام

«صورة ما كتبه المهدي على ظهر المظروف الذي أرسل الي غردون»

سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف وقد أبلغني محمد سعيد المسلماني الذي يسمي جورجو اسلامبوليه أن رجلا يسمي السيد افندي نعيم الاجزائي له معرفة بلغتكم وبالخط العربي وما دام انه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على مافي هذا الظرف جميعه حرفياً على يد المذكور أو من هو مثله وقد سألتك السؤال المذكور لما ذكرته والسلام اه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم (وبعد) فمن الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل فانه لا يخفى على ذي عقل ان الامر بيد الله ولا يشركه في ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لاحد الا من عصمه الله تعالي فاذا فهمتم ذلك فاعلموا ان الله واحد فلا تغتروا باسلحتكم ولا بجموعكم التي تريدون ان تقاتلوا بها جنود الله فانه لا قوة لشيء دون الله وان قلتم إن مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان التكذيب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف

المخلوق ويستعجز قدرة الله فاذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم فان الترك الذين قتلهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا الهنا ومولانا إن المهدي قتلنا من غير انذار فاقول يا رب انذرتهم فلم يسمعوا وحضر على ذلك شاهدا سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم الامام المهدي انذركم فلم تسمعوا له وسمعتم قول علمائكم فذنبكم عليكم فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدي بعد اذجاءكم بل كنتم مجرمين فان كان لكم نور تؤمنوا بالله ورسوله والدار الآخرة وتصدقوا بمهديتنا وتخرجوا الينا مسلمين ومن أسلم يسلم وان ابيتم الا الجحود والاغترار بالمدافع والبارود فانتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود وأسوتكم ما سبقكم من الجنود والسلام — ١٩ ذي الحجه سنة ١٣٠٠

وقدم على غردون رسولان مع رسوله يحملان الكتب والهدية التى هى جبة مرقعة وسراويل وعمامة كلها من نوع خرقة اسمها (الدمور) تصنع فى السودان وهى أردأ من النوع الذي يعمل في مصر أشرعة للسفن الشراعية

ولما وصل الرسولان الي الخرطوم شهرا سيفيهما فأمرهما ضابط باب الحصن باغمادهما فلم يطيعاه فامر غردون بالمحافظة عليهما حتى يصلا السراي وهاج أهل الخرطوم عليهم وهمّ الصبيان والرعاع برجمها بالحجارة فنعوا ولما دخلا على غردون قالا له (السلام على من اتبع الهدى) وسلماه الكتب والهدية ولما نظر الهدية غضب ورفسها برجله وقال (غوديم) ثم اطلع على الكتب وابقى الرسولين بطرف حاجب السراي ريثما حرر للمهدى كتابا قال فيه انني أدعوك الى السلم وأنت تدعونى الى الحرب وادعوك الى حقن الدماء

وأنت لاتميل الا الي سفكها فاقول لك الآن لابد من تهرك وكبح جماح طغيانك ومهما يكن عندك من الاتباع فلا بد ان ترضخ صاغراً أو تهلك حيال قوتي الحكومة الخديوية والدولة الانكليزية وعاد الرسولان الي المهدي واشتغل غردون بمخابرة مصر ولوندره بالتلغرافات التي نذكرهافيما يأتي

مامورية غردون الحقيقية

عقدت هذا الباب بيانا شافيا لما سردته قبل من مأمورية غردون التي كانت ترمي اليها حكومة انكلترا وقد حسر اللثام عنها غردون نفسه فيما كتب من مذكراته المشهورة بتاريخ ٢٢ يناير وهي بنصها

أرى ان حكومة جلالة الملكة قد عقدت النية على ان لاتأخذ على عهدتها المهمة الكثيرة الصعوبة التي غايتها وضع حكومة منتظمة لامم السودان وانها بدلا من ذلك قد صممت ان ترد الي هذه الامم حريتها وان لا تسمح للحكومة المصرية بالتداخل في شؤون تلك الامم اه

وعليه فان مأمورية غردون منحصرة في هاته السطور بمعنى ان حكومة جلالة الملكة كان غرضها ان يمهد غردون السبيل لوقوع تلك البلاد في مخالب الفوضى وبعبارة أخرى ان يقضي على نفوذ مصر في تلك الارجاء

هذه كانت مقاصد انكلترا أما الخديوي توفيق باشافان مقاصده الحقيقية اعادة الامن والسلام الى هاتيك الاقطار ثم اجبر على تحوير مقاصده بجعلها قاصرة على انقاذ المخلصين من رعاياه من الخطر المحدق بهم واخلاء السودان اخلاء تاماً عن كل المصريين والذين استوطنوه من العناصر المتمدنة واقامة حكومة وطنية بها

ويظهر جلياً ان الخديوي كان مرتاباً فى نجاح مأمورية غردون بالطريقة السلمية التي كان متمسكاً بأذيالها ولذلك صرح للبارون دي مالورتي بالتصريحات الآتية وقد نشرها البارون فى الصحف الانكليزية الكبيرة وهى كما يأتي

لم يكن في استطاعتي ان أبدي دليلاً على حسن مقاصدي باحسن من تعيين غردون باشا حكمداراً عاماً للسودان ومنحه كل السلطة فى عمل مايراه ضرورياً لاصابة الغرض الذى ترمى اليه حكومتي وحكومة جلالة الملكة. حتي انى قلدته نفس السلطة المخولة لي وتركت له الحكم على الحالة الراهنة ولا ريب في ان ما يستطيع اتيانه من الاعمال أحسن مايكون . وقد قبلت سلفاً ما يمكن ان يقترحه من الوسائل الي ذلك اذ ما يراه حسناً من التصرفات يكون الزامياً بالنسبة الينا ثم اني بعد ان جعلت عظيم ثقتي بهذه الكيفية في هذا الباشا لم اشترط عليه الا شرطاً واحداً وهو ان يبذل عنايته فيما فيه طمأنينة العناصر المتمدنة من أوروبيين ومصريين وها قد أصبح الآن الرئيس المفوض يرافقه حسن آمالي فى هذه المأمورية التي هى من الخطارة والاهمية بمكان فان قلبي يذوب عند ما أفكر فى الالوف المألفة من رعاياى المخلصين الذين تكفي غلطة منه لهلاكهم . وانى لا أشك فى انه سيبذل كل مافى وسعه لحقن دماء اكثرهم على الاقل . فان نجح بعون الله في اخلاء الخرطوم وأهم مواني السودان الشرقي فله الشكر مدي الدهر على رعيتي التى ترتعد فرائصها من توقع ما يخشى حصوله بعد حين . أما قولى لك انه ينجح فى مأموريته فهو من قبيل المجازفة منى فى الكلام كثيرا اذن امامه قوات اكثر منه عدداً وأهوالاً غير انا نرجو الخير وأما هو فيمكنه ان يعتمد على أصدق مساعدة وأسرع معونة مني انا وحكومتي بقدر ما تصل اليه يد الامكان اه

ويظهر من هذا التصريح ما قلناه من ان الخديو أجبر على قبول مأمورية غردون على علاتها ولما رآها ترمي الى غرض إيقاع السودان في مهاوي الفوضى اقتنع بامنية واحدة هي انقاذ رعاياه المخلصين من الشرور التي كان متوقعاً حصولها من نتيجة مأمورية غردون الذي أرسل ليموت حتى بموته يتم غرض دولته

على ان غردون لم يكن جاهلا بكنه تلك النية ولهذا كان يرسل التلغرافات تترى ويدون المذكرات لا ليقنع قومه بالعدول عن ذلك العزم بل ليجعل التاريخ حكما بينه وبين قومه لاعتقاده ان تلغرافاته ومذكراته لا بد ان تنشر على الجمهور ويطلع عليها العالم أجمع وهم لا بد ان يحكموا له لا عليه

وقد تحققت أمنيته حيث نشرت الحكومة البريطانية تلك المذكرات والتلغرافات في كتبها الزرقاء وكان لها من الاهمية فوق ما كان يتمناه صاحبها وقد دارت مباحث كثيرة بشأنها في اندية انكلترا وبرلمانها ومجلس لورداتها وأهم هاته التصريحات مافاه به مستر غلادستون في مجلس العموم حيث قال «ان حكومة جلالة الملكة تأخذ على عاتقها مسؤلية المأمورية التي القيت مقاليدها الى غردون أدبياً وسياسياً وانها ستعمل كل ما في وسعها للوصول الى نتيجة مرضية اهـ

ثم فاه غلادستون أيضا بتصريح اوضح من هذا حيث قال « ان مهمة غردون هي اخلاء السودان وانقاذ موظفي الحكومة ثم قال ان ثقتنا به عظيمة ولسنا مبالغين في شيء من رواياتنا وانا عقدنا النية على ان لا نفاجأه بعمل دون استشارته وأخذ آرائه»

وغير هذا وذاك كثير من التصريحات التي لا مشاحة في انها كانت من

معميات السياسة حيث يري من ظاهرها ان غردون لو أشار باصبعه لملأت انكلترا البر والبحر رجالا وسفنا وانقذته من كل خطر يتهدده وقد اكدت الحوادث خلاف هذه الاقاويل فان الانكليز صموا آذانهم دون نجدته حتي قضي عليه ولم يمدوا له يد المساعدة وذلك أدل دليل على ان ما عقدوا نيتهم عليه لم يكن غير ما أصاب غردون وما تم من إعطاء أمم السودان حريتهم ومنع الحكومة الخديوية منعا باتا من التداخل فى شؤونهم وسنورد بعد هذا كثيراً من مذكرات غردون وتلغرافاته وهي تؤيد ماقلناه وتثبت كل ما أوردناه والله الهادى الى سواء السبيل

ذكر تلغرافات غوردون

لما يئس غردون من نجاح مأموريته السلمية وانقطع حبل رجائه بما ورد عليه من كتب المهدى وداعيته محمد بن البصير اجتاز النيل الازرق الى الشرق عند قصر راسخ بك وأرسل احدى عشرة رسالة برقية الى السير بارنج يخبره فيها بما وصلت اليه حالته وان العدو على وشك الزحف عليه للاحاطة بالمدينة وان الاسلاك البرقية ستقطع قبل أن يتمكن من مخابرته مرة أخري وأرسل برسائل اخرى الى الخديو المرحوم توفيق والى نوبار باشا رئيس الوزارة المصرية وقتئذ فوردت عليه من السير بارنج رسالة جاء فيها انه لم يفهم ماتضمنته الاحدى عشرة رسالة وان الاولى به أن يخبره بقصده بعد طول التفكر مع ان ماجاء في الاحدي عشرة رسالة يتضمن شيأ واحداً هو بالايجاز وجوب ارسال النجدة لاسعافه وحفظ خط الرجوع من دنقله الى بربر

ولعل جناب السير افلن بارنج كان يقصد من قوله لم أفهم انك لاتجهل

ان مقاصد حكومة جلالة الملكة غير ماتطلبه ولم أفهم منك هذه الطلبات حيث انك لاتجهل انها لاتحول عما عقدت نيتها على انفاذه وفي تلغرافات غردون ان الاسلاك البرقية على وشك الانقطاع وانه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول اخباره الى القاهرة فكانت اشارة السير بارنج بمخابرته بعد التفكر أمرا فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخابرة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا

وأرسل غردون تلغرافا فى أول مارس سنة ١٨٨٤ الي السر بارنج جاء فيه مايأتى

لم أزل أعتقد كال الاعتقاد ان اخلاء السودان ممكن لكن أقول لك انه من المستحيل اجلاء المستخدمين المصريين عن الخرطوم اذالم تساعدنى الحكومة فى الطريق الذي أوضحته لها اه

فأجابه السير بارنج بتاريخ ٢ مارس بالرسالة الآتية

قد وصلتنى الاحدى عشرة رسالة التلغرافية المرسلة الى في الاربعة أيام الاخيرة بخصوص مسائل السياسة العامة واني شديد الرغبة فى مساعدتك بكل طريقة لكنى لم أتمكن من معرفة ماترغبه الآن وأرى ان أحسن طريقة هى أن تلخص المسألة جيداً وتخبرنى تلغرافيا عما تستصوبه اه

فأجابه غردون بالرسالة الآتية

يجب على الحكومة مساعدتي وان اجابة مطالبي ضربة لازب

هذه خلاصة ماتبودل بين غردون والسير بارنج من التلغرافات وقد كان هذا يعرضها كلها على الحكومة الانكليزية ويشفعها بعبارات تمرقلها.منها تلغراف السير بارنج الى اللورد غرانفيل بتاريخ ٤ مارس حيث قال مايأتي

ان الجنرال غردون والسير ستيوارت يلحان بوجوب فتح الطريق بين سواكن وبربر لنجاح مأموريتهما الحاضرة

أما أنا فلا يمكنني تعضيد ماجاء بتلغراف ستيوارت من ارسال فرقة من الخيالة الانكليزية أو الهندية الى سواكن

وأرسل السير بارنج الى اللورد غرانفيل الرسالة الآتية أيضاً

أتشرف بأن أخبر سعادتكم ان الجنرال غردون كتب الى تلغرافياً باننا لو أرسلنا مائة جندي الى أصوان ووادي حلفا يأمن من كل خطر ويكون في حالة اطمئنان كالسواح المسافرين فى النيل وينتج منها تحويل صغير أما أنا فلا أريد مطلقا أن أخاطر بحياة فرقة صغيرة مؤلفة من مائة جندي فقط اه

وقد كان غردون لسوء حظه يبعث بتلغرافاته الى السير بارنج وقد رأيت كيف انه كان ينصب نفسه لماكسته والنصح للحكومة البريطانية بعدم الالتفات الي شيء من مطالبه حيال تلك التصريحات التى تقدم لنا ايرادها عن الجناب الخديوي وساسة الانكليز الذين تعهدوا بمساعدته ومعاونته في سبيل نجاح مأموريته حتي أن نجاته كانت متوقفة على أرسال مائة جندي الى أصوان وحلفا فلم ير السير بارنج لزوما للمخاطرة بهذه الكوكبة الصغيرة فهل بعد ذلك كله من حاجة الى برهان بان غردون أرسل ليموت ويترك السودان الى الفوضي. ويري القاري فيما أوردناه من تلغرافات السر بارنج الى غردون بتاريخ ٢ مارس عبارته التي يقول فيها انى شديد الرغبة فى مساعدتك بكل طريقة ثم ماأوردناه بعدها من تلغرافاته الي دوائر انكلترا وعرقلته لكل مشروع من شانه ان يساعد غردون على النجاح حتى انه نصح الحكومة

الانكليزية بعدم ارسال مائة فارس الى أصوان ووادي حلفا لان أرسالهم يكون سببا فى ابعاد الخطر عن غردون بعض الابعاد

على أن ارسال المائة فارس الي حلفا كان يقصد به غردون ان أخبارهم تصل الي المهدي بغلو كثير حيث يظن ان جنودا قادمون لامداد غردون فلا يجسر على التقدم عليه ومناجزته

ولو عملت الحكومة الانكليزية براي غردون وأرسلت المائة فارس لكانت النتيجة حسنة ولم تسقط بربر في أيدي المهديين حيث بسقوطها أحدق الخطر بغردون وانقطع أمله من وصول نجدة عن طريق حلفا أو سواكن لان بربر نقطة التقاء الطريقين

وكان قصد غوردرن بكل مخابراته مع السير بارنج أن يكون التاريخ حكما بينه وبين انكلترا كما قدمنا ولذا بعث بتلغرافات قبل وصوله الى الخرطوم فحواها ان الاضطرابات اقل مما كان يظن وانه يرى ان لامندوحة له من تمحيص حكومة جلالة الملكة النصح بتسكين الاضطراب فى السودان الشرقي وتقوية خطوط الاتصال بين بربر وشواطئ البحر الاحمر من جهة وبين حدود مصر من جهة أخرى وحاول اقناع السر بارنج بان السودان مفتقر كل الافتقار الي اشراف الحكومة الخديوية عليه بحقوق السيادة وسأله ابدال الفرمان الذى كان يحمله بآخر يحتم على السودان وجوب الخضوع الى مصر فذهبت مساعيه كلها ادراج الرياح وأصر السير بانج على انفاذ الخطة التي توخاها أولا ولم يلتفت الى شيء من نصائح غردون الذي كان يرى ان وقوع السودان كله في قبضته يكون خطراً على مصر وان احتلال انكلترا لوادى النيل يحتم عليها العمل عاجلا لابعاد كل الاخطار عن البلاد التى احتلوها

ليوطدوا دعائم الامن والراحة في ارجائها

وجاء ضمن نصائحه ان حكومة جلالة الملكة ستضطر يوماً لمناجزة المهدي وكبح جماح طغيانه وسوف تتكبد من الضحايا ما يبلغ عشرة أضعاف ما تتكبده الآن لو عملت بمشورته وقبلت نصيحته فلم يلتفت السير بارنج الى شيء من ذلك كله بل أصر على انفاذ ما رسمه ساسة قومه غير مكترث بشيء من الضحايا التي يتكبدها سكان السودان عموما وسكان الخرطوم خصوصا

والحاصل ان تلغرافات غردون لم تعد بفائدة ولو صغيرة واصبح لا مناص له من الوقوف امام الصعوبات التي كان يراها تدنو منه حتى وقع القضاء وتغلب المهدي على السودان والامر لمن له الامر

ولما كانت الصور الرسمية التي بايدينا قد لعبت بها أيدي الضياع ايام وقوعنا في أسر المهديين اضطررنا لنقل هذه التلغرافات من كتاب مصر في عهد الاحتلال الانكليزي لمؤلفه هنس رزنر الالماني مترجما وكلها طبق الحقيقة

اول حصار الخرطوم

ذكرنا ما كان من أمر الشيخ العبيد وما ورد عليه من كتب المهدي وقطعه الاسلاك التلغرافية ثم سماحه باعادة اصلاحها

وفي غضون اشتغال غردون بمخابرة السر بارنج ارسل اليه الشيخ العبيد كتاباً يدعوه فيه الى التسليم في هذا اليوم وانه أمر بقطع اسلاك التلغراف في الغد فكتب اليه غردون يلاطفه ويسأله ان لا يكون مع المهدي لمكانته من الصلاح والشهرة فرد عليه اسوأ رد وفي يوم ١٦ مارس زحف ابراهيم والعباس ابنا الشيخ العبيد ومعهما سبعون الف مقاتل على الضفة الشرقية

من الخرطوم وقطعوا الاسلاك قبل الظهر وتقدموا الى ضفة النيل واطلقوا النيران على المدينة وكان جل مقذوفاتهم يسقط على سراي غردون لان موقفهم كان تجاهها

واجتمع فى سراي غردون من سكان المدينة نحو الفي نسمة يظهرون شديد اسفهم وكان هو واقفا كواحد منهم الا انه كان مصوبا نظارته المعظمة الي مكان اجتماع العصاة وكان اكثر الناس مثله وسمع البكاء والولولة من دور المدينة كلها لان السكان كلهم مدركون خطارة الحالة وشاعرون بما يحدق بهم من الاهوال والمصائب وغردون كان فى الباطن مثلهم لا يقل عنهم الا انه كان يظهر عدم الاكتراث ويبدى من الضعف قوة ومن الياس رجاء حتي كان ظهوره بهذه الصفات مما ساعد كثيرا علي بث روح الشجاعة فى قلوب السكان

واقعة الحلفايه واصابة المؤلف برصاصة

والاحسان عليه برتبة اللواء

فى اليوم الذى ظهر فيه العصاة وقطعوا الاسلاك البرقية عهد الى غردون ترتيب الحامية فى الضفة الشرقية حول قصر راسخ بك وتفقد الخندق المحيط بذلك القصر فاجتزت النهر وعدت بعد ان رتبت الحامية فالفيت البواخر على أهبة السفر وبها نحو ثلاثة آلاف جندى بين نظاميين وغير نظاميين فاستدعاني غردون ودفع الي أمراً بقيادة هاته الجنود وأمرني بمباغتة العصاة الذين عسكروا فى الحلفاية على بعد أربعة أميال من قصر راسخ بك فابحرت على الباخرتين ولدي وصولنا الى الحلفاية ألفيت العدو قد تحصن بها وراء متاريس وشاد نحو ثلاث طوابي فأخذ مني العجب مأخذاً حيث لم يكن قد

مضى عليه اكثر من بضع ساعات منذ حلوله فى هذه الجهة وكانت متاريسهم وحصونهم بشكل نصف دائرة فرجتها الى النهر وعرضها الى الفلاة

وبعد ان ألقت الباخرتان مراسيهما شكلت قلعة زحفت بها على ميسرة العدو الذى قابلنا بثبات غريب وصوبنا قنابلنا الي الثلاثة طواب واجتحنا المتاريس من جهة الميسرة وبعد ساعتين ثبت فيهما الجنود ثباتاً غريباً استولينا على المتاريس والطوابى وطردنا منها العدو وتقدمت ميمنتنا واحتلت الاكواخ التي كان النساء والاطفال فيها وساقتهم أسرى وقبضنا على عدد كبير من الرجال أسرى كذلك

وكانت ميمنة العدو باقية على المقاومة فتقدمت نحوها بميسرة جنودي فتمكنت فى برهة يسيرة من الزمن من طردهم واحتلال موقعهم فتأثرتهم الجنود الذين اضطررت لارغامهم على العودة الى النظام وعدم تأثر العدو لان الظلام بدأ بارخاء سدوله علينا وبينما أنا على هذه الحالة أصابتني رصاصة في نخذي الايمن اخترقت اللحم ونفذت الى العظم فاحتملني الجند وعادوا بي البواخر واستولت عليهم دهشة شديدة عادوا بسببها الى البواخر بدون انتظام ولو لم يكن العدو قد لجأ الي الفرار لكانت العاقبة سيئة ولم يفقد من الجنود غير اثنين وواحد من قواد الباشبوزق

ولما عدت الي المدينة استقبلني غردون ملهوفاً ولما رآني ملقى على الفراش والدماء تسيل من نخذى تأثر الي درجة كاد يفقد معها عقله وأصدر في الحال أمره باحتمالى الي دارى وأمر طبيبه الخاص بالاشتراك مع أطباء الحامية وشدد عليهم فى وجوب الاعتناء بمعالجتي وخاطبنى قائلاً قد أنعمت عليك برتبة اللواء وسلمنى اعلاناً بذلك

وظللت ملازم الفراش نحو ثلاثة أشهر كان يزورني خلالها كل يوم وقد رجوته مراراً عديدة ان يقلل من زيارتي حرصا على عدم ضياع أوقاته في غير الاهتمام بشؤون الدفاع عن المدينة فلم يفعل بل ظل على عادته حتي من الله على بالشفاء وأصدر الاطباء قراراً بان الاصابة كانت خطرة جداً وكان يخشى على حياتي منها وأن مانشأ عنها من العاهة يستحيل زواله واعادتي الى الحالة الاولى

واقعة القبة

القبه قرية على ضفة النيل الشرقية بينها وبين الخرطوم النيل وموقعها بازاء المدينة وسكانها سود وبها ضريح قديم لشيخ اسمه (خوجلي) يزعم أولئك السكان انهم من نسله وهي مرتفعة عن البحر وهواؤها جيد يقصدها أهل الخرطوم للنزهة والرياضة

ولما هزمنا العدو في الحلفاية تراجع في ليلته وتجمع في هذه القرية واتخذ جدران المنازل متاريس واخذ يطلق النيران على المدينة حتي تعذر على السكان الاستقاء من النهر فوضع غردون تحت سرايه مدفعين من طرز كروب واخذ يطلق واحدا بنفسه والمستر باور قنصل انكلترا في الخرطوم يطلق الثاني والرصاص يهطل عليهما كالمطر وهما في غاية الثبات وقبيل الظهر امر بتشكيل قوة من الف جندي تكون محمية بالقنابل تفاجيء مكامن العدو لتطرده فسارت القوة براً من حصن قصر راسخ بك يقودها ضابط عظيم فامسك العدو عن إطلاق النيران حتي أشرفت على متاريسه فهاجمها فرسانه فاطلقت النيران عليهم حتي ولوا الادبار ودخل ثلاثة فرسان المربع فاوقعوا الفشل في الجنود وانتثر عقد نظامهم وولوا الادبار الى الحصن وكان غردون ينظر ذلك بعينيه

فاظهر الاستياء للقائد وأمره باستئناف الهجوم في الظهر حيث تمكن من دحر فرسان العدو الذين وثبوا عليه ثانية ودخلت الحامية القرية وأجلت عنها العدو وخرج كثير من سكان الخرطوم ولحقوا بالحامية ونهبوا القرية وأضرموا النار في المساكن ثم عادت الحامية الى حصن راسخ بك عند غروب الشمس

وبذلك عاد بعض الامن الى ضفة النهر وأمسي السكان قادرين على الاستقاء منه الا أنهم كانوا يعاودون الكرة ويطلقون النيران على المدينة فعقد غردون مجلسا من القواد وموظفى الحكومة وبعد المداولة أقر على انفاذ قوة كبيرة تسير من قصر راسخ بك برا الى الحلفاية تهاجم العدو وتطرده من معسكره

وكان غردون يظن ان هذه الحركة ستكون نتيجتها الفوز كما حصل للقوة التي كنت قائدها فخاب أمله حيث خان أثنان من القواد وذبح نحو ثلاثة آلاف نفس من الحامية كما تراه مفصلا فيما يأتي

ترجمة السعيد حسين وحسن ابراهيم

السعيد حسين الجيمابى نخاس كان مع ابن الزبير وقد ذكرنا ان غردون ولاه على احدى المقاطعات بدارفور هو والنور عنقره لما اعتزلا ابن الزبير وهو من قبيلة حقيرة اسمها (الجميماب) تسكن على بعد خمسة عشر ميلا من شمال الحلفاية وعدد نفوس هاته القبيلة لا تجاوز الخمسمائة نسمة وأرضها قاحلة مكسوة بالحجارة ولا ماشية عندها وقوام معيشتهم على الاعمال الدنيئة كأعمال الفعلة فى الابنية وغيرها وكثير منهم لصوص وقطاع طرق كما أنهم لا يأنفون الكسب ببذل العرض وخلع برقع الصون والعفاف كالذين

أشار اليهم سلاطين باشا فى كتابه المعلوم

ولما كانت النخاسة والاعمال التى يقوم بها محترفوها لاتختلف عن مهنة اللصوصية انتظم من هذه القبيلة أفراد فى سلك النخاسين كان من بينهم السعيد حسين هذا حتى صار من أمره ان غردون لما استماله ولاه على احدى المقاطعات الواقعة بين دارفور وبحر الغزال ثم خرج على الحكومة حتى جرد عليه حاكم دارفور حملة أرجعته الى الطاعة قسرا وجاءت به الى الخرطوم

ولدى عودة غردون أنعم عليه برتبة الميرميران الرفيعة مع لقب باشا وعينه قومندانا على جنود الباشبوزق وجعل حسن ابراهيم المترجم الثانى وكيلا له حتي كان من أمرهما مانورده بعد

وأما حسن ابراهيم فانه ابن عم يوسف باشا الشلالي وكان نخاسا أيضاً وترجمته لاتخالف ماأوردناه فى ترجمة ابن عمه وقد أنعم عليه غردون برتبة الميرميران كالسعيد حسين وعينه وكيلا لقمندانية جنود الباشبوزق

واقعة الحلفاية الثانية

لما عقد غردون النية على انفاذ حملة أخرى الى الحلفاية لتطرد الدراويش منها عهد بقيادتها الى السعيد حسين الجيعابى وحسن ابراهيم الشلالى وكان عدد جنودها ثلاثة آلاف من الباشبوزق وألفا من الجنود النظاميين ومعها مدفعان من الطراز الجبلى وساروخان حربيان وزحفت الحملة فى غداة اليوم الرابع من بداية حصار الخرطوم

ولما التقي الجمعان لم تقذف الجنود رصاصة واحدة حتي انحاز القائد السعيد حسين ووكيله حسن ابراهيم الى الاعداء وجردا سيفيهما وقالا

الله أكبر على الكفار ووضعا السيف فى رقاب الجنود الذين اختل نظامهم وذبح العدو منهم أكثر من ثلاثة آلاف وغردون واقف على سطح سرايه يرى هذا المنظر الفظيع ويضرب الارض برجليه ويعض أنامله ثم اعترته نوبة شديدة فقد معها عقله وحاول أن يلقي نفسه من سطح السراي فأمسكه المستر باور قنصل انكلترا

ووقف عند المدفعين والساروخين نخاس اسمه مولا بك ودافع حتى قتله العدو وبلغ عدد الذين نجوا من غير ان يصيبهم سوء نحو خمسمائة نفس

ولما وضعت الحرب أوزارها بقي السعيد حسين وحسن ابراهيم مع الدراويش وقدمت الاطعمة فاكلا مع الامراء وجري الحديث بينهم فقال لهما أحد الامراء أرى انكما قد أذيتما واجبكما وأخشى عليكما شراً ان عدتما الى المدينة فقالا خفض روعك فانه لاباس من عودتنا وانما لا نقنع بما فعلناه بل لا بد من احضار رأس غردون لنأخذ بثار الذين قتلهم من اخواننا النخاسين فى بحر الغزال ودارفور ثم عادا الى المدينة بالليل فسألهما غردون عما رآهما يفعلانه فقالا ان الجنود اظهروا جبناً وانما فعلنا ذلك لنكرههم على الثبات فاغتاظ من هذا الكلام وأمر بالقبض عليهما وسجنهما فى القشلاق وألف مجلسا عسكريا لمباشرة التحقيق فظهرت اداناتهما فحكم عليهما بالاعدام وصدق عليه غردون ولما أخرجا الى ميدان القتل هاج الجنود وهجموا عليهما وضربوهما بالمعاول حتى ماتا وعجز القواد عن كبح جماح الجنود حتى ينفذ حكم الاعدام بالطريقة القانونية

ولحق غردون تأثر سيء من هذه الحادثة حيث أصيب بمرض كاديودي بجيئته ومع اشتداد وطأة المرض عليه كان لا يعمد الى الراحة والنوم على

الفراش الا بعض سويعات من النهار اما الليل فانه كان يقضيه ساهراً على الحصون يتلقى أخبارها كل لحظة ويأمر بزيادة التيقظ

على ان حركة العدو وان كانت في الشرق والمدينة مأمونة من جهة الخندق المحيط بها فقط الا ان أهالي الضواحي الذين ذكرنا انقيادهم الي عبد القادر أم مريوم هجروا قراهم وأوغلوا في الفلوات وامتنعوا عن الدخول في المدينة وتقديم الاغذية لان ابن البصير والشيخ العبيد كتبا اليهم بان كل من دخل المدينة كافر محاد لله ورسوله وماله وأولاده غنيمة للمسلمين

وقد هجر المدينة نحو ثلاثين الف نسمة من السكان السودانيين ولحقوا بدعاة المهدى فامر غردون بهدم منازلهم وجمع أخشابها لوقود الوابورات وسكان المدينة ولم يبق في المدينة غير المصريين وسيأتى ان عددهم يقرب من مائتى الف نسمة عدا الذين هاجروا من المدينة الى القطر المصري

ذكر حصار الفكي المصطفي الخرطوم

﴿ من جهة الضفة الغربية ﴾

الفكي المصطفي بن الفكى الامين بن ام حقين كان أبوه الفكى الامين معتقداً وكان يسكن جزيرة فى النيل شمال أم درمان على مسيرة مرحلة واحدة وتوفى بها وله ضريح في الشاطئ الغربى

وكان الفكي المصطفى مشهوراً بالسكينة والابتعاد عما لا يعنى منقطعاً لحراثة أرضه والقاء دروسه وارشاد مريديه فارسل له المهدى كتاباً معنوناً بعبارة مبهمه هكذا (الي العقلاء الكرام) مع رسول زوده بوصايا شفاهية حيث قال له ادفع له الكتاب وقل له بعد اطلاعه عليه اذا لم تكن معنا فكن

علينا وانه لا نجاة لك بغير أمرين إما ان تجمع اليك قبائل الضفة الغربية من الجموعية والجميعاب والسروراب والفتيحاب وتحاصر الخرطوم وإما ان تدخل مع غردون فى المدينة وتكون معه علينا

ولما اطلع على الكتاب أرسل يستصرخ هاته القبائل فنسلوا اليه وبايعوه على طاعة المهدي وخلع نير الحكومة فزحف بهم على أم درمان وعسكر ازاء نقطتها

وكان الغالب عليه ملازمة السكون فكانت الحامية في راحة حيث كان لا ينها جها الا نادرا ولا يناوشها الا مناوشات خفيفة وهاهى صورة الخطاب نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى العقلاء الكرام لا يخفى عزيز علمكم ان ما سوى الله هباء وكل ما فى الدنيا زوال وما للعبد الا العمل الصالح الموافق للسنة وما سوي ذلك يعود بالحسرة والندامة وانى قد كاتبت جميع المحبين ومشايخ الدين وانذرت بكروب تحصل ولا فرج عنها الا باجتماعنا وذلك باشارة من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وبامر منه مع بشائر لنا جسيمة وأوامر عظيمة وأشار لنا صلى الله عليه وسلم الي محل يكون فيه قوام الدين وصلاح أمر الدارين وفضلا عن ذلك انه لا سماية للعبد الا فى الدين الخالص الموافق للكتاب والسنة واذا لم يكن العمل على ذلك فهو مردود كما ورد. وحيث ان هذا زمان توافقت فيه الناس على البدع ومحبة الدنيا وصار لهم ذلك عادة واسترقت الطباع بعضها ومعلوم ان الطبع

يسرق الطبع والانسان على دين من معه فى الدنيا ويحشر يوم القيامة عليه قال صلى الله عليه وسلم «يحشر المرؤ على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» واذا فهم العاقل هذا من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فلاشك انه ينحاز الي من ينهضه حاله ويدله علي الله مقاله وذلك هو الفقير المتجرد عن السوء المقبل على المولى الذي لم يكن له قبلة ولا مقصد الا الله تعالى وقد تجرد عن كل شيء سواه وتحقق بحقيقة لا اله الا الله وقد ورد. اذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه علي دينكم. وفي بعض الكتب الالهية يقول الله تعالى «لاتسألوا عنى عالما اسكره حب الدنيا فيقطعكم عن طريق محبتى أولئك قطاع الطريق علي عبادى» ومعلوم ان العبد اذا لم يكن له مقصد فى التجرد لله تعالي يلاحظ في جميع كلامه وأحواله مايزيد جاهه ورئاسته ولا ينقاد للحق حيث كان بل يتكبر عليه ولا يخرج عن جاه ولا رئاسة لمجرد الحق وفي مثل هذا قال الله تعالى «واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد» ولمثل هذا الضرر ورد الذم لحب الجاه والمال قال صلي الله عليه وسلم «حب الجاه والمال ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» وقال صلي الله عليه وسلم «ماذئبان جائعان ارسلا فى زريبة غنم بافسد لها من حرص المرء على المال» الحديث وقال تعالي «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض» الآية والادلة الشرعية من الكتاب والسنة وبأمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كاتبناكم بالاجتماع معنا ومعلوم انه لا امان الا فى الكتاب والسنة كما ورد ان المؤمن لا بغية له ولا مطلب له الا الدين فمن كان مهتما بايمانه ودينه شفيقا على أمر ربه أجاب الدعوة واجتمع معنا للمعاونة على تقويم الكتاب والسنة ومن له جاه ورئاسة وانقاد للحق وانخلع عن جاهه

ورئاسته لله وللانقياد على الدين الخالص عوضه الله خيراً منه قال صلى الله عليه وسلم «انك لن تجد فقد شيء تركته لله» أي لن تجد له ألماً ولا هماً وقال تعالى «ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم ولو انهم اقاموا التورية والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» الآية ومن أشفق على جاهه ورئاسته وماله ولم يخرج من ذلك أوقعته في الهموم وفي سخط القيوم وزالت منه واعقبته الحسرة فقد قال صلى الله عليه وسلم «من جعل الدنيا همه شتت الله شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما قسم الله له ومن جعل الآخرة همه جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة» الي غير ذلك والقليل من ذلك ينفع المؤمن القابل والكثير وان أفيض لا ينفع المنافق الغافل والسلام»

حوادث بربر

بربر اسم لاقليم من أقاليم السودان يحده من جهة الجنوب اقليم الخرطوم عند موضع اسمه (حجر العسل) وهو جبل صغير أحجاره من الصوان ويحده من جهة الشمال مقاطعة دنقلة ومن جهة الشرق اقليم كسله ومحافظة سواكن

وسكانه ينقسمون الى قسمين رحالة وقرويون والرحالة هم قبائل أعجمية يشبهون قبائل السودان الشرقي في الاخلاق والعادات ويطلق عليهم اسم (البشاريين) ولغتهم أعجمية

وأما سكان القرى فأكثرهم بطون من قبيلة الجعليين ومعايشهم من

الزرع وبعض الماشية الصغيرة وأرضهم لاتجود بمحصول يقوم بحاجة السكان لان طريق الري هي بالسواقى فقط وفيها عناء كبير والامطار قليلة لا تجود السماء عليهم بمطر يقوم بري أراضيهم الا نادراً وقد ضبطوا ان بربر لاتسق بالمطر الا فى كل سبع سنين أو عشر مرة واحدة ولهذا كان العيش في ذلك الاقليم شظفاً خلافا للسودان الجنوبى ومن الامثلة العامية فى حقهم (يكيلون بالطاسة ويحسبون القراصة) والطاسة مكيال لاتجاوز رطلا من الغلة ومعنى يحسبون القراصة انهم يقدرون للرطل عددا معلوما من الخبز والقراصة اسم لكل قطعة تصنع من خبز الذرة الذي يطلق عليه اسم (كسره)

ولهذه الاسباب ترى الجعليين يتطوحون فى بلاد السودان وسكان تلك البلاد يحتقرونهم فأهالي السودان الغربي يسمونهم (بائعي الشطيطة) وأهالى السودان الجنوبي يسمونهم (ناس عره) أى ركاب الحمر لانهم يشترك منهم اكثر من عشرين فى ركوب حمار واحد

ومع هذا كله تراهم من أكثر قبائل السودان شراً ولهم دعاوي طويلة عريضة فى الانساب حيث يزعمون انهم من نسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وأن أجدادهم استوطنوا السودان من عهد قيام الدولة العباسية في بغداد والحقيقة أنهم من نسل العرب الذين دخلوا السودان من صعيد مصر وبعيد عن الاحتمال أن يستوطن بنو العباس بلاد السودان في عنفوان دولتهم وعظيم سلطانهم ولا توجد بين صفحات التاريخ اشارة الى ذلك مع ان المؤرخين ملأوا الكتب باخبار دولة بنى العباس رضى الله عنه الى حد انهم كانوا لاتفوتهم اخبار الندماء وما شاكل ذلك من الدقائق والجلائل

على ان الجعليين لم يكونوا منفردين بهذه الدعوى بل جميع قبائل السودان حتى العبيد سكان الجبال ينتسبون الى النبي صلى الله عليه وسلم والى آل بيته الطاهرين حتى يخال الانسان ان السودان كان موطنه صلى الله عليه وسلم وانه كان خاليا من السكان قبل بعثته صلى الله عليه وسلم

وقد اشتهر عن الجعليين الكذب وعدم الوفاء وكل الخصال الممقوتة وانهم على الدوام مع الفئة الغالبة وهم شديدو البغض للمصريين وكل أبيض ولهم اعتقادات في غاية السخافة. منها أن بياض البشرة يدل على أن صاحبه غجري لا أصل له وان الانسان لا يكون ذا نسب أو حسب الا اذا كانت بشرته سوداء وكل ابيض محتقر عندهم حتى انهم لا يسمونه الا (الجعيدي) أى الغجري ولهم أخلاق وعادات غريبه لا فائدة في سردها هنا اكتفاء بما تقدم

ذكر محمد الخير داعية المهدي في بربر

محمد الخير هذا هو الذى تقدم لنا ذكره وانه كان صاحب مدرسة علمية وان المهدي كان تلميذا بمدرسته وأصله من قبيلة اسمها (القبش) وهى قبيلة صغيرة تسكن ضفة النهر الغربية بازاء «الخيرق» مركز مديرية بربر وهذه القبيلة تنتسب الى رجال أصحاب أضرحة فى هذه الجهة اسم أشهرها عبد الماجد ويطلق عليهم اسم (القبش) الذى معناه زهاد متقشفون قدموا الي بربر من بلاد تكرور في السودان الغربي

وكان محمد الخير هذا فقيها يعلم الناس الفقه وكان مشهوراً بالتقوي ويقول بعضهم انه ذو ضلع كبير في انتحال دعوة المهدية وان صاحبها صدع بها عن

رايه وعمل باشارته

وكانت الحكومة تعطى محمد الخير راتبا شهريا يبلغ خمسة جنيهات وبضعة ارادب من الذرة

ونقل لنا أحد تلاميذه انه لما تصدر للتدريس كان ذا تحقيق فى مذهب إمام دار الهجرة مالك رضي الله عنه ومع هذا كان لايعرف شيأ من النحو والصرف وعلوم البلاغة فاحتقره تلاميذه وأسمعوه مرات عديدة انتقاداتهم على جهله حتى أن أحدهم قال له يوما ياسيدى الشيخ انك لاتعرف اعراب جاء زيد فكيف يليق بنا ان نتكوف حولك في حين أن تكوفنا هذا لطلب العلم وانت مفتقر اليه اكثر منا فتأثر من هذا القول وقام من مجلسه وبعد صلاة العشاء دعا اثنين من خاصته وركبوا دوابهم بغير أن يشعر بهم أحد وقصدوا الخرطوم ومنها الى ضواحى المسلمية حيث اجتمعوا بالشيخ الحسين زهراء وقص عليه محمد الخير ماجري له مع تلميذه فقال له قد محضك والله النصح ثم انقطع لدرس النحو وعلوم البلاغة على الشيخ الحسين نحو عامين أدرك فيهما مايدركه غيره فى أربعة أضعافهما ثم عاد الى مزاولة دروسه فى بربر وبلغت المحبة بينه وبين أستاذه الشيخ الحسين درجة لاتوازي

ذكر حسين باشا خليفة مدير بربر

حسين باشا خليفة مدير بربر سابقا من قبيلة العبابدة التى تسكن ارباض اصوان وكان آباؤه ادلاء الحكومة في طريق السودان المسمى (المطمور) ثم ولى على مديرية بربر فى عهد ولاية ممتاز باشا على السودان فظهر من أعماله مااوجب عزله وسجنه في القاهرة حتى جاءت وزارة المرحوم شريف باشا فعين

مديرا على بربر قبيل عودة غوردون باشهر قليلة ونسب اليه في غضون نزوح المصريين الي القاهرة انه كان عاملا على منعهم وعدم السماح لهم بالوصول الى القاهرة وكان صديقا حميا لمحمد الخير داعية المهدى في بربر

ذكر قدوم محمد الخير بدعوة المهدي الي بربر

في جمادي الآخرة سنة ١٣٠١ هجرية قدم محمد الخير الى بربر عائداً من عند المهدي في الابيض وقد كتب له كتابا الى سكان مقاطعتي بربر ودنقله بانه تعين من قبله أميراً عليهم وأمرهم بمبايعته نائباً عنه

وكان محمد الخير يطلق عليه اسم محمد الضكير فأبدله المهدي باسم محمد الخير

وكان شخوصه الى المهدي بعد ولاية حسين باشا خليفة على بربر فانه لما قدمها اختلى به وقال له أراك تأخرت عن واجب عليك فاقدم على المهدي وأبلغه خضوعي له ودخولي في دعوته وكان حسين باشا يقصد من هذا العمل ان يوليه المهدي على بربر ودنقله فقبل محمد الخير ما أشار به حسين خليفة الذي أعطاه نفقة السفر ودفع اليه كتابا برسم المهدي فشخص من بربر الى الابيض فقوبل من المهدي باكرام عظيم وحفاوة ليس لها مثيل

وبعد أيام كتب له بالامارة على بربر ودنقله وأهداه شيأ كثيراً من الجواري والخيول والنوق فقفل راجعاً ولما بلغ أول حدود بربر من جهة الجنوب استقبله الاهلون باحتفال عظيم وأرسل الكتب يدعو الناس لاجتماع عام في المتمة وهي منتصف الطريق بين بربر والخرطوم فتسللوا اليه فدعاهم الى البيعة للمهدى فاظهر كثير الارتياب في صدق دعواه فقام فيهم خطيباً وقال أشهد الله وملائكته انه المهدي المنتظر وقبض على لحيته وقال لهم إنه اذا لم يكن المهدي

المنتظر فجروا لحيتي هذه بين يدي الله عز وجل وقولوا هذا أضلنا سواء السبيل فصدقه الناس وبايعوه على طاعة المهدي وحرب الحكومة ولبسوا شعار المهدية ورقعوا ملابسهم وهرع الناس اليه من كل انحاء البلاد وانضم اليه عدد ليس بقليل من الاعراب وتقدموا نحو حامية شندى

ذكر واقعة شندي

شندي قرية على ضفة النهر الغربية شمال المتمة بميل واحد وهي التي ذكرنا قبل خبر قتل الامير اسماعيل بن محمد علي باشا فيها بعد فتح السودان وجل سكان هذه القرية مصريون وكانت قاعدة لاحد المراكز

ولما وصل محمد الخير المتمة وبايعه الاهلون على طاعة المهدي كانت في شندي حامية تبلغ زهاء الثلاثمائة جندى جلهم من الباشبوزق فناوشها العدو مناوشات عديدة ومنع وصول الاقوات اليها وحينما سمعت الحامية بقدوم الداعية محمد الخير عقدت النية على الخروج من معقلها ومتابعة السير شمالا للانضمام الى حامية بربر ورفقائها بجنوده واثخنها ذبحاً بينما كانت تحاول الخروج ومثلوا بالاطفال والنساء تمثيلا تقشعر من فظاعته الابدان

ومما يذكر هنا ان محمد الخير منع أتباعه منعاً باتاً عن مد أيديهم الى نساء المصريين بأنواع السبي والهتك اللذين كان المهدى يفعلها مع نساء المصريين وكتب الى المهدي كتابا مطولا قال فيه انى لا أرى وجهاً من الوجوه الشرعية يسوغ لنا أن نعامل نساء المصريين بالمعاملة التى جرت عليهن فاضطر المهدى الى اجابته بان فوض له العمل في هذا الشان بما يراه موافقا فمنع كل اتباعه من هتك أعراض المصريات ومن فعل ذلك عاقبه عقاباً صارما

هذه حسنة نذكرها هنا لمحمد الخير ونقول ان عمله وان جاء ضربة شديدة على الخرطوم لان سقوط بربر قضى على أمل وصول النجدة الى غردون لكن شره كان أخف من شر المهديين كلهم . وبعض الشر أهون من بعض

وكانت واقعة شندي هذه في أواخر شهر جمادي الآخرة سنة ١٣٠١ هجرية

سقوط بربر

لما سقطت شندى تقدم محمد الخير بجموعه الي بربر في أوائل شهر رجب سنة ١٣٠١ هجرية ومعه نحو سبعين الف مقاتل وسلاح جلهم المعاول والمحاريث لان الجعليين فلاحون لاسلاح عندهم

وكانت حامية بربر لا تتجاوز الاربعمائة جندى تحرس خندقا يزيد طوله على أربعة أميال وليس لديها من المدافع غير مدفعين من الطراز الجبلي العتيق

ولما اقترب من بربر أرسل انذاراً للحامية والسكان يدعوهم فيه الى التسليم فامتنعوا وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ومكث محاصرا لها مدة سبع ليال كانت المخابرات السرية جارية فى خلالها بينه وبين حسين باشا خليفة مدير بربر الذى كان يؤمل ان المهدى لا يولي غيره عليها

وكان فى بربر خمسون الف جنيه أرسلت من مصر لنفقات حامية الخرطوم وأرسلت الباخرة القاشر لحملها الى الخرطوم فاخذ حسين باشا يماطل ربان الباخرة حتى لا يصل المال الخرطوم ويكون غنيمة عاجلة للمهدي وقد وصل الى بربر شيء كثير من ملابس غردون وأمتعته التي ارسلت

خلفه من مصر كلها وقعت في أيدي الدراويش

وفي صبيحة اليوم الثامن من بداية حصار بربر اجتمع الدراويش ودخلوا المدينة عنوة بدون ان يصيبهم أقل ضرر وأثخنوا الاهالي قتلا ونهباً وذبحوا اكثر من ثلاثة آلاف من المصريين اما حسين باشا خليفة فقد أحاط بداره حرس محمد الخير ومنعوا وصول أي اذي له بالرغم عن تكوف العصاة حول بيته وعزمهم على الانتقام منه

واشتغل محمد الخير بجمع الغنائم وعذب المصريين عذابا اليما ليدلوا على خباياهم ودفائنهم وامتنع كثير من قواد الجمليين ان يؤدوا الى بيت المال ولو قليلا من الاموال التي تحت أيديهم فكتب محمد الخير الى المهدي ينبئه بوقوع بربر في قبضته ويخبره بما كان من أمر الامراء الذين امتنعوا من تسليم ما بايديهم من الاموال الى بيت المال

ولما وصل كتاب محمد الخير الى المهدي أمر باطلاق المدافع جريا على عادته وامتلأ غيظا من أولئك الامراء اذ كان في حاجة عظيمة الى المال فكتب الي محمد الخير يأمره باكراههم الي تأدية المال له وشفع الكتاب بصورة موعظة في ذم اغتيال الغنائم وهاهو نص الكتاب والموعظة نقلا عن كتاب المنشورات

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبدالله الى صفيه عامله على بربر وجهاتها محمد الخير بن عبدالله خوجلي وقاه الله كل تعويق وأدام له التوفيق وحققه بحقائق التحقيق وأناله أعلى رفيق آمين بعد السلام عليكم ورحمة الله

وبركاته حبيبي انك حقيق بمعرفة ما عند الله من كريم المكانة وعظمة ماهنالك مما لا يقاس بشيء وخسة مافى الدنيا وان كثر ونما ومن المعلوم عندك أيها الحبيب أن الدنيا لاشيء فهي لا تزن عند الله جناح بعوضة فلذا لم اذاكرك فى الشأن الذي يحصل فيها ولعلمي بانك امين ولا تدخلك ترهات الخيال الذى فيها وتزين باطلها وان مقصدك اقامة الدين ولذلك قد اكثرت التذكير مني للاخوان فى التنفير عن الدنيا والترغيب فى الله وفيما عند الله وفيما يخلص العبد ويرفعه عند خالقه مع شدة التعريف لخسة الدنيا ونفاسة الآخرة والتعريف لعظمة الله وكمال قدرته علي كل شيء وأن من أراد خيره وقربه عنده نفره عن الدنيا وأراه قرب زوالها مع قلة قدرها وشؤم ما تعقبه من طول الندامة والوبال ليهون علي المؤمن جفاؤها ويزيد الشكر لله فى ازوائها واكتساب نعيم الجنة وعلاتها من اصابة الظمأ والنصب والمخمصة فى سبيل الله واغاظة الكفرة بمواطئ امكنتهم وثغورهم وانالة الجرح والقتل فى سبيل الله مما فيه حسن المكانة الدائمة والوظيفة الكبري التي لها قدر عند الله تعالى كما ذكر الله ذلك والمؤمن انما يرغبه النصيب الدائم الذى وعد الله به المؤمنين الصادقين فى ايمانهم بالصبر لما عند الله يقينا بما وعد به وتفويضا له فيما أراد ودل عباده اليه وابناء الدنيا من الكفرة والمنافقين انما ترغبهم الوظائف والأموال الفانية لانهم لا يجدون فى قلوبهم الايمان واليقين بما عند الرحمن من حسن المكانة الدائمة ودرجات الجنان وانه ياحبيبي جميع من صحبني وسمع مني وعلم ما أنا عليه صار غرضه ما عند الله وفرغ قلبه من فاني اللذات الى دائم الخيرات ومن نافق ولم يدر على منهجي فقد فوت ما عند الله واظهر الله نفاقه وطرده عن الصحبة ورمي عليه المهالك فى الدنيا قبل الآخرة وأنت حبيبي لهمتك بالنجاة عند الله

تعالى علي التسليم لي والعزم على اتباع ما ألهمني الله كنت سألتنى عن الغنائم
وطريق العمل فيها وقد أعلمتك بما هو جار فيها سابقا لامور منها الظن
ان ماورد لنا فى المديريات الغربية خصوصية حتى سألني أمين بيت المال عن
غنائم بربر فلم تظهرلي الخصوصية عن تكرر سؤاله .وقد ورد لنا من الغيب
أن ضرر ذلك كثير ولا بد ان يصلكم منها شيء، ولما كان الاخوان الذين معك
نريد لهم الصفا والسلامة والدخول في عظيم الكرامة والتباعد من عطب
دار الملامة أخبرت أمين بيت المال بما وصلكم عنه فانه وان كان منكم من
تناول من الغنائم على ماذكرته لك سابقا فقد تجدد الوارد وأتى من الغيب
كبير الضرر في تناول ذلك ونريد الآن ان يقتدي الاخوان بما ورد لنا من
سيد الوجود صلى الله عليه وسلم على ما رأينا انه صلاح للمسلمين واصلاح
للدين بما ألهمني الله من الالهام الصائب الذي لو كان نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم حاضرا الآن لفعله وانك حبيبي غير متهم عندنا في الصداقة والامانة
معنا ومع الله ورسوله فيما تطلبه عند الله ومتيقن فيك موافقتنا فيما يرد علينا
من الامور التى فيها صلاح الدين والمسلمين وليكن معلوما عند الاخوان ان
حب الوظائف والاموال والمتاع هو الذي عطل الدين واستقامة المسلمين ولولا
الفقراء والمساكين والاغنياء الذين تجردوا عن الدنيا ليقينهم بما عند الله لما تقوم
هذا الامر وكامل الذين معكم من الانصار يلزمهم أن يسلكوا هذا المسلك
ولا ينسبوا لانفسهم اغاظة الكفرة والنصر عليهم فان النصر من عند الله
فان وقفوا مع أدبهم مع الله تعالى ونسبوا الامر اليه وصاروا عبيدا له نالوا
عظيم المكانة التى يصغر فى جنبها كل نعمة وملك يذكر لأن الله تعالى يعطيهم
من عظمة المقدار ما لا يخطر على بال فضلا عن المجاهدين المكرمين والشهداء

المعظمين فان الله يعطى الصالحين الذين هم دونهم مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فمن عاين هذا مع الرضى عند رب العباد لا ينظر الى خسيس الدنيا الذى لا يزن جناح بعوضة فلا يبدلوا نصيبهم هذا العظيم الدائم بما لا يزن جناح بعوضة ويزول عن قرب ولا يدخلهم العجب وينسبون قيام الله بهذا الشأن الى أنفسهم فتفسد أعمالهم ولا يغتروا بما فتح عليهم من الدنيا فيؤثروه على ما عند الله ويفرحوا لئلا يقع من انطوى على ذلك فى وعيد قوله تعالى « حتي اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » الآية الخ الخ » والكتاب مطول وكل مافيه لا يخرج عما تقدم ولا عن مضمون الموعظة الآتية . وتاريخه ٢ صفر سنة ١٣٠٢

وأما الموعظة فنأتي عليها برمتها لزيادة الفائدة . وهي

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فانى سأذكر البعض من الواقعات التي وردت فى الغنائم وغيرها باختصار فبعد ان وردت الواردات فى كيفية الغنائم وضررها بالابيض حكيت للاخوان حضرة حصلت فوق السموات وكان النبي صلى الله عليه وسلم يطلب الاصحاب فلا يصل الى ذلك المحل الا الاصفياء الزهاد الخالصون من العلاقات الدنيوية وتعطل منها بعض من الاخوان لاجل علاقاتهم فلم يطيقوا الصعود اليها من علاقاتهم فاعلمت بذلك من انقطع بسبب علاقاته الدنيوية من الرقيق والاموال فتجرد لله عن ذلك وصمد للحضرة المذكورة وثم حصلت حضرة قعد النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جمع من المقربين وأجلسني عنده فيما روى وغرز بيننا عودا طويلا املس كانه شعبة الخيمة الوسطانية التي تقوم عليهاوف

رأسها التمر ويقول صلى الله عليه وسلم هذه الشجرة شجرة الصداقة فكل
من له صداقة فليصعد عليها فيصعد عليها قوم وينزلق منها آخرون فلا
يقدرون على الصعود عليها لينالوا ما فوقها من الثمار فكان مافوقها هو نصيب
الآخرة ولا يناله أحد الا بالصدق فى الايمان والطلب لما عند الرحمن فاعلمت
من تعطل عن ذلك بسبب العلاقات الدنيوية فتجردوا عما عطلهم وثم حصلت
أيضا شجرة الصداقة فى وقت آخر وطلب الاصحاب بالصعود لنيل الخيرات
فوقها فصعدها الاصحاب الا الذين اكلوا الغنائم فامتلات عليهم صمغا فكلما
ارادوا ان يتعلقوا بها ليصعدوا فوقها يزلقهم الصمغ الذي عليها وبعض من
الاخوان الذين عندهم شيء ولم يحضر المذاكرات حصلت له رؤية وكان المذكور
قبل رؤياه متأسفا على فوات مذاكرتنا للاخوان فى كيفية الغنائم والتجرد عنها
لمن هي عنده من الانصار قال ولما أعلمني من حضر المذاكرة عزمت على
اخراج ما عندي من الغنيمة وهوأمة وحمارة وقليل من الدراهم قال وبعد
عزمي على اخراجها ورفعها لبيت المال أخبره بعض اخوانه بانك كيف تخرج
هذه الامة الواحدة التي لا خادم لك غيرها ومن يخدمك ان أخرجتها وأي
شيء تركب ان أخرجت هذه الحمارة الواحدة وإن قام الامام للسفر لابد ان
تشتري بالجميع جملا تسافر عليه مع المهدي للجهاد قال فطاوعت من ذاكرني
من الاخوان بذلك وعزمت على ترك اخراج المذكورات لبيت المال قال
فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أتى للخليفة عبد الله يذاكره فقال المذكور
فى نفسه فاتتني مذاكرة المهدي فليكن الاسراع مني لحضور مذاكرة النبي
صلى الله عليه وسلم للخليفة عبد الله قال فلما حضرت وجدت المذاكرة قد
تمت الا اني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول للخليفة عبد الله عندي اقه

لاي شيء لم تستوعب أمر المهدي فالذي يأمرك به المهدى كله افعله هذا معنى
كلامه للخليفة عبد الله قال ثم أتيت الخليفة عبد الله لاسمع منه مذاكرة النبي
صلى الله عليه وسلم فوجدت مع الخليفة بعضا من ملازميه يصلون معه فقطع
الصلاة وقال لي أين الخادم أي الامة التي من الغنيمة فعدم اتيانك بها لبيت
المال أفسد علينا صلاتنا قال وقال لى الخليفة عبد الله لاي شيء لم تجرد
من الغنائم أما سمعت قول المهدى تجردوا فمالك لم تجرد قال فقلت له
ما عندي الا شيء يسير فقال هذا القليل أده لبيت المال ولو قرشا واحدا
ومثل هذا كثير وبعض من الذين لم يتجردوا من الغنائم تحضر لهم تماسيح
تمنعهم من لحوق المهدي وأصحابه الصادقين فتغرقهم حتى كان أحد من الاخوان
عنده ازار من الغنيمة فقبضه تمساح وأوقعه فى المهالك فاستعان بالله وبرسوله
وبالمهدى فادركه المهدي فحمله ليخرجه فاخذ به حجر لم يتركه يسلم حتى أقسم
انه يعطي ثمن الازار فخلص ثم ان المذكور قوم الازار بنحو ستة دراهم أو أقل
فدفعه لبيت المال فصار مع الاصحاب وغير ذلك فيا أحبابى ان السعيد يتخلص
فى الدنيا قبل الآخرة فهناك تسبق الاصفياء ويعطب أهل حطام الدنيا فقد
روى ان القيامة قد قامت والمهدى مع أصحابه الاصفياء دخلوا الجنة بلا
حساب ولا رؤية هول ولا مشقة وواحد الاخوان عنده قليل من المال والله
أعلم لم يذكر من قلته فحبس من الدخول وصار يصيح ويبكي من شدة
الهول حتى خلص بعد نصف ساعة فدخل الجنة والاهوال ما زالت على
الآخرين فيتخلصون واحدا بعد واحد على حسب صفائهم وتجردهم من الدنيا
فبعضهم يتخلص فيصل بعد ساعة وبعضهم بعد ساعتين وبعضهم بعد ثلاث
ساعات الى ان خلص آخر الاصحاب نصف النهار ونصف النهار فى ذلك

اليوم خمسمائة عام ونصف الساعة نحو الاربعين سنة في ذلك اليوم فمن ذا الذى يطيق هذا الهول فيرضي لنفسه مثله بسبب متعة قليلة فى أيام قليلة هي في حكم العدم فيرث بسبب ذلك هذا الهول الشديد والكرب الذى يقف فيه جائعا عطشان نحو الاربعين سنة واكثر فتجرد ذلك الاخ الذى خلص بعد نصف ساعة وحتم ان لا يطلب فى الدنيا مالا ولو قليلا ولا جاها مادام فيها حيا حتي يلاق الله تعالى. هذا وليعلم الاخوان ان من كان مؤمنا بالبعث وقرب الآخرة وحسابها وكثرة خطرها وضرها ورفعة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعظيم فوزهم وملكهم المقيم الدائم ويعلم شؤم الدنيا وهو انها على الله وشؤم ما تعقبه من الحسرة الطويلة فليتجرد لله لينال جزيل الدرجات ويفوز بدائم الخيرات وليصير من ابناء الآخرة مادام حيا ولا يطلب الدنيا ومتاعها فانها قد انقرضت وهذه الايام آخر ايامها كما لا يخفى صدق ذلك ولا يجتمع للعبد متاع الدنيا ونعيم الآخرة كما ورد انهما ضرتان وكالمشرق والمغرب فبقدر ما يقرب العبد من المغرب يبعد منه المشرق وروى ان بعضا من الاصحاب الذين اكلوا الغنائم وتمتعوا وماتوا قبل اخراجها والحال انه أراد اخراجها ثبت قبل اخراجها انه حبس وعذب ووبخ عليه وقيل له ان المهدي انذرك فبعد انذاره أتريد ان نجمع لك متاع الدنيا مع نعيم الآخرة ذق العذاب الاليم فلا عذر لك وغير ذلك وفيما ذكرته كفاية لمن له عناية وورد عن الاخوان الذين ماتوا واستشهدوا فى حال صفائهم وصدق انابتهم لما عند الله انهم تنعموا نعما عظيمة لا تخطر ببال ولا تقاس .منها ان بعضهم رؤي في نعيم عظيم وحور وولدان وفرش واسرة وقصور وخيم وغير ذلك فيقال له صف لنا هذا الذى أنت فيه من النعم فيقول هذا شيء اكرم الله به عباده المخلصين

فلا أقدر أن أصفه ولا أعده فانه لا يوصف ولا يعد وبعضهم يرى ان هبوب الجنة تدخل في مسامه وجميع جسده كالدخان الذي يخرج من بيت القش فيجد لها لذة أشبه بلذة الجماع ولكن تلك التي في الجنة أحلى والذ اضعافا مضاعفة لا تخطر ببال ويلتذ بها بجميع جسده ويسمع لنساء الجنة نغمات لا توصف لذتها وهن يمشين في الهواء كمشيهن على أرض الجنة فيمشين على وجه الارض ويطرن ويزرن أزواجهن ويقفن معهم في الجهاد ويهللن لهم فان استشهد أخذنه ومضين به الى دار نعيمه وان جرح ولم يستشهد قعدن معه يمرضنه الى ان يموت أو يبرىء من الجرح وبعض الاصحاب من شهداء وقعة الشلالي يرى في نعيم عظيم وقصور كثيرة فيقول أحد الاخوان الحيين انكم قد ازلتم هذا المنزل الكريم وتنعمتم هذا النعيم العظيم فاين منازلنا ونعمنا فيقول لا تشفق فان أصحاب المهدى الصادقين معه لهم منازل ونعم كمثل هذا فامض معي لأريك منازلكم فيريه منازل عظيمة ونعما فخيمة فيقول متى نلحق بهذا ونخرج من هذه الدار الكدرة المتعبة فيقول له لا تشفق فان أصحاب المهدي يصلون قريبا فيتنعمون بنعمهم هذه وبعضهم يرى بعض اكابر الصالحين المتقدمين فيسأله عن مقامه مع مقامات أصحاب المهدى الذين ماتوا فيقول هيهات إن أصحاب المهدى من علو درجاتهم لا نرام فهم راقون مرقى عظيما وكثيرا يرى انهم يغبطون أصحاب المهدى ويقولون ليتنا كنا أصحاب المهدى لما يرون من عظيم مكانتهم وفضلهم عند الله تعالى وبعضهم يستشفع بالاصحاب ويقول اطلبوا المهدي يجعلني من أخس أصحابه فاني راض برتبة أخسهم وأفرح ان وجدت ذلك ومثل هذا كثير مما روى في الجنة للاصحاب الصادقين فهيا أيها الاحباب فان القدوم الى ما عند الله قريب والسلام»

ولما اطلع محمد الخير على ما كتبه المهدى استدعي الامراء وتلا عليهم الكتب المذكورة فاصروا على الامتناع وأبو الانصياع وامتنع كل واحد بعشيرته وخيف وقوع الفتنة وقبض محمد الخير على زعانف منهم وكتب يخبر المهدى بما وصلت اليه الحالة فأمره بالتساهل وصرف عزيمته الى تجنيد الرجال واعداد الجيوش للغارة على دنقلة والوقوف في وجه الحملة الانكليزية وكانت قد بدأت حركاتها فى دنقلة

واستقرت قدم محمد الخير في بربر ودانت له البلاد وخص ذوي قرابته وتلامذته بكل الوظائف فحنق عليه الجمليون وأضمروا له العداوة وذهب وفد منهم الى المهدى يشكو من محمد الخير فعنفهم وأرجعهم خائبين حتى كان من أمرهم ماذكره فى أيام التعايشى الذى كان شديد البغض للجمليين ومتربصاً الفرصة للانتقام منهم على هذه الفعلة وسيأتى ذكر ذلك كله فى مكانه والله الموفق

ذكر امارة ابي قرجة علي البحرين من قبل المهدي

ذكرنا ما كان من أمر الداعية ابن البصير وما وشي به على الشيخ العبيد ونقول الآن ان المهدى انتدب الحاج محمد أبا قرجة الذي كان متأثرا حملة الجنرال هيكس وكتب الى الذين دخلوا في دعوته بطاعة أبي قرجة وانه أمير على البحرين الابيض والازرق فغادر أبو قرجة الابيض ومعه عشرون ألف مقاتل ولما وصل الى شاطيء النيل الابيض أرسل يدعو جميع الدناقلة أقاربه الذين كانوا مستوطنين فى قري عديدة اشهرها قرية القطينة على بعد نحو مائة ميل من جنوب الخرطوم

وكان أبو قرجة ينوى الزحف على الخرطوم من القطينة ولكن الاخبار

فاجأته بالواقعة الاولى بين صالح بك الملك والداعية ابن البصير فزحف من القطينة الى فداسى ومعه زهاء ستين ألف مقاتل مسلحين ببنادق من طراز رامنجتون ومعهم مدافع وسوارىخ وكان ذلك في منتصف شهر جمادي الاولى سنة ١٣٠١

ولما وصل أبو قرجة الى الحلاوين وزع عماله على الجهات وعزل عمال ابن البصير فاشتد الخصام بينهما وخيف وقوع الشر بينهما فكتب المهدى الى ابن البصير يأمره بطاعة أبى قرجة فلم يستطع غير تقديم طاعته وانتدب ابو قرجة أخاه نصرا عاملا على المسلمية وعهد اليه مصادرة أموال كثير من الذين يبطنون ولاء الحكومة فتحصل على شيء كثير من هذه الاموال

وقبض نصر على الشيخ محمد بن القبة وكان عالما نحريراً لانه قام خطيباً فى أهالى المسلمية وسرد عليهم الادلة الشرعية التي تظهر بطلان كل ما انتحله المهدى من الدعاوى الكاذبة

ولما اوقف الشيخ محمد بين يدى نصر سأله عما نسب اليه فأعاده امامه وقال انى لا أرهب الموت فى الله فأمر به فسيق الي السوق وضربت عنقه

ويروى عن بعض الحاضرين ان أبا قرجة كان يكره قتله لانه كان يعتقد فيه الصلاح

ذكر حروب صالح بك الملك في فداسى

صالح بك الملك صنجق من الشايقية كان يقود أربعمائة جندي من الباشبوزق وكان ذا مهارة وعقل راجح شهد أكثر الوقائع مع عبد القادر حلمى باشا فشهد له بالشجاعة والمهارة

وقد ذكرنا فيما مضى انه دخل سنار مع مائة وخمسين جنديا بعد غارة عامر ابن المكاشفي عليها

ولما وصل غوردون الى الخرطوم أرسل الى سنار يستقدم صالح بك الملك الى الخرطوم فغادر سنار براً ومعه صنجقان يقود كل واحد منهما مائتي جندي

وبعد مسيرة يوم وليلة من سنار رأي فى طريقه ان البلاد كلها دخلت في دعوة المهدي فاستشار قواده فأشاروا عليه بالعودة الى سنار فلم يرق له ذلك حيث علم ان الاعداء يطمعون فيه ويتأثرونه فتابع سيره الى الخرطوم وما كاد يصل الى جهة «فداسى» وهى قرية على ضفة النهر حذاء المسلمية حتي قام الجمليون الذين يسكنون المسلمية واستصرخوا عليه سكان القرى القريبة من المسلمية فاجتمع عدد يربو على الخمسة آلاف وهاجموه وكان قد أخذ أهبته وتحصن داخل زريبة من الشوك فاقتحم الدراويش الزريبة ووقف هو وعساكره وقفة الابطال فقتلوا أربعة آلاف مقاتل ورجع الباقون بالهزيمة والفشل واتصل الخبر بابن البصير فتقدم الي فداسى فى جمع كثيف للحرب فتقهقر بخسارة ثلاثة آلاف قتيل ولكنه بقي محاصراً للجنود حتي قدم أبو قرجة ووقعت بينه وبين صالح بك واقعة خسر فيها أبو قرجة أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل ثم أرسل أبو قرجة الى الشيخ العبيد يستقدمه فقدم على باخرة من بواخر الحكومة وقعت فى يد الدراويش وأرسل أبو قرجة الشيخ العبيد الى صالح بك فاجتمع به وقال له ان الخرطوم قد سقطت في قبضتنا وحلف له على ذلك أيمانا مغلظة

وكان رسل صالح بك قد وصلوا الخرطوم فأبلغوا غردون ان صالح بك

فى حاجة شديدة الى المدد وأن ذخيرته أوشكت أن تنفد فكتب اليه غردون يمده بالنظر في أمر ايصال النجدة اليه وكان ايصال المدد متعذراً لمدة وجوه منها عدم وجود جنود فى الخرطوم تستطيع المخاطرة والتقدم براً من الخرطوم الي فداسى

وقد كان من الممكن ايصال النجدة بحراً لو كان النيل مرتفعا لان البواخر لاتستطيع السفر من الخرطوم وقتئذ اكثر من ثلاثة أميال

وفي أوائل شهر جمادي الاخرة سنة ١٣٠١ فقد صالح بك كل أمل بوصول المدد اليه كما فقد كل ذخيرته فاسلم نفسه الي ابى قرجة الذي ارسله اسيراً للمهدى

وبسقوط فداسى أخذ أبو قرجة وابن البصير يستعدان للزحف على الخرطوم وحصارها من جهة الخندق

ولما وصل صالح بك الى المهدى قابله بشىء من الاكرام وأخذ يحثه على الطاعة والانقياد لاوامره ثم قبض عليه وسجنه مع سلاطين باشا ولبتن فكتب اليه عدة كتب يسأله الصفح عن زلته فكان يجاوبه بان السجن خير له من الاطلاق لان فيه تنظيف سريرته من النفاق والميل الى الكفار وبقي مدة فى الاسر حتى توفي أواخر سنة ١٣٠٦ من الهجرة

ونذكر هنا بعض ما كتبه له المهدى نقلا عن كتاب المنشورات لما فيها من الفائدة والدلالة على ان صالح بك كتب الي غوردون يعلمه بكثير مما دبره المهدي فوقعت الكتب بأيدي جواسيس المهدى وقضي صالح بك مدة في عذاب السجن والاشغال الشاقة وحفر بيده بئراً يزيد عمقها عن مائتي متر

وكان غوردون قد أنعم عليه برتبه الميرميران الرفيعة مع لقب باشا

وهذه صورة كتاب من كتبه له

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى مولاه المهدي بن عبد الله الى صالح الملك وقاه الله كل كفر وشك وجعله من أهل الخير الذين يخشون الله الملك لا يخفاك أن الله قادر وبيده كل شيء وقد جعل الدنيا دار ابتلاء ليتميز المصدقون بدار الجزاء من زائل لباق العارفون بقدرة الله على كل شيء المتحققون انه لا يجرى في الكون شيء الا بارادته وما فعل فعلا الا كان على حكمة بالغة فمن أعرض عنه جهلا به عاقبه عقوبة شديدة لقيام البراهين على ألسنة الرسل والاولياء الدالين على الله وعلى ما عنده ومن أعرض على معرفة كانت الحجة عليه آكد وعذابه أشد وأشد وانك قد عرفت في الجواب الذي أرسلته الى الفردون أولا أن القدرة كلها لله ولا يغالب دين الله أحد الا غلبه وان الله برحمته قد أنقذك من الوقوع في الورطة ودلك على مهديه بالخروج من الظلمات الى النور ومع ذلك كله لواقع حقيقة جعلت ذلك ظاهراً فقط وان باطنك منطو على غير ذلك مخاطبا به الفردون فى الجواب الثانى وما أعرضت وتوليت بذلك عن الله والدار الآخرة الا لحبك الحياة الدنيا وصارت مبلغ علمك ولو كان ايمانك بالله وبما عند الله صادقا لما نافقت بطلب خسيس الدنيا من الجاه والمال ولما باطنت به الفردون ولما كنت تنصرف عن الله وعن مهديه بسبب جوع أو حطة كما انك تعرف ان المصدقين بما عند الله قد صبروا على ما هو أشد مما حصل عليك اضعافا وقد ذهبت فى الله أموالهم وفارقوا ديارهم وتزلزلت أولادهم وأحبابهم راضين بذلك عارفين ان المبلي بذلك ربهم لتعظيم ثوابهم

وتصفية ايمانهم ولكن أقول صدق الله في قوله حيث قال «ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » الآية فلو كان ايمانك على تمكين ويقين لمددت ما يحصل لك من البلاء رحمة من الله بك ايمانا بما عند الله وبحسن قضاء الله وجلب ذلك خير ما عند الله فلو تقطعت بذلك اربا اربا لما خادعت الفردون حيث ان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يقول « ما بلى أحد مثل ما ابتليت » وكل ما بليت بالاجواع والأثقال والعرى والخفوف لعرفت ان ذلك قليل في جنب الذي تطلبه عند الله ولقلت نعم ما هو الفوز عند الله اذ يقول الله تعالى « استعينوا بالصبر والصلوة ان الله مع الصابرين » الى قوله « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » فاعرضت عن الله ولم تصدق بكلام الله وقد قال الله تعالى « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » ومع شؤم الحالة واستحقاقك فيها القتل قد أردنا تصفيتك وتكفير خطاياك بالسجن والحبس والغل لتكون مع المكرمين الصادقين في طلب ما عند الله من المزايا العظيمة الدائمة رحمة بك فلما نلت ذلك كنت تحمد الله على قدر ما يزيد عليك التأديب اذ في كثرة البلايا المزايا كما ورد ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها الذي تتأسف على فراقه فاذا أتاك جوابي ففوض أمرك لله وترقب حسن ما عند الله وأعرض عن الدنيا ومافيها لتنال الرضا الكامل والسلام ١٤ محرم سنة ١٣٠٢

وهذه صورة كتاب آخر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد

فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى محبنا صالح الملك وقاه الله كل سوء ومهلك وجعله ممن للخيرات تملك آمين أيها الحبيب لا يخفى ان هذه الدار منقضية وقد خلقها الله للتزود لدار القرار والسعي فيما يقرب الى الخالق المختار واعلم ان حبسك هذا ليس لمؤاخذة وانما هو شفقة بك وتقديم الي خيرك الدائم وتنفير وتبعيد لك من سوء ملايم واني أعرف بحالك وبصلاحك منك وليس عندي قصد نفسانيات كما لا يخفي على جميع المؤمنين والمؤمنات وستنظر خير ذلك وكما لوحت بخلق النبي صلى الله عليه وسلم من صفحه ورحمته فبفضل الله تعالي قد خلقني الله بذلك رحمة منه لا بحولي ولا بقوتي ولكن بتسليمك لنا وحسن الظن بنا تجد عظيم المنى فحسن ظنك في الله وفينا فبحسن البداية تجد كمال النهاية والسلام

ذكر زحف المهدي من الابيض الي غدير الرهد

لما علم المهدى ان دعوته قد انتشرت في أكثر أنحاء السودان وأن نفوذ الحكومة قد تقلص ولم يبق فى السودان غير الخرطوم وسنار وكسلة وكلها محصورة بجنوده جمع اليه أهل مشورته وكان من رأى عبد الله التعايشي أن لا يغادر المهدى الابيض عاصمة كوردفان وأن يبعث بالجيوش لاخضاع الخرطوم وسنار وكسلة وحمل أموالها وذخيرتها له ليشتد ساعده ويتقدم الي دارفور ومنها الى ممالك السودان ليؤسس بها مملكة تكون بعيدة عن احتمال غارة المصريين عليها فعارضه أحد الخلفاء فقال انا لا أنقف عند الخرطوم بل لابد لنا من التقدم الي مصر ومنها الى الشام فالحرمين الشريفين وان تقدمنا الى جهة الغرب يدعو كثيراً من الناس للشك فى أمر المهدية حيث

انهم يرون لاثبات المهدية ضرورة قيام صاحبها بها فى الاماكن المقدسة ونحن قد وعدناهم بصيرورة ذلك لامحالة وعليه فان انصراف وجهتنا عن الخرطوم يفتح باباً لمثل هـذه الشكوك التى ربما كانت سيئة المغبة فوافق المهـدي علي هـذا الراي تبعا لاميال اقاربه الذين هم من دنقلة ويكرهون الابتعاد عن أوطانهم والتطوح في السـودان الغربي ومن جهة أخري ان أهالى السـودان الاوسط اذا علموا بنيته على الزحف الى السـودان الغربي رغبوا عنـه وولوا الحكومة .والحاصـل انه عقد النيـة ووطد العزم على الزحف الى الخرطوم وأخـذ يحث الناس على الهجرة ومغادرة ديارهم مقبحا لهم متاع الدنيا وجاء باشياء كثيرة من المواعظ في ذم اقتناء البقر والابل وغيرها من الماشية وان الله متكفل بارزاق العباد فلا يليق بالعبـد ان يركن الى الزرع ويهتم بامر المعيشة فصادفت مواعظه آذاناً صاغية من أهالي كوردفان فكانوا يحرقون منازلهم ويبيعون ماشيتهم أو يذبحونها ويلحقون بالمهدى فى الابيض حتى اجتمع حوله زهاء ثمانمائة الف مقاتل ضاقت بهم الابيض وقل الماء وارتفعت أثمانه حتى بلغ ثمن جرة الماء عشرة قروش صاغ لان الآبار قليلة في الابيض ويبلغ عمقها مائتي متر ولا يتيسر حفر بئر فى أقل من سنتين لان الارض محشوة بصخور صلبة من الصوان

وفي أوائل شهر جمادي الآخرة خطب في الناس وقال لهم ان المسيح الدجال سيأتى الابيض بعد شخوصي منها وان كل من تخلف عنى وقع في فتنته وصار من أتباعه ثم غادر الابيض الي جهة (غدير الرهـد) الواقع في الجنوب الشرقى من الابيض على مسيرة مرحلتين ونزل بالرهـد وانشأ اكواخا من البوص لسكناه وتابع الناس مسيرهم خلفه فصار ما بين الابيض والرهد

كدينة آهلة بالسكان لكثرة الذين يسيرون في الطريق بينهما

واستخلف المهدى على الابيض عمه محمود بن عبد القادر وهو من اكبر انصاره الذين شادوا أركان دعوة المهدية معه وسنعود الي ذكر بقية أخباره وثورة جنوده عليه وقتله

وعسكر المهدى في الرهد ووفد عليه كثير من أهالي الجزيرة لتقديم الطاعة له فكان يقابلهم بالاكرام ويحثهم على العودة الى بلادهم للجهاد وأقام المهدى في الرهد وأرسل جيوشه كلها للغارة على جبل الداير الذي لا يبعد عن الرهد الا مسيرة مرحلة واحدة

ذكر حرب المهدي مع اهل جبل الداير

جبل الداير واقع في الجنوب الشرقي من الابيض عاصمة كوردفان وسكانه من العبيد النوبيين وهو جبل يبلغ طوله ثلاثين ميلا وعرضه ينقص قليلا عن هذا القدر وحجره من الصوان بعكس قنته فانها أرض زراعية من أجود أراضى كوردفان ينبت فيها الزرع وينبع فيها الماء وفي تلك القمة اكثر من مائة قرية يسكن كل واحدة منها ماينيف على عشرة آلاف نسمة يزرعون ويرعون الماشية في نباتها الكثير وعندهم النحل بكثرة حتى أن قيمة العسل كالماء ومن اكثر محصولات ذلك الجبل نوع (التبغ) المسمى (كدكراوي) وهو شديد التخدير لمن يدخنه أو يلوكه في فمه على الطريقة المعروفة باسم (مدغه) وهؤلاء السكان لا دين لهم مثل سائر عبيد أفريقية والوانهم شديدة السواد وأجسامهم عارية من الملابس الا ما رز صغيرة يسترون بها عوراتهم

وليس لهذا الجبل الا سبيل واحد للصعود على قمته اذ يبلغ ارتفاعه نحو الفي متر ونقل لنا أحد المصريين انه صعد على قمة جبل قلي الواقع جنوب سنار عند منابع النيل الازرق في يوم كثير الغيوم فابصر جبل الداير وجبال تقلي كقطع من السحاب خضراء وقال له سكان ذلك الجبل هذا جبل الداير وهاهى جبال تقلى

وعليه فان جبل الداير ذو منعة طبيعية يستطيع أهله مع بعدهم عن المعدات الدفاعية أن يجعلوا الاستيلاء عليه رابع المستحيلات

وفى عام سنة ١٢٨٥ هجرية كان حسن حلمى باشا الجويسر مديراً لكوردفان وقصد اخضاع جبل الداير لسلطة الحكومة فزحف عليه بطابور من المشاة النظاميين ونحو أربعمائة من جنود الباشبورق الغيرنظاميين وأخذ لنفسه الحذر حتى لايشعر النوبيون بقدومه اليهم ثم تمكن من الصعود على قمة هذا الجبل على غرة من أهله الذين لو علموا أمر تقدمه عليهم لاستطاعوا دفعه بغير كبير مشقة

ولما استقر الجنود في قمة الجبل قابلهم السكان بجيش جرار وأصلوهم حربا كانت نتيجتها انتصار المصريين وتقهقر النوبيين بخسارة بضعة آلاف من مقاتليهم ثم ان القائد لما أمعن النظر في قمة الجبل هاله ما فيها من الغابات الكثيفة وكثرة الوحوش الضارية وأخصها النمور التي تضطر السكان الى ان يعتصموا داخل اكواخهم وزرائبهم قبل غروب الشمس بساعتين ويقضون ليلهم في كر وفر مع النمور التي تهاجم منازلهم وزرائب ماشيتهم هجوما عنيفاً في كل ليلة

ولما رأى ذلك عزم على العودة من غير ان يجني شيئاً من ثمار انتصاره فاشار عليه واحد من صناجق الباشبوزق اسمه مصطفى أغا بالتربص قليلا فقبل مشورته وبعد بضعة أيام جاء رؤساء القرى يقدمون طاعتهم فتلقاهم بالاكرام وفرض عليهم مائتي الف قرش ضريبة يؤدونها للحكومة في كل عام فاسرعوا بالاجابة وأدوا هذا المال وقفلوا راجعين بعد ان أقام منهم رؤساء وحكاما يمثلون سلطة الحكومة عليهم ومن ثم صارت أبواب جبل الداير مفتوحة في وجه التجار ويجلب منها العاج وريش النعام والعسل والتمرهندي والتبغ والسمسم ويوجد في هذا الجبل معادن حديد بكثرة والاهالي يجهلون كيفية استخراجها

وبعدما فتك المهدي بحملة الجنرال هيكس أغار أهل جبل الداير ليلا على شيكان محل مصرع الحملة واختطفوا كثيراً من البنادق والخرطوش فكتب المهدي الى رؤسائهم يدعوهم للدخول في طاعته ويسألهم ان يردوا ما اختطفوه فقابلوا دعوته بالرفض وعدم الاكتراث فحقد عليهم وصمم على مفاجأتهم للانتقام منهم

ولما اجتمعت انصاره في الرهد انتدب القائدين عبد الرحمن النجومي صاحب الراية البيضاء وحمدان أبا عنجه قائد الجهادية وأمر الثاني بطاعة الاول فزحفا على جبل الداير في أربعين الف مقاتل منهم عشرون الفا يقودهم حمدان أبو عنجه وسلاح جلهم من بنادق رامنجتون وعسكر هذا الجيش في سفح الجبل عند قرية اسمها (سدره) وأخذ يوالي الهجوم صباحا ومساء على الجبل فيقابله النوبيون بدفاع يضطرهم الى التقهقر بخسائر غير قليلة والمهدي يوالي ارسال المدد في كل يوم حتى بلغ عدد الجيش مائة الف مقاتل

واشتد الخلاف بين عبد الرحمن النجومي وحمدان أبي عنجه وكان التعايشي ظهيراً لحمدان لما بينهما من القرابة ولانه من رايته فالح على المهدى فكتب منشوراً اليهما بان كل المقاتلة من أهالي السودان الغربي يكونون تحت امرة حمدان أبي عنجه اما الجمليون والدناقلة فالامير عليهم عبد الرحمن النجومي ويكون كل واحد من الاميرين مستقلا بنفسه

وكتب المهدى منشوراً الى الاميرين ومن معهما قال فيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره في حضرة أن انصاره اذا هاجموا جبل الداير في صبيحة يوم الخميس يندك تحت اقدامهم وتتصدع صخوره ويصير هو ووجه الارض سواء

وفي ذلك اليوم صلى الاميران الصبح بغلس ودقوا طبولهم وهاجموا الجبل وبعد قتال عنيف دام الى عصر ذلك اليوم انهزم الدراويش شر هزيمة وتركوا في ساحة الحرب اكثر من عشرة آلاف قتيل عدا المجروحين الذين يربو عددهم على هذا القدر وعاد كثير من الدراويش وفي أنفسهم شيء كثير من المهدي الذي كذب عليهم ووعدهم بدك الجبل وقد صرح لي غير واحد من كبار الدراويش بانه كان قوى التصديق بدعوى المهدي في السر والعلانية ولكن منذ واقعة الداير صار لا يصدق دعواه الا ظاهراً خوفا على نفسه من الوقيعة والانتقام

ولما اتصل بالمهدي خبر الهزيمة التي لحقت انصاره كتب اليهم يدعوهم الى العودة الى معسكره بالرهد وقال لهم ضمن كتابه ان رؤساء الجبل جاءوه ليلا وقدموا له الطاعة والخضوع وان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالكف عن مناوأتهم والاحسان اليهم والحقيقة ان رؤساء الجبل لم يخضعوا

له ولا رأتهم عينه وقد كذب عليهم ليموه على عقول البسطاء بانه قادر على التغلب عليهم

ولدى عودة الدراويش الى الرهد قابل أمراؤهم المهدي وذكروا له ان الجبل دك امامهم كما أخبرهم ولكن سبب الهزيمة عدم الوفاق بين القائدين فاثنى عليهم وشكرهم وانصرفوا من عنده والناس متعجبون من اكاذيب المهدي وأمرائه معاً

ذكر رد طالقة الثلاث

لما عسكر المهدي فى الرهد ووفد عليه كثير من أهالي الجزيرة لتقديم الطاعة والخضوع استفتاه كثير من أولئك الوافدين فى أمر زوجاتهم اللواتى وقع عليهن الطلاق ثلاثا قبل ظهور دعوته أو كانت طلقة أو اثنتان منهن قبل دعوته وقد بنى المستفتون فتاويهم على شيء مما قاله فى دعاويه التي تقدم لنا ايرادها من ان الزمن الذي تقدم على ظهور دعوته حكمه حكم زمن الجاهلية الذى تقدم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فاجاب على هذه الفتاوي بمنشور صرح فيه بجواز وطيء أولئك المطلقات من غير ان ينكحن أزاجا غير الذين طلقوهن بدعوى انهن كن غير مؤمنات ثم تطرف الى ذكر نسائه فذكر أنهن كنساء النبي صلى الله عليه وسلم وتعرض الى تفسير بعض الآيات القرآنية التي نزلت فى نساء النبي صلى الله عليه وسلم وفسرها بما يطابق هواه وانه سمع كلاما من قبل الله عز وجل ليس بصوت ولا حرف وزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بان ملك الالهام مصاحب له . والحاصل ان ذلك المنشور مملوء بالاكاذيب التي تدل على ما كان عليه المهدي من البدع والضلال

وهذا هو نص المنشور الآنف الذكر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فيقول العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله انه قد كثر التضرر والتشكي الي وطلب الغوث من الانصار الحاصل منهم الطلاق قبل زمن المهدية ولا يخلو ذلك من الضيق والحرج منهم ومن نسائهم وقد تابوا والى الله أنابوا وللالفة والاجتماع في دين الله طلبوا ومرارا أعرض عن ذلك وأقول أليسوا كانوا مؤمنين وأفتى للبعض ان عدم الحسبة في الطلاق لاهل القيقر والنساء اللاتى لم يكن مؤمنات لانهن لاعصم لهن فلا يكن لهن حسبة طلاق حتى كثر التضرر فى ذلك والتردد فاهتممت بذلك وتضرعت وابتهلت الى الله في ذلك ليحصل لي فرقان من كتاب الله تعالى لانه سبحانه قد وعد بالفرقان والمخرج للمتقين وفوضت الامر الى الله وتركته حتى ورد على وارد فى آخر ورد الراتب وقد كان هذا الامر خارجا من بالي فوردت لي هذه الآية وهي قوله تعالى « وما جعل عليكم في الدين من حرج » مع الالهام انها المخرج من ذلك التضرر الحاصل فى الطلاق قبل المهدية وان الطلاق قبل المهدية لايحسب لمن تمت الثلاث ولو بعد المهدية وسبق طلاق قبل المهدية وبعد المهدية لاتكون الفتاوى التي كان العلماء يفتون بها في مطلقة الثلاثة وقد وقع في قلبي حينئذ أعني في وقت ذلك الوارد لنا من قوله صلى الله عليه وسلم اننا لما نخرج من «أبا» الى الغرب فالناس يدخلون في دين الاسلام جديداً علي أو كما قال وقد وقع لبعض نسائي تمام عدد الطلاق ووقع بعضها قبل المهدية وقد تضرروا بأنفسهم بأهليهم وبعض الاصحاب وأمرتهم بأن يتزوجوا

فلم يرتضوا حتى ورد الخبر بمنع ذلك بالخصوصية التي يأتي ذكرها ولا زالوا يتضررون فقلت لا سبيل الى ذلك الا بشيء يأتي لنا من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم مع وقوع بعض حضرات نبوية في حسبتها من نسائي ووقوفها معهم في التصفية وبعض حضرات حصل فيها الامر برجوعها من كثير من رآوي صالحة فى حسبتها من نسائي وبكل ذلك كنت أجد في نفسي الحرج من الرجوع لجامع تمام حسبة الطلاق حتي ورد لي الوارد فيها مع ذلك الوارد المتقدم ذكره وهو قوله تعالى «لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيما» الآية فلا أدري الا وقد انفرج مابي من ذلك الخوف وانشرح لها صدري بغير ماأعهده والامر لله ولله تعالى فى كل وقت شأن وقد جاء الاخبار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان معى ملك الالهام من الله يسددني وعينه فمن هذا الخبر النبوي علمت ان الذى يلهمنى الله به بواسطة ملك الالهام لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضراً لفعله وقد ورد لى مرارا الخصوصية التى كانت له صلى الله عليه وسلم في نسائه مع التوصية منه صلى الله عليه وسلم أن تنزل نسائي كمنزلة نسائه صلى الله عليه وسلم ولما أهديت اليّ النساء مع الوارد لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن أخذني خجل من ربي سبحانه في أمرهن وأنا في ذلك فجاءني سلام سمعته بجميع جسدى من غير حرف ولا صوت ولا سر ولا جهر ولا بعد ولا قرب ولا أقدر على تكييف شيء منه فدلني على أسرار كثيرة ولله المثل الاعلى وتعالى الله عن كل مايخطر ببال وأمر ذلك مفوض الى الله تعالى ولكن حصل لي مع ذلك الالهام الذى يحصل لى فانشرح لى به الصدر وانحل قلبي مما كنت مهتما به وحصلت لى أسرار كثيرة يغمض فهمها وقد حصل لى مثل واقعة هذا السلام شيء يشبه

ذلك في كيفية بعض النساء بشارة نسيتها مع تسمية الولد والبنت اللذين يجعلهما
الله تعالى منها فسمعته بسائر جسمي باطنا وكل ذلك بحول الله وفضله لا بشغف
في النساء ولا أبرئ نفسي الا أن يزكيني ربي وعلم حالي عند ربي . واعلم ان
ظن المؤمنين بي حسن ولكن لخوف دخول الشيطان على من ضعف قلبه
مع العلم ان خلافتي لرسول الله صلي الله عليه وسلم لا كخلافة الخلفاء السابقين
سأبين بعض النصوص المذكورة في بعض التفاسير في قوله تعالى «لاتحل لك
النساء من بعد» لينحل قلب بعض الاخوان الذين تقع فى قلوبهم عداوة
الشيطان بسبب النساء اللاتي أرادهن لي ربي سبحانه وانما الشيطان يجري
من ابن آدم مجرى الدم فاذا فقد العبد كثرة أنوار المحبة واليقين بالحقيقة التي
نحن عليها أخاف أن يضره الشيطان. قال عكرمة والضحاك «لاتحل لك النساء
من بعد» أي الآ اللاتي أحللنا لك وهي قوله« انا أحللنا لك أزواجك اللاتي
آتيت أجورهن » الآية ثم قال« لاتحل لك النساء من بعد» أي الآ اللاتي أحللنا
لك بالصفة التي تقدم ذكرها وقيل لأبيّ بن كعب لو مات نساء رسول الله
صلى الله عليه وسلم أ كان يحل له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل قوله
تعالى لاتحل لك النساء من بعد قال انما أحل الله له ضربا من النساء فقال
تعالى « يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك» الآية ثم قال لاتحل لك النساء من
بعد وبين بعضهم فى هذا المقام انه صلى الله عليه وسلم تجوز له ثلاثمائة امرأة
وقال مجاهد معناه لاتحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات «ولا
أن تبدل بهن من أزواج» يقول ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود
والنصاري يقول لاتكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية : ولو أعجبك
حسنهن الآ ماملكت يمينك» أحل له ماملكت يمينه من الكتابيات أن

يشتري بهن * وروى عن الضحاك ولا أن تبدل بهن من ازواج يقول ولا
أن تبدل بازواجك اللاتي هن في حبالك ازواجا غيرهن بأن تطلقهن فتنكح
غيرهن فحرم عليه طلاق اللواتي كن عنده وحرمهن علي غيره حين اخترنه
فأما نكاح غيرهن فلم يمنع عنه وغير ذلك من نحو هذا * أقول وبعد هذا
قد حصلت لي في هذا المعنى اسرار كثيرة يطول ذكرها والحمد لله على خاصيتنا
برسول الله صلى الله عليه وسلم وعنايته بنا ودعائه لنا قديما وحديثا فان شرف
التابع من شرف المتبوع والسلام اه

زحف ابي قرجة علي الخرطوم

لما سقطت فداسي في يد أبي قرجة وأرسل صالح بك الملك أسيراً الي
المهدى كتب المهدى الي أبي قرجة يأمره بالتقدم الى الخرطوم من جهة الجريف
وفي أوائل شهر رجب سنة ١٣٠١ وصل أبو قرجة بجيش جرار الي
قرية الجريف التي تبعد عن الخرطوم مسافة أربعة أميال علي ضفة النيل
الازرق وعسكر هناك وشاد اثنتي عشرة طابية حيال استحكام الخرطوم وانضم
اليه دعاة المهدية الذين كانوا حول الخرطوم وفي مقدمتهم الشيخ مضوي
عبد الرحمن وفي ثاني يوم وصوله الى الجريف جمع مقاتلته وهجم بهم على
الاستحكام فسكتت الجنود ولم يرموه بالنيران حتى اذا صار علي قرب الف
ومائتي متر من الاستحكام انفجرت فيهم الالغام التي كانت مدفونة في الارض
واطلق الجنود النيران علي العدو فتقهقر أبو قرجة وبلغت خسارته أربعة آلاف
قتيل عدا المجروحين

وكانت هذه الالغام قد وضعت قبل زحف أبي قرجة بنحو عشرين

يوما وقام بتجربتها غردون والمستر پاور قنصل انكلترا في الخرطوم

وعاد أبو قرجة الى معسكره في الجريف وأخذ يوالي اطلاق النار علي الاستحكام دون ان يجسر علي الدنو منه وكان مع أبي قرجة نحو مائة نفر من أقاربه الدناقلة وكانوا نخاسين في جهات خط الاستواء ولهم مهارة في اتقان رماية الرصاص مثل اكثر النخاسين حتى انهم يقفون في ظلام الليل على بعد مرمى الرصاص وينادون باسماء دناقلة نخاسين بقوا علي ولاء الحكومة هم وقائدهم ساتي بك الدنقلاوي الذي كان نخاسا أيضا فاذا أجابهم المنادي قذفوه بالرصاص فيصيبه وأخيرا أصدر غردون امرا منع به كل كلام بين رماة أبي قرجة وساتي بك

ومكث أبو قرجة محاصرا الخرطوم من شهر رجب الى اليوم السابع من شهر شوال حتى هزمه محمد علي باشا وسنعود الى ذكر ذلك

ذكر تفشي الجدري بين الدراويش

كان غردون أمر بوضع مادة الجدري في جوف الكلل فاذا قذفت من المدافع وقعت في وسط الدراويش بغير أن تنفجر فيأخذونها ويجدون الماء في جوفها فيقولون انها من كرامات المهدي ويتبركون بالمادة الجدرية ويمسحون بها وجوههم فتفشا فيهم الجدري وقدر عدد الوفيات به كل يوم بخمسين نسمة ولم يفطنوا لشيء مّا واتصلت الاخبار بالمهدي فبنى عليها مابنى وزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأن الكلل تحول ماء كرامة له وكثير من البسطاء يعتقدون ان هذه المكيدة كرامة ثابتة للمهدي

واقعة الجريف

في صبيحة اليوم الرابع من شهر شوال سنة ١٣٠١ انتدب غردون الميرالاي محمد علي بك حسين ميرالاى لواء السودان الاول ونحو ألف جندي من الباشبوزق وعدة الجميع خمسة آلاف مقاتل وخمس بواخر قد صفحت بالفولاذ لمهاجمة معسكر أبي قرجة فتلقاهم بثبات غريب وما زالوا في كروفر حتى جاء الليل ولم تسفر الحرب عن نتيجة وثابر القائد على خطته وأحاط بطوابي الدراويش وضايقها من جهة البحر وهاجمها من البرمدة يومين وفي اليوم الثالث تمكن محمد علي بك من الاحاطة بطوابي العدو حيث استولى عليها بعد الظهر وفر أبو قرجة ومعه أربعمائة نفر من خواصه وقتل من الدراويش نحو عشرة آلاف مقاتل وغنم الجنود مافي معسكرهم من المؤن والذخائر واحتملوا شيأ كثيراً من الاقوات التي ساعدت سكان المدينة وخفضت ثمن الاقوات فيها

وعثر الجنود في منازل الامراء على كميات كبيرة من المسكرات كانوا يخفونها في منازلهم ويعاقرونها سراً ولحق أبو قرجة بالفلاة وأرسل يعلم المهدي بما أصابه من الفشل فوافاه الكتاب وقد غادر الرهد قاصداً «شاة» القريبة من النيل الابيض فاستاء من هذا النبأ

وروى سلاطين باشا ان عبد الله التعايشي استدعاه وقال له ان غردون رجل داهية وذو حيل وانه هجم على أبي قرجة وهزمه من الجريف وان المهدي ينوي ارسال عبد الرحمن النجومي لانه الرجل الذي يمكنه قهر غردون فقال له سلاطين عسى أن لاتكون خسائر أبي قرجة عظيمة فقال لاحرب بغير خسارة

وكتب المهدي الى ابي قرجة يشجعه ويأمره بالانضمام الى الجيش الذي يقوده عبد الرحمن النجومى وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأن هذه المصيبة خاتمة المصائب التي يختبر الله بها أصحابه وانها آخر هزيمة تلحقهم حتى يفتحوا الخرطوم

واقعة الحلفاية

(وهزيمة الدراويش فيها)

وفى يوم ٨ شوال سنة ١٨٠١ بعد عودة محمد على بك من الجريف سار بالقوة التي كانت معه الى جهة الحلفاية وكان بها أولاد الشيخ العبيد الذين تقدم لنا ذكر حوادثهم وهجم على حصونهم فدافعوا نحو ثلاث ساعات ثم انهزموا واستولى الجنود على مواقعهم ولحق المنهزمون بالفلاة

وكان أبو قرجة أرسل الشيخ مضوى بخمسمائة مقاتل لتعزيز حامية الدراويش فى الحلفاية وذلك قبل هزيمته ببضعة أيام وعاد محمد على بك الي الخرطوم ظافراً بعد أن وضع حراساً على الحلفاية وأمرهم بهدم القرية وحمل أخشابها الى المدينة

وأنعم غردون على محمد بك برتبة اللواء الرفيعة وتلقاه بالاكرام حين عودته الي المدينة

وكان غردون يظن ان نتيجة الواقعتين الجريف والحلفاية ستكون عودة أهالى القرى الى الطاعة على أثر هزيمة الدراويش فخاب ظنه حيث فر الاهلون الى الدراويش وتركوا قراهم ومنازلهم ومزارعهم فاستفاد سكان المدينة بعض الفائدة حيث كانوا يؤلفون عصابات يخرجون بها ويحملون الغلال وسائر

الاقوات من منازل الاهلين

ووقعت أنباء هذه الهزيمة موقعاً سيئاً عند المهدى حيث تقدم بنفسه الى الخرطوم

على ان الذى ساعد على هذه الانتصارات هو ارتفاع النيل ومساعدة البواخر للجنود ولولا ذلك لم نقدر على هزيمة العدو وطرده من الجريف والحلفاية

وبقي الحال على ماهو عليه فى المدينة وابتعد الدراويش عن ضفة النهر وأوغلوا فى الفلوات واسترد المدفع الذي غنمه الدراويش فى الواقعة التى خان فيها السعيد حسين الجيعابي وحسن ابراهيم الشلالى

واقعة ابي حراز

أبو حراز قرية واقعة في الضفة الشرقية للنيل الازرق وهى تبعد عن الخرطوم بمسيرة سبع مراحل وهى التي قتل فيها الشريف أحمد بن طه وقد تقدم ذكر قتله

سار اليها محمد على باشا فى خمس بواخر تقل أربعة آلاف جندي بعد واقعة الحلفاية يدعو أهلها الى الطاعة والخضوع للحكومة ففروا من وجهه ولم يحاربوه وأباح القرية للجنود فنهبوا ما فيها من الاقوات وشحن من غلالهم نحو الفى أردب ونحو ثلاثمائة قنطار من البن الحبشي لان هذه القرية مركز للتجارة الحبشية والقوافل الذاهبة الى حدود الحبشة والآيبة منها تنزل فيها ثم عادت الجنود الى الخرطوم بغير ان تصادف كيداً

واقعة القطينة وقتل ساتي

القطينة قرية واقعة جنوب الخرطوم على ضفة النيل الابيض وساتي بك هذا كان نخاسا ثم صار موظفاً أميرياً في بحر الغزال ولما وصل غردون الى الخرطوم عينه قائداً على اربعمائة جندي من الباشبوزق وأصلهم من جنود الخطرية الذين كانوا في بحر الغزال

وفي أواخر شهر شوال سنة ١٣٠١ اتصل بغوردون ان شخصا اسمه على عبد الله من أهالي القطينة وصهر المهدي جمع جموعا من بلده ينوي بهم الزحف على الخرطوم فانتدب ساتي بك بجنوده على باخرتين لاكتشاف أولئك المجتمعين

ولما وصلت الباخرتان الى القطينة هجم على عبد الله ومن معه على ساتي بك هجوماً عنيفاً فثبت لهم وهزمهم عدة مرات وما زالوا في كروفر حتى أصيب ساتي بك برصاصة قضت عليه وانهزم جنوده ولحقوا بالباخرتين اللتين أقلعتا بهم وعادتا الى الخرطوم

واقعة العيلفون

العيلفون قرية على ضفة النيل الازرق تبعد عن الخرطوم بمرحلة واحدة ولما انهزم الدراويش من الحلفاية لحقوا بام ضبان قرية الشيخ العبيد وفاوضوه في الامر فكتب منشوراً استصرخ فيه القبائل فاجتمع عليه نحو عشرة آلاف مقاتل وأرسل الشيخ مضوي الى العيلفون لجمع أهاليها وأهالي القرى التي حولها فتألب عليه نحو خمسة آلاف مقاتل عسكر بهم في العيلفون

وانتدب غردون اللواء محمد على باشا ومعه خمسة آلاف جندى ونحو خمسة آلاف من أهالي الخرطوم خرجوا متطوعين طمعاً في الكسب وقد أذن لهم غردون بمرافقة الحملة لأن ما يكسبونه من الاقوات والماشية يعود بفائدة إيجاد القوت فى المدينة وسارت الحملة من الخرطوم أوائل شهر ذي القعدة سنة ١٣٠١ على خمس بواخر وعشرة صنادل ومراكب شراعية

وعند ماوصلت العيلفون هجمت على العصاة فقابلوها بثبات عظيم ثم أحاطت بموقعهم واصلتهم ناراً حامية وقتلت منهم عددا يربو على الاربعة آلاف وفر الشيخ مضوي فى نحو مائتين ولحق بام ضبان وانضم الى الشيخ العبيد وغنمت الحملة شيئاً كثيرا من الماشية والحبوب ووصلت أخبار الانتصار الى غردون فسر بها وملأت الآمال جنبيه وأثنى على محمد علي باشا وأعجب بمهارته

واقعة ام ضبان وقتل محمد علي باشا وحملته

لما انتصر محمد علي باشا فى واقعة العيلفون ارسل جواسيسه الى ام ضبان فعادوا وأخبروه كذبا بان الشيخ العبيد فى عدد قليل من الرجال وان الذين حوله لا يبلغون الالف ويظهر أن أولئك الجواسيس كان الشيخ العبيد استمالهم ولقنهم هذه الاقوال ليجر الحملة الي ام ضبان وهناك يبطش بها فى وسط الغابات وقد افلح سعيه حيث لم يكد محمد علي باشا يسمع هذا الخبر حتى زحف بحملته ومتطوعته على ام ضبان التي تبعد عن العيلفون بنحو أربعة أميال فى الصحراء

ولما توسطت الحملة الطريق خرج عليها كمينان من وسط الغابات كمين من خلفها والثانى من أمامها وداهماها على غرة فانتثر نظام الجنود وأثخن العدو

فيهم قتلا ونزل محمد علي باشا واركان حربه عن دوابهم وجلسوا على الارض حتى قتلوا

وكان فعلهم هذا تبعا لعادة متبعة عند أهالي السودان وهي أن لا يفر الانسان سيما اذا كان رئيسا أو مشهوراً بالفروسية لئلا يقتل منهزما لان ذلك من اكبر العار عندهم ولولا ذلك لكان في استطاعة محمد علي باشا واركان حربه النجاة بدوابهم

وقد وقعت هذه النازلة وقعا سيئا عند غردون وأسقطت منزلة محمد علي باشا من قلبه لانه كان معجبا بمهارته ولم يكن يظن انه يتبع عادة همجية يضحي فيها حياته وحياة اركان حربه فضلا عما اتاه من الطيش والتهور اللذين ساقاه الى المخاطرة بالزحف على أم ضبان بدون صدور اذن من غردون الذي كان يؤكد على كل الحملات التي يبعثها بعدم التوغل في الفلوات والابتعاد عن شاطئ النهر وقد خالف محمد علي باشا هذه القاعدة وساق الحملة الى موقف الموت والهلاك

ونجا من رجال الحملة نحو مائتي جندي فقط والذي ساعدهم على النجاة نحو ثلاثين فارسا كانوا مع الحملة فامتطى كل اثنين ظهر حصان وامسك بعضهم باذناب الخيل فوصلوا الى البواخر التي أقلعت بهم الى الخرطوم وما انتشر نعي القتلى حتى ضجت المدينة بالبكاء والعويل اذ لم ينج احد من المتطوعة ووقع الخبر موقع الصاعقة على غردون الذي أيقن بحرج الموقف وان العاقبة ستكون سيئة وخصوصا أن الجواسيس اخبروه بتقدم المهدي على الخرطوم وان عبد الرحمن النجومي على وشك الوصول اليها

هذه الواقعة جاءت ضربة قاضية على الخرطوم اذ فقدت فيها نحو خمسة

آلاف جندي جلهم من رجال الالاي السوداني الاول ومن أقوى الجنود الذين فى الخرطوم واكثرهم دربة ولولم يفقد غردون هذه الجنود لكان فى الامكان استخدامها فى مواقع كثيرة مثل واقعة الجريف والحلفاية وأبي حراز والميلفون ولا يخفى ان تلك الوقائع عادت بفائدة طرد العدو أولا وجلب الاقوات ثانيا ولو استمرت هذه القوة تهاجم البلاد في ابان الفيضان وتغنم مافيها من الاقوات لاجتمع فى المدينة شيء كثير منها ولم تقع الحامية والمدينة بين انياب المجاعة التي كانت من أقوى الاسباب التي ساعدت المهدي على اسقاطها ووقوعها بين مخالبه

أوراق البون

لما بدأ حصار الخرطوم كانت الخزانة الاميرية خالية من النقود فاصدر غردون أوراق بون من فية قرش واحد الي الف قرش وكتب على كل ورقة ما يأتى «هذا المبلغ مقبول ونجرى دفعه من خزينة الخرطوم أو مصر بعد مضي ستة شهور من تاريخه ابريل سنة ١٨٨٤» ويلى ذلك ختم غردون وتوقيعه بخط يده

وصرفت مرتبات الحامية والمستخدمين من هذه الاوراق ولكن التجار لم يقبلوا التعامل بهذه الاوراق فرفعوا أثمان الاشياء الى درجة جعلت قيمة المائة قرش كعشرين قرشا فقبض غردون على اثنين منهم وأمر بابعادهما عن الخرطوم خارج الحصون ليلحقا بالدراويش ثم رق لهما وأعادهما الي المدينة بعد ان أكد عليهما بعدم العودة الى مثل هذا الذنب فاعطياه الذمام على الوفاء

وبالرغم عن التشديدات سقطت قيمة أوراق البون حتى صار الصرافون يأخذون المائة قرش بقرش واحد واستمر هذا السقوط الي نهاية الحصار ووقوع المدينة في قبضة العدو

ولم يكن هذا السقوط واقفاً عند ورق البون وذلك ان قيمة الجنيه الانكليزي سقطت حتى صار الصرافون لا يقبلونه الا بريالين أعنى اثنين وثلاثين قرشاً مصرياً وتناول هبوط قيمة الجنيه صنف الذهب كله فان الاوقية من الذهب الناري الذى هو كالذهب البندقي تباع بثمان ريالات مجيدية أو أقل وليس لذلك سبب غير ان الذهب فى الخرطوم أكثر من كل أصناف المعاملة وصغار الباعة يأبون التعامل بالمسكوكات الذهبية مثل سائر أهالى السودان ويفضلون الريال المجيدى على اى نوع كان من النقود

وقد كانت أوراق البون فى بداية اصدارها مكتوبة بخط اليد وفى ذات يوم جاء الي صراف الخزانة شماس من القسوس الافريقيين كان بيده اوراق من ورق البون يروم توريدها فى الخزانة وأخذ رجعة بها على مالية مصر وكانت هذه الاوراق مما حصله هذا الشماس من ثمن أثمار بستان لاولئك القسوس واسم هذا الشماس دومينيكو

ولما قلب صراف الخزانة تلك الاوراق ظهر له ان بعضها مزور فأمسكها وساق دومينيكو الى غرفة وكيل المالية الذى تحقق تزوير تلك الاوراق وأسرع بابلاغ غردون الذى تولي استنطاق الشماس بنفسه حيث ظهر له انه لم يكن هو الفاعل ثم حجز الاوراق المزورة عنده وأمر باعطائه بدلها وبث العيون في المدينة للوقوف على الفاعل فقبض على صابر وأخيه ابنى عبد النبى السلاوي فاعترفا امام غردون بانهما الفاعلان وضبطت الآلة التى صورا عليها ختم

غردون وتوقيعه وقالا ان الذى اضطرهما لارتكاب هذه الجريمة هو الضنك المسبب عن الحصار فعفا عنهما ولم يعاقبهما وأحسن على كل واحد منهما بخمسين قرشا مرتبا شهرياً يتناوله من الخزينة ومن ثم أمر بطبع أوراق البون في المطبعة الاميرية ولم يجسر أحد بعد ذلك على تقليدها

ذكر وصول البواخر الي سنار

فى أوائل شهر ذي القعدة سنة ١٣٠١ هجرية أرسل غردون الميرالاي بخيت بطراق بك ومعه اربع بواخر الى سنار فوصل الى نقطة (جادين) الواقعة شمال مدينة سنار فأتى بها حامية من سنار تلقته بالترحاب وأخبرته ان المدينة باقيـة للآن وانها تمكنت من قهر العدو عدة مرات وان الأقوات متوفرة فيها ثم سلمته الف أردب من الذرة حملها على بواخره وعاد بها الى الخرطوم فانتدب غردون اللواء محمد نصحي باشا بالبواخر الاربع ودفع له عشرة آلاف جنيه من ورق البون لتصرف منها مرتبات الحامية بسنار وأرسل الاعلانات بالانعام بالرتب والمداليات على مدير سنار وضباط حاميتها وكبار موظفيها ومن هاته الرتب رتبة اللواء للمرحوم حسن صادق باشا مدير سنار وقومندان حاميتها

وفى أواخر شهر ذي القعدة وصل محمد نصحي باشا بالبواخر الى سنار وقوبل بفرح وابتهاج عظيمين من الحامية والسكان وقفل راجعاً ومعه ألف وخمسمائة اردب من الذرة

ذكر خيانة ابراهيم رشدي كاتب غردون

كان ابراهيم رشدى كاتباً صغيراً فى الحكمدارية ثم صار كاتباً لجلرباشا الالمانى الذى كان وكيلا للحكمدارية وفصل عنها وعين مفتشا لمنع تجارة الرقيق فقدم القاهرة معه واستقال ججلر باشا من وظيفته وبقي ابراهيم رشدى بالقاهرة حتى قدمها غردون فعينه كاتباً له وسافر معه فاحسن عليه بالرتبة الثانية وأبلغ مرتبه الى ستين جنيها شهريا مع ان مرتب هذه الوظيفة كان لا يتجاوز عشرين جنيها وتحصل ابراهيم رشدي على ثقة عظيمة عند غردون فاستعمل هذه الثقة فيما يعود عليه بالمنافع الشخصية حيث أخذ يبيع الوظائف بيع السلع حتي حصل على ثروة طائلة من هذا السبيل وليته كان يبيع الوظائف لمن فيهم بعض أهلية أو استحقاق

وكان له والد يبلغ من العمر زهاء ثمانين عاما كان ضابطا برتبة ملازم ثان وهو أمي لا يعرف الكتابة والقراءة واسمه محمد أغا العتبانى فرقاه الى رتبة اميرالاى وعينه قومنداناً للطوبجية حالة كونه لا يعرف شيئاً من هذا الفن وغاية أمره انه كان ضابضا فى البيادة برتبة ملازم ثان كما رقى كثيراً من ذوي قرابته الى وظائف سامية وكلهم بعيدون عن الاهلية والاستحقاق بعد السماء من الارض

ومن هاته الترقيات انه رقى عديله الى وظيفة رئاسة مجلس الاستئناف مع انه لا يعرف كلمة من القانون وكانت صناعته البزازة فى الخرطوم ورقى واحدا من أصهاره كانت صناعته تبيض الاواني النحاسية الى رتبة ملازم ثان فى الجيش وسماه «خضر جودت» بعد ان كان اسمه خضر النحاس ومثل

هذه الترقيات كثير وانما أوردنا بعضها هنا للدلالة على أعمال هذا الكاتب

ولم يمض على وصول غردون الى الخرطوم اكثر من ستة شهور حتى أصبح ابراهيم رشدي فى خلالها ذا ثروة تعد بعشرات الالوف وبني له دارا زخرفها ووضع فيها من الرياش ما ادهش الناس وأوجب ارتياب غردون فى نزاهته

ولما وصلت بواخر نصحي باشا الى سنار كان معه فتح الله افندى جهامي السوري أحد معاوني الحكمدارية فسلمه المدير حسن صادق باشا عشرين أردبا من الذرة البيضاء المعروفة باسم (مقد) وهو نوع من الذرة لكنه أبيض وطعمه قريب من طعم القمح ونحو عشرة قناطير من السمن وثلاثين خروفا من الضأن ودفع له كتابا خصوصيا برسم غردون

ولما عادت البواخر الي الخرطوم سلم فتح الله افندى الذرة والسمن والخرفان والكتاب الي ابراهيم رشدى بصفته كاتبا لغردون ففض الكتاب وقرأ ما فيه حيث علم ان هذه مرسلة من مدير سنار هدية لغردون فارسل هذه الاشياء الي منزله ولم يذكر لغردون شيئا من أمرها حتى اتصل به ذلك من طبيبه الذى تلقى هذا الخبر من فتح الله افندى جهامى فاستدعى ابراهيم وسأله فانكر انه تناول كتابا أوشيئا من فتح الله المذكور فشهد بعض موظفي الحكمدارية بانهم رأوا الكتاب لما دفعه اليه فتح الله وانهم رأوا الاشياء المختلسة وانه أخبرهم بان غردون تنازل له عنها فامر بتفتيش منزله فوجدت فيه الاشياء فى أوعيتها وعليها كتابة تفيد انها مرسلة برسم غردون وفتشت أوراقه فوجد الكتاب المرسل من مدير سنار بينها فاغتاظ غردون من هذه الحادثة التي برهنت له على خيانته ودناءته مع كونه موضع ثقته

وامين سره وأمر بالاشياء فاضيفت [illegible] لانه كان من عادته أن

لايقبل هدية أبدا من صغير أو كبير وقد رأيت ذلك منه منذ مرافقتي له حتى انه كان اذا نزل بقرية مدة تجوله في السودان لا يقبل من أهل القرى ضيافة ولا شيأ ما الا ويدفع ثمنه حتى شربة الماء لمن يناولها له ولو على ضفة النهر

ثم انه أمر بتشكيل مجلس لتحقيق جرائم ابراهيم رشدي فثبت ان ما اغتاله ثمنا للوظائف التي باعها يربو على عشرة آلاف جنيه وانه كان قد زور توقيع المرحوم جعفر مظهر باشا حينما كان حاكما على السودان

وظهر من التحقيق أيضا انه كان قد تناول رشوة من الخائنين السعيد حسين الجميعابي وحسن ابراهيم الشلالي اللذين ذكرنا خيانتهما وقتلهما وأن كثيراً من الذين ابتاعوا الوظائف منه كانوا يقصدون من شرائها الوقوف على أسرار الحكومة ليوقفوا المهدي عليها

ولدى نهاية التحقيق حكم عليه بالتجريد من كل ألقابه ورتبه والفصل من وظيفته والحرمان من كل وظيفة أميرية وعين بدله قرياقص بك القمص الذي كان وكيلا للمالية ومات ابراهيم رشدي قتيل الدراويش يوم سقوط الخرطوم

ذكر ماتداينه غردون من النقود

ذكرنا ان ورق البون هبطت قيمته هبوطا فاحشا فتذمر الجنود من هذا الهبوط فاخذ يطلب من الاعيان نقوداً بوجه السلفة فكانوا لا يقدمون له الا قليلا واخيراً قال لهم اني استدين منكم لنفسي لا للحكومة وأجعل لكم فوائد على كل ما استدينه منكم فتسابق الناس الى اجابته لانهم كانوا يعتقدون فيه الوفاء فقد والله في يوم واحد عشرة آلاف جنيه حرر بها كمبيالات

على نفسه بخطه وختمه وجعل مواعيدها كلها وصول الحملة الانكليزية الى الخرطوم وبهذه الطريقة اجتمع لديه من المال ماقام بمرتبات الحامية وخفف عنها ما كانت تتذمر منه من هبوط اوراق البون ذلك الهبوط الفاحش

ذكر مدالية حصار الخرطوم

صنع غردون مدالية فى وسطها الهلال والنجمة مكتوب حولها هكذا « حصار الخرطوم سنة ١٣٠١ » وجعلها على ثلاث درجات الاولى ذهبية والثانية فضية والثالثة نحاسية

وكل انسان كان محصوراً فى الخرطوم يحق له حمل هذه المدالية من النوع الثالث بغير أن تكون بيده براءة واما النوعان الاول والثانى فيحتاج حاملهما الى براءة من غردون

وظائف المؤلف بعد الاصابة

لما أصبت فى واقعة الحلفاية كنت بوظيفة قومندان الحامية ومكثت ثلاثة شهور طريح الفراش ولكنني كنت قائماً فى خلالها باعباء وظيفتي فكانت تقارير القواد تصل الى واصدر لهم الاوامر ليل نهار بدون انقطاع

ولما منّ الله عليّ بالشفاء استحسن غردون تعييني في وظيفة رئيس أركان حرب الحكمدارية حيث اكون مشرفا على جميع أعمال قومندان الجنود الذي عين بدلي

ولما كثرت دسائس المهدي داخل الخرطوم وخيف وقوع ما لا تحمد مغبته اضاف غردون وظيفة محافظ الخرطوم على عهدتي مع بقائى فى

وظيفة رئيس أركان حرب الحكمدارية فكنت قائماً باعباء هاتين الوظيفتين حتى سقطت الخرطوم .

وكنت أغدو الى الحكمدارية في الصباح لتلقي تقارير القواد ثم ابرحها الى المحافظة في الظهر حيث أتلقى أخبار المدينة ثم أعود الى الحكمدارية في المساء لاصدار الاوامر عن الحركات العسكرية ثم أقضي اكثر ساعات الليل متردداً بين الحكمدارية والمحافظة وقد تمضي عليّ ثلاثة أو أربعة أيام لا أجد في خلالها فرصة اذهب فيها الى منزلي وفي اكثر الليل تطرأ أحوال توجب مروري على مواقف الحامية بعد نصف الليل وربما ركبت باخرة للذهاب الى حصن راسخ بك أو حصن أم درمان أو حصن جزيرة (توتي)

وقد فوض اليّ النظر في أمر توزيع الديون التي تطلب من أعيان المدينة وقبضها منهم وقد اتفق لي مرات عديدة ان أرسل الى منزلي أطلب غذاء وانا بالمحافظة مثلا ثم يطرأ ما يلجئني الى التوجه الى الحكمدارية فاوصي بارسال الغذاء اليّ فيها ثم اضطر لمفارقتها قبل ان يدركني وأنا بها وربما أكون في مثل هذه الحالة في حاجة شديدة الى الغذاء ولا يمكنني تداركه اذ المجاعة ضاربة أطنابها في المدينة

وقد وقع اكثر من مرة ان الخادم يؤخذ منه الغذاء ويختطفه الناس في الطرق قبل أن يهتدي الى المحل الذي أنا فيه

ذكر احمد العوام واحراقه الجبه خانه وبقية حوادثه

ولما وصل غردون الى الخرطوم وأصدر الاوامر باطلاق المسجونين مهما كانت جرائمهم اطلق احمد العوام بضمانة رجل من سكان الخرطوم يدعى أبا

بكر الجاركوك وكان هذا الرجل مسجونا بعد النفى من الاسكندرية لانه كان من أهليها وذا ضلع كبير فى حوادثها العرابية

وكانت المخازن المعدة لحفظ الجبيه‌خانه خارج المدينة بالقرب من الاستحكامات . ولما بدأ الحصار كانت مقذوفات العدو تصل اليها فأمر غردون بنقلها الى مكان وسط المدينة تصير فيه بعيدة عن كل خطر فلم يوجد في المدينة بناء يقوم بالغرض غير دار الكنيسة الكاثوليكية وكان القسوس قد هجروا الخرطوم الى مصر ولم يبق بها غير الشماس دومينيكو فعرض عليه غردون استئجار دار الكنيسة لحفظ الجبيه‌خانات فامتنع من الاجابة ورفع الامر الى المسيو هنزل قنصل النمسا في الخرطوم فاحتج على غردون بعدم موافقة ذلك وحصل بينهما ما أدى الى انقطاع العلائق ونقلت الجبيه‌خانه الى دار الكنيسة وكان منزل احمد العوام ملاصقا لها فأشعل النار في الجبخانه بقصد احراقها فدورك الامر واطفئت النار قبل ان تبلغ أمكنة المواد الملتهبة

وكنت وقتئذ مباشراً لاطفاء هذا الحريق فحصرت الشبهة في احمد العوام وبعض الجيران والقيت القبض عليهم وأخذت أباشر التحقيق بنفسي فظهرت براءة الجيران فأطلقتهم ووجدت الثقب الذي وصلت منه النار الى الجبيه‌خانات فى منزل احمد العوام

وقبل ذلك وصلت الي تقارير الجواسيس بان احمد العوام هذا ميال الى المهدي وانه ألف كتاباً سماه « نصيحة الخاص والعام في ذكر المهدي عليه السلام » فرفعت خلاصة التحقيق الى غردون الذي أصدر امره الى فتح الله جهامى احد معاوني الحكمدارية أن يأخذ معه الشيخ حسين المجدي رئيس أساتذة المدرسة الاميرية والدرس بجامع الخرطوم ويفتشا منزل احمد العوام

ويضبطا أوراقه فتوجها وضبطا الاوراق ووجدا النصيحة المذكورة مكتوبة بخط يده ووجدا غيرها كثيراً من القصائد التي ألفها في مدح المهدي وتصديق دعوته والحض على رفع لواء العصيان على الحكومة وحملت الاوراق كلها الى غردون الذي أمر بزج احمد العوام في السجن وأبقي الاوراق عنده وأحيل على المحاكمة فحكم عليه بالاعدام فاستبدل غردون هذا الحكم باخراجه الى الدراويش فعارض المجلس في ذلك قائلا ان لحاقه بالمهدي لابد أن يكون ذا عاقبة سيئة حيث يوقفه على حالة المدينة وينبهه الى ماهو في غفلة عنه فقبل ماأشار به المجلس وأمر بصلب احمد العوام فراجعته في أمره والتمست أن يكون انفاذ الحكم ليلا في منزله فقبل التماسي وأعدم احمد العوام فى منزله ليلا

وبعد سقوط الخرطوم وقعت النصيحة والقصائد في قبضة المهدي فسر بها وأمر بطبعها فطبعت وأظهر الاسف على قتله وقال انه أشد ايمانا من مؤمن آل فرعون وتمنى أن يكون للعوام ذرية أو ذوو قرابة يصلهم ببعض ما كان يصل به احمد العوام لو قدر له الاجتماع به

أما النصيحة فمقسمة الى خمسة فصول ومقدمة. الفصل الاول في ذكر امامة جلالة السلطان عبد الحميد حيث طعن على امامته أشد الطعن وجاء بأدلة أوهى من نسج العنكبوت ونذكر منها نبذة للدلالة على سخافة مؤلفها وفقدانه العقل وهي انه زعم ان لفظة خان الرادفة لاسماء الخلفاء العثمانيين مأخوذة من الخيانة وذلك ان السلطان سليم خان سرق مخلفات النبي صلى الله عليه وسلم وخان العهد الذي أعطاه لمن كانت عنده بارجاعها له ولا يخفى مافي ذلك من الدلالة على مبلغ علم ذلك الجاهل . وفى الفصل الثاني مطاعن كلها من قبيل تفسيره للفظة خان موجهة الى ساكن الجنان محمد علي باشا محيي

الديار المصرية وفي الفصل الثالث ذكر الحوادث العرابية والثناء على أولئك الثوار . والفصل الرابع في دعوة أهالي القطرين المصري والسوداني لاتباع المهدي وانه هو المنتظر

وأما الفصل الخامس فقد خصصه لذكر المهدي وقال انه يؤجل الكلام فيه الى مابعد اجتماعه بصاحبه فكتب فيه الشيخ الحسين زهرا كلاما طويلا يرمي به الى ماجاء في الاحاديث من ظهور المهدي ويرد على الذين تذرعوا بما ورد من الاختلاف الى تكذيبه

بعثة الكولونيل ستيوارت وقتله

لما أبيدت حملة محمد علي باشا ونمي الي غردون تقدم عبد الرحمن النجومي الي الخرطوم وان المهدي زحف عليها بخيله ورجله ايقن ان مصيره الي الهلكة ولا نجاة له بغير وصول النجدة اليه من مصر

ولما كان غردون لايجهل ان مصر لاتستطيع مساعدته الا اذا شاءت حكومة جلالة الملكة فيكتوريا وقد قلنا ان غردون حاول عبثا تحويلها عن الخطة التي وطدت العزم على انفاذها وهي ترك السودان للفوضى والقاء حبله علي غاربه بعث الكولونيل ستيوارت وزوده بكتب الي رؤساء حكومة الجناب الخديوي وحكومة جلالة الملكة وكل هذه الكتب لاتخرج عن التماس المعونة وطلب النجدة مع وصف حالة سكان الخرطوم وما يتوقعه لهم من المصيبة اذا وقعوا تحت مخالب المهدي

وأحصى المصريين الذين يسكنون الخرطوم فبلغ عددهم مائتي الف نسمة وارسل قائمة الاحصاء مع الكولونيل ستيورات

ثم استدعى أعيان الخرطوم وضباط الحامية والموظفين والنزلاء الاوروبيين الى مجلس عام وشاورهم فى انه يريد عمل طريقة لخلاصهم من قبضة المهدي وانه خابر الحكومتين المصرية والانكليزية وأنهما اذا لم تصغيا لندائه فلا بد من مخابرة جلالة السلطان عبد الحميد خان باسم سكان السودان عموما وسكان الخرطوم خصوصا يسأله احتلال سواحل البحر الاحمر سواكن ومصوع بجنود شاهانية وارسال مائة الف جندي من الجيش العثماني لاخماد الثورة وتسكين حركة العصيان وتكون بعدئذ اقاليم السودان خاضعة لسيادة جلالته مباشرة بدون واسطة الخديوية المصرية وان حكومة السودان تقوم بنفقات هذه الجنود بعد زوال الفتن واعادة المياه لمجاريها فوافق الجميع على هذا الاقتراح ووقع اربعة آلاف رجل من أعيان الخرطوم عدا الضباط والموظفين والملكيين على عريضة استرحام بهذا المعنى ترفع الى مقام مولانا السلطان عبد الحميد خان ووقع عليها أيضا كل مكلف من سكان الخرطوم وسلمت العريضة الى الكولونيل ستيوارت واكد عليه غردون بضرورة ارسالها الى جلالة السلطان على لسان البرق لدي وصوله الي دنقلة

وعين المستر پاور قنصل انكلترا في الخرطوم لمرافقة الكولونيل ستيوارت والموسيو هربن قنصل فرانسا فى الخرطوم واوصي الاثنين بمساعدة الكولونيل ستيوارت واكد على الموسيو هربن ببذل المساعدة لدى حكومة فرنسا حتى لا يقف حملة القراطيس المصرية من الفرنسويين حجر عثرة في طريق أي مشروع يعود بفائدة انقاذ الخرطوم من الوقوع تحت جبروت المهدى

ثم ان غردون كان لايجهل ان انكلترا لا ترضى احتلال الجنود العثمانية لسواحل البحر الاحمر كما انها لا ترضى بادخال جيش تركي في السودان

ولكنه قصد أن يكون التاريخ حكما نافذ الحكم بينهما وبينه وان لاتكون عليه تبعة هلاك الالوف من سكان الخرطوم امام الله والعالم أجمع ولكن لسوء الحظ لم تكد تصل تلك العرائض الي دنقلة حتى اوقعها نكد الطالع في يد المهدي بعد قتل الكولونيل ستيوارت فاستفاد منها فائدة حيث تحقق ان حكومتي انكلترا ومصر متقاعدتان عن إرسال المدد الى غردون فوطن العزم على الزحف على الخرطوم والقضاء الاخير على سلطة الحكومة فى السودان كلها حيث علم حقيقته مقصد انكلترا وانها مابعثت غردون الا ليسلمه السودان

وعينت الباخرة عباس لنقل الكولونيل ستيوارت ومن معه وعليها مدفع وأربعة عساكر طوبجية ورافق الكولونيل ستيوارت حسن افندي حسنين تلغرافجى انكليزي بالخرطوم بصفة مترجم ورافقه أيضا محمود حلمي أفندي غراب باشكاتب المالية بصفة كاتب له

والتمس من غردون نحو ثلاثين رجلا من الاوروبيين والسوريين كانوا تجاراً في الخرطوم ان يسافروا بعائلاتهم على مراكب شراعية تقطرها الباخرتان اللتان تخفران باخرة ستيوارت حتى يجتازوا بربر ثم هم يجتازون الشلالات فيصلون الى حدود دنقله فاجاب التماسهم وعين باخرتين كبيرتين وعليهما نحو الف جندى ومدافع تحت قومندانية القائمقام عثمان حشمت بك وأصدر اليه الاوامر بالمسير بجاني باخرة ستيوارت وان تكون مراكب التجار مقطورةً خلف الباخرتين فاذا اجتازوا بربر ترك المراكب وشأنها وان تقف بالباخرتين عند مكان اسمه (غنينيطه) شمال بربر مدة أربع وعشرين ساعة حيث تكون في خلالها باخرة الكولونيل ستيوارت اجتازت الشلالات وكان عند الدراويش باخرتان كبيرتان في بربر تخشى منهما ان تتأثرا باخرة

الكولونيل ستيوارت وتلحقا بها العطب وعين مع ستيوارت ملاحين دنقليين لهما معرفة باجتياز الشلالات

وغادر الكولونيل ستيوارت الخرطوم في أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٣٠١ هجرية ومعه الباخرتان وخلفهما مراكب التجار ومكث سائراً ثلاثة أيام حتى بلغ بربر وكان الرصاص يهطل عليه في خلالها من ضفتي النهر كالمطر

ولما وصلوا بربر أطلق عليهم الدراويش القنابل من خمسة مدافع والرصاص ومع ذلك اجتازها بغير ان يصيبه أدنى ضرر

ولما وصلت البواخر والمراكب الى (غنينيطه) أمر عثمان حشمت بك بترك المراكب وكان الهواء عاصفاً فلم تستطع السفر

وأما باخرة الكولونيل ستيوارت فاتجهت في سيرها جهة الشمال ولم تكد تسير ميلاً واحداً حتى أمر عثمان حشمت بك الباخرتين بالاقلاع والعودة الى الخرطوم فاندهش الكولونيل ستيوارت من عمل هذا القائد ومخالفته للاوامر التي تلقاها من غردون فأمر ربان باخرته بالاسراع في السير فاجتاز الشلال الاول بسهولة

ولما نظر الدراويش فى بربر عودة الباخرتين أرسلوا باخرة من اللتين عندهما لتلحق باخرة الكولونيل ستيوارت فظفرت بمراكب التجار وعادت الى بربر حيث لم تقدر على اجتياز الشلال وسار نحو خمسمائة من الدراويش على ضفة النهر ليلحقوا ستيوارت

وفى اليوم الثالث من اجتياز الباخرة للشلال وصلت الى جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب وهناك اختلف الملاحان الدنقليان فقال أحدهما الدنو من الشاطىء الغربي اسلم من الدنو من الشاطىء الشرقي وقال الآخر ان الدنو من

الضفة الشرقية اسلم من الدنو من الضفة الاخرى وبينما كانا يختلفان ارتطمت الباخرة بصخرة اتلفتها فدخلت المياه الى جوفها وألقى الملاحان الدنقليان انفسهما فى لجة النهر وسبحا فيه الى حيث لا يعلم أحد وجهتهما وألقى الكولونيل ستيوارت المدفع والخرطوش فى قاع البحر ونقل أمتعته وأمتعة من معه على زورق صغير كان معه

وعندئذ أظهر ستيوارت أسفه على تركه زورقين كان غردون قد أمره باخذهما وقال له انهما يساعدانك على النجاة اذا قدر لباخرتك عدم النجاة من الشلالات فتركهما ستيوارت ولم يعبأ بنصيحة غردون

وكان ستيوارت صعب المراس قوي الشكيمة مستبداً برأيه فى اكثر الاحوال

ولما استقر ستيوارت فى الجزيرة أشار عليه من معه أن يسافر على الزورق ومعه بضعة أشخاص ليصل الى حدود دنقله اذ لم يكن بينه وبينها غير مسيرة يوم واحد فرفض اقتراحهم ولم يقبله ثم عرضوا عليه أن يبعث رسلا على الزورق الى حدود دنقله فاذا وصلوا سالمين وعلم بهم قومندان الحدود أرسل مدداً لانقاذهم وكلتا الطريقتين كانت كافلة انقاذه وبلوغه دنقلة سالما ولكنه لم يقبل واحدة منهما أيضا

وفي أصيل النهار سمعوا صائحا على ضفة النهر فامعنوا النظر فعلموا ان الصائح هو ذانك الملاحان اللذان ذكرنا فناديا ستيوارت ومن معه قائلين لا باس عليكما وانكم ازاء قرية تدعى السلامانية وانها من حدود دنقله ولم تزل على طاعة الحكومة ولم تدخل في دعوة المهدي وهم يطلبون ارسال مندوبين يحققون بقاءهم على طاعة الحكومة

وكان حسن أفندي حسنين التلغرافجي الآنف الذكر يترجم هذه الاقوال الى اللغة الانكليزية بين يدى الكولونيل ستيوارت الذى أمر حسن أفندي حسنين ومحمود حلمي غراب أن يصطحبا معهما بضعة رجال من ملاحي الباخرة ويذهبوا الى قرية السلامانية من الشاطئ الشرقي للنهر فامتنعا وقالا له ان ذهابنا بهذه المأمورية مخاطرة بحياتنا فاحتدم غيظا وتوعدهما بالقتل رمياً بالرصاص اذا لم يبادرا بالذهاب فاطاعاه خوفا من هذا الوعيد واجتازا النهر على الزورق واجتمعا بالملاحين وقصدوا القرية فوجدوا ثلاثة أشخاص جالسين في فناء مسجد ومعهم رجل كفيف البصر فخاطبهم حسن حسنين ومحمود حلمي وقالا لهم ان باخرتنا قد غرقت امام قريتكم فان كنتم على طاعة الحكومة رجوناكم ان تمدوا لنا يد المساعدة لنصل الى دنقلة فاجابوهم بانهم لم يزالوا على طاعة الحكومة وانهم خاضعون لحاكم إقليم دنقلة مصطفى ياور باشا وحلفوا على المصحف الشريف بان ما قالوه عين الحقيقة وطلبوا من الرسولين ان يؤمناهم فقالا ان ذلك ليس من خصائصنا بل هو من خصائص الرئيس الذي هو الكولونيل ستيوارت وقفل الرسولان راجعين الى الجزيرة ومعهما رجلان من الثلاثة الذين جرت المحادثة معهم ورغب الرجل الضرير ان يسير معهما فسار الكل واجتازوا النهر على الزورق

ولما مثلوا بين يدي ستيوارت اعادوا ما قالوه لرسوليه اللذين أبلغاه ما دار بينهم من الحديث وما كان من أمر حلفهم على المصحف فلم يرتب في انهم صادقون في كل ما قالوه فامنهم على أنفسهم وبالغ في اكرامهم والاحتفاء بهم وأعادهم الى قريتهم وقضى تلك الليلة في الجزيرة

وفي صباح الغد جاءه الرجلان اللذان كانا عنده بالامس وقالا له ان

شيخ قريتنا المدعو سليمان بن نعمان بن قمر كان مسافرا في بعض شؤونه وقد آب من سفره بعد عودتنا من عندكم بالامس وقد احضر نوقا لحملكم عليها الى دنقله وان النوق فى انتظاركم على الضفة الشرقية فاجتاز الكولونيل النهر ومعه القنصلان وخمسة ثلاثون ملاحا من خدام الباخرة واربعة جنود طوبجية وثلاثة موظفين ملكيين هم حسن حسنين ومحمود حلمي غراب وثالث قبطي كان كاتبا ايضا وبعد ان نقلوا متاعهم الى الضفة وجدوا بها سبع نوق وقيل لهم ان غيرها سيأتيكم على الفور وجلسوا منتظرين بقية النوق

ولما انتصف النهار جاء من القرية رسولان قابلا الكولونيل وقالا له ان شيخ البلد يدعوكم لمأدبة ادبها اكراما لكم فلبس ملابسه كأنه مدعو لمأدبة فى بلاد آمنة ولم يأخذ لنفسه أقل حيطة وسار معه القنصلان وحسن افندى حسنين ليترجم بينه وبين الاهالى

ولما اقتربوا من القرية قابلهم الاهلون بالبشاشة والترحيب وادخلوهم الى أودة كبيرة وجدوا بها نحو خمسين شخصا متزيين بزى التجار فرحبوا بهم واجلسوا كل أثنين على (عنقريب) ثم هنأوهم بالسلامة وخرجوا من عندهم بعد أن وعدوهم باحضار النوق لحملهم الى دنقلة

وبعد خمس دقائق عاد الخمسون رجلاً وبايديهم الاسلحة من الحراب والبلط الصغيرة ووضعوا السلاح في رقاب الكولونيل ستيوارت والقنصلين فسقطوا قتلاء يتخبطون فى دمائهم واصيب حسن أفندى حسنين بجروح عديدة سقط منها يتخبط في دمه فظنوه قد فارق الحياة مثل رفقائه الثلاثة

وتقدم نحو اربعمائة رجل من القرية الى شاطئ النهر وذبحوا جميع الذين كانوا هناك من رجال الكولونيل ستيوارت وجمعوا ماعندهم من الاوراق

وارسلوها الى محمد الخير حاكم بربر من قبل المهدي فاسرع بارسالها الى المهدي الذى كان وقتئذ قد غادر الرهد ونزل فى جهة (شاة) القريبه من النيل الابيض فسر بها واطلق المدافع سرورا بهذه البشرى وارسل الي غردون بكتاب يدعوه فيه الى التسليم ويعلمه بما اصاب ستيوارت واوضح ملخص جميع الكتب والرسائل التي كانت صحبة الكولونيل ستيوارت وقد اضربنا عن ايراد ذلك الكتاب اكتفاء بملخصه

هذا وقد كان الخمسمائة درويش الذين تاثروا الكولونيل ستيوارت من بربر قد وصلوا الى قرية السلامانية واشتركوا مع سكانها فى هذه المذبحة

أما تدبير الحيلة على الوجه الذي بيناه فقد دبره شيخ القرية سليمان بن نعمان ابن قمر وسيأتي فى هذا الكتاب ذكر قتله انتقاما عن هذه الفعلة الشنعاء

ولابد من ايراد شيء فى هذا الباب من ترجمة سليمان بن نعمان فنقول. هو زعيم قبيلة اولاد قمر من بطون قبيلة الرباطاب التي تقدم ايراد ترجمتها وهى من قبيلة الجعليين التى تكلمنا عنها آنفا

وأما حسن افندي حسنين الذى نجا من هذا الخطب فانه لما قلبوا القتلى وسلبوا من الكولونيل ستيوارت ملابسه وكذلك القنصلان والقوا بجثثهم الى الصقور والكلاب وجدوا حسن افندي حسنين حيا فتآمروا على قتله فشفع فيه الرجل الكفيف البصر والرجلان اللذان رافقاه الي الكولونيل ستيوارت فقبلت شفاعتهم واستلمه احد المشايخ كاسير لديه وكلفه برعى اغنامه مع ماكان يقاسيه من آلام الجروح التى كان يضمدها ويعالجها في غضون اشتغاله برعي الماشية في الفلاة ثم ارسل محمد الخير حاكم بربر يطلب ارساله اليه فقيدوه وساقوه مكبلا بالحديد حتي بلغ بربر مقر هذا

الحاكم فزجه في السجن حتى تشفع فيه كوستي الايطالي فاطلق بكفالته وسنذكر قصة كوستي فيما سيأتي

وبعد خلاص حسن حسنين من سجن محمد الخير لحق بام درمان ثم غادرها الى كسلا كي يفر منها الى مصر وقد كان شرع في الهروب مع زوجه وابنه فافترست السباع زوجه وابنه ووقع أسيراً بين مخالب المهدويين فسجنوه ثم وجد سبيلا الى النجاة واللحاق بام درمان حيث أقام بها الى حلول الحكومة بها ثم عاد الى وطنه مصر واجتمع باهله الذين حسبوه في عداد الاموات بعد طول زمان الفراق وقد روينا عنه هذه الحادثة وتأكدنا صحتها من التفاصيل التي وصلت للمهدي

على ان هذه القصة يظهر منها أن بعثة ستيوارت كانت آخر سهم في كنانة غردون وآخر عمل كان يأمل من خلاله النجاح ولذلك وقع عنده خبر قتله موقعاً سيئاً للغاية وزاد الطين بلة وقوف المهدى على كثير من الكتب والرسائل التى كانت مكتوبة باللغة العربية وان فاته الوقوف على أمثالها التي باللغات الفرنسوية والانكليزية وكان غردون متخوفا من ان يكون كوستى أطلع المهدى على مفاتيح الشفرة مما يدل على ان الكتب التى كانت حوت من الاسرار ما هو أهم من التي كتبت باللغة العربية واطلع عليها المهدى

ولما عاد القائمقام عثمان حشمت بك الى الخرطوم أخبر غردون بانه اضطر الى الاقلاع بالباخرتين قبل مضى الاربع وعشرين ساعة وذلك لانه خاف مناوشة العدو ولكن التحريات حققت كذبه وان لا مناوشة اضطرته الى مخالفة الاوامر فحوكم امام هيئة عسكرية حكمت باعدامه وتجريده من جميع

رتبه وألقابه ونياشينه الا أن غردون اوقف تنفيذ هذا الحكم وأبقى المحكوم عليه في وظيفته وعمله مراعاة لظروف لاحوال التي كانت ماسة لتعطيل هذا الحكم والاستفادة من وجود مثل هذا الضابط الذى كانت الحامية تكبر فقده لو انفذ عليه الحكم وكيفما كان الامر فان غلطة هذا الضابط لم تكن السبب فيما أصاب الكولونيل ستيوارت بل كانت السبب في وقوع التجار أسرى فى يد الدراويش وما أصاب باخرة ستيوارت كان لايستطاع دفعه الا لو ساعده القدر وقبل نصيحة غردون واصطحب معه الزورقين فكان يمكنه بواسطتهما اللحاق بحدود دنقله

على انه لو حمل ماخف من متاعه وأبحر على الزورق الذي كان لديه لاستطاع النجاة والعودة الى خلاص بقية رجاله من تلك الجزيرة التى كانت له معقلا طبيعياً يردعنه كل من رامه . وكان رجاله يستطيعون البقاء والدفاع ريثما تصل اليهم النجدة من حدود دنقله لو لم يتعجل بالقاء المدفع والذخيرة في قاع النهر وزد على ذلك ماسردناه من عدم رويته وتسرعه في الامور ورفضه كل مشورة عرضها عليه رفقاؤه وعدا هذا وذاك فانه لو أرسل بضعة أشخاص من رجاله على الزورق لجاء المدد من دنقلة ولم يقع فى الاشراك التى نصبها له أولئك الغادرون

والحاصل ان مأمورية ستيوارت وما تخللها من الحوادث جاءت ضغثاً على ابالة حيث قضت علي كل أمل بانقاذ الخرطوم من الوقوع تحت طغيان المهدي وشجعته على التقدم الى الخرطوم بجنان ثابت وعزم ماض ليتم ماأراده الله وينفذ ماقضاه والامر لله

ذكر اخبار كوتسيه الايطالي

كان كوتسيه خادماً للمسيو ماركيه قنصل فرنسا في الخرطوم فأرسله في تجارة الى بربر

ولما هلكت حملة الجنرال هكس هاجر ماركيه من الخرطوم ولحق بمصر فخلفه في وظيفته الموسيو هربن الذي ذكرنا قتله مع الكولونيل ستيوارت

ولدى مرور غردون على بربر استبقاه بها كجاسوس يرفع اليه الاخبار بالارقام وسلمه مفاتيح الشفرة ليخاطب بها الوكالة البريطانية إن دعت الحالة الى ذلك

ولما اقترب محمد الخير من بربر فرّ كوتسيه الى مصر فقبضت عليه بعض قبائل من اللائى دخلن في دعوة المهدي وساقته أسيراً الى محمد الخير

ولما أوقف بين يديه عرض عليه اعتناق الاسلام فلم يقبل فارسله مع حراس أوصلوه الى المهدي الذى عرض عليه الاسلام فقبله ونطق بالشهادتين مدعياً انه رآي من كرامات المهدي ونور وجهه ما دعاه الى قبول الاسلام دينا وتغالي امام المهدى في الدهاء والترهات حيث قال للمهدى انه رآى من أنوار طلعته ما بهر فؤاده وحبب اليه الاسلام فعرض عليه المهدي حمل رسالة منه الى غردون وطلب منه ان ينصح غردون بالتسليم له ويخبره بما رآه من كراماته فاجابه كوتسيه وحمل الكتاب الى الخرطوم ودخل الخرطوم فسأله ضابط الحامية عن سبب مجيئه فقال جئت لانصحكم بالتسليم للمهدي وأخذ يسرد له ما حمله من رسالة المهدي فاسكته الضابط وأسرع بابلاغ غردون أمره على لسان البرق فارسل غردون اشارة برقية قال فيها اذا لم

يكن كوتسيه راغبا فى البقاء معنا ليرجع من حيث جاء فقال كوتسيه لا سبيل الى الاقامة مع الكفار وقفل راجعاً الى المهدي فى كوردفان فتلقاه بالاكرام واغدق عليه العطاء وسماه محمد يوسف كرغبته واهداه جاريتين وعبدين وناقتين واعاده الى بربر وأوصي محمد الخير بمراعاته وأجري عليه راتباً شهريا يقوم بضرورياته

هذا وقد كتب غردون فى مذكراته عنه شيئاً كثيراً وتخوف ان يكون سلم للمهدى مفتاح الشفرة وغاية ما يقال عن كوتسى انه رأى مع قصر نظره ان وقوع السودان تحت قبضة المهدي ضربة لازب وان ظهوره بهذا المظهر أسلم عاقبة من بقائه على ولاء غردون. وليس بصحيح ما قيل عن تسليم بربر انه كان بخيانة منه لانه فر منها قبل ان يحصرها العدو وقبض عليه في الطريق وهو فار الى مصر وبقي في أسر المهديين الى يوم استيلاء المصريين على أم درمان فغادرها الي مصر

وصول عبد الرحمن النجومي الي الخرطوم

لما وصلت كتب الحاج محمد ابي قرجة الي المهدي وعلم منها ما أصاب أبا قرجة من الهزيمة والفشل انتدب عبد الرحمن النجومي وكيل الراية البيضاء ومعه ستون راية يتبع كل راية نحو الف مقاتل يخضعون الي أمير ويخضع هذا الامير لعبد الرحمن النجومى وضم اليه عبد الله بن النور ومعه عشرون راية على مثال رايات عبد الرحمن النجومى واعطاه مدفعاً من الكروب وست مدافع جبلية وأصدر اذناً عاما لكل من رغب في مرافقة عبدالرحمن النجومى من قبائل السودان الاوسط ان يرافقوه فسار عبد الرحمن النجومي

من كوردفان بجيش يربو على الستين الفاً سلاح جلهم الحراب والسيوف والمزاريق وعنده نحو عشرة آلاف من العبيد (الجهادية) مسلحين بالاسلحة النارية ونحو عشرة آلاف فارس ومكث بضعة أسابيع في جنوب الخرطوم مشتغلا باجتياز النهر الابيض من الضفة الغربية الى الشرقية وفي أواخر ذي الحجة سنة ١٣٠١ وصل الي الجريف ووضع معسكره عند قرية الكلاكله المتوسطة بين النيلين الازرق والابيض وتجاه نقطة الوسط من استحكام الخرطوم ليكون المعسكر نائيا عن مقذوفات البواخر التي كانت لا تنفك عن مناوشة مواقع الدراويش واقلاق راحتهم وهى كما قدمنا كانت من أقوى الاسباب التى ساعدت محمد على باشا على هزيمة الدراويش وقائدهم أبى قرجة يوم واقعة الجريف

وقسم جنده الي ثلاث معسكرات وأصلح طوابي الجريف وزاد عليها وعهد بالدفاع عنها الي عبد الله النور وشاد طوابى فى قرية (الفرقان) وتولي الدفاع عنها بنفسه واحتفر متاريس بالقرب من النيل الابيض وعهد بالدفاع عنها الي أحد القواد

وعلى ذلك فيكون عبد الله النور بازاء استحكام (برى) على النيل الازرق والمدافع عنه من حامية المدينة اللواء السودانى الاول وقومندانه الميرالاى بخيت بطراق بك وهو ضابط سوداني ترقي تحت السلاح . وطوابي الفرقان حيال نقطة القلب من استحكام الخرطوم وهذه النقطة مقر قومندان الجنود العام فرج باشا الزين كما ان طوابى الدراويش المحاذية لها تحت امرة قائدهم العام عبد الرحمن والحامية القائمة بالدفاع في هذه النقطة خليط من جنود نظاميين واتراك غير نظاميين ومتطوعة من المصريين سكان المدينة

وأما الحامية التي تقابل متاريس العدو من جهة النيل الابيض فانها مؤلفة من اللواء الخامس المصرى وبعض جنود من الباشبوزق وقومندانها اللواء محمد نسحى باشا

وفي نقطة القلب باب كبير عليه برج من الحديد المصفح تحيط به جملة طواب وعليها مدافع من طراز كروب ومن الطراز الجبلى

ولما وصل عبد النجومى وجموعه الى ضواحى الخرطوم أرسل بكتاب الى غردون يدعوه فيه الى التسليم ويتوعده بالويل والثبور اذا امتنع عن الاجابة وكانت قد وصلت الى غردون أخبار تدل على ان جنود ابن النجومي واقعة فى مجاعة شديدة بسبب أن أهالي القري التي حوالى الخرطوم هجروا قراهم خوفا من غارات المصريين واعتصموا بالفلوات وأوغلوا فيها ولذلك لم يجد النجومى فى طريقه من يقدم له الاغذية فكتب الى أهالي القري يدعوهم الى العودة الى قراهم ويضعف لهم قوات المصريين حيال قوته وان الحامية التي في الخرطوم سوف يرون بأعينهم مايحل بها من بطش مقاتلته فأخذ الاهلون يتراجعون الى قراهم وبعد حين صار ابن النجومي وجيشه يحصلون على مايقتاتون به من الحبوب واللحوم

وفى غضون اشتداد المجاعة على ابن النجومي وجيشه أرسل غردون كتابا برسم النجومي وعبدالله النور وأرسل نحو خمسمائة أقة من الخبز المجفف (البقسماط) بصفة هدية لهما وهدية أخرى من اللجم المصنوعة من اللجين وفى الكتاب استهزاء بهما حيث قال لهما انكما جئتما لحصارنا وقتلنا مع انكم في نهاية الحاجة الى القوت فاشفاقا عليكما أرسلت لكما بهذا الغذاء وهذه الهدية فردا عليه بكتاب وجيز جاء فيه بعد الديباجة مايأتي

لا أقول لك الا كما قال سليمان بن داود عليهما السلام لبلقيس لما وصلته هديتها « أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون »

وتراجع المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا في الحلفاية كما كانوا واحتفروا المتاريس فكانت مقذوفاتهم تصل الى منازل المدينة وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيراً منهم فى كل يوم

وكان بين الطوبجية الذين مع ابن النجومي رجل اسمه محمد سلامه وهو من الذين نجوا من مذبحة الجنرال هكس فقال له عبد الرحمن النجومي صوب قنابل مدفع الكروب الي منارة مسجد الخرطوم والي سراى غردون فاعتذر له بان هذه المسافة بعيدة عن المحدود لوصول مقذوفات هذا المدفع فقال بعض الدراويش صوب المدفع وبركة المهدي تكفل اتمام الناقص فكان جوابه انها لا تكفل أبداً فحنقوا عليه وشكوه الي ابن النجومي الذي أمر بضرب عنقه فمات وأخذ الطوبجية الآخرون يرمون المقذوفات فى المدينة التي كانت تشعر كل يوم بزيادة الضيق وتحس بالغلبة والسقوط الذى وراءه كل البلايا والمصائب وثبتت اقدام المدووصار من المتعذر طرده وانسدت أبواب الآمال فى وجوه غردون ومن معه

ذكر مغادرة المهدي الرهد الي الخرطوم

لما فشل المهدي في محاربة جبل الداير وكان ذلك فى أوائل شهر رمضان سنة ١٣٠١ هجريه أعلن انه ينوى الاعتكاف للعبادة فى أول يوم من العشرة الاخيرة من شهر رمضان فلا يخرج من الاعتكاف الا لصلاة العيد

وفي يوم العيد اعلن ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالتقدم الى الخرطوم ووعده بالفوز على من فيها من الحامية وبشره بفتحها ومن ذلك اليوم زحفت جيوشه كسيل العرم على الخرطوم وسار هو حتى قطع الفلاة التي بين كوردفان والنيل الابيض وعسكر في قرية (شاة) على مسافة بضعة أميال من النيل الابيض وعلى مسيرة ثماني مراحل من الخرطوم

أما جيوشه فكانت زهاء ستمائة ألف مقاتل فشت بينهم المجاعة والامراض كالجدري والاسهال

ونشر المنشورات على الناس يدعوهم الى الجهاد ويمدهم بالنعم في الدار الآخرة لما يقاسونه من التعب وشظف العيش وقضى باهدار دم من تخلف عنه فلبى الناس مطالبه وساروا معه بحيث كانوا أطوع له من بنانه بالرغم عن الشدائد التي كانوا يقاسونها

وفود أوليفر باين الفرنساوي على المهدي

بينما كان المهدي سائراً في الفلاة من الرهد الى شاة بلغه ان سفيراً قادم اليه من فرنسا وقد جاءت اخباره مكبرة حتى قيل انه امبراطور فرنسا وقال آخرون انه من أقارب جلالة الملكة فيكتوريا

ولما أوقف باين امام عبد الله التعايشي ورآه قد لبس جبة مرقعة وعمامة كالدراويش أخذ يتكلم مع التعايشي بالعربية فلم يفهم كلامه لما في لسانه من عقدة العجمة فاستدعى سلاطين باشا وقال لباين تكلم معه بلغتك فحياه بالانكليزية ظنا منه انه انكليزي وقال له أتعرف الفرنسوية فقال له سلاطين تكلم فيما أنت فيه وعرفه باسمه فارتاب عبد الله التعايشي وانتهرهما

فارتاع سلاطين واجاب التعايشي بقوله « اني اخبرته بان الله اعطاك علم مايضمره كل انسان وانك والمهدي لايخفى عليكما شيء من هذه الضمائر » وكان حسين باشا خليفة حاضرا فقال لسلاطين صدقت ودعا لعبد الله التعايشي بطول البقاء فسر عبد الله التعايشي والتفت الى سلاطين وشكره على اخباره باين بامر اطلاعه على الضمائر وأوصاه بان يجتهد في سبر غور الرجل والوقوف على باطن أمره

وطفق باين يكلم سلاطين بالفرنساوية وسلاطين يترجم للتعايشي فقال اني منذ حداثة سني أحب السودانيين وكذلك كل موظفي الفرنساويين يحبون السودانيين وان الامة الفرنساوية تبغض الامة الانكليزية التي احتلت مصر وارسلت غردون أحد رجالها الى الخرطوم وقد أتيت لاعرض عليكم مساعدتي ومساعدة قومي وانتهي الامر بان قدم التعايشي باين الى المهدي الذي رفض قبول مساعدته وأبقاه بمنزل سلاطين باشا حتى توفي بالحمي التيفوسية

ذكر وصول المهدي الي ام درمان

في أوائل شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٣٠٢ من الهجرة الشريفة ارسل المهدي الى اتباعه منشورا قال فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم بشره بفتح الخرطوم في هذه السنة وأن عدد جملة (نصر من الله وفتح قريب) بالجمل الكبير يبلغ الفا وثلاثمائة واثنين

ولما اقترب من ام درمان وضع معسكره العام عند مكان اسمه (الفتيح) على بعد نحو عشرة أميال من معقل أم درمان وارسل جاسوسا يحمل نحو الف نسخة من كتاب يدعو به أهل الخرطوم الى التسليم له ووضع الكتب

في اناء صفيح على شكل ابريق احتمله هذا الجاسوس وسبح به في النهر الابيض حتى وصل الي شاطيء المدينة حيث لاحراس يقومون بحراسة الشاطيء من جهتي النيل الابيض لاتساعه وانما وضعت الجنازير فقط فى المضايق لمنع السفن البخارية أو الشراعية من الوصول الي المدينة

ووزع الجاسوس الكتب والتي بعضها في الطرقات والازقة والمنازل ثم اختفي فى المدينة حتى قفل راجعا من حيث جاء ولم يتيسر القبض عليه ومن ثم امرني غردون بوضع عسس فى شواطيء النيلين الازرق والابيض وانقطع وقوع مثل هذه الحادثة وضبط العسس كثيراً من جواسيس المهدى وكان غردون يأمر باطلاقهم ولا يسمح بمعاقبتهم وهاهي صورة الكتاب المذكور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى كافة أهالي الخرطوم هداهم الله الى الصواب آمين نعرفكم ان الله تعالى غني عن العباد. يهدى من يشاء الى طريق الرشاد . ويضل من يشاء ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وقد طال ما تكررت منا النصائح واردنا نجاة عباد الله وسلوكهم طريق الله فاناب الى الله من أراد الله سعادته وخاف من خذله الله فاصمه وأعمي بصره فلا أدرى ما الداعى الى عدم الانقياد أو لله شركاء يستشيرهم فيمن يجعله مهديا أم له منازع فى ارادته . كلا بل هو القادر الفاعل لما يشاء فيجب على كل ذي بصيرة الوقوف معه على حد الادب ولا يلتفت الى غير لا وجود له من نفسه وان يسلم الامر لله اذ بيده التقلبات

واليه المصير. ومن المعلوم اني عبد دال على الله فمن اتبعني فقد حاز السعادة الكبرى ومن خالفني سيذيقه الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخره أخزي وقد أظهرني الله رحمة للمؤمنين ونقمة على الملحدين المكذبين وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فالى متى الغفلة والتسويف والى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ألم يأن لكم ان تميل قلوبكم الى ما ينفعكم في آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر والضير اترغبون النجدة والفرج عند الانكليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيده أموركم وقوامكم وهو القوى العزيز فما الانكليز وغيرهم واضعاف مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب. وما الغوث الا من عند الله القريب المجيب. وحيث فهمتم ما ذكر فاني لا أؤاخذكم على مافات منكم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين فانيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون وعليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى وغايته ان من سلم سلم. ومن خالف عطب وندم. فهيا هيا ثم هيا الى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولا تخشوا من شيء يحصل عليكم فانا مناظرون فيكم قوله تعالى « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » اه

هجوم المهدي علي ام درمان

لما كانت حملة الجنرال هيكس معسكرة في أم درمان حصنت نفسها

بخندق مربع يتصل طرفاه بالنيل الابيض قبالة نقطة (المقرن) التي يجتمع عندها النيلان الازرق والابيض بازاء الخرطوم فى الشاطيء الغربي ثم انشأ أحد الالوية خندقا داخل الخندق فى مكان مرتفع وما حوله منخفض وفي ابان ارتفاع النيل تصل مياهه الى الخندق الصغير بحيث تستطيع السفن الرسو عنده بخلاف أيام الانخفاض فان النيل يبعد عنها بمسافة ألف متر تقريباً

ولما وصل غردون الخرطوم أعجبه موقع هذا المعقل ورأي ضرورة وجوده لحفظ المدينة من جهة الغرب فشاد فيه أبراجا وطوابي وضع فيها ثلاثة مدافع من الطراز الجبلى وأربعمائة جندى من النظاميين نصفهم من السودانيين والنصف الآخر من المصريين

وفى منتصف شهر محرم الحرام سنة ١٣٠٢ هجم المهدي بجيشه كله على نقطة ام درمان فقابلتـه الجنود بنيران حامية اضطرته الى التقهقر بخسارة بضعة آلاف من مقاتلته فأحاط بالخندق الصغير واستولى على الخندق الكبير وقطع الاسلاك بينه وبين النقطة وشاد نحو عشرين طابية على ضفة النيل الابيض وضع عليها مدافع الكروب والمترليوز والجبلي فكانت مقذوفاتها تقع في المدينة فشاد غردون طابية في (المقرن) ازاء هذه الطوابى وشاد فى جزيرة « توتى » أيضا طابية قبالة طوابي ام درمان

ومكث المهدى محاصراً أم درمان الى أواخر شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ وسيأتى خبر تسليمها له

واقعة الجريف

في شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ انفذ غردون حملة تبلغ ألف جندي نظامي وأربعة صناجق من الباشبوزق تحت قيادة البكباشي سليمان افندي النشار فهجموا على طوابي عبد الله بن النور في الجريف حتي اذا اقتربوا من الطابية أصيب فرس محمد بك اسلام أحد الصناجق برصاصة قضت عليه واستولى الجبن على جنود الباشبوزق ففروا وانثلم ركن المربع لفرارهم وتكاثر الدراويش على الجنود الذين تقهقروا بانتظام فتأثروهم حتى اقتربوا من الاستحكام الذي انصبت مقذوفاته على العدو واضطرته الي الفرار وخسر الجنود في هذه الواقعة مائتي قتيل

وأصيب عبد الله بن النور برصاصة قضت على حياته. وعبد الله بن النور هذا من قبيلة (العركيين) صاحب المهدي قبل دعواه وكان من خيرة أتباعه وأكبر قواده حتي قال عنه في «قدير» انه يموت شهيداً يوم فتح الكوفة

ولما اتصل بالمهدي خبر قتله كتب منشوراً قال فيه ان اسم (الجريف) في بعض الكتب القديمة الكوفة ثم قال ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا فالذي قضى نحبه هو عبد الله بن النور والذي ينتظر هو عبد الرحمن النجومي

وجرت وقائع أخري بين الحامية وبين ولد النجومي لا تختلف عن هذه الواقعة ولذلك أضربنا عن ايرادها

ذكر ارسال البواخر الي المتمة

كان في الخرطوم نحو تسع بواخر منها ماتبلغ قوته البخارية مائة وعشرين حصانا

ولما ابتدأ الحصار حصنت هذه البواخر بصفائح من الفولاذ ووضعت باطرافها صناديق مملوءة بالاتربة لوقايتها من المقذوفات

وكان سعادة محمد نصحي باشا قائداً للواء المصرى الخامس فرقى الي رتبة اللواء وعين قومنداناً للبواخر الحربية وخلفه في وظيفته الميرالاى حسن بك البهنساوى وسار محمد نصحي باشا بالبواخر الي سنار وعاد منها بغلال لغذاء الحامية كما تقدم

ولما أخذ النيل في الانخفاض أرسل غردون البواخر الي المتمة تحت قيادته ومعه الصنجق خشم الموس بك الذى صار بعدئذ خشم الموس باشا

ومكثت البواخر في المتمة بضعة شهور تتنسم أخبار الحملة الانكليزية وتتردد بين المتمة وبربر حتى سقطت الخرطوم قبل ان يراها الانكليز

ذكر المجاعة في الخرطوم

لما كانت حملة الجنرال هيكس ذاهبة الي كوردفان أعدت الحكومة نحو مليونى أقة من البقسماط لغذائها وعهدت توريدها الي جماعة من التجار واتفقت معهم على ان يكون ثمن الاقة ثلاثة قروش مصرية

ولما ذبحت هذه الحملة وأصدرت الحكومة الخديوية الامر العالي القاضي بترك السودان واخلاء الخرطوم من الحامية واتلاف المثقلات كان من البديهي ان مثل هذا القدر من الميرة لا بد من اتلافه وتقدعه طعمة

لاسماك النيل وكان بعض التجار لم يوردوا ما بقى من المقادير التى تعهدوا بتقديمها فاغتنم حسين سرى باشا الذى كان وكيلاً للحكمدارية قبل وصول غردون الي الخرطوم هذه الفرصة واستدعى أولئك التجار واتفق معهم على ان يتجاوز لهم عن نصف قرش فى كل أقة ويؤدوا اليه الثمن فوراً وهو يأمر أمين المخازن أن يكتب لهم ورقة الخصم التي يقول فيها ان هذه المقادير سلمت اليه ووضعت في المخازن ويكتب حسين سرى باشا على ورقة الخصم حوالة على مالية مصر وقد بلغ ما تناول ثمنه بهذه الخيانة ستمائة ألف أقة من البقسماط يقدر ثمنها بمليون ونصف من القروش اي نحو خمسة عشر الف جنيه ثم جاءت الحوادث بخلاف ما كان ينتظره حيث لم تجل الحامية عن الخرطوم ولم يتلف ما فيها من الذخيرة والميرة وابتدأ الحصار وكان غردون يظن ان ما فى الدفاتر والاوراق الرسمية عن تقدير كمية ما في المخازن من البقسماط صحيح لاريب فيه حتي أعلن خبر فراغ ما فى المخازن وقبض على أمين الاقوات وشكل مجلسا من خمسين شخصا من الاعيان والموظفين وظهر له ان مرتكب تلك الخيانة هو حسين سرى باشا وكيل الحكمدارية وانتهى الامر بأن غردون صمم على استدعائه من مصر ليحاكم على ما اقترفه من الاثم وبديهي انه لايكون ذلك الا بعد اخماد ثورة المهدي ورجوع المواصلات بين مصر والسودان وكانت الحكومة دفعت مائة وخمسين ألف ريال الى حمد التلب وسبعة آلاف ريال الى النور ابراهيم الجريفاوي ليوردا لها غلالا من صنف الذرة سعر الاردب أربعة ريالات فسافر حمد التلب مع حملة الجنرال وقتل معها وعهد الى وكيله توريد الغلال في مخازن الخرطوم فلم يفعل. أما النور ابراهيم الجريفاوى فانه اغتال المال لنفسه وانضم الى اعوان المهدي واشترك معهم فى حصار الخرطوم

وسيأتي ذكره في أيام التعايشي وأنه صار أميناً لبيت المال

والخلاصة ان الغلال التي كانت في مخازن الخرطوم تبلغ نحو ثلاثين الف أردب وكان راتب كل جندي سبع أقات ونصفا من البقسماط وأربعة قراريط من الذرة

ويوجد حيٌّ من أحياء المدينة فيه نحو أربعة آلاف نفس من الدناقلة كانوا عالة على الحكومة وكانت تقدم لهم الضروري من القوت

وتفشت المجاعة في المدينة بصورة مريعة جداً حتي ان كثيراً من السكان تورمت اطرافهم وصاروا لاقوت لهم غير ورق نبات اسمه (اللوبية العفنة) كانوا يطبخونه ويلعقونه وصار قوت الحامية من الصمغ مخلوطاً مع جمار النخل وقد شوهد ان الذين يقتاتون بهذه الاصناف يصابون بالاسهال وتظهر على وجوههم أعراض تشبه اعراض مرض اليرقان الاصفر ثم تتناقص قواهم الجسمية في مدة ثلاثة أيام تعقبها أعراض الموت

ومن غرائب ما رأيناه في حصار الخرطوم ان صيادي السمك قبل الحصار كانوا يصطادون في كل يوم نحو ألف قنطار من الاسماك ولما بدأ الحصار انقطع وجود الاسماك كأنها فرت من قعقعة البنادق وهزيم المدافع حتي ان غردون اشتهى سمكة يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم باربعة شهور فلم يتيسر الحصول عليها

وكما ان الاسماك هجرت شواطىء الخرطوم فان اراضي بساتين المدينة كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة وفي إبان الحصار تلف كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شيء من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها

وقد قاسى غردون من ألم المجاعة ماقاساه أصغر جندي من الحامية أو أحقر شخص من سكان المدينة فانه اضطر الى التغذى بجمار النخل حتى أصيب بتلبك معدى كادبودى بحياته وفي ذات يوم جاءنى الطبيب اكسيوداكي اليونانى طبيب الحامية واخبرنى بان مداومة غردون على تناول الجمار لا تحمد مغبتها وان صحته الآن على خطر كبير ولا بد من تدارك غذاء جيد له فكنت أتحصل له بعد كل يومين أو ثلاثة على دجاجة أو زوج من الحمام الطاعن في السن

ودخلت عليه مرة وقد قدموا له شيئاً من المرق وكان لم يطعم شيأ منذ أربع وعشرين ساعة فلم يتناول من المرق الا قليلاً فالححت عليه فى تناول كمية تقوم بتغذيته فامتنع وقال لي انى لا يهنأ لي بال ولا تميل نفسي الى طعام مادام جنودى يموتون جوعاً وانى فعلت الواجب عليّ والله يفعل مايشاء

وكانت أسعار القوت فى المدينة حتى سقوطها كما يأتى ثلاثين ريالا ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الاقة من البقساط وخمسة ريالات ثمن الاقة من اللحم البقرى وكان بعض السكان يذبحون الحمر الاهلية والحكومة تعاقب من يرتكب ذلك

على أن كثيراً من سكان المدينة كانوا في رغد من العيش والغلال مخزونة عندهم وهم يبالغون في اخفائها ببطن الارض حتى التزمت الحكومة بتفتيش منازلهم ومقاسمتهم الغلال التى توجد عندهم فكانوا يتذمرون من هذه المشاطرة ويبدون الاعذار بكثرة عائلاتهم واضطرارهم الى القوت

هذا وقد اختل نظام الجنود وفر اكثر الجنود ولحقوا بالمهدي وكثير

منهم تمردوا على ضباطهم وألفوا عصابات تعبث في المدينة وتسطوا على باعة الأقوات وتختطف ما يعرضونه للبيع من الاقوات وهذه الاسباب دعت سكان المدينة وسراتها الى الاحتفاظ على ماعندهم من القوت مهما عرض المشترون عليهم من الثمن الباهظ

ذكر سقوط نقطة أم درمان

تقدم لنا ذكر هجوم المهدى عليها وما كان من أمر حصارها

وفي أواخر شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ فقدت حامية أم درمان القوت واشتدت وطأة الحصار عليها فاستدعاني غردون لمرافقته في صبيحة يوم ٢٧ ربيع الاول الى طابية المقرن تجاه نقطة أم درمان للمكالمة مع الحامية بالاشارة فرافقته اليها ومكثنا بضع ساعات نتبادل الاشارة فعلمنا ان الحامية فقدت القوت منذ ثلاثة أسابيع فسألنا قومندانها فرج الله باشا ان يوضح لنا عما اذا كان قادراً على الخروج من الخندق والالحاق بالثلاث بواخر التى استقر الرأى على انفاذها له في الغد فاجاب بانه قادر على ذلك فامره غردون باتلاف كل المثقلات التي يتعذر حملها

ثم عدنا الى سراى الحكمدارية وهناك أخذنا الاهبة لاعداد الثلاث بواخر وأخذت حامية أم درمان في الاهبة وقدر أن ثلاثة من الجنود السود فروا من الخندق ولحقوا بالمهدى وأخبروه ان الحامية ستأتيها البواخر في صباح الغد وتحملها الى الخرطوم فاوصي قواده بالتيقظ لها فوضعوا لها كمينين بين النهر والخندق

وفي صبيحة الغد وصلت البواخر الى شاطىء أم درمان فخرج عليها

الكمينان على غرة وأعملا السيف في رقاب الجنود الذين اضطروا الى العودة الى أم درمان بعد خسارة نحو مائة قتيل وعادت البواخر الى المدينة

وفي منتصف النهار رافقت غردون الى طابية المقرن لمكالمة حامية أم درمان أيضاً فعلمنا ان سبب الفشل هم أولئك الجنود الذين لحقوا بالمهدي فاصدر غردون أمره الى القائد فرج الله باشا ان يسلم الحامية للمهدي فكتب اليه يسأله الامان فاجابه بكتاب صرح فيه بامانه وأمان أركان الحامية ولكن لم يوف به بل عذب الحامية وضربها بالسياط لتدل على ماخبأته من الاموال

وفى اليوم الاخير من شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ الذي ضرب أجلاً للتسليم ركب المهدي فى عدد كبير من فرسانه حتى دنا من الخندق فخرجت اليه الحامية وتقدم الضباط نحوه فترجل لهم عن فرسه وجلس معهم على الارض وقدم لهم شرابا من العسل وعين فرج الله باشا قومندانها قائداً من قواده وضمه الى حمدان ابى عنجه قائد الجهادية وسيأتى ان فرج الله باشا هذا هو الذي قتل نجاشى الاحباش يوحنا يوم واقعة القلابات

وهذا المذكور ضابط أسود كان بحامية فشوده وكان برتبة اليوزباشي فرقاه غردون حتى أبلغه رتبة اللواء وكان ضابطاً لحراسة السراى ولم يكن أمر تسليمه ماساً بامانته ويظهر من فحوى كتاب المهدى الآتي ان فرج الله يعرفه منذ كان بجزيرة « آبا » وعلى كل حال فانه لم يقصر في واجباته ولم يرتكب أمراً يشينه وكما انه خدم الحكومة باخلاص فانه لم يخن الدراويش. وهاهي صورة الكتاب نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد

فمن العبد المفتقر الى الله الواثق بما عند مولاه محمد المهدي بن عبد الله الى أحبابه المكرمين المعظمين وأهل الدراية وهم كبير العسكر وعظيمهم فرج الله وصاحبه عبد النبي ومن انضم اليهم من الاكابر والاصاغر اعلموا وتحققوا أحبابي انى لست قائما هذا المقام الا لدعوة الخلق الى الله وسعادتهم الكبرى ونيل مراتبهم العلية وتنفيرهم عما يضرهم من خسيس فانى اللذات التي تعقب طول الحسرات وقد بلغنى ان المكرم المعظم فرج الله من ضباط أهل فشودة الذين يحبونى سابقا وانا «بابا» من معرفتهم زهدي فى الدنيا وصدق فى الطلب لما عند الله وإرادة الآخرة ودلالتي على الصلاح والفلاح وارشاد العباد الى رضاء الفتاح ليكتسبوا دائم المطلوب من النجاح فلا تظنوا اننا نطلب أموالكم وماملكت أيديكم ان سلمتم لنا وصرتم من أصحابنا فان سلمتم لنافقد حزتم الكرم وصرتم من أحبابنا وأصحابنا الذين بشر ناسيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنهم كأصحابه رضوان الله عليهم وأدنى أصحابي رتبة ينال مقام الشيخ عبد القادر الجيلانى عند الله تعالي وفيما ذكرته كفاية لاهل العناية وأظن انه قد بلغتكم انذاراتي سابقا فلا فائدة فى التطويل فان سلمتم فقد عفوناكم ورضينا عليكم وكنتم من الاصحاب المكرمين الذين لهم عند الله حسن المكانة الابدية فلا تظنوا فينا الا نيلكم منا كل خير فانى المهدي المنتظر خليفة نبيكم صلى الله عليه وسلم فابشروا بالكرامة والفخامة ان سلمتم لي واتبعتموني وليكن معلوما عندكم أحبابى ان من لم يصدقنى ويتبعني يعذب فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وانى موعود بملك جميع الارض وأيتم نصرتي فى حال الضعف والقلة الى ان بلغت هذا المبلغ واجتمعت عندى أسلحة راشد بك وولد الشلالي والهكس والابيض ودارفور وبحر الغزال

وجباخيهم وبشرت انى لو أردت لقبض الله سلاح الترك بحيث ان أصحابي يقتلونهم ولا يقتلون ولكني اخترت توفيقا من الله ان ينال أصحابي الشهادة ويبلون فى الله لينالوا عظيم المكانة عند الله كما في كتاب الله واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما علمتم ولتعتمدوا هذا زيادة كتبت هذا بخطي والسلام الخ

ذكر الاخبار التي تبودلت بين غردون والمهدي

لم يفتأ المهدي يدعو غردون الى التسليم لهُ والخضوع لجبروته وقد عرض عليه جملة اقتراحات منها انه يسمح له ومن معه من المصريين بالنزوح الى مصر وترك الخرطوم على شرط ان لا يحملوا من متاعهم الا ما خف وان يؤدوا أجرة الجمال التى تحملهم الى حدود مصر

واقترح المهدي مرة على غردون ان يسلمه المدينة وفي نظير ذلك يسمح له بالعودة الى بلاده بدون قيد ولا شرط

وكان غردون يرسل الى المهدى الكتب تباعاً فى بعضها الاستهزاء به وفى بعضها يقول له ان حكومة جلالة الملكة تفديه منه بعشرين الف جنيه فرد عليه المهدي بانه يسمح له بالذهاب الى وطنه بغير ان يتناول شيئا من الفداء

وفي بعض الكتب يخبره بتقدم الانكليز لامداده ويؤكد له ان اجتماعه بهم مستحيل وانه موقن بقتلهم وغلبتهم كما حصل لحملتي يوسف باشا الشلالى وهيكس باشا

وكان غردون قد انقطعت عنه أخبار الحملة الانكليزية ولم يكن يعلم بتقدمها نحوه الا من الكتب التي يرسلها له المهدى

وكان عبد القادر بن أم مريوم الذي تقدم لنا خبر خدعته لغردون ولحاقه بالمهدي وصيرورته قائداً من قواده قد أهدر غردون دمه وجعل جائزة لمن يأتيه براسه ثم كتب غردون الى المهدي يقول له ان عبد القادر بن أم مريوم صديقه الحميم وصاحبه القديم وانه يتمنى ان يكون رسول المهدى اليه ليقدم له الخضوع والتسليم ففطن المهدى لهذه الحيلة وخاف ان ينتقم غردون من عبد القادر فصار يعده بارساله ان جنح لمسالمته وهذه صور الكتب نقلا عن كتاب المنشورات

الكتاب الاول

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا هداه الله الى طريق النجاة قبل ان يتلاشا آمين نعلمك ان جوابك رد المحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونه وقد عذرناك في عدم اذعانك واجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لانك لم تدر الحقيقة التى نحن عليها وبحسب مقامنا ودلالتنا الى الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتي من هو مثلك لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا نداوجك عسي الله ان يهديك الى سواء السبيل فاجب داعى الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ماحل ونزل ولازلت تري ولا طاقة لك ولا لاعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وطلبت ارساله لك فعلى م ذا هل أنت منيب الى الله وقصدك التسلم لنا على يد المذكور

أم انت على تصميمك في اعراضك ومعاداتك لربك فافدنا على هذا لنعلم طلبك
له هو على أى الوجهين ونرسله لك ان راينا في ذلك صلاحا للدين واقول لك
ان عزة الاسلام خير لك وابقى لدوام احترامك في الدارين فتحل بها ان عقلت
والسلام ٢١ ربيع الاول سنة ١٣٠٢

الكتاب الثاني

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فمن العبد المفتقر الى الله المعتصم به محمد المهدى بن عبد الله الى الغردون باشا
فسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان اعترضت كان عليك اثمك واثم من
معك فقد اتاني الخبر من الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجردة الآتية لو
لو كان معي ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد تموت أو وحدى
كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد أتاني خبرها
انها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالي والهكس والمديريات الغربية
كلها والبحر الابيض وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله ومادام ان الله
القادر أيدنى بالكرامات وبالنصر فلا يضرنى انكار منكر وانما يضر نفسه
فقط والامر الذي أوعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم جار على
ان الجردة التى تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم من سد الانصار الطرق فان
اسلمت وسلمت فقد عفونا عنك واكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان
أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله وستري والسلام ربيع أول سنة ١٣٠٢
«تحشية» وان طلبت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المرأة الواصلة

اليك وان رأيت التمكين واليقين ان أردت التسليم اكثر من هذا الجواب سنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الأمان فلا مانع وبذا لزمت التحشية

الكتاب الثالث

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . (وبعد) فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى غردون باشا . وقاه الله كل شر لاشا . فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت في أماننا وضماننا . فهو المطلوب وان أردت أن تجتمع على الانكليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك اليهم فالى متى تكذيبنا وقد رأيت مارأيت وقد أخبرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم بهلاك من في الخرطوم قريباً الا من آمن وسلم ينجيه الله ولذلك أحببت لك ان لاتهلك مع الهالكين لانا قد سمعنا مراراً فيك الخير ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ماأجبتنا بكلام يؤدي الى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسي أن ييسر الله هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طال ما كاتبناك لترجع الى وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » والسلام ٢٥ ربيع أول سنة ١٣٠٢ وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته الينا انك قلت ان الانكليز

يريدون ان يفدوك وحدك منا بعشرين الف جنيه ونحن نعلم ان الناس يتقولون من البطال كلاما كثيراً ليس فينا وذلك لصدود من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه الا من اجتمع بنا وأنت ان قبلت نصحنا فبها ونعمت والا ان أردت ان تجتمع على الانكليز فبدون خمسة فضة ترسلك اليهم والسلام فى تاريخه

ذكر فرار الصنجقين عمر والعطا

كانت حالة المدينة وما أصابها من المجاعة مجهولة لدى المهدي لما كان يظهره له غردون من الجلد وكان ضمن جنود الباشبوزق صنجقان يقود كل واحد منهما مائتي جندي من الباشبوزق اسم أحدهما عمر ابراهيم والآخر العطا الدود الشايقي

وفي ذات يوم جاءني الاول وقال ان له قريبا في جيش المهدى ارسل له كتابا قال فيه ان الحملة الانكليزية وصلت الى جهة (ولد البصل) التى تبعد عن الخرطوم بمسيرة مرحلتين جهة الشمال وانه يتحمل مسؤلية عدم صحة هذا النبأ ثم طلب ان تدفع له مرتبات جنوده من صنف الجنيه الذهب خلافا للعادة المتبعة وقتئذ من صرف المرتبات من ورق البون ومن المسكوكات معا فاصدرت الامر بصرف مرتبه ومرتبات جنوده من صنف الجنيه الذهب وكان ذلك نحو أربعمائة جنيه وكذلك أمرت بصرف مرتبات جنود العطا الدود من صنف الذهب أيضاً وبعد قبضهما عادا الى مواقفهما من الاستحكام

وما كاد الظلام يرخي سدوله حتى فرا ولحقا بالمهدي وأوقفاه على حالة المدينة وما تقاسيه حاميتها من وطأة المجاعة وفقدان القوة ثم اعلماه بمكان في طرف

الخندق من جهة النيل الابيض هبطت عنه مياه النهر وهو مملوء بالاوحال تستطيع جنوده ان يدخلوا من هذا المكان وأطلعاه على كل عورات الخندق وارشداه الى الطريق التي يمكنه الدخول منها . وبالجملة فانّ هذين الخائنين هما اللذان شجعا المهدي على محاولة فتح الخرطوم عنوةً ولولاهما لظل محاصراً للخرطوم لا يجسر على الهجوم عليها وأخذها عنوةً

ولما اتصل خبر فرار ذينك الخائنين بغردون استدعى فرج باشا الزيني ووبخه على اختياره هذين الشقيين وشهادته باستقامتهما وبعدهما عن الميل لجهة العدو ثم أمر باجراء تحقيق ظهر منه انهما كانا قد اشتريا من فرج باشا وظيفتيهما ودفعا له ثمناً باهظاً ثم أمر بحفظ الاوراق حتى تسنح الفرصة بمحاكمة هذا القائد وذلك لا يكون طبعاً الا بعد انقاذ الخرطوم

ذكر مادبره غردون لانقاذ الاوربيين

لما سقطت أم درمان وبرّحت المجاعة بحامية الخرطوم استدعي غردون قناصل الدول وأعيان النزلاء الاوربيين الى مجلس عقد بسراياه ثم اتفق الرأى على انتدابي ومعي الاوربيون والقناصل لنبرح الخرطوم على باخرة صغيرة اسمها (محمد علي) ونلحق بخط الاستواء أو بالمتمة لنقابل جنود الانكليز القادمين لانقاذ غردون غير أن أحد القناصل أبدى رأيا قال فيه ان للدراويش طوابي وموانع على البحر الابيض تجعل نجاة الباخرة من مقذوفاتهم مستحيلة وقال ان اللحاق بالمتمة أقرب الى السلامة فوافق الحاضرون على رأيه ثم كتب لي أمراً قال فيه « انه لحبتي اياك واعترافي بخدمك الجليلة التي أديتها لي أرى ان

اكافئك بالنجاة مما وقعت انا فيه ولذلك انتدبتك لمرافقة الاوربيين والقناصل الى المتمة لانني عالم بانني اذا أصبحت أسيرا في أيدى هؤلاء الاشقياء فلا تتركني حكومة جلالة الملكة وانما تقدم القناطير المقنطرة من الذهب فداء لي وأنا أعنى لك النجاة من صميم فؤادي يا عزيزي فوزى لانك اذا وقعت أسيراً في يدهم لا تفديك حكومتك ولو بدراهم قليلة »

وفي يوم الاربعاء ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٠٢ صرفت لي الذخيرة والاسلحة وتسلح الاوربيون وكان هذا التدبير سريا وأذعت بين الناس انهم عينوا بصفة عسس ثم اجتمعنا بمنزل قنصل اليونان نيقولا لوانديدي واجتمع معنا بقية قناصل الدول وأعيان رعاياهم فابدى الكل عدم استحسان هربهم مع بقاء غردون عرضة للخطر وودوا مساعدتي في اكراه غردون وحمله الى الباخرة ولو بالقوة ساعة السفر فاستصوبت رأيهم واتفقت مع حراسه وخدمه على حمله بالاكراه الى الباخرة وقت السفر وقد ضربنا أجلاً لهذا السفر منتصف ليلة السبت ٧ ربيع الثاني

وفي صبيحة يوم الجمعة ٦ ربيع الثاني تفقدت خط النار والقيت التنبيهات ثم عدت الى المحافظة واستدعيت القناصل والقيت عليهم التعليمات ليكونوا هم ورعاياهم على قدم الاستعداد عند منتصف الليل فقالوا نرى ان العدو قد رسخت أقدامه حوالي المدينة وان مدافعه مطلة على كل مضايق النهر واننا نرى ان نتربص هنا نحو ثلاثة أيام ريثما تصل الجنود الانكليزية فذلك خير من محاولتنا القرار الذى لا تكون عاقبة الاقدام عليه مضمونة فلم أقبل منهم هذا القول وأصررت على انفاذ ما قررناه أولاً فذهبوا الى غردون

عليه فاستدعاني وأمرني بالاذعان لما أشاروا به فكان ذلك

ثم أصبحنا يوم السبت ٧ ربيع الثاني والازمة في ازدياد الشدة والحامية قد فقدت كل قوة تدفع بها العدو والى الله مصير كل شيء

ذكر سقوط الخرطوم ومقتل غردون

كانت الحملة الانكليزية قد وصلت الى النيل عند نقطة المتمة وانتصرت على جيوش المهدي في آبار ابي طليح بين دنقله والمتمة كما سيأتي ذكر ذلك في مكانه

ولما وصلت اخبار الحملة الانكليزية وانتصارها على اتباعه الى المهدي كبر عليه الامر واستدعي خواصه الي مجلس عقده للمشاورة فيما ينبغي فعله فذهب فريق الى وجوب زحف المهدي بنفسه على الحملة الانكليزية وقال آخرون بل يترك المهدي حصار الخرطوم ويتقهقر راجعا الي كوردفان فقام ابو قرجة احد الامراء ومعه عبد القادر ساتى علي عم المهدي ورئيس نوابه وقالا ان الانكليز لايقصدون غير الخرطوم وانه اذا بلغ الخرطوم مائة جندي انكليزي صار من المستحيل وقوعها تحت قبضتنا فالاولى بنا ان نحاول اسقاط الخرطوم وفي اسقاطها وقوع اليأس في قلوب الانكليز الذين نتقدم لمحاربتهم بعد ذلك فوقع كلامهما هذا موقع القبول عند المهدي واستحسنه

وشجع المهدي على ذلك ماعلمه من عورات المدينة التي أطلعه عليها الصنجقان عمر ابراهيم والمطا الدود فعقد نيته على اسقاط الخرطوم بالقوة والاقتدار

وفي صبيحة يوم الاحد ٨ ربيع الثاني خرج المهدي من كوخه يحمل على رأسه مقطفا من الخوص مملوءا من الرمل فتبعه الناس حتي انتهى الى ضفة النهر فاحاط به الناس وهو لايكلم احدا منهم واخذ يقبض من الرمل

بيده ويقذفه فى النهر ويرفع صوته قائلا « الله اكبر على الخرطوم » فيجاوبه من حوله بمثل مقالته حتي فرغ مافي المقطف من الرمل فالتفت الى من حوله وقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالهجوم على المدينة في هذه الليلة وان سقوطها فى يده ضربة لازب ثم ركب زورقا واجتاز النهر الى الضفة الشرقية حيث قصد معسكر ابن النجومي

وبعد صلاة العصر ركب جملا واحتشد الناس حوله فأتى على ابن النجومى وقال له ان النبي صلى الله عليه وسلم بشره بالاستيلاء علي الخرطوم فى هذه الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته الى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو في القلب ومعه الفرسان ويكون قائد الميمنة الحاج محمد ابو قرجة ومعه حملة البنادق ويكون قائد الميسرة محمد نوباوى شيخ قبيلة (بني جرار) احدي بطون قبيلة الكبابيش ومعه الاعراب والبقارة المسلحون بالحراب والسيوف وان يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند البرج المعروف باسم (باب المسلمية) وهي مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية ويكون هجوم الميمنة على الخندق مما يلي النيل الازرق جهة (بري) ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلي النيل الابيض عند المكان الذي انحسر عنه ماء النيل وتراكمت عليه الاوحال وصار في الامكان الوصول الى المدينة منه وقد ذكرنا ان الصنجقين الخائنين عمر ابراهيم والعطا الدود الشايقى هما اللذان أطلعا المهدى على حقيقته

وقدم المهدى عمر ابراهيم المذكور الى محمد نوباوي قائد الميسرة بصفة دليل يرشده الى ذلك المكان ودفع اليه شخصاً آخر اسمه بدوى الدنقلاوى وكان كيالاً في الشونة بصفة دليل ثان

وأصدر المهدى الى محمد نوباوي أمراً قال له فيه ما يأتي

«لدى دخولك المدينة يجب ان تقصد سراى غردون على الفور وتبلغه تحيتي ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحداً يعتدي عليه حتى توصله لي سالما بغير ان يصيبه مكروه» وخطب على الجمع قائلا لا يتعرضن منكم أحد الي حياة غردون بسوء لانى أريد أن اقتدى به أحمد عرابي باشا ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الجنان وقال لهم في ختام خطبته احملوا الحشائش لالقائها في الخندق حيث تجتازون عليها وقفل راجعاً الى أم درمان ومعه عبد الله التعايشي وترك الخليفتين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيبا الى أم درمان

وأصدر المهدي أمرا أيضا الي حمدان أبي عنجة قائد جيشه في أم درمان باطلاق القنابل تباعا على المدينة من عصر الاحد ٨ ربيع الثانى الي ظهر يوم الاثنين ٩ من هذا الشهر وان يصوب قنابله الي مضيق البحر لمنع أى باخرة تقصد الجهة الشمالية

وقد اجتاز النهر من أم درمان الي معسكر ابن النجومي نحو مائة الف مقاتل من البقارة ليشتركوا في اسقاط المدينة وكلهم صاروا من مقاتلة الميسرة لانهم مسلحون بالحراب والسيوف

هذا ما كان من أمر المهدى وأما حالة المدينة والحامية فقد أصبحنا يوم الاحد وجو المدينة مكفهر والسماء متلبدة بالغيوم والشمس محجوبة عن العيون والبرد قارس خلافا لعادة الطقس في السودان اذ الجو يكون صحواً والشمس بارزة بأشعتها المحرقة في كل أيام الشتاء وقد عد البسطاء تلبد السماء واحتجاب الغزالة عما ينذر بالمطر في مثل ذلك اليوم كرامة من كرامات المهدى لان

أهالي تلك البلاد لا يمطرون الا صيفاً والجو يكون في غاية الصحو زمن الشتاء عندهم

وقد أثرت برودة الطقس واحتجاب الشمس على قوي الجنود وتركتهم كأنهم صرعى في مواقفهم على الخندق

وكان غردون ومعه قناصل الدول واقفين على سطح السراي ينظرون بالنظارات المعظمة الى كثرة الدراويش الذين يجتازون النهر ويلحقون بمعسكر ابن النجومي وقد استنتجوا من تكوف الناس في صعيد واحد ان المهدي لابد أن يكون في معسكر ابن النجومي ولا بد أن يكون قدومه لشأن ذي بال لانه لم يقدم على معسكر ابن النجومي منذ حل بام درمان

وفي منتصف النهار استدعاني غردون الى السراي وأخبرني بماشاهده مع القناصل من كثرة اجتياز الدراويش للنيل وانضمامهم لمعسكر ابن النجومي ثم قال لي هيا بنا نطوف حول الخندق ونتفقد الجند فرافقته الى الخندق وقضينا أربع ساعات في التطوف حوله وكان يشجع الجنود ويحثهم على المقاومة والثبات ويعدهم بوصول نجدة الانكليز في الغد فلم يلتفت احد لاقواله وكان كل يصرخ في برية أو يطلب من الماء جذوة من النار اذ العساكر كما قلنا صرعى لاحراك لهم فعدنا الى السراي وقد أخذ اليأس منا كل مأخذ واجتمع عنده قناصل الدول لدى عودته وكان الليل قد اقبل ولا تزال السماء متلبدة بغيوم حجبت نور القمر فقال غردون للقناصل لقد رأيتم تجمع العدو واني بتفقدي الحامية وجدت الجنود قد فقدوا كل قوة وشجاعة يقدرون بها على حراسة الاستحكام في هذه الليلة المشؤمة واني موقن بسقوط المدينة قبل أن يسفر الفجر وقد كنت عملت مافي وسعي لانقاذكم من هذا الخطب فتقاعدتم وأبيتم

ليتم ماقضاه الله عليكم والى هذه اللحظة فانى أدعوكم لانفاذ ماتفقنا عليه أولا فهاهى الباخرة فقوموا وسيروا بها ومعكم ابراهيم فوزي كما تقرر قبلا عسى أن يقرن سعيكم بالنجاح وتقابلوا الجنود الانكليزيه أما أنا فانى موقن بعدم لقائهم فأجابوه بأن نجاة الباخرة مستحيلة لان طوابى العدو قد تضاعفت وزاد عددها اضعافاً على الذي رأيناه يوم الجمعة وعلى ذلك فنحن هنا قاعدون والله يفعل مايريد ثم هموا بالانصراف فصافحهم كلهم قائلا انني أبرأ الى الله والعالم أجمع من تبعة أى داهية تلم بكم فقالوا نحن نشهد بما تقول فصافحهم وملامحه تدل على انه لايتوقع لقائهم بعدوشيعهم الى السلاملك وكان يحني رأسه ويحرك شفتيه فكأنه كان يقول « الوداع الاخير أيها السادة »

ولما عاد القناصل استدعانى الى غرفته وقال لي مايأتي

«أنا موقن بوقوع الحادث الاخير على هذه المدينة في هذه الليلة وانى كما علمت لم أدخر شيأ من سعي فى سبيل انقاذها ولكن لاأزال أشعر بتبكيت الضمير الذي يؤلمنى لتركي اهالى هذه المدينة الذين وثقوا بي وحاربوا معي عرضة لانتقام المهدى ولو لم أكن طول حياتي اطلب رضاء الله في كل أعمالى لانتحرت تخلصاً من وخز الضمير لكن الانتحار ينافي التفويض والتوكل على الله الفاعل لكل شيء ويوجب غضبه سبحانه وتعالى » وقد كنت خلال هذا الحديث أنظر الى وجهه فلم أر غير الثبات كأنه متوقع وقوع حادث جلل

وقد لمحت فى غضون محادثته ان صدره متجيش بالعبرات التي لم تكن من جزع أو جبن بل هى كما قال من تبكيت الضمير وفي الختام ودعنى مشيعا الي السلم خلافا لعادته المألوفة معي وقال عليك بحراسة البلدة بمن معك من الاوربيين وانى أعلم ان ذلك لايجدي نفعاولكن نقوم بواجبنا لآخر لحظة

والله يفعل ما يشاء ثم قال لي اني سأصعد الى سطح السراى لانى أشعر بانقباض فقلت له ان البرد قارس جداً فقال ليس عليّ بأس منه فودعته حوالي الساعة الخامسة من الليل وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من جهة الخندق ومن جهة أم درمان

وكانت الالعاب النارية تطلق حوالي السراي تسكينا لخواطر السكان وارهابا للعدو ولما خرجت من السراى قصدت دار المحافظة واجتمعت بالعسس الاوروبي وتجولت معهم فى المدينة وحوالي الجبه خانه ثم عينت لهم مواقفهم وأبقيت معي ثلاثين جنديا من المصريين وقصدت دار المحافظة أواخر الساعة العاشرة فالقيت بها اشعارات فهمت منها ان لدى الحامية أخباراً بان العدو على وشك الهجوم على المدينة فشرعت في تدوينها وكانت الساعة اذ ذاك احدى عشرة ولم أفرغ منها حتى سمعت ضوضاء الدراويش قد دخلوا من جهة النيل الابيض فجمعت الثلاثين جنديا الذين كانوا معي وأدركنا فى الطريق ثمانية من اليونانيين من العسس الاوروبى وقصدنا سراى غردون فبلغناها والفجر قد ظهر ولم نكد ندنو منها حتي أبصرنا نحو عشرة آلاف من العدو محيطين بها فتقهقرنا راجعين الى دار المحافظة وما بلغناها الا بعد اللتيا والتي وهناك قعد الجنود في النوافذ وصوبوا البنادق على كل من اقترب منا حتى منتصف النهار حيث أحاط بنا العدو واسلمناه أنفسنا وسيأتي ذكر معاملته لى ولسائر سكان المدينة

هذا وقد كان زحف العدو على المدينة كما شرحناه وكان القائد فرج باشا واقفاً عند باب المسلمية ولما أحس بدخول الميسرة على الخندق مما يلى البحر الابيض أمر بفتح باب المسلمية حيث فر منه بعد ان تنكر بملابس جندى ومعه القائمقام سرور بهجت وسنعود الى ذكر قتلهما

ولما دخل محمد نوباوى المدينة قصد بكل مقاتلته سراى غردون وكانوا زهاء مائة الف مقاتل فاطل غردون من النافذة ونظر اليهم ثم قال لحراسه لاتبدوا معارضة لاى أحد يريد الوصول اليّ وإياكم ان تبدوا أقل دفاع ثم تقلد كسوة التشريفة الصغرى التي هي ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشاً وضع عليه رداءً حريريا (كوفية) وربطه بعقال كزىّ الاعراب فدخل عليه محمد نوباوي وجماعة من مقاتلته فوجدوه جالساً على كرسيه ممسكا بيده منديلا أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له اين أموالك يا غردون يا كافر فتبسم ضاحكا وقال له أين (محمد احمد) يقصد المهدي فابتدره الرجل بطعنة في صدره خر منها صريعاً على الارض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد الحواس من هذه الضربة

ونقل لي أحد الحاضرين انه سمع واحداً من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له لاتقتله بل أبقه كما أمر المهدي فاجابه القائد محمد نوباوى بقوله ان الخليفة التعايشى أمر بقتله وكان صوته خافتا حين نطق بهذه العبارة ثم سحبوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتي قيل انه كان يتبسم وهو مسحوب على وجهه ثم انزلوه الى حوش السراي وهناك قطعوا رأسه وارسلوها الي الخليفة محمد شريف الذي كان وقتئذ في جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدى فركب الباخرة اسماعيلية وأوصل رأس غردون الى المهدي الذي انكر قتله وصاح قائلا لما ذا قتلتموه ألم أنهكم عن قتله فقال له التعايشي ان قتله خير من استحيائه فبدت على المهدى علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل الى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ النساء والصبيان يرجمونها بالحجارة

ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعاً صغيرة

وبلغ عدد القتلى من سكان الخرطوم يومئذ أربعة وعشرين ألف رجل وثلاث نسوة وسنذكر معاملة المهدي لاهالي الخرطوم وانتقامه منهم بمصادرة الاموال وهتك الاعراض بعد هذه المذبحة وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون

﴿ انتهى الجزء الاول من كتاب السودان بين يدى كتشنر وغردون ﴾

« ويليه الجزء الثاني وأوله قيام دولة المهدى في السودان »

﴿ كل نسخة من هذا الكتاب تكون مختومة بختم المؤلف الذى هو هذا ﴾